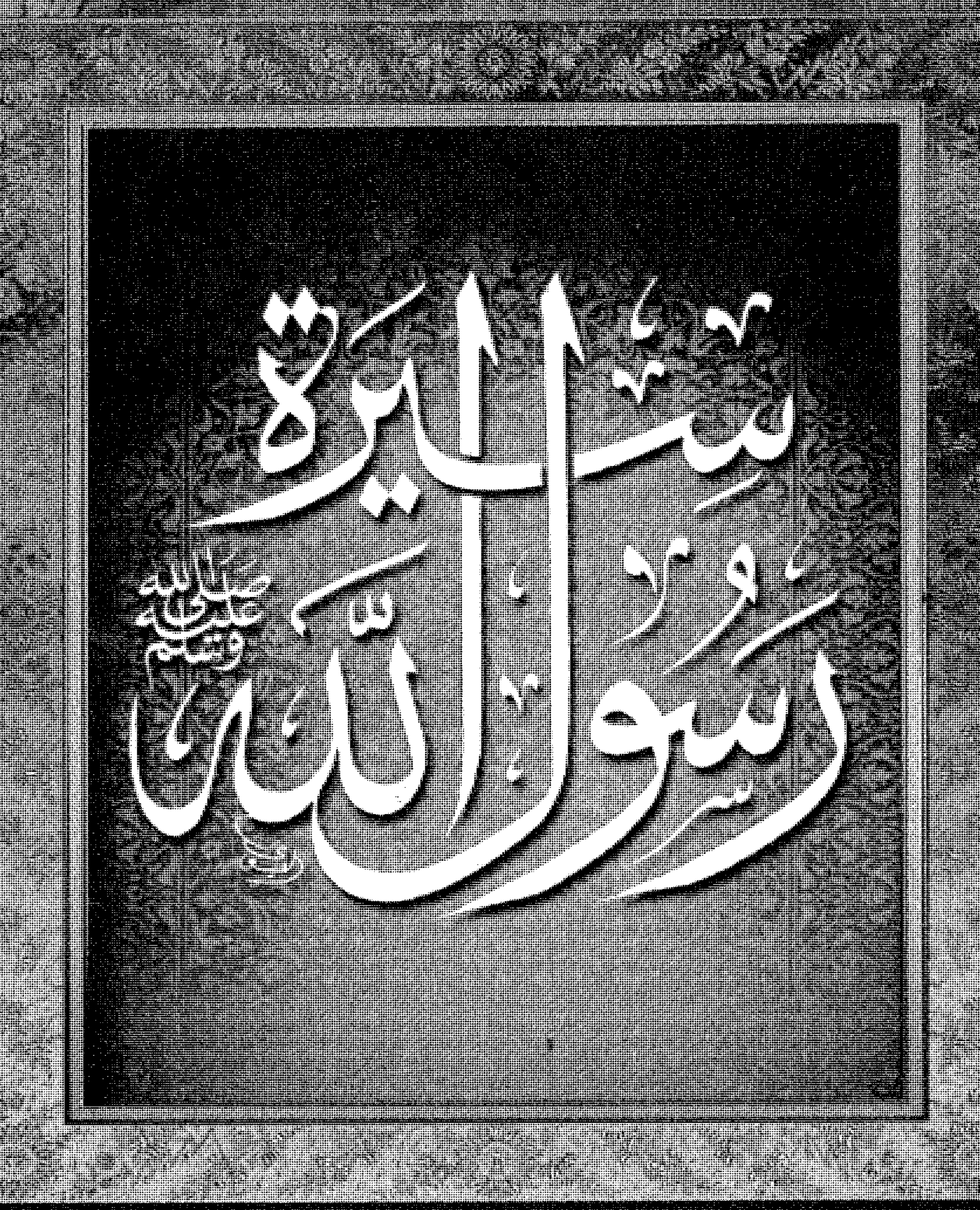


د. محمود علي مراد

سيرة رسول الله ﷺ

(لابن إسحاق / ابن هشام)

الفترة المكية

تحليل نقدى للنص

بقلم

د . محمود على مراد

●

دار الهلال

الغلاف للفنان

محمد ابو طالب

إهـــــداء..

إلى أرواح الأعزاء الثلاثة :

الطبيب الدكتور زكى على (المهاجر فى سويسرا)

سليمان على السيد ــ الإسكندرية

أحمد طه على حسن (المهاجر فى كندا)

الذين اختارهم الله إلى جواره ، الواحد بعد الآخر، عام ١٩٩٩م.

تصدير

هذا الكتـاب هو - مع تعديلات طفـيـفة - ترجـمة لرسـالة علميـة نُوقشت فى جامعة السوربون الجديدة بباريس فى ٢٩ سبتمبر ١٩٩٧ ، لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ.

وقد استُقيت مـادة السيرة هنا مباشرة من سيـرة ابن إسحاق ولم تنقل من الترجمة الفرنسية الواردة بالرسالة.

تمهيـــد

كان المفـروض، بداية، أن يتناول بحثى هـذا ما كتب بأقـلام الكتّاب العرب المعاصـرين عن سيرة رسول الله محمـد ﷺ ، غير أنى لاحظت، منذ المراحل الأولى فى بحثى، عددا من السمات التى بدت لى غريبة فى عشرات كتب السيرة التى رجعت إليها، وبخاصة:

أ) قلة مادة حديث الفـترة المكية إذا ما قورنت بحديث الـفترة المدنية، رغم أن الفترة الأولى كانت أطول أمدا من الفترة الثانية، وأن ما نزل من القرآن الكريم فى مكة، من حيث الكم، أضخم بكثير (حوالى الثلثين أو الثلاثة أرباع) مما نزل منه فى المدينة.

ب) كون الـرسول ﷺ يُقدَّم لـلقارىء، فى الفـترة المكيـة، أكثـر ما يُقدَّم، على أنه رجل محمى أو ينشد الحماية، على الرغم من أنه كان، ولابد، بفضل الهيبة التى أضفاها عليه القرآن، ذا هامة تعلو كثيرا هامات جميع رؤساء مكة والجزيرة العربية.

جـ) ضـآلة الحيّـز المخصص، سـواء فى الفـترة المكيـة أو فى الفـترة المدنية، لحالات اعتناق الإسلام والاضـطهاد، على الرغم من كون هاتين الظاهرتين تشكلان ركنا أساسيا لسيرة كل نبى.

د) عدم وجـود أية بيـانات، فى الفتـرة المكية، عـن انتشـار الإسلام خارج حـدود مكة والمدينة، علمـا بأن مكة، باعـتبارها عـاصمة ديـنية وتجارية لشـبه الجزيرة العـربية كلها، كـانت، كل عام، ملتقى عـشرات الآلاف من الحجـاج، وأن دعوة محمد ﷺ لابـد أن تكون قد أدت إلى هداية بعضهم إلى الإسلام.

هـ) حديث الجزء الأكـبر من الفترة المدنية ينصـرف إلى غزوات النبى ﷺ ، على الرغم من أن القتال لـم يكن، ولاشك، يمثل إلا واحدة من المسـائل التى كـانت تشـغل الرسول، وأن فـقرات الـقرآن الكريـم التى انصبّت على القـتال لا تشكل إلا جانبا صغيـرا من القرآن الذى نزل فى الفترة المذكورة.

وقد أقنعنى مـا لمسته من تشابه بيـن كتب السيرة المختلـفة بشأن هذه السمـات أن مؤلفيـها استمـدوا معلوماتـهم من ذات المصادر المخصـصة للسيرة. ولم يقـتض بى الأمر جهدا كبيرا لأكتـشف أن أولى مصادرهم هى السيرة القديمة التى تحمل اسم ابن هشام، الذى راجعها واختصرها، والتى كان مؤلفها هو ابن إسحاق.

وبعد أن قمتُ بفحص هذه السيرة وجدتُ أنها بالفعل هى الأصل فى معظم السمـات التى استوقفتنـى فيما أُلف فى العصـر الحديث من كتب السيرة النبوية.

ولكى أقف علـى ردود المؤلفين الذين تـوقعت أن يكونوا قـد درسوا هذه السيرة علـى ملحوظاتى وأية ملحوظات أخرى تـكون قد عنّت لهم بصددها بحثت عن دراسات نقدية لهذا العـمل فى المكتبة العربية، وكان يخيل إلـىَّ أن عملا بهـذه الأهمية كـتبت عنه، بلاشك، خـلال القرون الاثنى عشر التى انقضت منذ ظهوره، دراسات لا تحصى من هذا النوع، وكم كانت دهشتى حـين أَلْفَيت أن كتابا نقديا واحدا لم يـكتب بالعربية عن هذه السيرة، وأن كل مـا هو موجود من نقد بشأنهـا هى ملحوظات سريعة فى جمل أو فقرات قليلة فى مـقدمات طبعات كتب السيرة أو فى دراسات نادرة تناولت مصادر سيرة الرسول ﷺ .

وقد وجه النقد إلى ابن إسحاق فى بعض الجوانب من سيرته، فأُخذ عليه مثلا كونه لا يوثق بعض الأشعار التى يوردها أو أنه يصنع الشعر ويضعه فى كتابه، وأنه لا يذكرْ سلسلة الإسناد فى بعض رواياته، مكتفيا بأن يقول: «فيما بلغنى» أو «كما ذُكِرَ لى» أو «فيما يزعمون» أو «حَدَّثنى من لا أتّهم»، وأنه لم يكن يمارس، بالنسبة لبعض المعلومات التى يوردها، حدا أدنى من نقد المصادر التى اعتمد عليها، وأنه كان لا يتحرَّج من قبول معلومات خاطئة أو غير واقعية هى أقرب إلى الخيال الأدبى منها إلى التاريخ. ولاحظ البعض أيضا تحامله على بنى أمية. وقد أبديت هذه الملحوظات معظم الوقت فى عبارات عامة لا تستند إلى أمثلة. ولم تكن نزاهته وحسن نيته أبدا موضع شك. ولئن قيل إن الإمام مالك، أحد أئمة المذاهب الأربعة المعتمدة فى الإسلام، وغيره من العلماء، لم يثقوا فى روايته، واتهموه بالدَّجَل، فهناك دائما من يبادر إلى تبرئة ساحته باستخدام الحُجج التى ساقها الخطيب البغدادى، وابن سيِّد الناس، وفندوا بها، الواحد تلو الآخر، المطاعن التى وجهت إليه، والتذكير بأن علماء كالزُّهْرى كانوا يولونه ثقتهم الكاملة، وأن أئمة المُحَدِّثين كالبخارى وأبو داود والترمذى والنَّسائى وابن ماجه شهدوا له واستشهدوا به فى مصنفاتهم فى بعض مسائل الحديث.

وهناك اتفاق بين الجميع على أن له القِدْح المُعَلَّى فيما يتعلق بمغازى الرسول ﷺ، وأنه كان حجة فى هذا الباب، والمصدر الذى اغترف منه كل من تحدَّث عن غزوات الرسول فى عصره أو بعد عصره، خلا الواقدى (١٣٠ - ٢٠٧ هـ / ٧٤٧ - ٨٢٣م) مؤلف تاريخ المغازى، وكاتبه ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ - ٨٤٥ م) صاحب كتاب «الطبقات»، وهو قاموس لتراجم الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين.

وفيما عدا هذه التحفظات القليلة، كان ابن إسحاق موضعا لثناء جم، بل فى إمكانى القول إنه ما من كتاب ظفر فى العالم العربى والإسلامى بالنجاح مثلما ظفرت به سيرته للنبى ﷺ منذ ظهورها فى منتصف القرن الثانى الهجرى. وما من كتاب ككتاب ابن إسحاق ذاك كان موضع التعليق والشرح والتبسيط والاختصار، وما من كتاب ككتابه نظم شعرا وتوفَّر الناس على قراءته ورجعوا إليه وأُعيد طبعه مرات ومرات. فهو يعد تراثا عربيا اشتهر خلال القرون الاثنى عشر التى انقضت منذ ظهوره.

وخلال كل هذه القرون الاثنى عشر كان الناس ينظرون إلى الرسول ﷺ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، إن جاز لى هذا التشبيه، بنظارة إحدى عدستيها القرآن الكريم والأخرى سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام.

لكن حدث عام ١٩٤٨ أن مؤلفا - هو الأستاذ محمد عزة دَرْوَزة - لاحظ أن «العدسة» غير القرآنية تشوه صورة الرسول، وأن هناك بونا شاسعا بين هذه العدسة والعدسة القرآنية. وقد ألف دروزة كتابا أشبه بالسيرة النبوية اعتمد فى الجانب الأكبر منه على القرآن الكريم. لكنه، هو الآخر، لم ينقد سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام نقدا متعمقا، واكتفى بأن ذكر فى مقدمة كتابه «أن الروايات والآثار المتعلقة بالسيرة ظلت تحتفظ بها الصدور وتتناقلها الأفواه مدى غير قصير ربما زاد على القرن من بعد وفاة النبى ﷺ،وأنه من المعقول الذى يؤيده الواقع أن يكون قد طرأ على كثير منها زيادة ونقص وتبديل وتغيير، كما أن منها ما يمكن أن يكون قد لُفّق تلفيقا ونُحِل نَحْلا، وأن منها ما يتناقض مع النصوص والقرائن والملهمات القرآنية»، وقال إن ذلك كله يدعو إلى الشك فى صحتها ومصداقيتها.

كما لاحظ دروزة أيضا أن سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد الكبرى، وهما أقدم ما وصل إلينا من كتب السيرة، ربما كانا أوثق ما فى أيدى الباحثين وأكثره دقة واحتياطا، وأنهم مع ذلك يستطيعون أن يروا فى كل فصل من فصولهما دليلا يؤيد ما يقوله بشكل من الأشكال.

ويضيف دروزة عن ابن هشام خاصة أنه «استشهد على كثير مما نقله من حوادث، أو دَوَّنَه من وقائع، أو أورده من روايات، بالآيات القرآنية، يوردها كسبب للنزول، ويشرح الحوادث . . غير أن تلك الآيات لم تكن كل شواهده فيما نقل وروى ودوَّن، كما أن فى بعض المواقف التى يستشهد فيها بآيات القرآن ما يوحى بأنه كان يقصد التوفيق، وفى بعضها ما يسمح بالتوقف فى أخذ تلك الآيات دليلا على الحادثة أو الرواية وشاهدا صحيحا عليها».(*)

هذا هو الوضع فيما يتعلق بنقد سيرة ابن هشام باللغة العربية، فى الوقت الحاضر. فكيف يمكن تفسير هذا القصور؟.

إن الأساتذة المحققين الثلاثة: مصطفى السقا، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وإبراهيم الإبيارى، مدير إدارة إحياء التراث القديم، وعبدالحفيظ شلبى، مدير المكتبات الفرعية بدار الكتب المصرية، الذين قاموا على نشر ما نعتبرها أفضل طبعة محققة لكتاب ابن إسحاق صدرت حتى الآن، يفسرون هذا القصور بأن النظر إلى «السيرة»، شأنها فى ذلك شأن تراث السالفين كله، لاسيما ما يتصل منه بعلم السير وغزوات الرسول ﷺ، نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الذى حال دون نقدها.

(*) الأرجح أن دروزة يعنى هنا ابن إسحاق كاتب سيرة اس هشام التى أشار إليها فى الفقرة السابقة.

ويلاحظ هؤلاء الأساتذة المحققون أن هذا ليس معناه أن كُتّاب «السيرة» المحدثين يقبلون كل ما يجدونه فى كتب التراث على علاته، لكنهم يفضلون أن يستبعدوا المعلومات التى لا يؤمنون بصحتها، دون أن يأتوا على مواضع الضعف منها، ولا يقفون إلا عند ما يبدو لهم صحيحا.

ورأى آخر يقول إن فى الإمكان تفسير هذه الظاهرة بالمحبة والتوقير اللذين يكنهما المسلمون لنبيهم واللذين يجعلانهم على استعداد لتقبل ما يتعلق به ﷺ من معلومات ما دامت لا تنطوى على إساءة إليه.

ويمكن إضافة تعليل ثالث إلى هذين التعليلين هو خشية المسلمين من أن يترتب على الإسراف فى نقد «السيرة»، فى أجزائها الأساسية، هدم لتاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ بدايات الإسلام.

أما فى الغرب فقد خضعت كتب السيرة القديمة، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر لنقد المستشرقين وأبرز بعضهم فيها سمات عديدة، لا سيما: تأثرها بالتراث اليهودى والمسيحى، وأن كتب السيرة لا تصور، فى الروايات المتعلقة بإسلام الرعيل الأول من المسلمين، ما حدث بالفعل، وإنما تصور استباقا لوضع متأخر بكثير للعناصر الواردة فى السير، وأن تاريخ بدايات الإسلام قد عدّل وأضفى عليه طابع مثالى تمجيدا لأسر وشخصيات لعبت أدوارا مهمة فى تاريخ الإمبراطورية العربية، وأن «السيرة» ما هى إلا مجموعة من «الأحاديث» تسرد حكايات لا تختلف طريقة تكوينها، فى كثير، عن طريقة تكوين «الأحاديث» النبوية التى تقرر أحكاما فقهية لا ينطوى النص فيها على سرد تاريخى بقدر ما ينطوى على صياغة فقهية أو مسألة جدلية، وأن كل ما يروى فيها عن ظروف الحال والواقع وكل تفصيل يقال إنه تاريخى

إنما هو تفسير ذاتى لهذه الآية القرآنية أو تلك لُفّق تلفيقا بقصد إعلاء قدر الرسول أو للتدليل على صحة مقولة دينية أو سياسية معينة، وأن إجلال المسلمين لنبيهم أدى إلى نشوء أسطورة ذات طابع «هاجيوغرافى» (أى ما يكتب عن القديسين لإبرازهم فى أجمل صورة)، نجد فيها بعض الذكريات التاريخية المشوهة إلى حد كبير أو صغير، إلى جانب بعض الأحداث العرضية المنقولة عن التراث الدينى اليهودى والمسيحى، وأن علم التفسير فى مدارس المحدّثين بالمدينة كان يحلو له، لدى وصف تاريخ الفترة المكية، أن يكتشف فى بعض فقرات القرآن إشارات إلى أحداث محددة وقعت فى حياة الرسول. على أن هناك إقرارا لدى المستشرقين بأن مشكلة النقد التاريخى للسيرة لم تُحَل بصورة نهائية وأنها لا تزال بعيدة عن الحل حتى الآن.

اعتبارات عامة إذن عن سيرة ابن إسحاق/ابن هشام وعن غيرها، لكن ما من كتاب أفرد لها بالكامل سوى كتاب ج فوك J.Fuck الذى صدر فى فرانكفورت/ مين عام ١٩٢٥(*).

ما العمل أمام مثل هذا الموقف؟ هل أستمر فى الاهتمام بكتب السيرة النبوية التى ظهرت فى العصر الحديث دون توضيح مشكلة النقاط الخمس الأساسية التى صادفتنى، أم أتغلب على الحواجز الفكرية وأغامر بولوج هذه الأرض المجهولة، أى - بعبارة أخرى - آخذ على عاتقى مهمة القيام بتحليل نقدى متعمق للسيرة موضوع هذا البحث؟

ترددت طويلا قبل الإقدام على هذه المخاطرة، وكان التحدى مخيفا، لكننى وجدت من شجعنى على قبوله، وقد قبلته!

(*) هذا الكتاب. الذى أتيح لى أن أحصل على نسخة منه بعد تقديم الرسالة، هو فى الواقع دراسة مكتوبة بخط اليد تقع فى ٤٦ صفحة عن محمد بن إسحاق، وليس فيه تحليل نقدى للسيرة التى كتبها.

وقد اعتمدت فى بحثى هذا على الطبعة الثانية لسيرة رسول الله ﷺ بعنوان **«السيرة النبوية لابن هشام»** الصادرة عن دار مصطفى البابى الحلبى للنشر عام ١٩٥٥م فى قسمين: القسم الأول يشمل الجزءين الأول والثانى، والقسم الثانى يضم الجزءين الثالث والرابع، والتى قام بتحقيقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها الأساتذة:

مصطفى السقَّا، وابراهيم الإبيارى، وعبدالحفيظ شلبى.

وسيرة ابن هشام تُرجمت إلى الألمانية والإنجليزية، لكنها لم تترجم بعد إلى الفرنسية. وقد ترجمت فى هذا البحث، مع الاختصار، تحت عنوان «النص»، أجزاءها التى تناولتها بالتحليل والتعليق.

وفيما يتعلق بالاستشهادات القرآنية اخترت لعملى ترجمة «ريجى بلاشير» الصادرة عام ١٩٨٠ عن دار ج.ب ميزونيف ولاروز للنشر بباريس.

وعلى الرغم من أن هذه الترجمة ليست أحدث ترجمات القرآن، إلا أنه كان فيها بالنسبة لى ميزة هى أنها تمت فى إطار دراسة متعمقة للقرآن الكريم أسفرت عن تأليف كتاب قيم بعنوان «مقدمة القرآن»، وترتيب لآيات القرآن حسب أوقات نزولها. وأفادتنى أيضا فى عملى ملحوظات الأستاذ بلاشير الواردة فى الفصل الأول من كتابه «مشكلة محمد»، وعنوانه: «المصادر والمواد التكميلية: المشكلة الزمنية».

وقد ذكرت فى الببليوغرافيا المرفقة بيانات عن بعض المصنفات العربية التى تعالج مصادر السيرة، وبعض كتب السيرة التى وردت فى مقدماتها آراء عن مشكلة المصادر.

وأخيرا فإن الإشارة إلى مواد «دائرة المعارف الإسلامية» فى الببليوغرافيا تعطى بدورها فكرة عن حالة البحوث الراهنة فى السيرة النبوية والموضوعات والشخصيات الرئيسية التى تناولها هذا العمل.

المقدمة

أولا

إحدى الطرق الممكنة لتحليل سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام تحليلا نقديا هى فحص كل ما ورد فى هذه السيرة لمعرفة ما إذا كانت سلسلة الرواه التى ذكرت فيها سليمة، وما إذا كانت الأحاديث الصحيحة أو غيرها من المصادر تؤكد ما أورده ابن إسحاق/ فى سيرته من أخبار وموضوعات ، ولكن هذا لم يكن النهج الذى اخترته. ذلك أن قراءاتى الأولى للسيرة أقنعتنى بأنه من المناسب أن يعلو بحثى هذا درجة وأن أحاول معرفة ما إذا كانت هذه السيرة ترجمة حقيقية للرسول صلى الله عليه وسلم، وما إذا كانت تصور التاريخ الحقيقى لشخصه وعمله.

ومن جهة أخرى فإننى، بعد أن كان فى نيتى، فى البداية، دراسة هذه السيرة بأكملها، وجدت، كلما قطعت شوطا فى بحثى هذا، أن مثل هذا المشروع ضخم للغاية وأن من الصواب أن يقتصر بحثى على دراسة الفترة المكية.

وقد استخدمت فى عملى وثيقة، كما استخدمت معلومات عن المؤلف والمصادر التى كانت متاحة له وعن الإطار التاريخى الذى أعدَّ فيه كتابه.

والوثيقة التى استخدمتها هى القرآن الكريم. إنه الوثيقة الوحيدة التى رجع إليها المؤلف. وعلى الرغم من أن الآيات التى تضمنت إشارة إلى أحداث معينة قليلة فى هذا الكتاب، إلا أنه يوفر للباحث ميزتين: كونه معاصرا للرسول عليه الصلاة والسلام، وكونه يشكل أساس رسالته.

وقد خيل إلىَّ حين نظرتُ إلى مجموع السور التى أنزلت خلال فترات معينة، أن فيها عناصر تسمح بالتحقق من صحة بعض ما ورد فى نص ابن إسحاق من مواد.

والمعلومات التى انتهت إلينا عن ابن إسحاق جد قليلة. لقد ولد فى المدينة فى حوالى سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م)، وتوفى فى بغداد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٣ هـ (٧٦٧م و٧٧٠م). وقد أسر خالد بن الوليد جَدَّه سنة ١٢ هـ (٦٣٤م) فى عين التمر وهى بلدة عراقية صغيرة كان ملك الفرس حبسه فيها. وأرسله خالد مع غيره من الأسرى إلى المدينة وبيع فيها كرقيق إلى قَيْس بن مَخْرمة بن المطَّلِب بن عبد مناف. وأعتقه سيده حين أسلم. وأنجب ابنه إسحاق (والد محمد صاحب السيرة) فى حوالى عام ٥٠ هـ (٦٧٠م)، من أم كانت هى الأخرى جارية أعتقت. وكان إسحاق وأخوه موسى مُحدِّثين معروفين.

وصاحب مؤلفنا ابن إسحاق الجيل الثانى من مُحَدِّثى المدينة، لاسيما الزُّهْرى، وعاصم بن عمر بن قَتَادة، وعبدالله بن أبى بكر. ورحل ابن إسحاق فى سن الثلاثين إلى مصر وتردد فيها على مُحدِّثى هذا البلد، ثم عاد مرة أخرى إلى المدينة فى تاريخ غير معروف ورحل بعدها إلى العراق. وفى العراق أقام فى الكوفة والجزيرة على نهر دجلة، وفى الرَّى، والحيرة ، وبغداد.

وقد كلفه الخليفة المنصور بتأليف كتاب عن تاريخ العالم منذ آدم لابنه المهدى. وحين قَدَّمَ ابن إسحاق كتابه إلى الخليفة وجده مطولا فطلب منه أن يختصره. وقام ابن إسحاق باختصار الكتاب وقدمه إلى الخليفة فأضافه إلى مكتبته.

وقد توفى مؤلفنا ودفن فى بغداد.

وكان ابن إسحاق مُحَدِّثًا ومُؤَرِّخا اختلفت حوله الآراء. ويروى عن الزُّهْرى أنه قال: إن العلم باق فى المدينة ما بقى فيها ابن إسحاق، وقد استقى منه أخبار غزوات النبى صلى الله عليه وسلم. أما الإمام مالك فكان لا يحسن الظن بابن إسحاق واتهمه بالتشيع.

وقد علق ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م) على سيرة ابن إسحاق واختصرها ونقد بعض ما ورد فيها.

ماذا كانت المصادر التى رجع إليها ابن إسحاق فى كتابة سيرته غير القرآن؟

تنحصر هذه المصادر فى ثلاثة أنواع:

- الأحاديث النبوية بشأن أمور قالها الرسول عليه الصلاة والسلام أو فعلها أو أقرها.
- أشعار.
- الأخبار المتداولة فى عصره.

أ) وفيما يتعلق بالأحاديث قال البخارى، المحدّث الكبير (المتوفى عام ٨٧٠م) إنه وجد ٦٠٠,٠٠٠ حديث، منها ٤٠٠٠ لا أكثر بدت له صحيحة. وقال آخر من كبار المحدِّثين هو أبو داود (المتوفى عام ٨٨٨م) أنه وجد ٥٠٠,٠٠٠ حديث لم يصدّق منها سوى ٤٨٠٠ حديث. وبلغ من كثرة الأحاديث الموضوعة أن الأحاديث الصحيحة كانت تبدو بينها كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود على قول الدارقُطْنَى.

لماذا كثر الوضع فى الحديث؟

أُرجعت هذه الظاهرة إلى أسباب عديدة، منها : الخلافات السياسية والفقهية، والتقرب للخلفاء، والعصبية للجنس والقبيلة واللغة والبلد،

ورغبة الرواة والقصاص ومن تولوا مهمة الوعظ فى استمالة وجه العوام إليهم بتقديم حكايات عجيبة. . . إلخ. وكان كل فريق يحاول بوضع الأحاديث أن يجعل الرسول ﷺ إلى جانبه. كذلك قام أعداء الإسلام بوضع الأحاديث للإساءة إلى هذا الدين.

وقد اختفى كثير من الأحاديث الموضوعة منذ أن نشرت فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة كتب السنة المحتوية على الأحاديث التى صحّت عند كبار المحدثين، لكن عددا من الأحاديث الموضوعة لا يزال باقيا. ومن أمثلة الوضع فيما يتعلق بمسألة الخلافة، ما يلى:

- أن النبى ﷺ ،أثناء رجوعه من حجة الوداع، أمسك يد علىّ رضى الله عنه ووقف به أمام جميع صحابته وقال: «هذا وصيى وأخى والخليفة من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا».

- «إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه».

- «الأمناء ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية».

- «أنت منى يا معاوية وأنا منك».

- «العباس وصيى ووارثى».

- «إذا كانت سنة خمس وثلاثين ومائة فهى لك ولولدك، السفاح والمنصور والمهدى».

- «ما فى الجنة شجرة إلا مكتوب على كل ورقة منها لا إلـه إلا الله محمد رسول الله، أبوبكر الصديق، عمر الفاروق، وعثمان ذو النورين».

ومن أمثلة الأحاديث الموضوعة لعصبية الجنس واللغة والبلد:

- «إن الله إذا غضب أنزل الوحى بالعربية وإذا رضى أنزل الوحى بالفارسية».

- «إن الله إذا غضب أنزل الوحى بالفارسية وإذا رضى أنزل الوحى بالعربية».

وقد أدَّى بعض هذه الأحاديث الموضوعة، التى كانت تتناقلها الألسن، إلى خلق حالة من البلبلة والاضطراب فى النفوس بلغ من خطرها أن أمر الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ - ٧٢٠م) بجمع الأحاديث وتدوينها، وأرسل إلى ولاة الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم ذلك، لكن هذا المشروع لم يقيض له أن يتم إلا بعد قرن من الزمان فى خلافة الخليفة العباسى المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م)، بعد نصف قرن من وفاة ابن إسحاق. وقد أنجزت الخطوة التالية، التى تقوم على التوثق من هذه المجموعة الضخمة من الأحاديث وتقسيمها وتمييزها من حيث صحتها، فى القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ب) لم يبذل مثل هذا الجهد للتأكد من صحة قصائد الشعر التى تنسب إلى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد رجع ابن هشام، للتحقق من صحة الأشعار التى أوردها ابن إسحاق فى كتابه، إلى أهل العلم بالشعر، دون أن يذكر أسماءهم. واكتشف هؤلاء أن بعض تلك القصائد أو أبياتا منها لم ينظمها مَنْ نسبت إليهم، لكن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الوسائل التى كانت متاحة لهم لم تكن تسمح لهم باكتشاف كل القصائد المنتحلة.

جـ) أما عشرات - أو مئات - ألوف الأخبار والحكايات التى كانت تتناقلها الأفواه عن الرسول عليه الصلاة والسلام وعن أصحابه وخصومه، وعمن لعبوا دورا فى الأحداث أو المواقف التى كان على

مؤلفنا أن يستخدمها، فإن وسائل التحقيق والنقد لم تكن تسمح على الإطلاق، بعد أكثر من قرن بعد وفاة الرسول، بفرزها وبذل أدنى قدر من المراجعة للحكم على صحتها.

.. ونظرا إلى أن اسم عمر بن الخطاب سيرد كثيرا فى هذا البحث فمما لا يخلو من طرافة أن نورد هنا قصة من القصص التى كانت تروى بشأنه فى زمن ابن إسحاق: أرسل عمر المدعو قنفذا إلى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فضربها بالسوط. وضغطها عمر من ناحيته بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه! وجعل عمر فى عنق زوجها علىّ حبلا يقاد به، وفاطمة خلفه تصرخ، وابناه الحسن والحسين يبكيان.

والسؤال الأخير الذى أردت أن أجلو به عملى هو السؤال الآتى:

. هل كانت الحقبة التى عاش فيها المؤلف ملائمة لاكتشاف الحقيقة فيما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام بصورة موضوعية؟

للإجابة عن هذا السؤال كان علىّ أن استعرض الأحداث والاتجاهات الكبرى التى سجلها تاريخ الإسلام منذ وفاة الرسول عليه الصلاة السلام فى سنة ٦٣٢م إلى وفاة المؤلف فى سنة ٧٦٩م. وفيما يلى لمحة سريعة عن هذه الأحداث والاتجاهات:

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام انقسم المسلمون بشأن اختيار خليفته. وكان العباس، عم الرسول، وعلىّ، ابن عمه وزوج ابنته، يريان أن أولى الناس بالخلافة هو شخص من قبيلته أى من بنى هاشم. واجتمع الأنصار، من جهتهم، فى سقيفة بنى ساعدة ،حول سعد بن عُبادة وأرادوا أن يكون سعد هو الخليفة. وكانوا على استعداد، إن اقتضى الأمر، لاقتسام السلطة مع المهاجرين. وأخيرا وقع الاختيار على أبى بكر، بناء على اقتراح من عمر، ليكون خليفة للمسلمين.

وبعد انتخاب الخليفة بقليل أعلنت جماعات من العرب فى أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية خروجهم على الخلافة وارتدادهم عن الإسلام فسيّر الخليفة إليهم جيوشا قضت على حركاتهم. ثم سيّر أبوبكر جيوشا إلى خارج الجزيرة استمرت فتوحاتها تحت خلافة عمر (١٣- ٢٣هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م) وعثمان (٢٣- ٣٥هـ/ ٦٤٤- ٦٥٦م).

وقد اغتيل عمر وعثمان، وكان الذى اغتال عمر عبد فارسى. أما عثمان فقد اغتيل بيد ثوار قدموا من مصر ومن عدة مدن عراقية. وبعد موت عثمان بويع علىّ خليفة (٣٥ - ٤٠ هـ/ ٦٥٦ - ٦٦١م) إلا أن نفرا من المسلمين- لا سيما معاوية بن أبى سفيان والى الشام من قِبَل عمر- والزبير، أحد أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام، اعترضوا على هذه البيعة. وذهب الزبير، الذى كان يطمع فى الخلافة، مع واحد من مؤيديه هو طلحة، إلى مكة، وانضم إليهما فيها ولاة الأمصار من قبل عثمان، الذين عزلهم علىّ، وبعض اتباعهم، ثم نقلوا مركز حركتهم التمردية إلى العراق.

وفى سنة ٦٥٧م، أى بعد أقل من ربع قرن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت الخصومات والعداء بين المسلمين مُحْتدمة بدرجة أدت إلى نشوب معركة بين علىّ وخصومه فى جنوب العراق استمرت سبعة أيام حضرتها عائشة فى معسكر الزبير. وقتل فى هذه المعركة من الجانبين المتحاربين عشرة آلاف مسلم (وهو عدد جيش الرسول عليه الصلاة والسلام عند فتح مكة فى عام ٦٣٠م).

وبعد أن انتصر علىٌّ على طَلْحَة والزُّبَيْر سار إلى معاوية. ونشبت معركة بين الجيشين فى صِفِّين وانتصر علىٌّ فى البداية، لكن معاوية طلب التحكيم. وقبل علىّ ذلك رغم احتجاج بعض المتحاربين فى

صفه. واتفق الحكمان على خلع طرفى النزاع، علىّ ومعاوية. وأعلن ممثل علىّ فى التحكيم هذا القرار، إلا أن عمرو بن العاص، ممثل معاوية فى التحكيم، أعلن أن الخليفة هو معاوية.

ورفض علىٌّ هذه الخدعة، لكن خروج جانب من جيشه وانشقاقهم وتكوينهم حزبا مستقلا، هم الخوارج، معارضا للعلويين ولبنى أمية جميعا، واضطرار علىّ لمحاربتهم، فضلا عن عداء أنصار الزبير القدامى فى العراق، كانت عوامل أضعفت مركز علىّ.

أما معاوية فقد كان، على النقيض، يستند إلى جيش موحد وإلى بلد، هو الشام، استطاع أن يحظى بولائه بفضل سياسته الحكيمة ودبلوماسيته وحسن إدارته.

وقتل الخوارج عَلِيّا فى المسجد الممتلىء بالمصلين عام ٤٠ هـ (٦٦١م)، لكن شيعته واصلوا الكفاح تحت قيادة ابنه الحسين بعد تخلى ابنه الحسن عن الخلافة وموته.

وكان معظم الخلفاء الثلاثة عشر الذين أعقبوا معاوية حكاما غير أَكْفَاء أو متهالكين على اللذات. وكان عنفهم متزايدا فى قمع حركات التمرد التى تنجت فى مختلف ولايات الإمبراطورية عن الظلم والضرائب الباهظة، وعن التمييز الذى كان من ضحاياه المسلمون من غير العرب أى الموالى. ذلك أن الخلفاء كانوا يعتبرون هؤلاء الموالى مسلمين فى مرتبة أقل من مرتبة المسلمين العرب وكانوا يحرمونهم، فى الجيش وفى الحياة المدنية، من بعض الحقوق التى كان يتمتع بها العرب إخوانهم فى الدين.

على أنه كان هناك عامل آخر أدى إلى إضعاف الخلفاء الأمويين وهو الخصومات فى معسكرهم ذاته بين أعوانهم من العرب ممن يسمون بالقيسيين المضريين، الذين كانت قبائلهم تعيش فى شمال الجزيرة

العربية، ومن يسمون باليمنيين، الذين كانت قبائلهم تعيش فى جنوبها. وكانت أهواء الخلفاء الأمويين مع هؤلاء تارة ومع أولئك تارة، ولم يراع هؤلاء الخلفاء مبدأ التوازن فى معاملتهم لهاتين للمجموعتين من القبائل.

ولم يكن أهل الحجاز فى المدينة وفى مكة بمأمن من اضطهاد الأمويين. وقد سير هؤلاء إليهم قوات مسلحة مرتين للقضاء على الثورات التى كان يؤججها خصومهم ممن كانوا لا يعترفون بشرعية حكمهم أو التى كانت تنشأ عن ظلم الولاة المعينين من قبل دمشق وعن سوء إدارتهم: مرة فى عهد يزيد بن معاوية، فى سنة ٦٣ هـ (٦٨٣م)، ومرة أخرى فى عهد عبدالملك بن مروان الذى أرسل إليهم «رَجُلَه القوى»، الحجاج بن يوسف الثقفى، وعينه حاكما على الحجاز خلال الفترة من ٦٩٢ إلى ٦٩٥م. وكان تنكيل بنى أمية بخصومهم شنيعا، ولقى عديد من أبناء صحابة رسول الله حتفهم أو لحقهم الإذلال على أيديهم، كما قذفت جيوش الخلافة الكعبة، بيت الله الحرام، بالمجانيق مرتين.

كذلك عانى الشيعة فى العراق من اضطهاد الأمويين. وفى مساجد جميع ولايات الإمبراطورية كان الأئمة، عملا بالتعليمات الصادرة إليهم، يلعنون عليا وذويه فى خطبة الجمعة. وقد قُتل الحسين بن على حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم غدرا فى كربلاء هو وذووه، فى خلافة يزيد، وأثارت هذه المذبحة مشاعر الناس واستهجانهم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وأتاحت للمذهب الشيعى، الذى كان حتى ذلك الوقت وقفا على العرب، أن ينتشر، لاسيما فى بلاد فارس.

وبلغ عدم الاستقرار ذروته فى خلافة آخر الخلفاء الأمويين، مروان ابن محمد (٧٤٤ - ٧٤٩م) الذى قتل سلفه للاستيلاء على السلطة، وصلبه وقتل من مالأه. كما بلغ من حدة الخلافات بين قبائل الشمال

وقبائل الجنوب أن أعلن بعضها الثورة المسلحة على الدولة فى كل ولايات الشام والعراق. وفى هذا البلد الأخير كانت الحالة قد تدهورت إلى أقصى حد، فقد سار الخوارج بقيادة رئيسهم الضحّاك بن قيس، الذى كان يسعى للخلافة، إلى الموصل، لكن قوات الخليفة هزمتهم فى معركة كبرى. على أن ثورة الخوارج تلتها بقليل ثورة مسلحة فى خراسان الواقعة شرق بلاد الفرس، كانت جذوتها تضطرم بين الأهالى منذ وقت طويل.

واستغل آل هاشم مشاعر العداء ضد الأمويين التى اجتاحت موجاتها معظم الأقطار فعقدوا مؤتمرا ضم أقطاب العلويين والعباسيين لمناقشة الوسائل التى يمكن أن تؤدى إلى القضاء على النظام الأموى القائم واتفقوا على تعيين الشخص الذى سيتولى الخلافة متى نجحت جهودهم وهو محمد المعروف بالنفس الزكية، حفيد علىّ. وبذل زعيم خراسانى، هو أبو مسلم، جهودا كبيرة لإنجاح المخطط الهاشمى، ولم يدخر وسعا لإذكاء نيران الفتنة بين الموالى ضد الأمويين، وتدفق مؤيدوه من كل جانب على خراسان، والتف تحت رايته مائة ألف من الموالى. كذلك تمكن أبومسلم من بذر بذور الشقاق بين أنصار بنى أمية المقيمين فى خراسان ومن استمالة «اليمنية» أعداء الأمويين فى ذلك الإقليم، واستولى على مدينة «مرو» عاصمة خراسان وقتل رؤساء القبائل الذين كانوا يعارضونه.

وفى هذه الأثناء عمل العباسيون على إقصاء العلويين من السعى إلى السلطة، واختاروا الكوفة مركزا لحركتهم، وسار أبوالعباس بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الكوفة ومعه كبار بنى هاشم من ولد العباس. وبعد سنتين هزمت قواتهم جيش قائد الكوفة الأموى.

وأخيرا، فى عام ١٣٢هـ (٧٥٠م)، بايع أشياع العباسيين أبا العباس «السفاح» بالخلافة ورُفع علم العباسيين الأسود على حصون دمشق، وكان رفعه إعلانا بسقوط الخلافة الأموية نهائيا. وسارت الجيوش الموالية للعباسيين بعد ذلك من خراسان إلى العراق واستولت على مدنها الكبرى الواحدة تلو الأخرى. وتقهقر الخليفة الأموى مروان بن محمد منهزما فى جيش منقسم على نفسه. وعهد أبوالعباس إلى عمه عبدالله بتعقبه فحارب مروان فى عدة معارك خسرها مروان فاضطر إلى الفرار بفلول جيشه إلى الأردن وفلسطين، ثم إلى مصر، وأخيرا قتل فى مصر فى بلدة تقع بين مصر العليا ومصر السفلى، وأُرسل رأسه إلى الخليفة العباسى فى الكوفة.

وفى صبيحة اليوم التالى لخلافته، خطب أبوالعباس، أول الخلفاء العباسيين، خطبته الأولى فى مسجد الكوفة. وأشاد فى هذه الخطبة بآل محمد وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب وظلم، وأثنى على أهل الكوفة لولائهم لبيت العباس وقال: «وبنا هدى الله الناس»، كما قال إن ذويه كانوا الوسيلة التى انتقم الله بها من بنى أمية: «انتقم منهم بأيدينا»، وأنه تعالى رد الى العباسيين حقهم: «ورد علينا حقنا».

وطبق أبوالعباس سياسة التنكيل بالأمويين دون هوادة. ووقعت، بناء على تعليماته، مذابح عديدة ضدهم فى الكوفة وفلسطين وفي مكة والمدينة. ونبش قبور معاوية وابنه يزيد وعبدالملك بن مروان، ومثّل بجثثهم وأحرقها وضرب جثة الخليفة هشام بن عبدالملك بالسياط وذراها فى الهواء. وصودرت كل أموال الأمويين.

ولم يكتف هذا الخليفة باضطهاد أعدائه ،بل انقلب بعد ذلك على كبار القوم والقواد الذين تبَّنوا قضية العباسيين وساعدوهم على تولى الحكم. وكانت هذه سمة من سمات خلافته سار عليها الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعده. كما كان من سمات خلافته الأخرى الثقة التى أولاها والمزايا التى منحها للفرس، مفضلا إياهم على العرب.

وأوغرت قسوة هذا الخليفة وسفكه للدماء وغدره وتفضيله للفرس على العرب ضده قلوب الناس فى عديد من ولايات الخلافة، لاسيما فى بلاد الشام والجزيرة وعُمان وفى السند وخراسان. وشبت اضطرابات وقلاقل لكنه أخمدها بيد من حديد.

وبعد وفاة أبى العباس فى سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤م) تولى الخلافة بعده أخوه المنصور. واهتم هذا الخليفة بتقوية دعائم الدولة وجمع بين يديه جميع مقاليد السلطة، وأضفى على الخلافة طابعا قدسيا فأشاع أنه يحكم بتفويض من الله. وكان التخلص من عمِّه عبدالله إحدى أولوياته، وكان هذا العم قد تلقى من أبى العباس وعدا بأن يتبوأ الخلافة بعده إذا نجح فى دحر آخر الخلفاء الأمويين. وحين علم - أى عبدالله - بأن المنصور اغتصب منه الخلافة رفض مقابلته واتجه بجيشه إلى الجزيرة فى العراق، فأوفد إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى على رأس جيش تغلب عليه، ثم دبرالمنصور قتله بعد ذلك. وفى العام التالى جاء الدور على أبى مسلم الذى كان المنصور يخشى من نفوذه فى الامبراطورية على نفسه. وبدأ الخليفة بأن عزل أبا مسلم من منصبه كوال لخراسان وعينه واليا على مصر والشام، فرفض ذلك أبومسلم، لكنه رأى بعد فترة أن ينهى سوء التفاهم بينه وبين المنصور فطلب مقابلته. وأحسن المنصور استقباله ثم أبدى رغبته فى رؤيته إذا كان الغد. وحين دخل أبو مسلم خيمة الخليفة

فى اليوم التالى أوسعه الخليفة توبيخا وتقريعا ثم أومأ إلى حراسه بإشارة فضربوه بالسيوف حتى لقى مصرعه. كان هذا فى سنة ٧٥٥م. وتم بهذا قتل رجلين كانا من دعائم الخلافة كما كانا من أخلص الأعوان للعباسيين. وانقض المنصور بعد ذلك على منافسيه من العلويين فقتل محمدا النفس الزكية الذى كان بنو هاشم قد وعدوه بالخلافة، ثم قتل أخاه إبراهيم الذى كان يطالب بالخلافة بعد موت أخيه.

هذا هو الخليفة أبو جعفر المنصور الذى تقول كتب التاريخ إنه كلف مؤلفنا بتأليف كتاب عن تاريخ العالم وسيرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

فهل كان باستطاعة ابن إسحاق أو أى مؤرخ غيره أن يكتب سيرة للرسول فى هذه الفترة على أساس الحقيقة التاريخية وحدها؟ هل كان فى إمكان أحد أن يصور الرسول عليه الصلاة والسلام بصورة تختلف عن تلك التى كان يراه بها الخليفة؟ هل كان بمقدور مؤلف من المؤلفين أن يشكك فيما قاله السفّاح فى خطبته الأولى بالكوفة ويقول - على سبيل المثال - إن من هَدَى الله بهم الناس ليسوا بنى هاشم وإنما نبيه وقرآنه، وأن شيئا فى القرآن الكريم لا يسمح للعباسيين بادعاء الخلافة لأنفسهم، وأن أحد مبادىء الإسلام الكبرى هو إلغاء الأفضلية القبلية لا سيما وأن الخليفة لم يشر فى خطبته أية إشارة إلى تأييد ما أو حماية ما تلقاهما الرسول عليه الصلاة والسلام من قبيلته، ولا إلى أية مقاطعة قررتها قريش ضدها، وأن ثلاثة لا غير من بنى هاشم أسلموا طوال الفترة المكية، وأن أحد هؤلاء الثلاثة، وهو جعفر، نفته قبيلته، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام، الذى زوّج اثنتين من بناته لعثمان، وهو من بنى أميّة، كما تزوج من نساء ينتمين إلى قبائل عديدة، بل ومن

يهودية، كان فى حالة قطيعة كاملة مع العقلية القبلية؟ أكان باستطاعته، مستمسكا بسلسلة إسناد قوية، أن يقول إن بنى هاشم كانوا ضالعين مع قبائل قريش الأخرى فى العداء للمسلمين؟

هذه هى التساؤلات التى عنَّت لى بصدد سيرة ابن إسحاق / ابن هشام. وكانت الإجابة التى خُيِّلَ إلىَّ أننى قرأتها عنها بوضوح فى صفحات التاريخ الإسلامى منذ وفاة الرسول حتى بداية خلافة المنصور إجابة سلبية.

إن كتابة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كتابة موضوعية فى العصور الأولى من الخلافة العباسية كانت - بالتأكيد - غير ممكنة، وليس فى الأمر غرابة فإن من الأمور المطردة فى التاريخ أن نظم الحكم التى تتولى زمام الأمور بعد صراعات طاحنة على السلطة أودت بأرواح عشرات الألوف، والتى تقوم على أنقاض نظم باغية كانت لعشرات السنين تضطهد خصومها وتنكل بهم وتفرض أفكارها الخاصة على الناس، تضيق ذرعا بحرية الرأى.

إن الحاكم الجديد يعمد بكل الوسائل، بعد انتصاره العسكرى، إلى تشويه سمعة العدو المغلوب وتصويره على أنه شيطان وتقديم نفسه على أنه المنقذ وصاحب الحق القانونى الوحيد.

وفى مثل هذه الظروف فإن شدة اضطرام المشاعر وكثرة المخاطر التى تهدد استمرار النظام الجديد لا تفسح مجالا للموضوعية التاريخية متى تعلق الأمر بإرساء الأسس الفكرية التى يريد النظام أن يبنى عليها مشروعيته.

ولما كان الأساس الفكرى للخلافة العباسية أساسا قبليا فقد كان الأمر يوجب إظهار الرسول عليه الصلاة والسلام بصفة مستمرة فى إطاره

القبلـى. كان لابد من تصويـره عليه الصلاة والـسلام على نحو يـسمح دائما بإقامة تواز بينه وبين الخليفـة العباسى، وبين عصره صلى الله عليه وسلم وعصر هذا الخليفة.

كان من الضـرورى إذن على من يكتب سـيرة الرسول عليـه الصلاة والسلام أن يصف محمدا لا كما يراه هو، أو كما تراه مصادره، بل كما يراه الخليفة. وإن لم يفعل اعتبرته السلطة عَدُوا للنظام ومنعت نشر كتابه أو قامت بإعدام هذا الكتاب، بل إن المؤلف ذاته كان معرَّضا لدفع حياته أو حريته ثمنا لجرأته.

غير أن ابن إسحاق لم يكن لديه مـا يخشـاه من هذه الناحيـة. ولئن صح ما قيل عنه من أنـه كان شيعيا فى المدينة، فقـد كانت لديه بالقطع دوافعه الشخصية وبواعثه المتعلقة بالقومية نظرا لأصله الفارسى.

والحاصل أن الأمور تغيرت، فـالأمويون الذين شَبَّ تحت حكمهم لم يعودوا سادة العالـم. كذلك فإن العرب، فى ظل الخلافة العـباسية، لم يعودوا موضع الـرضا والإعزاز. أما الفرس، الذين كـانوا محل الازدراء فى ظل الخلفـاء الثلاثة الأول وتحت حكـم الأمويين، فقـد غدوا وزراء ومسـتشاريـن وأعوانا مقـربين للنظام الجـديد. وهو نفسـه، محـمد بن إسحاق بن يسار، أصبح باب الخليفة مفتوحا له يدخل منه متى شاء.

وإذا كان الخليفة قـد آثره على غيره من علماء مملكتـه واختاره ليكتب تاريخ الرسول فذلك لأنه كان يثق فى شخصـه وفى ولائه للعباسيين ثقة كاملة، ويالـه من شرف لحفيـد رجل وامرأة من الأرقاء الذين أعـتقوا!، وأى انتقـام لذكرى جده الذى أسـر وهو طفل على يد خالد بـن الوليد تحت خلافة أبى بكر!

ولما كان ابن إسحاق، من جهة أخرى، قد ولد ونشأ فى المدينة، فإنه لم يكن باستطاعته أن ينظر الى قريش وأهل مكة إلا من خلال آراء مواطنيه المسبقة.

ونظرا إلى أن عصره كان عصر الفتوح التى جعلت حدود العالم الإسلامى تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسى وأسبانيا، وإلى أن انتصار العباسيين على الأمويين كان انتصارا عسكريا فقد كان من المستغرب ألا تسود النظرةُ العسكرية الوصف الذى يصف به نصه حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وعمله.

ثانيا

لا تنقسم سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام إلى فصول. إنها خليط من الحكايات القصيرة والمعلومات والأشعار والاقتباسات القرآنية. حقيقة فيها عناوين تشير إلى الموضوعات والعناصر المروية، لكن المادة التى يعالجها النص كثيرا ما تتجاوز العنوان الذى اندرجت تحته. ومن السمات التى أطراها دارسو هذه السيرة أن الأحداث قد جُمِّعت فيها حسب ترتيبها الزمنى. وقد استفدت من هذه السمة فى دراستى هذه إذ أنها سمحت لى بتقسيم الحقبة المكية، التى تمتد من بدء بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام فى عام ٦٠٩م حتى الهجرة إلى المدينة عام ٦٢٢م، إلى خمس فترات متميزة:

- فترة أولى يذكر النص إنها كانت فترة استخفاء، ومدتها ثلاث سنوات.

- فترة تالية لفترة الاستخفاء لم يحدد النص مدتها، جهر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام - فيما يقول النص - بدعوته متفاديا نقد قريش ومعتقداتها.

- فترة ثالثة تنتهى بموت أبى طالب عم الرسول عليه الصلاة والسلام.

- فترة رابعة، مدتها سنة، يقول النص إن الرسول عليه الصلاة والسلام اتصل خلالها بثقيف (فى الطائف) وبحُجاج قبائل غير مكية ممن كانوا يفدون إلى مكة.

- فترة خامسة تبدأ بلقاء فى العقبة بين الرسول عليه الصلاة والسلام ومجموعة تتكون من ستة من أهل المدينة، وتنتهى، بعد سنتين من اللقاء، بهجرة المسلمين والرسول إلى المدينة.

وقد جعلت من هذه الفترات أساس عملى. ولم أر أنه من المفيد تخصيص فصل لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام قبل البعثة، فإن المادة الواردة عن هذه الفترة جدّ قليلة. كذلك فَضَّلْتُ ألا أتعرض لمعجزة الإسراء والمعراج التى حدثت فى نهاية الفترة الثالثة، إذ أن ما ورد بشأنها فى النص لا يكاد يتعدى شرح طبيعة هذه الرحلة والعالم الغيبى الذى تكشَّف للرسول خلال فترتها القصيرة.

وقد سرت فى هذه الدراسة على قاعدة عدم التعرض لعنصر ما وراء الطبيعة فى «السيرة» إلا بالقدر الذى يبدو لى التعرض له مفيدا أو ضروريا.

هذا وقد خَصَّصْتُ الفصل الأول من هذه الدراسة لعبدالمطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام الذى أضفى النص عليه من الأهمية، وأفرد له من المساحة، ما لم يضفه أو يفرده لشخصية أخرى خلال الفترة المكية بأكملها.

الفصل الأول
عبدالمُطَّلِب
ألف - النص

تُستَخلص الصورة التى يعطيها النص عن عبدالمطلب، جد الرسول ﷺ، وسيد القبيلة التى يقول النص إنها أيدت الرسول ﷺ وحمته خلال الجزء الأكبر من الفترة المكية، من حديث أبرهة، وزمزم، والفداء، ومن بعض الأشعار.

١- أبْرَهَة (١)

شنّ أَبْرَهَة، حاكم اليمن الحبشى، حملة عسكرية ضد مكة. وحين اقترب من هذه المدينة فى جيش ضخم وفيل، استولى أحد قواده على ما وجده من جمال فى طريقه ومنها مائتا بعير لعبدالمطلب بن هاشم. وبعث أبرهة حُنَاطة الحميرىّ إلى مكة وقال له: سَل عن سيِّد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إن الملِك يقول لك: إنى لم آتِ لحربكم، إنما جئت لِهَدْم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لى بدمائكم، فإن هو لم يُرِدْ حَرْبى فأْتنى به. فلما دخل حُناطةُ مكةَ، سأل عن سيِّد قريش وشريفها، فقيل له: عبدُ المطلب ابن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبدالمطلب: والله ما نريد حربَه، وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يَمْنَعْه منه فهو بيتُه وحرمه، وإن يُخَلِّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دَفْع

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الطبعة الثانية، القاهرة، مصطفى البابى الحلبى، ١٩٥٥، القسم الأول ، ص ٤٧ - ٥٥ .

وسيشار إلى هذا الكتاب فى الهوامش التالية باسم «السيرة».

عنه، فقال له حُناطة: فانطلق معى إليه. فانطلق معه عبدالمطلب، ومعه بعض بَنيه حتى أتى العسكر.

وكان عبدالمطلب أوسمَ الناس وأجملَهم وأعظمهم، فلما رآه أبرهة أجَلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته وكره أن تراه الحبشةُ يجلس معه على سرير مُلكه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له : حاجتك؟ فقال: حاجتى أن يَرُدَّ علىَّ المَلِكُ مئتى بَعير أصابها لى، فقال أبرهة: أتُكلِّمنى فى مئتى بعير أصبتُها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تُكَلِّمنى فيه! قال له عبدالمطلب: إنى أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع منى. قال: أنت وذاك. وردَ أبرهة على عبدالمطلب الإبل التى أصاب له.

وانصرف عبدالمطلب إلى قريش، ثم قام فأخذ بِحَلْقة باب الكعبة، وقام معه نَفَر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بِحَلْقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يمْنَع رَحْلَه فامنع حِلالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهم ومِحالُهُمْ غَدْوًا مِحالَكْ

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فِيلَه وعَبَّى جيشه، وكان اسم الفيل محمودا، وأبرهة مُجمِع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجَّهوا الفيلَ إلى مكة، أقبل نُفَيل بن حَبيب حتى قام إلى جَنْب الفيل، ثم أخذ بأذُنه، فقال : ابرُكْ محمود، أو ارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه. فبرك الفيلُ. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا فى رأسه بالطَّبَرْزين (وهو آلة معقفة

من حديد) ليقـوم فأبى، فأدخلوا مَحاجن (والمحجن عصـا معوجَّه) لهم في أسفل بطنه فَبزغـوه بها (أى أدموه) ليقوم فأبى، فـوجَّهوه راجعا إلى اليمن، فقام يهرول، ووجَّهـوه إلى الشام فَفَعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المشـرق فَفَعل مثـل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فَبَرك، فـأرسل الله تعـالى عليهم طيرا من البحر أمثالَ الخطاطيف والبَلَسان (ضَرْبان من الطير)، مع كل طائر منهـا ثلاثة أحجار يحـملها: حجـر فى مِنقاره، وحـجران فى رجليـه، أمـثـال الحـمَّص والعَدس، لا تُصـيـب منهم أحـدا إلا هلك، وخرجوا هاربـين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا، يتـساقطون ويهلكون بكل مَهْلك، وأُصيب أبرهة فى جسده، وخرجـوا به معهم تسقط أنامله أُنْمُلَةً أُنمُلَةً كلما سـقطت أُنمُلَةٌ أتبعتهـا منه مِدَّة تَمُتُّ قَيْحًا ودَمًا، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

فلما بعث الله تعالى محمدا ﷺ قال تبارك وتعالى فى ذلك:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ ﴾ [الفيل: ١ - ٥]

وقال تعالى:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾

[قريش: ١ - ٤]

٢- زمـزم [1]

ظَمِىء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السـلام وهو صغير، فالتمست له أمه ماء فلم تجده، . فقامت إلى الصَّفا تدعو الله وتستغيثه لإسماعيل، ثم أتت المرْوَة فـفعلت مثل ذلـك. وبعث اللهُ تعالى جـبريل عليـه السلام، فَهَمـزله بِعَقِبِه فى الأرض، فظهـر الماء. وسمـعت أمـه أصوات السِّبـاع فخافتْهـا عليه، فجاءت تشتد نحوه، فـوجدته يفحص بيده عن الماء من تحت خده ويشرب [2].

ودفنت زمزم بعد ذلك ومر على دفنها وقت طويل.

قال عبدالمطلب: إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آتٍ فـقال: احفر طيبة. قلت: وما طيبـة؟ ثم ذهب عنى. فلما كان الغد رجعتُ إلى مـضجعى فَنِمْتُ فيـه، فجـاءنى فقال: احـفر بَرّة، قال: ومـا بَرّة؟ قال: ثم ذهب عنى، فلما كان الغـد رجعتُ إلى مَضْجَعِي فَنِمْتُ فيه، فجـاءنى فقال: احفر المَضْنُونة فقلتُ: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عنى. فلما كان الغد رجعتُ الـى مَضْجَعِي فَنمتُ فيـه، فجاءنى فـقال: احـفر زمـزم؟ قال: قلت: وما زمزم. قال: لا تَنْزِف أبدا ولا تُذَمّ. تسـقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفَرْث والدم، عند نُقْرة الغراب الأعْصم، عند قرية النَّمل.

فلمـا بُيِّنَ له شأنهـا، ودُلَّ على موضـعهـا، وعَرَف أنه صُدِق، غَدَا بمِعْوله ومعه ابنهُ الحارث بن عبدالمطلب، فحفَر فيها. فلما بدا لعبدالمطلب الطَّى (أى الحجـارة) كَبَّر فعرفتْ قريـش أنه أدرك حاجتَه ، فقامـوا إليه فقالوا: يا عبدالمطلب، انها بئرُ أبينا إسـماعيل، وإن لنا فيها حقًا فأشْرِكْنا معك فيها، قال: فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم، أُحاكمكم إليه، قالوا:

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٤٢ ـ ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

كاهنة بنى سعد هُذَيم، وكانت بأشراف الشام. فركب عبدُ المطلب ومعه نَفَر من بنى أبِيه من بنى عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نَفَر. فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض المَفاوز بين الحجاز والشام، فَنِى ماءُ عبدالمطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقَوْا مَنْ معهم من قبائل قريش، فأبَوْا عليه.

فلما رأى عبدالمطلب ما صنع القومُ وما يتخوَّف على نفسه وأصحابه، قال: أرى أن يَحْفِر كلُّ رجل منكم حُفْرَتَه لنفسه بما بكم الآن من القُوَّة، فكلَّما مات رجل دفعه أصحابُه فى حُفْرته ثم واروْه حتى يكون آخركُم رجلا واحدا، فضَيْعة رجل واحد أيسر من ضَيْعة ركب جميعا، فقام كُلُّ واحد منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا. ثم قال عبدالمطلب لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت، لا نَضْرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا، لَعَجْزٌ، فعسى الله أن يَرْزقنا ماءً ببعض البلاد، ارتحَلوا فارتحلوا. حتى اذا فرغوا ، ومَنْ معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدَّم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها. فلما انبعثت به ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبَّر عبدالمطلب وكبَّر أصحابه، ثم نزلَ فشرِبَ وشَرِب أصحابهُ واستَقَوْا حتى ملأوا أسْقِيَتَهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هَلُمَّ إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقُوا، فجاءوا فَشرِبوا واستَقَوْا. ثم قالوا: قد والله قُضِى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا، إن الذى سقاك هذا الماءَ بهذه الفَلاة لهو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سِقايتك راشدا. فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة. وحُدِّث عن عبدالمطلب أنه قيل له حين أُمِر بحَفْر زمزم:

ثم ادْعُ بالماء الرِّوى غير الكَدِرْ يَسْقِى حَجيج اللهِ فى كل مَبَرّْ

ليس يُخاف منه شىء ما عَمَرْ

فخرج عبدالمطلب، حين قيل له ذلك، إلى قريش، فقال: تعلَّموا أنى قد أُمرْت أن أحْفِر لكم زمزم، فقالوا: فهل بُيِّن لك أين هى؟ قال: لا، قالوا: فارجع إلى مَضْجَعكَ الذى رأيتَ فيـه ما رأيتَ، فإن يَكُ حقًّا من الله يُبيَّن لك، وإن يَكُ من الشـيطان فلن يعود إليك. فرجع عـبدالمطلب إلى مضجعـه فنام فيه، فأتى فقيل له: احفر زمـزم، إنك إن حفرتها لم تندم، وهـى تراث من أبيك الأعـظم، لا تنزف أبدا ولا تُذَمّ، تـسـقى الحجيج الأعظم، مثل نَعام حـافل لم يُقْسَم، يَنْذِر فيها ناذرٌ لُمنعم، يكون مـيراثا وعَقْدا مُحْكَم، ليـستْ كـبعض مـا قـد تعلم، وهى بين الفَرْث والدم.

وحين قيل له ذلك، قال: وأين هى؟ قيل له: عند قرية النَّمل، حيث ينقرُ الغراب غدا.

فعدا عبدالمطلب ومعه ابنهُ الحارث، وليس له يومئذ ولدٌ غيره، فوجد قـرية النَّمل، ووجـد الغـراب ينقـرُ عندها بين الوثَنَيْن: إسـاف ونائلة، اللذين كانت قريـش تنْحر عندهما ذبائحها. فـجاء بالمعول وقام ليـحفر حيث أُمر، فـقامت إليه قريش حين رأوا جِدّه، فـقالوا: والله لا نتركك تحـفر بين وثَنَيْنا هذيـن اللذين ننحر عـندهما، فـقال عـبـدالمطلب لابنه الحارث: ذُدْ عنى حتى أحفِر، فوالله لأمْضِيَنّ لمـا أُمرت به. فلما عرفوا أنه غيـرُ نازع (نزع عن الأمر إذا كف وانتـهى)، خلَّوا بينه وبين الحَفْر، وكفُّوا عـنه، فلم يحفِر إلا يسـيرا، حـتي بدا له الطَّى (الحجـارة) فكبَّر وعرفـوا أنه صُدِق. فلما تمادى به الحـفرُ وجـد فيهـا غَزالين من ذهب، ووجد فيهـا أسيافا قَلْعية وأدراعا، فقـالت له قريش: يا عبدالمطلب، لنا مـعك فى هذا شِرْك وحقٌّ؟ قـال: لا، ولكن هلُمّ إلى أمـرٍ نَصَف بينى وبينكم: نضرب عليها بالقِداح (الأسهم التى كانوا يـستقسمون بها). ثم

أعطوا القِداحَ صاحب القداح الذى يضرب بها عند هُبَل (وهُبَل صنم فى جوف الكعبة، وهو أعظم أصنامهم) وقام عبدُالمطلب يدعو الله عز وجل، فضرب صاحبُ القداح، فخرج الأصفَران على الغزَالَين للكعبة، وخرج الأسوَدان على الأسياف، والأدراعُ لعبدالمطلب، وتخلَّف قِدْحا قريش، فضرب عبدالمطلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حُلِّيته الكعبة. ثم إن عبدالمطلب أقام سقاية زمزم للحُجَّاج.

٣- نَذْر عبدالمطَّلب ذَبْح وَلَدِه

كان عبدُالمطَّلب قد نَذَر حين لَقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم، لئن وُلد له عشرةُ نَفَر، ثم بلغوا معه حتى يَمْنعوه لَيَنْحرنَّ أحدَهم لله عند الكعبة. فلما توافى بنوه عشرةً، وعرف أنهم سيمنعونه، جَمَعَهُم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نَصنع؟ قال: ليأخذ كُلُّ رجل منكم قِدْحا ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتونى، ففعلوا، ثم أتَوْه، فدخل بهم على هُبَل فى جَوْف الكعبة. فقال عبدالمطلب لصاحب القداح: اضرب على بنىَّ هؤلاء بقداحهم هذه وأخبَره بنذره الذى نَذَر، فأعطاه كُلُّ رجل منهم قِدْحَه الذى فيه اسمه، وكان عبدالله بن عبدالمطلب أصغر بنى أبيه، وأحبَّ وَلَد عبدالمطَّلب إليه، وهو أبو رسول الله صلى عليه وسلم. فلما أخذ صاحبُ القِداح القداحَ ليضرب بها، قام عبدُالمطلب عند هُبَل يدعو الله، ثم ضرب صاحبُ القداح، فخرج القِدْحُ على عبدالله، فأخذه عبدُالمطلب بيده وأخذ الشَّفْرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبدالمطلب؟ قال: أذْبحه، فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدًا حتى تُعْذِر فيه. لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ

يأتي بابنه حتى يذبحَه، فما بقاء الناس على هذا! وقال له أحدُهم : والله لا تذبحه أبدا حتى تُعْذِر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فَدَيْناه. وقالت له قريش وبَنوه: لا تفعل، وانطلقْ به إلى الحجاز، فإنَّ به عَرّافة لها تابع، فسَلْها، ثم أنت على رأسِ أمْرِك، إن أمرتكَ بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمرٍ لك وله فيه فَرَج قَبِلْتَه.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها بخَيْبَر. فركبوا حتى جاءوها، فسألوها، وقَصَّ عليها عبدُالمطَّلب خبره وخبر ابنه، وما أراد به ونَذْره فيه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله. فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها، قام عبدالمطلب يدعو الله، ثم غَدَوْا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبرُ، كم الديَّة فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قرِّبوا صاحبكم، وقرِّبوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزِيدُوا من الإبل حتى يَرْضى ربُّكم، وإنْ خرجتْ على الإبل فانحروها عنه، فقد رَضِي ربُّكم، ونجا صاحبُكُم.

فخرجوا حتى قدمُوا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر، قام عبدُالمطلب يدعو الله، ثم قَرَّبوا عبدَالله وعشراً من الإبل، وعبدُالمطلب قائمٌ عند هُبَل يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبلُ عشرين، وقام عبدُالمطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشرًا من الإبل، فبلغت الإبل ثلاثين، وقام عبدُالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل أربعين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل خمسين، وقام عبدالمطلب

يدعـو الله، ثم ضربوا فـخرج القِدْح على عـبدالله، فـزادوا عشـراً من الإبل، فـبلغت الإبل ستّين، وقـام عبـدالمطلب يدعو الله، ثم ضـربوا، فـخرج القِدْح علـى عبـدالله، فـزادوا عشـراً من الإبل، فـبلغت الإبل سبـعين، وقام عـبدُالمطلب يدعـو الله، ثم ضربوا، فـخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشرا من الإبل ، فبلغت الإبل ثمانين، وقام عبدُالمطلب يدعو الله، ثم ضـربوا، فخـرج القِدْح على عبـدالله، فزادوا عـشراً من الإبل، فبلغت الإبل تـسعين، وقـام عبدالمطلب يدعـو الله، ثم ضربوا، فخرج القـدح على عبدالله، فزادوا عشرا من الإبل، فـبلغت الإبل مئة، وقام عبدُالمطَّلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على الإبل، فقالت قريش ومَنْ حضر: قد انتهى رضا ربِّك يا عبدالمطلب، فقال عبدالمطلب: لا والله حتى أضـرب عليها ثلاث مـرات، فضربوا على عـبدالله وعلى الإبل، وقام عبدالمطلب يدعـو الله، فخرج القِدْح على الإبل، ثم عادوا الثانية، وعبدالمطلب قائم يدعو الله، فضربوا، فخرج القِدْح على الإبل، ثم عادوا الثـالثة، وعبدالمطلب قـائم يدعو الله، فضربوا، فـخرج القِدْح على الإبل، فَنُحِرَتْ، ثم تُرِكَتْ لا يُصدّ عنها إنسان ولا يُمْنع.

ثم انصـرف عبـدالمطلب آخـذا بيـد عبـدالله حـتى أتى به وهبَ بن عبدمناف وهو يومـئذ سيِّد بني زُهْرَة نسبا وشرفا، فـزوجه ابنته آمنة بنت وَهْب. وحــملتْ آمنة برســول الله ﷺ. ثم لم يلـبث عـبـدُالله بن عبـدالمطلب، أبو رسول الله ﷺ، أن هَلك، وأم رسـول الله ﷺ حاملٌ به. فلما وضعتْه أُمُّه ﷺ، أرسلت إلى جدّه عبدالمطلب: أنه قد وُلد لك غلام، فـأْته فانظر إليه، فـأتاه فنظر إليه. فـأخذه عبـدالمطلب فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله، ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أُمّه فدفعه إليها، والتـمس لرسول الله ﷺ الرضعاء. وتوفى عـبدالمطلب بن هاشم ورسولُ الله ﷺ ابنُ ثماني سنين.

٤- الشعر (*)

- لما حضرتْ عبدالمطلب الوفاة وعرف أنه ميت جمع بَنَاته، وكن ستّ نِسْوة: صفية، وبرّة، وعَاتِكَة، وأم حكيم البَيْضاء، وأميمة، وأروى، فقال لهن: ابكين علىّ حتى أسمع ما تقلْن قبل أن أموت.

وفى النص القصائد التى قالتها بنات عبدالمطلب الست، وهن يعبرن فيها عن حزنهن لوفاة أبيهن ويطرين مناقبه: الكرم الفياض، كونه طلق اليدين، رفيع البيت والذؤابة، ذو الحسب التليد، ذو المجد والعزّ والمفتخر، ذو المكرمات، عظيم الحلم، ماجد الجدّ، وارى الزّناد، وَفِىّ الذّمام، طويل الباع، خير من ركب المطايا، جميل المحيا، منير يلوح كضوء القمر، الغمر فى النائبات، ذو المعالى، الوصول للقرابة، ذو البأس حين تَنْسكِب الدماء، مروى المخاصم عند الخصام، سهل الخليقة، ساقى الحجيج، من يؤلف الضيف الغريب بيوته، زين العشيرة كلها، الذى سجيته الحياء، إلخ..

- قصيدتان إحداهما من ٤١ بيتا لحُذَيفة بن غانم، والأخرى من سبعة أبيات لَمْطرود بن كعب. يبكى حذيفة فى أولى القصيدتين عبدالمطلب «ساقى الحجيج»، كما يشيد بهاشم وبعدد من رجال قبيلته البارزين مثل حمزة وعبد مناف «أبا طالب» وعبدالعزى «أبا لهب» أبناء عبدالمطلب.

ويقول النص فى تقديم هذه القصيدة إن الشاعر أُخذ بغُرم أربعة آلاف درهم بمكة فوقف بها فمر به أبولهب عبدالعزى بن عبدالمطلب فافتكّه.

وفى القصيدة الثانية يمدح مَطْرودُ بن كعب كذلك عبدالمطلب وآل عبد مناف ويثنى بصفة خاصة على ما يتصفون به من جود وكرم، فهم المُنْعمون إذا النجوم تغيّرت، والمطعمون إذا الرياح تناوحت.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ١٦٩ - ١٧٨

باء - التحليل

الصورة التى تستخلص من مجموع هذه الأحاديث والأشعار هى صورة رجل يُعد سيد قريش وشريفها، وهو أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، كان يعرف أن إبراهيم خليل الله، وأنه بنى الكعبة، ويعرف ربَّ إبراهيم، وأن الكعبة بيته، يدعو الله على أبرهة وصَلِيبِه فتُستجاب دعوته، له دور فى قصة الفيل التى ورد ذكرها فى القرآن، أتاه آت دلّه على موضع زمزم فحفرها وأقام سقايتها للحجاج، وانفجرت من تحت خف راحلته عين ماء عذب، يوقر الكعبة والمسجد الحرام توقيرا يجعله يختلف إليهما فى جميع المناسبات ليدعو الله. وأخيرا فقد كاد هذا الرجل يذبح ابنه، شأن إبراهيم عليه السلام، وفاء بنذر نذره. رجل كان، فى كلمة، رئيسا عظيما، ورجلا تقيا ورعا، يتصف بالفضائل جميعها، ويكاد أن يكون وليا من أولياء الله الصالحين.

ووَصْفُ عبدالمطلب على هذا النحو يثير الملحوظات الآتية:

١- حديث أبرهة يصوره على أنه سيِّدُ قريش وشريفُها، والواقع أن هذه صفة (أو وظيفة) لا يتحدث عنها النص على الإطلاق. وحين يتحدث النص عن سيد ما ، فالمقصود هو سيِّد عشيرة أو قبيلة، لا سيد قريش باعتبارها مجموعة من القبائل.

٢- جملة «هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام»، فى حديث عبدالمطلب مع حُنَاطة مندوب أبرهة، جملة لايمكن أن يكون عبدالمطلب قد قالها، فإن إضافة عبارة «عليه السلام» بعد أسماء الأنبياء استعمال إسلامى بحت. ومن جهة أخرى فإن وصف سيدنا إبراهيم بأنه «خليل الله» وصف ورد مرة واحدة فى القرآن فى الآية ١٢٥ من سورة النساء المدنية، التى قال الله تعالى فيها:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء:١٢٥]

ولم يكن عبدالمطلب يعلم هذه الصفة.

٣- لو أن عبدالمطلب كانت لديه أدنى فكرة عن إبراهيم عليه السلام لعلم أن تحطيم أوثان قومه كان، طبقا لما ورد فى القرآن، عملا من أهم الأعمال التى قام بها. والحاصل أن الكعبة التى كان يعبدها عبدالمطلب كان يحيط بها، حسبما يقول النص، ٣٦٠ وثنا.

٤- إن كان عبدالمطلب مؤمنا حقا، لما أطلق على أحد أبنائه اسم عبدالعزى، والعزى هو أحد آلهة الجاهلية الثلاثة الكبرى.

٥- لم تشر واحدة من بنات عبدالمطلب اللاتى بكينه فى أشعارهن أية إشارة إلى أحداث أبرهة أو زمزم أو الفداء، كما لم تُشِرْن إلى عين الماء التى انفجرت من تحت خف راحلة عبدالمطلب.

٦- لم يذكر أبوطالب بن عبدالمطلب، الذى خصص أكبر جانب من أشعاره للفخر بأمجاد قبيلته ورجالها البارزين، أيا من هذه الأحداث، بل إن اسم أبيه لم يرد قط فى قصائده.

٧- لو أن عبدالمطلب كان مؤمنا حقا وكان من تابعى إبراهيم عليه السلام، للقَّن إيمانه لأبنائه، الذين أثبتوا بقبولهم التضحية بأنفسهم وفاء بنذر أبيهم أنهم على حظ غير عادى من الوفاء والتقوى، ولكان هؤلاء الأبناء أول من يؤمن بالدين الذى جاء به حفيده، ابن أخيهم. والحاصل أن أحدا من أبنائه التسعة الذين بقوا على قيد الحياة بعد وفاة ابنه عبدالله لم يسلم خلال ثلاث السنوات الأولى من البعثة، بل إن أحدهم، وهو

عبدالعُزّى، كان، فـيما يبدو، أكبر خصم لمحـمد، إذ أن القرآن جعله، بالاسم ، من أهل النار.

٨- حين نذر عبدالمطلب أن ينحر أحد أبنائه لله عند الكعبة، لابد أنه كان يعلم أن مثل هذا النذر شيء منكر حـتى عند الوثنيين، وليس هناك أى وجه للمقارنة بينه وبين ما همّ به إبراهيم عليه السلام من ذبح ابنه.

٩- الإشارة إلى صلـيب قوم أبرهة ومخـالهم، أى قوتهم وشـدتهم المتمثلة فى جيـشه، مستحيلة، وهى تحمل طابـع الفترة التى كتب النص خلالها.

١٠- أخيرا، وبغـض النظر عن معجزة الفـيل الذى يفهم أنه فى بلد الله الحـرام ومعـجـزة الماء الذى انفـجر تحـت راحلة عبـدالمطلب، فـإن الحكايات التى يرويهـا النص عن عبدالمطلـب فيهـا من الإسهاب وكـثرة التفاصيل ما يصعب معه تصديقهـا كأخبار صحيحة عن الفترة المذكورة، وهى فتـرة كانت المادة التـاريخيـة بشأنهـا شديدة الندرة غـير واضـحة المعالم. ويكفى للتدليل على ذلك أن نقارن محتوى هذه الحكايات بالمادة التى يتـضمنهـا النص[٤] عن السنوات الأربعين الأولـى من حياة الـرسول ﷺ. وفيما يلى ملخص لهذه المادة:

- ثديا حليمة السعدية، مرضعـة الرسولﷺ ، اللذان لم يكن فيهما ما يغنيه، أقبلا عليه بما شـاء من لبن حين أخذته. كذلك فإن إتانها التى كانت مـا تَبِضّ بقطرة ـ أى ما ترشح بشيء ـ أصـبحت حافـلا، شرب زوج حليمة منهـا ما شرب حتى انتهيا ريـا وشِبعًا، كما أن هذه الأتان، التى كانت بطيـئة، سبـقت غيرها، وأرض المرضـعة التى لم يكن هناك أجدب منها أصبحت مرعى تروح عليهـا حين قدموا به ﷺ معهم شِباعا

لَبَنا فـيـحلبـان ويشربان ومـا يحلـب إنسـان قطرة لبن ولا يجـدها فى ضرع(١).

– حين كـان الرسول ﷺ عند هذه المرضعـة، أخذه رجلان عليهـما ثياب بيض معـهما طسْت من ذهب مملوءة ثلجا، ثم أخـذاه فشقَّا بطنه، واستخرجا قلبـه فشقّاه ، فاستخرجا منه علقـة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبه وبطنه بذلك الثلج حتى أنْقَياه (٢).

– لما قدمت حليمة بالرسول ﷺ مكة أضلّها فى الناس وهى مقبلة به نحو أهله، فـالتمستـه فلم تجده، فأتت عبـدَالمطَّلِب فأخبرته بذلـك فقام عبدالمطلب عند الكعبة يدعو الله أن يردّه (٣).

– نفرٌ من الحبشـة نصارى رأوا محمدا ﷺ مع مرضعتـه حليمة حين رجعت به إلى أمه بعد فطامه وقلّبوه، ثم قالوا لها: لنأخذن هذا الغلام، فلنذهبنَّ به إلى مَلِكنا وبَلَدِنا، فـإن هذا الغلام كائن له شـأن نحن نعرف أمرَه (٤).

– تُوفِّيت أم الرســول ﷺ وهو ابن ستٍّ سـنين بالأبواء، بيـن مكة والمدينة، وكـانت قد قدمت به علـى أخواله من بنى عـدى بن النَّجار – قبيلة أم عبدالمطلب بن هاشم – تُزيره إيَّاهم (٥).

– وَلِىَ أبوطالب أمر رسول الله ﷺ بعد جَدّه (٦). وخرج أبوطالب مع رسول الله ﷺ فى رَكْب تـاجرا إلى الشام، فلمـا نزل الركب بُصْرَى

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٦٢ – ١٦٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٤ – ١٦٦ .
(٣)، (٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٧ .
(٥) المرجع السابق نفسه ، ص ١٦٨ .
(٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٧٩ .

من أرض الشام وجدوا بهـا راهبا يقال له بَحيرَى فى صومـعة له، وكان إليه عِلْمُ أهل النصرانية. ونزلوا ذلك العام بِبَحِيرى. وجعل بَحيرَى يسأل الرسول ﷺ عن أشـياء من حاله وأمـوره فجعل رسول الله ﷺ يخـبره فـيوافق ذلـك ما عند بحيـرى من صـفتـه، وتنبـأ بأن يكون له شـأن عظيم(١).

– لما بلغ رسـول الله ﷺ أربعَ عشـرةَ سنة أو خـمسَ عشـرةَ سنة أو عشـرين سنة هاجت حربُ الفِجّار بيـن قريش، ومن معـهم من كِنانة، وبين قَيْس عَيْلان: وكـان رسـول الله ﷺ يُنبِّل على أعـمـامـه فى هذه الحرب أى يرد عليهم نَبْل عدوّهم إذا رَمَوْهُم(٢).

– لما بلغ رسول الله ﷺ خمسـا وعشرين سنة عرضت عليـه خديجة بنت خُوَيْلد، التى كـانت امرأة تاجـرة ذات شرف ومال، أن يـخرج فى مال لها إلى الشام تاجـرا. وخرج معه غلامها مَيْسـرة حتى قدم الشام. فنزل رسولُ الله ﷺ فى ظل شـجرة قريبا من صَوْمَعـة راهب من الرهبان فقال الراهب للغـلام مَيْسرة الذى خـرج مع الرسول ﷺ إلى الشام: ما نزل تحت هذه الشـجرة قُطُّ إلا نبـىّ. وكان مـيسـرة يرى مَلَكَيْن يظلان الرسول ﷺ خلال الرحلة إذا كانت الهـاجرةُ واشتدّ الحر(٣). وعـرضت خديجة نفـسها على الرسول ﷺ فتـزوجها وولدت له ثلاثة أولاد وأربع بنات. ومات أولاد الرسول الذكور الثلاثة فى الجاهلية (٤).

– كان لخـديجـة ابن عم نصرانى اسـمه وَرَقَة بن نَوْفل تتـبّع الكتب وعَلِم من عِلْم الناس. وذكرت خديجة لورقة ما ذكـر لها غلامُها ميسرة

---

(١) السيرة، القسم الأول ص ١٨٠ – ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق، ص١٨٤ – ١٨٧ .

(٣) ، (٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٧ ـ ١٩٠.

من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظلانه، فقال ورَقَة : لئن كان هذا حقًا يا خديجةُ، إن محمدا لنبيُّ هذه الأمة [1].

- أعادت قريش بناء الكعبة حتى بلغ البنيان موضع الركن أى الحجر الأسود، فاختصموا فيه، كل قبيلة تُريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا (انحازت كل قبيلة إلى جهة) وتحالفوا وأعدّوا للقتال. ثم اتفقوا على أن يجعلوا أول من يدخل من باب المسجد يقضى بينهم فيه. وكان أول داخل عليهم رسولُ الله ﷺ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هلمّ إلىّ ثوبا ، فأُتى به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه[2].

ستة أخبار إذن عن محمد ﷺ رضيعا أو طفلا، وعن رحلة قام بها إلى الشام وهو صبى، وعن حضوره فى سن المراهقة فى نزاع بين قريش وقبيلة أخرى، وعن اشتغاله بالتجارة لحساب خديجة ثم زواجه منها، وأخيرا عن تحكيمه فى نزاع ثار بين قبائل قريش بشأن وضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة.

مجرد لحظات خاطفة فى حياة النبى ﷺ السابقة على الرسالة، يغلب ذكر الأعاجيب فيها ذكر الواقع، فى قصص ساذجة لا تشبه فى شىء ما ورد فى النص من أحاديث محكمة البناء غنية بالتفاصيل عن عبدالمطلب.

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٩١ـ ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق، ص١٩٦ - ١٩٧ .

جيم - النتيجة

أغلب الظن أن صورة عبدالمطلب التى يريد النص أن يرسمها لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وأن فيها قدرا لا يستهان به من الاختلاق. وقد أعرب ابن هشام عن تحفظات بشأن صحة القصائد التى عزاها ابن إسحاق، مؤلف النص، إلى بنات عبدالمطلب الست. ومثل هذا الشعر المنحول كثير فى النص، وهو جزء من الجهود الظاهر أنها بذلت لتمويه الحقيقة.

وهذه الملحوظات تُحَمِّلنى على الظن بأن شبهة الاختلاق لا تقتصر على القصائد الست المذكورة، بل تتجاوزها إلى ما ورد فى النص من أخبار. بقى أن يوضح السبب الذى جعل مؤلف النص أو المصادر التى استقى منها معلوماته يرسمون عن عبدالمطلب الصورة النموذجية السابق وصفها.

والراجح فى ظنى هو أن المؤلف ومصادره أرادوا بهذه الصورة إعلاء شأن قبيلة بنى عبدالمطلب التى كان ينتمى إليها الخليفة العباسى الحاكم فى الفترة التى كتبت فيها السيرة، وتعزيز مشروعية خلافته.

وهذا الافتراض مطروح كتفسير مؤقت. وسيتبين ما إذا كانت هناك دلائل أخرى تؤيده فى بقية هذه الدراسة.

الفصل الثانى

الفترة المكيّة الأولى

ألف ـ النص(*)

لما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنةً بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، وكافّةً للناس بشيرا، وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبى بعثه قبلَه بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدّقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه. يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

[آل عمران : ٨١]

وجاء جبريل رسول الله ﷺ فى شهر رمضان وهو يجاور فى غار حراء، فقال:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾

[العلق: ١ - ٥]

حَدَّث رسول الله ﷺ خديجة بالذى رأى فانطلقت إلى ورقة بن نَوْفَلَ، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تَنَصَّر وقرأ الكتب وسمع من أهل

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٣٣ ـ ٢٦٣.

التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسولُ الله ﷺ أنه رأى وسمع.

وقال ورقة لرسول الله ﷺ حين لقيه بعد ذلك: والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك النَّاموسُ الأكبرُ الذى جاء موسى وَلَتُكَذَّبَنَّه وَلَتُؤْذَيَنَّه ولتُخْرَجَنَّه ولتقاتلنَّه[1].

وابتدىء رسول الله ﷺ بالتنزيل فى شهر رمضان [2]، بقول الله عز وجل:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة ١٨٥]

وقال الله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾ [القدر: ١ - ٥]

وقال الله تعالى:

﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) ﴾ [الدُّخَان: ١ - ٥]

وقال الله تعالى:

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١]

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٩ - ٢٤

وأسلمت خديجة. ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك، حتى شقّ ذلك عليه فأحزنه، فجاءه جبريلُ بسورة الضحى.

قال تعالى:

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾. [الضحى: ١ - ١١]

وذات يوم، أتى جبريل الرسول ﷺ، فهمز له بِعَقبه في ناحية الوادى، فانفجرتْ منه عين وعَلَّم الرسول ﷺ كيف الطَّهور للصلاة وكيف يُصَلِّى(*).

وكان أوَّلَ ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله ﷺ، وصلى معه وصدَّق بما جاءه من الله تعالى: علىٌّ بن أبى طالب، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عَشْر سنين. وكان علىٌّ رضى الله عنه فى حِجْر رسولِ الله ﷺ قبل الإسلام. وكان الرسول ﷺ اذا حضرت الصلاة خرج إلى شِعَاب مكة، وخرج معه علىّ بن أبى طالب مُستخفيا من أبيه أبى طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمْسيا رجعا. فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

وعثر أبوطالب عليهما يوما وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يابن أخى! ما هذا الدِّينُ الذى أراك تَدِين به؟ قال: أى عمّ، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رُسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثنى اللهُ به

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٤٤.

رسولا إلى العباد، وأنت أى عمّ، أحقُّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ودعوته إلى الهُدى، وأحقُّ مَنْ أجابنى إليه وأعاننى عليه؟ فقال أبو طالب: أى ابنَ أخى، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، لكن والله لا يُخلَص إليك (أى: لا يوصل إليك) بشىء تكرهه ما بقيتُ.

وقال أبو طالب لعلىّ: أى بُنَىّ، ما هذا الدينُ الذى أنت عليه؟ فقال: يا أبتِ، آمنتُ بالله وبرسول الله، وصدَّقته بما جاء به، وصلَّيت معه لله واتبعته، فقال له: أما إنه لم يَدْعُك إلا إلى خير فالزمْه[1].

ثم أسلَمَ زيدُ بن حارثة، مَوْلَى رسولِ الله ﷺ، وهذه قصته: قدم ابن أخ لخديجة من الشام برقيق، فيهم زيدُ بن حارثة، فدخلتْ عليه عمته خديجة، وهى يومئذ عند رسولِ الله ﷺ، فقال لها: اختارى يا عَمَّة أىَّ هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك؟ فاختارت زيداً فأخذته، فرآه رسول الله ﷺ عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبنَّاه، وذلك قبل أن يُوحى إليه. وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديدا، وبكى عليه حين فَقَدَه، ثم قدم عليه وهو عند رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: إن شئت فأقم عندى، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك. فلم يزل عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله فصدَّقه وأسلم[2].

وأسلم أبوبكر رضى الله عنه وأظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله[3].

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٤٧

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٤٩.

أخيرا، يذكر النص أسماء ثلاثة وخمسين شخصا أسلموا خلال هذه الفترة [1].

وأخفى رسولُ الله ﷺ أمْرَه واستتر به ثلاث سنوات من مَبْعثه إلى أن أمره الله تعالى إظهار دينه، ثم قال الله تعالى له:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

[الحِجْر: ٩٤]

وقال تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤ - ٢١٥]

وقال تعالى:

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الحِجْر: ٨٩]

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا صلُّوا ، ذهبوا في الشِّعاب، فاستَخْفُوا بصلاتهم منْ قومهم، فبينا سعد بن أبي وقَّاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْب من شِعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلُّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعدُ بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلَحْي بعير (اللحى: العظم الذى على الفخذ)، فشجَّه، فكان أول دم هُريق في الإسلام [2].

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٥٠ - ٢٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٣.

باء- التحليل

البيانات التى ينتظر المرء أن يقرأها فى حديث يسرد مراحل حياة نبى كمحمد ﷺ فى ثلاث السنوات الأول من دعوته هى أساسا:

- آيات القرآن الكريم التى نزلت على رسول الله ﷺ والتى تشكل أساس رسالته، مع بيان ترتيب نزولها أو، على الأقل، فكرة عامة عن هذه الآيات تسمح للقارىء بالوقوف على ما كانت تتناوله الدعوة خلال هذه الفترة.

- فكرة عن الناس: الأقارب والأصدقاء والمعارف والحجاج والموالى، الذين كان رسول الله ﷺ يتجه إليهم، والوسائل التى كان يستخدمها لدعوتهم إلى دينه: الاتصالات الفردية فى البيوت، والخطب فى السوق أو فى المسجد الحرام.

- معلومات عن ردود الفعل، إيجابية كانت أو سلبية، لمختلف الأشخاص والجماعات الذين كان رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، والصعوبات التى كان يصادفها، وأبرز حالات نجاح الدعوة وفشلها، والأسباب التى من أجلها آمن بعض الناس بالإسلام ورفضه بعضهم.

- ما حققه الإقناع الشخصى وما حققه القرآن الكريم فى ذلك.

- حالات الدخول فى الإسلام التى ترجع إلى الرسول ﷺ، وتلك التى ترجع إلى أصحابه.

- الأثر الذى أحدثته إذاعة آيات متوالية من القرآن الكريم وانتشار الإسلام بين الناس، فى المجتمع المكى، ولدى «السلطات العامة».

- الأثر الذى أحدثه الإسلام بين الحجاج وغيرهم من الأشخاص الوافدين إلى مكة.

لكن كل ما أورده النص عن هذه الفترة هو أنها كانت فترة استخفاء، وأن أبا طالب، عم الرسول ﷺ، رغم رفضه الإسلام، قال لابن أخيه: «والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت»، وأن من أسلموا كانوا هم الذين ذكر أسماءهم. كما أورد النص أيضا بعض آيات من القرآن الكريم.

وستكون هذه العناصر الأربعة موضوع الجزء الأول من تحليل النص، وسأبحث فى الجزء الثانى من هذا التحليل ما إذا كانت المعلومات التى يمكن استخلاصها من سور القرآن الكريم التى نزلت خلال هذه الفترة تتفق أو لا تتفق مع تلك التى جاءت فى النص. وسأختم هذا الفصل بجزء ثالث أحاول الخروج فيه بنتائج هذا التحليل.

١- الاستخفاء

هذا الاستخفاء ناتج، بصورة ضمنية من الوقائع الآتية:

أن رسول الله ﷺ كان يؤدى الصلوات الخمس خارج مكة، وأن عليا رضى الله عنه كان يخرج معه مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، وأن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان.

وقد ذكر الاستخفاء صراحة فيما يتعلق بأصحاب الرسول ﷺ فى الجزء الأخير من الرواية الذى أشير فيه إلى فترة ثلاث السنوات.

ويثير موضوع الاستخفاء الملحوظات الآتية:

أ) النص لا يوضح أسباب هذا الاستخفاء كما لا يوضح الظروف التى دفعت إليه.

ب) يتنافى الاستخفاء وطبيعة الدعوة ذاتها التى ترمى إلى نشر الدين. وإذا كان مما يقبله العقل أن يستخفى بعض الأشخاص بإسلامهم خشية التعرض للعقاب، فإن من الصعب تصور أن يلزم رسول الله ﷺ نفسه بالاستخفاء دون داع من بداية دعوته.

جـ) لم يوضح النص ما إذا كان الاستخفاء قد اقتصر على أداء صلوات الجماعة أو امتد إلى إذاعة القرآن الكريم أيضا. والشىء المؤكد هو أنه منذ اللحظة التى كانت تبلّغ فيها أيّة آيات من القرآن ولو لحفنة من الناس، لم يكن بوسع شىء أو شخص ما أن يوقف إذاعتها على الملأ.

د) تعليمات الاستخفاء تعطى فى العادة كإجراء وقائى إزاء معارضة قوية من الرأى العام أو إزاء إجراءات قمع شديدة من جانب أولى الأمر والنهى. لكن النص لا يتحدث فى هذا الخصوص عن أية معارضة أو قمع. وهو، فيما خلا الواقعة، التى يبدو أنها كانت حالة فردية، التى جَرَح سعد بن أبى وقاص فيها أحد المشركين، لا يتحدث إلا عن مسلمين. ومن المفارقات أننا نجد أنفسنا هنا أمام مسلمين لم يكن لهم، فيما يتضح من النص ، خصوم، يستخفون بدينهم، فى الوقت الذى نراهم فيه بعد ذلك بعشر سنوات، وسط اضطهاد أجبرهم على الهجرة إلى المدينة، يؤدون شعائر دينهم علنا بل يصلّون فى المسجد الحرام.

هـ) الاستخفاء فى النظام القبلى ليس له إلا معنى واحد هو عدم وثوق المرء إلا بأفراد عشيرته. وواقع الأمر أن قائمة المسلمين التى يوردها النص تتضمن، باستثناء شخصين لا أكثر، أسماء أشخاص لا يمتون إلى رسول الله ﷺ بصلة قربى.

و) من غير المعقول، فى مدينة كمكة، يعرف جميع الناس فيها بعضهم البعض كان رسول الله ﷺ يتمتع فيها، حتى قبل مبعثه، بقدر من الشهرة باعتباره تاجرا، وحفيدا لعبد المطلب العظيم، وابن أخ لعدد من سادة قريش وأشرافهم، وزوجا لامرأة من نبلاء مكة، أن يظل نشاطه الدينى مجهولا، سواء حين كان يخرج من بيته أو من حانوته لأداء الصلاة فى الشعاب، أو حين كان يلقى أصحابا أو معارف أو زبائن ليحدثهم عن الإسلام. وفى الإمكان أن يقال الشىء نفسه، وإن يكن بدرجة أقل، عن سائر المسلمين.

ز) حتى إذا كان المسلمون قد تلقوا توجيهات بمراعاة السرية والخفاء فى ممارسة شعائر دينهم وفى اتصالاتهم بالآخرين، فلابد أن قريشا قد وصلتها أنباء نشاطهم فى الدعوة لدينهم.

ح) أفراد العشائر التى لم يعد أعضاؤها الذين دخلوا فى الإسلام يشتركون فى طقوس عباداتهم الوثنية لا يمكن أن يكونوا قد غفلوا عن تحولهم إلى الإسلام أو سكتوا عن التحدث فى أمرهم.

ط) الأشخاص الذين عُرض عليهم الإسلام فرفضوه - والأرجح أن عددهم كان كبيرا - لابد أنهم، بدورهم، رأوا من واجبهم أن يتحدثوا عنه إلى أقاربهم، أو إلى رؤساء عشائرهم، أو إلى أصدقائهم أو إلى أولى الأمر.

ى) من الجائز أن نظر بضع عشرات - أو ربما بضع مئات - من الأشخاص وهم يغادرون بيوتهم أو محال عملهم فى ساعات محددة، خمس مرات يوميا، ويتجهون إلى مكان معين فى شِعْب من شعاب مكة

لم يثر شكوك الناس خلال أيام أو أسابيع لكن من غير المتصور ألا يكون قد استلفت أنظار الناس خلال ثلاث سنوات.

ك) ويلاحظ أخيرا أن النص يصور رسول الله ﷺ وهو يخرج مع عليّ لأداء الصلوات فى شعاب مكة، لكنه لا يصور المسلمين وهم يؤدون الصلوات مع رسولهم ﷺ، وهو يتحدث عنهم كأنهم كيان قائم بذاته.

والشىء المتصور، على العكس ، هو أن الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين، لأن مجلس مكة الحاكم قد منعهم من دخول المسجد الحرام بسبب دينهم الذى كان يعتبر بدعة وهدما، ولأنه لم يكن فى مكة ذاتها مكان يستطيع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤدى فيه الصلوات مع عدد كبير نسبيا من المسلمين، ولأن السلطة الحاكمة رفضت أن يبنوا فيها مسجدا خاصا بهم، أقول إن الشىء المتصور هو أن الرسول والمسلمين وجدوا أن الحل الوحيد أمامهم هو الخروج إلى شِعْبٍ من الشعاب الواقعة خارج حدود مكة لأداء الصلوات.

٢ـ حماية أبى طالب للرسول

أرسيت خلال ثلاث السنوات الأولى من بعثة الرسول ﷺ - كما سيرد بعد قليل - أسس هذا الدين الذى أدى، بعدها بسنوات قليلة، إلى هجرة ثمانين مسلما من مسلمى مكة (أو نفيهم) إلى الحبشة، والذى - كما يقول النص- دفع جميع مسلمى مكة بعد ذلك إلى الهجرة إلى المدينة، وكان سببا، خلال جانب كبير من الفترة المدنية، فى إشعال حروب تعد من أكبر الحروب فى تاريخ شبه الجزيرة العربية. فما هى الأحداث الهامة التى سجلها النص عن هذه الفترة التى لابد أن ظهور

الإسلام فيــها كان أشبــه بزلزال مستمــر؟ حديث قصيــر بين أبى طالب ورسول الله ﷺ اعــتذر فيــه العم لابن أخيــه عن اتباع دينــه وأقسم ألا يُخلَص إليه بشىء يكرهه ما بقى! والوعــد الذى ينطوى عليه هذا القسم جوهرى فى النص، إذ أنه يثبت فضل فرد من أفراد قبيلة بنى عبدالمطلب فى حماية الرسول ﷺ، وبالتالى فى حماية الإسلام ذاته.

وأول ما ينبغى ملاحظته فى هذا الصدد هو أن النص لا يحدد الوقت الذى صدر فــيه هذا الوعد. هــل صدر فى بداية الفــترة الأولى، أم فى وسطها، أم فى نهايتها؟، ذلك أن مــوقف محمد ﷺ لم يكن واحدا فى السنة الأولى، وفى السنة الثــانية، وفى السنة الثالثــة من دعوته. كذلك فإن الجملة التى صــيغ فيها هذا الوعد تبدو غــريبة إذا راعينا أن النص لا يتحدث عن أى داع أو نزاع يحــتمل معهما أن يخــلص أحد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بشىء يكرهه.

على أننا إذا أمعنا النظــر فى النص وجدنا معلومتين تشــيران، خلافا للظاهر، إلى أن أحوال الرسول ﷺ لم تكن تسير إلى بر الأمان:

الخبر الذى مؤداه أن عليا كان يخرج مع الرسول ﷺ للصلاة مستخفيا من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه، من جهة، وقائمة من دخلوا فى الإسلام، من جهة أخرى.

ونظرا إلى ما ثبت من تهافت دعوى الاســتخفاء، فللمــرء أن يرى أن أول من بادرهــم الرســـول ﷺ بدعوته كــانوا أعمامــه أبناء عبــدالمطلب، وأبناء أعمــامه، وكذلك أحفــاد وأبناء أحفاد هاشم بن عــبد مناف، أبى عبدالمطلب.

وللمرء أن يتساءل فى هذا الصدد: كم كان عدد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم آنذاك؟

ليس فى النص إجابة عن هذا السؤال، لكن هناك دلائل تسمح بتقدير هذا العدد. ففيه إشارة إلى أن هاشم بن عبد مناف كان له أربعة نفر: عبدالمطلب، وأسد، وأبوصَيْفِىّ، ونَضْلة، وأن ولد عبدالمطلب الذكور كانوا عشرة نفر: العباس، وحمزة، وعبدالله، وأبوطالب، والزُّبير، والحارث، وحَجْلا، والمُقَوِّم، وضِرار، وأبولهب[1].

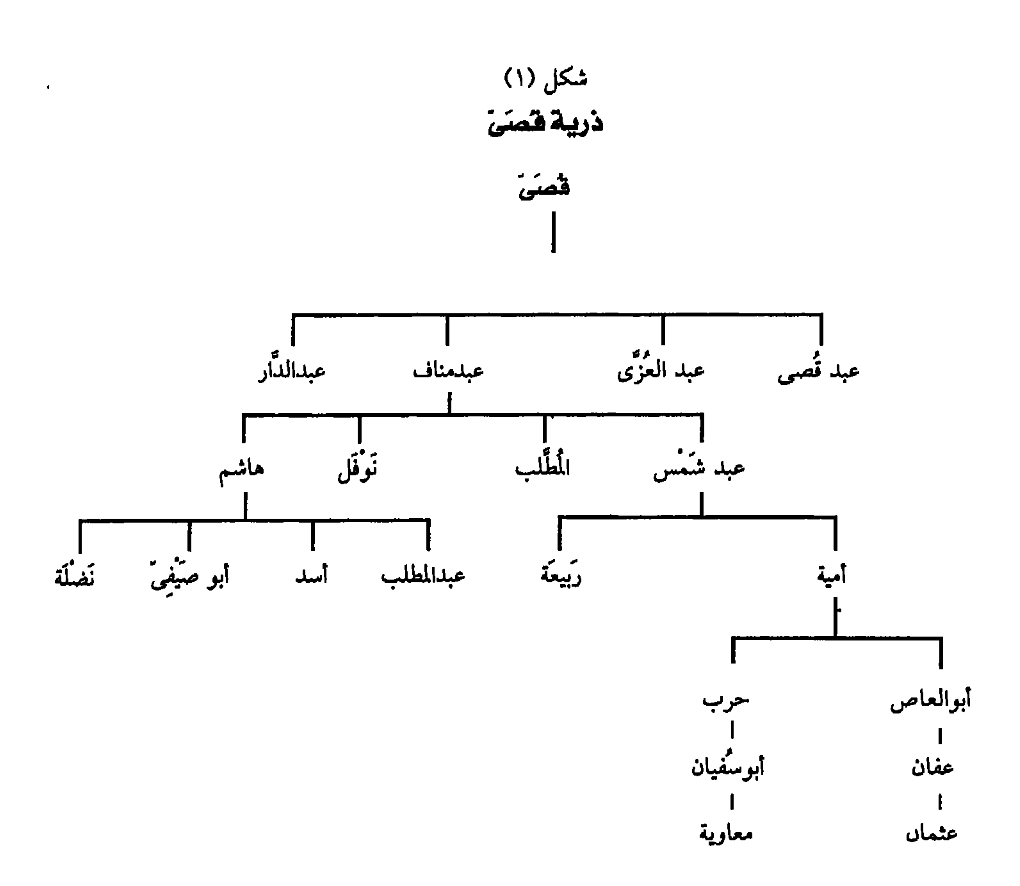
فإذا افترضنا أن كلا من أسد، وأبى صَيْفى، ونَضْلة أبناء هاشم[2] كان له سبعة أولاد ذكور، أى متوسط عدد أبناء هاشم وابنه عبدالمطلب، وأن كل ولد ذكر من أولادهم، وكل ولد كذلك من أولاد عبدالمطلب (الذين أصبحوا تسعة بعد وفاة عبدالله)، كان له أيضا سبعة أولاد - وهو تقدير مرتفع جدا نظرا لمعدل الوفيات الذى لابد أنه كان وقتها عاليا للغاية، وإلى أن هؤلاء لم يكونوا جميعا يملكون من المال ما يسمح لهم باتخاذ عدة زوجات، وأن ذريتهم لم تكن تتكون من الأولاد الذكور فحسب، لكان عدد أفراد القبيلتين مجتمعتين من الذكور ٢١٠ أفراد، وعدد أفراد قبيلة بني عبدالمطلب وحدهم ٦٣ فردا. [انظر الشكلين (١) و(٢)].

إذن فإن هؤلاء الأشخاص البالغ عددهم مائتان وعشرة هم، عدا النساء، الذين لابد أن رسول الله ﷺ بادرهم، بادىء ذى بدء، ليعلن عليهم دعوته وليتلو عليهم القرآن. والواقع أنه من الصعب تصور أن يكون الرسول ﷺ قد أبلغ دعوته إلى القبائل الأخرى قبل أن يبلغها إلى أفراد قبيلته الذين كانوا، بمقتضى النظام القبلى السائد، أقرب الناس إليه.

---

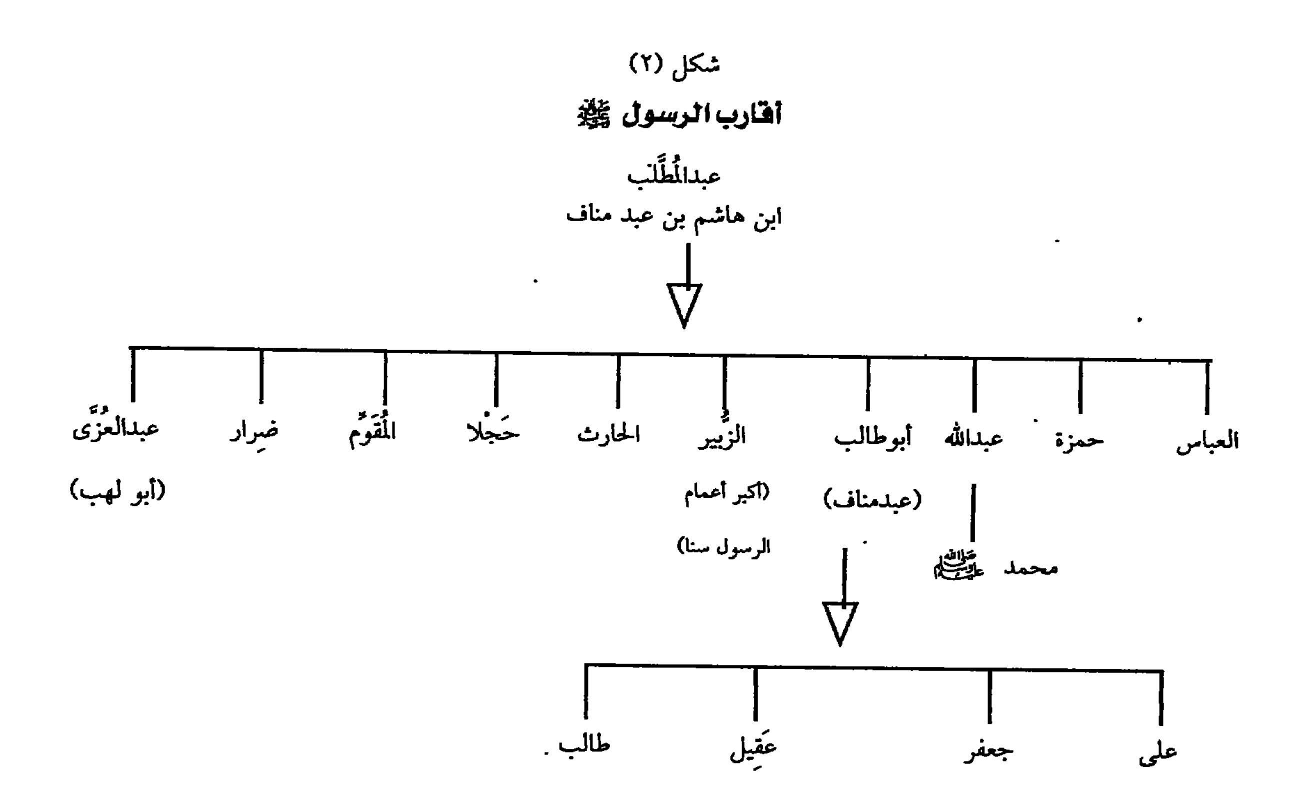
(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٧.



شكل (١)

ذرية قصَىّ



شكل (٢)

أقارب الرسول ﷺ

ومن السهل جدا أن نتصور مشهد محمد ﷺ وهو يتقدم إلى أعمامه وإلى سادة بنى عبدالمطلب وبنى هاشم وأشرافهم، ويحدثهم عن جبريل الذى رآه، وعن الرسالة التى تلقاها منه، ويقرأ عليهم آيات من القرآن الذى أوحى إليه، وهو يظن، لأنهم يعرفون أمانته وسلامة عقله، أنهم سيصدقونه وسيحملون أفراد القبيلتين على اتباعه.

ولابد أن اجتماعات عديدة قد عقدت للاستماع إليه ﷺ ولمناقشته، وأن الآيات القرآنية التى تلاها عليهم كانت موضع بحث وتمحيص، وأن أسئلة محددة وُجِّهَت إليه بشأن جبريل، وأنهم سألوا الرسول ﷺ أن يدعوه لحضور اجتماعاتهم، وطلبوا منه ﷺ الإدلاء بتفاصيل عن رسالته، وتقديم أدلة محسوسة على وجود حياة بعد الموت ووجود جنة ونار. ولابد أن محمدا ﷺ لم يتمكن من تقديم هذه الأدلة، وأن اجتماعات أخرى عقدت بين سادة القبيلتين وأشرافهما فى غير حضور محمد ﷺ، وأن أقواله وماتلا عليهم من آيات حُللت بدقة، وأن هؤلاء السادة والأشراف انتابتهم الحيرة: لقد عاش محمدﷺ بينهم حتى سن الأربعين عيشة هادئة كغيره من الناس، فما الذى انتابه وجعله يقول إنه نبى، وإنه على صلة بملك من الملائكة؟ يا ترى قد جن، أو أن أرواحا شريرة تقمصته، أو أن وراءه أحد، أم الذى يحركه هو الطموح؟.

ولابد أن بعض من استمعوا إليه كانوا تجارا لهم معارف من اليهود والنصارى الذين كانوا يصادفونهم فى الشام وفى العراق وفى اليمن، وأنهم لمسوا شبها بين ما كانوا يعلمونه عن ديانتى هؤلاء المعارف وما كان محمد ﷺ يقول إنه تلقاه من وحى، وأنهم تصوروا أن محمدا ﷺ، لم

يفعل سوى أن نقل ما تعلّمه خفية من كتاباتهم بعد تعديل فيه. والمداولات فى الاجتماعات المذكورة كانت تنتهى ولابد إلى نتيجة واحدة، هى أن دين محمد، شأنه فى ذلك شأن اليهودية والنصرانية، لم يكن يناسب قبيلتهم ولا مجموعة العبادات والمعتقدات التى ورثوها عن أسلافهم والتى كانت فى رأيهم أفضل بكثير من الدين الجديد الذى قدمه إليهم.

وكان محمد ﷺ إذا تلقى سورة أو سورا جديدة يطلب، ولابد، الاجتماع مع رؤساء القبيلتين ويبذل قصاراه لإقناعهم بأنه لم يكن مريضا ولا طموحا، وأن القرآن الذى يدعو إليه كلام الله المنزل، وأنه لا يريد إلا الخير لجميع البشر. ولابد أنه نجح فى إقناع بعضهم بما يقول، لكن رؤساء قومه نبّهوه ولا شك إلى اعتبارات ذات طبيعة أخرى هى أن دينه دين ثورى وأنه يهدد وجود قبيلتهم ذاته. ذلك أن:

أ) مكة هى المركز الدينى للجزيرة العربية بأكملها. وإذا كان أصل ديانتهم وتعاليمها قد ضاع فى عصور الظلام، فقد بقيت الكعبة، بيتها المقدّس، كما بقيت الطقوس التى كان يؤديها الحجاج الذين يفدون إلى مكة كل عام، فى مواعيد محددة، من كافة أنحاء الجزيرة للحج أو للعمرة مرة أو أكثر، ولعبادة أوثانهم التى كانت مكة تضعها طواعية فى الكعبة، وتقديم الأضاحى والقرابين لها.

ب) مكة تستمد مكانتها عند العرب من كونها حامية للحرم، وكونها توفر لزائريها خلال أربعة الأشهر الحرم كل عام ظروفا من السلم المطلق، وتهيىء لهم فى الوقت ذاته مكانا مناسبا للالتقاء وعقد الأحلاف وفض الخلافات عن طريق التحكيم.

جـ) مكة تستمد جانبا كبيرا من ثروتها من هؤلاء الحجاج، وكان موسم الحج بالنسبة لها شبيها، فى أيامنا هذه، بمواسم السياحة فى بعض البلدان، وبكل الأنشطة الاقتصادية والخدمات التى تتبعها ، مثل نشاط الفنادق، والأسواق، والمطاعم، ومحلات الخمور، وأماكن اللهو التى كان الحجاج فى المساء يستمعون فيها إلى الغناء والشعر ويرون الراقصات، وبيوت الرذيلة، ولعب الميسر.

د) خلال هذه المواسم وغيرها كانت تتم الصفقات التجارية فى هذه البلدة التى كانت قوافلها تذهب إلى شمال الجزيرة وجنوبها وتجوب أنحاءها الداخلية المتفرقة للتجارة ولتشترى من بعض القبائل منتجاتها من تمر، وخيام، وبسط، وجلود، وخراف وجمال للتضحية بها، ولتبيع منتجات مستوردة، أو أخرى مشتراة من القبائل فى الداخل. وكانت هناك قبائل أخرى ترسل قوافلها الخاصة إلى مكة لتبيع منتجاتها وتشترى غيرها. أما كبار التجار أو الأسر الغنية فى مكة فكانوا يتولون تمويل تجارة الاستيراد والتصدير والتجارة الداخلية.

وكان مخالفو محمد ﷺ يشرحون له ولا شك أن دينه الذى يتمسك بإله واحد ولا يعترف بأى من آلهة قريش وغيرها من القبائل يهدد - بصفة جدية وخطيرة - هذا النظام الذى ترتبط فيه المصالح الدينية بالمصالح المالية والتجارية، وأن هذا الدين - أيضا - يجعل الأسس التى كان يقوم عليها النظام القبلى ذاته فى خطر، لأنه يجعل لله الواحد المكانة العليا فى حياة من يؤمن به، ويقيم بين المسلمين روابط تعلو على الروابط التى تربط أعضاء قبائلهم بعضهم ببعض.

لقد استند الرؤساء والتجار ورجال المال الأغنياء أصحاب الامتياز فى توريد السلع والخدمات للحجاج، ولابد، إلى هذه الحجج لرفض دعوة

محمد ﷺ. ونظرا إلى مكانتهم وكونهم فى الوقت ذاته أصحاب العمل والمحسنين الذين يمد فقراء قبائلهم أيديهم إليهم فى طلب المعونة، فقد كان نفوذهم كبيرا فى قبائلهم، وكان فى وسعهم بالتالى أن يفرضوا كلمتهم على أفرادها.

وكان أبولهب، عم الرسول ﷺ، ضمن هؤلاء. ومن المحتمل جدا، رغم أن النص لا يقول ذلك صراحة، أنه كان سيد قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، إن لم يكن سيد قريش كلها لو كان لقريش سيد.

وإذا كان القرآن قد لعنه فى سورة من سور الفترة الأولى، فهذا مرجعه ولا شك شدّته على الرسول ﷺ واستخدامه كل سلطانه فى مكافحة الإسلام. ولا يبعد عن أبى لهب أنه يكون قد هدد بفصل أى فرد من أقربائه يعمل فى تجارته يؤمن بدين الإسلام، أو بقطع ما كان يقدمه من إعانات لفقرائهم، وليس ببعيد أيضا، حين أوعده القرآن وحكم عليه وامرأته بنار ذات لهب، أن يكون ذلك قد ضاعف من ضراوته فى محاربة دين ابن أخيه.

وللمرء أن يتساءل فى هذه المرحلة: هل كانت هذه المقاومة أو هذا العداء للإسلام أمرين سلبيين أو إيجابيين؟

من غير المستبعد أن يكون أبوطالب، أحد الأخوين الشقيقين لوالد رسول الله ﷺ، والعم الذى كفل الرسول وحَدَبَ عليه، قد أظهر تفهما بل تعاطفا مع الدين الذى جاء به. كذلك فإنه ليس من الصعب على المرء أن يفهم أنه لم يكن من اليسير عليه فى سنّه أن يتبع الدين الجديد وأنه تمسك بمعتقدات آبائه خشية القيل والقال، بل ربما يكون قد دافع عن محمد ﷺ، لكن الشواهد تدل على أنه لم يلق أذنا صاغية، لأن الأمر

بالنسبة لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم لم يكن أمر رعاية مصالح القبيلة فحسب، بل كان أمر حمايتها من نقد القبائل الأخرى فى مكة.

ومن المفيد أن أذكِّر هنا بأن قائمة مَنْ أسلموا التى أوردها النص تشير إلى إسلام عدد كبير من أفراد العشائر والقبائل الأخرى. ولابد أن إسلامهم نشأت عنه فى قبائلهم مشكلات لا تختلف عن تلك التى نشأت فى قبيلتى الرسول ﷺ. وهذه القبائل أنحت ولابد باللائمة على بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. ولابد أن المسألة أثيرت عدة مرات فى اجتماعات مجلس المدينة، وأن هاتين القبيلتين قد اتخذتا كوسيلة لدفع هجوم القبائل الأخرى ضدهما إجراءات مشددة لمنع محمد ﷺ من كسب تابعين فى صفوفهما، وأيضا فى صفوف العشائر والقبائل الأخرى، ومن ثم فإن عداء قبيلتى الرسول ﷺ له ما كان يمكن إلا أن يكون إيجابيا، كما أن المتاعب التى تعرض لها لم تتأت فقط من القبائل الأخرى، بل من قبيلتيه ذاتهما.

وإذا كان الأمر كذلك فهل كان فى مقدور أبى طالب أن يتكفل بحماية محمد ﷺ فى مواجهة قبيلتيه فضلا عن قبائل قريش الأخرى؟.

كى يتمكن أبو طالب من حماية محمد ﷺ، كان لابد من توافر ثلاثة شروط: أن يكون ذا نفوذ كبير فى قبيلته وبين القبائل الأخرى، وأن يكون بوسعه أن يحمى ابنه، وأن يكون محمد ﷺ بحاجة إلى حمايته، والحاصل:

أ) أن أبا طالب لم يكن، فيما يبدو، رئيس بنى عبدالمطلب. والنص، على أى حال، لم يرد فيه أنه خلف أباه فى هذا المنصب، ولا أنه كان أكبر إخوته. لقد كان أبو طالب رجلا رقيق الحال، بلغ من فقره ومن

كثرة عياله أن ضم الرسول ﷺ عليا إليه وأن أخذ العباس جعفر فضمه إليه[1]. ومن ناحية أخرى فبالرغم من كونه تكفل بأمر محمد بعد وفاة عبدالمطلب، فلم يكن هو، بل كان أخوه حمزة، الذى خطب إليه خديجة[2]. وأخيرا فليس هو، بل أخوه العباس، الذى ورث من أبيه ولاية زمزم والسقاية عليها[3].

ب) كان جعفر بن أبى طالب - كما سنرى فيما بعد - ممن هاجروا إلى الحبشة وكان الغرض الوحيد من هذه الهجرة هو الفرار من الاضطهاد. الاضطهاد الذى لحق بالمسلمين - حسبما ورد فى النص - والذى تم بأيدى قبائلهم ذاتها، وكان ما يخشاه جعفر هو اضطهاد بنى عبدالمطلب للمسلمين. فإذا كان جعفر قد اضطر للهجرة إلى الحبشة فمعنى ذلك إذن أن أباه كان عاجزا عن حمايته من قبيلته ذاتها.

جـ) محمد ﷺ - شأنه فى ذلك شأن جميع الأنبياء - كان يعلم ولا شك أنه تحت حماية من هو أقوى من عمه ومن قبيلته. وكان يعلم أيضا- وهذا مبدأ أساسى من مبادىء الدين الذى كان يدعو إليه- أنه ما كان يجب أن يخشى أحدا غير الله. وقد نهاه القرآن عن اتخاذ أولياء سوى خالقه. وإذا كان ﷺ بحاجة إلى حماية بشرية، فقد كان أمامه المسلمون، الذين كانوا يكنون له من الحب أكثر من محبتهم لأبنائهم، والذين كانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم فداء له. يضاف إلى ذلك أن هامة الرسول ﷺ فى نهاية الفترة التى تعنينا، كانت تعلو هامة عمه،

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٧٨.

وأن خوفه على مصير عمه فى الآخرة كان يفوق خوفه على نفسه فى الدنيا.

لهذه الأسباب فإن صحة حديث أبى طالب مع الرسول ﷺ بشأن حمايته تبدو، من الناحية التاريخية، محل نظر.

٣- قائمة من أسلموا

وردت فى هذه القائمة أسماء ثلاثة وخمسين مسلما من الرجال والنساء، وأسماء عشائرهم، ويلاحظ فيها:

- أنها لا تضم من بنى عبدالمطلب سوى اثنين هما علىّ وجعفر.

- أن بنى عَبْد شَمْس، قبيلة أبى سفيان، والد معاوية، الخليفة الأموى فيما بعد، الذى يظهر فى مجال السيرة كلها بمظهر سيىء، أسلم منها ثلاثة أفراد.

- أن قبيلة خُوَيْلد - التى كانت تنتمى إليها خديجة زوجة الرسول ﷺ، لم يسلم منها سوى فرد واحد.

- أن قبيلة بنى البُكَيْر أسلم منها أربعة إخوة.

- ورد فى القائمة أيضا أسماء خمسة أشخاص، منهم عثمان بن عفان، أسلموا بدعوة أبى بكر، هذا بالإضافة إلى مولاه عامر بن فُهَيْرَة وإلى ابنتيه أسماء وعائشة (التى تزوجها الرسول ﷺ فيما بعد).

- كما ذكرت فى القائمة أسماء ثلاثة أو أربعة من الموالى.

وتثير هذه القائمة أيضا الملحوظات الآتية:

أ) النص، الذى يضخم من أهمية جملتين أو ثلاث يدعى أن أبا طالب قالها، يسرد أسماء من أسلموا دون تعليق وكأنها شىء عادى،

وهو لا يشير فى هذا الصدد إلى الصلة الواضحة التى تربط إسلام هؤلاء الصحابة بالآيات من سورة الواقعة فى قوله تعالى:

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٢]

هذا على الرغم من أننا هنا بصدد حالات إسلام حقيقى ووقائع تاريخية ذات أهمية كبرى للدين، إذ أنها تمثل حصيلة ثلاث سنوات من الدعوة لا مجرد عبارات افتراضية. والآيات المذكورة تشيد بهؤلاء الرجال والنساء الذين آمنوا بربهم ورسوله ﷺ. كذلك فإنها تشجع الآخرين على أن يحذوا حذوهم.

وأهمية حالات الدخول فى الإسلام المذكورة كانت تقتضى أن يذكر النص:

- الظروف التى جعلت هؤلاء الأشخاص أو بعضهم يهتدون إلى الإسلام.

- الأشخاص الذين دَعَوْهم إلى الإسلام (ونحن إذا كنا نعرف من هداهم أبوبكر إلى الإسلام لانعرف من هداهم الرسول إليه فيما عدا خديجة، وعلى، وزيد بن حارثة).

- فى أى مكان علموا بالإسلام: فى المسجد الحرام، أم فى اجتماع عام، أم فى السوق، أم فى مكان عملهم؟ (والنص لايذكر أبدا مهنة الأشخاص الذين يتحدث عنهم، سواء تعلق الأمر بالرسول ﷺ ،أو بأفراد قبيلته أو بأصحابه أو بخصومه).

- الأسباب التى حملتهم على ترك دين آبائهم واتباع محمد: هل لأنهم كانوا يثقون فى شخص من يحدثهم عن الإسلام، أم لأنهم كانوا

غير مستريحين للمعتقدات التى ورثوها، أم لفساد الأخلاق فى مجتمعهم وللظلم المتفشى فيه، أم لأن مضمون القرآن وبلاغته خلبا ألبابهم؟.

- الفترة التى استغرقتها عملية دخولهم فى الإسلام: هل كانت قراراتهم قرارات فورية، أم أنها جاءت بعد أيام أو أسابيع أو شهور من التفكير والتدبر؟.

- هل تحدثوا عن رغبتهم فى اعتناق الإسلام مع من حولهم ومع رؤساء قبائلهم؟

- هل كان هؤلاء الأشخاص على وعى بالمخاطر التى كانت ستواجههم بعد دخولهم فى الإسلام؟.

- هل حاولوا أن يدعوا إلى الإسلام أفراد أسرهم وأصدقائهم ومعارفهم، وإذا كانوا قد فعلوا فكم منهم استجاب لدعوتهم؟.

- كيف تلقت أسرهم وأصحاب عملهم خبر إسلامهم، وأى تغير أحدثه دخولهم فى دين الله فى حياتهم، وفى من يخالطونهم؟.

- هل كانوا يذهبون بانتظام لتأدية صلاة الجماعة؟.

- هل أصابهم أذى على يد قبائلهم، وفى حالة حدوث ذلك، هل فاتحوا الرسول ﷺ بشأنه؟.

- هل مدّ لهم إخوانهم فى الدين يد المساعدة؟.

لقد أهمل النص تماما أمر هؤلاء السابقين الذين يقول القرآن إنهم مقربون إلى الله تعالى. وكل ما نعلمه عنهم هو أنهم كانوا يصلّون فى شِعاب مكة وأن واحدا منهم شجّ رجلا من المشركين فى شجار حدث بين الفريقين.

ب) للمرء أن يتساءل عما إذا كانت هذه القائمة كاملة.

والملحوظة الأولى التى يمكن إبداؤها فى هذا الصدد هى أن دعوى إجراء حصر لمسلمى مكة دعوى باطلة. ولو أن النص ذكر أن الأسماء الواردة فى قائمته هى أسماء أبرز المسلمين، أو أكثرهم نشاطا فى الدعوة إلى الدين، أو من كانوا يؤدون صلاة الجماعة بانتظام لصدَّقناه دون عناء. لكن أحدا لم يكن فى مقدوره أن يعرف جميع المسلمين حتى فى وقتها، دع عنك بعدها بقرن ونصف، فى الوقت الذى لم يذكر فيه النص رقما، ولو تقريبيا، لأهل مكة، أو لأفراد أية قبيلة من قبائل قريش أو أية عشيرة من عشائرها، أو للقبيلتين اللتين تتحدث عنهما السيرة أكثر ما تتحدث، وهما: بنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

وإذا أردنا أن نشير إلى أمر واحد غريب فى هذا التعداد فيكفى أن نقول إنه لا يورد إلا أسماء تسع من النساء، أى ما يعادل ١٧فى المائة من مجموع من أسلموا. ومن هؤلاء النسوة سبع زوجات لمسلمين وابنتان هما ابنتا أبى بكر. فهل يعنى ذلك أن السبعة والثلاثين رجلا الآخرين كانوا كلهم أعزابا، أو أن زوجاتهم رفضن الإسلام بالرغم من السلطة التى كان يمارسها أزواجهن عليهن، أو من الشقة التى كانوا يوحون بها إليهن؟.

وهل يعنى ذلك أيضا أن أبا بكر كان الوحيد الذى استطاع أن يقنع ابنتيه باعتناق الإسلام (رغم أن صغراهن، أي عائشة لم يكن عمرها يزيد وقتها على سنة أو سنتين)؟ وإذا كانت جميع بنات الصحابة الذين أسلموا قد رفضن بدورهن الإسلام، هل رفضه كذلك أخواتهم وخدمهم وإماؤهم؟ ثم ألم يكن هناك نساء لسن بزوجات ولا بنات ولا بأخوات أحد من المسلمين اعتنقن الإسلام بمحض إرادتهن لأنهن كن يترددن على

قريبة لمسلم، أو لأنهن، حين كن يشترين حاجاتهن من السوق، سمعن من حَدَّثهن عن الإسلام؟

ألم تكن هناك حالات لنساء أو فتيات أسلمن محبة فى رجل من الرجال، كما يحدث أحيانا، أو لأنهن كن، بكل بساطة، يرغبن فى الزواج من مسلم؟.

أخيرا ألم تحاول زوجات المسلمين السبع اللائى أسلمن أن يبلغن رسالة الإسلام إلى أمهاتهن أو أخواتهن أو صديقاتهن؟.

جـ) أيا كان من قوة ذاكرة الأفراد الذين تناقلوا هذه القائمة، فى غياب أى أثر مكتوب فمن المرجح أن بعض الأسماء قد سقطت منها.

د) القائمة، كما هو واضح، لا تضم سوى أسماء من أعلنوا إسلامهم. وهى لا تأخذ فى الاعتبار حالات الأفراد - رجالا ونساء، أحرارا أو عبيدا - الذين نطقوا بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فدخلوا فى دين الإسلام دون أن يعلنوا ذلك كى لا يتعرضوا لاضطهاد قبائلهم أو سادتهم.

هـ) القائمة لا تتضمن إلا أسماء أفراد مقيمين فى مكة، وليس فيها أسماء لأحد من أعضاء القبائل الخارجية الذين استطاع محمد ﷺ أو أحد من أصحابه أن يتصلوا بهم حين وفدوا إلى مكة للحج أو للتجارة أو لزيارة أقاربهم المقيمين بهذه المدينة. والنص لا يتحدث عن مثل هذه الاتصالات.

ومع ذلك فليس هناك ثمة سبب يمنع من تصور أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينتهزون فرصة مواسم الحج وغيرها من الفرص

التى كانت تتيحـها لهم أنشطتهم اليومية فى السوق، وعـلاقاتهـم العائلية مع القبائل المذكورة أو رحلاتهم خارج مكة لنشر الإسلام.

كذلك فإن الحجاج والتجار والزوار «الأجانب» ذاتهم كانوا ولا شك، حين يصلون إلى مـكة، يسمعون عن هذا الرسـول الذى يدعو إلى دين جديد، وعن الضجة والخلافات التى أحدثتها دعوته فى هذه المدينة.

ولابد أن بعضهم حاولوا، إن لم يكـن لشىء فمن باب الفضول، أن يعرفوا المزيد عن هذا الدين، أو أن يروا رسول هذا الدين، وأن المسلمين كانوا دائما على استعداد لإجابة رغبتهم.

وليس هناك أيضا مـا يمنع من تصور أن عشـرات أو مئات من هؤلاء الأفراد قـد أدركتهم عـناية الله وأسلموا لـلأسباب ذاتهـا التى أدت إلى إسلام بعض الناس فى مكة أو لأسباب أخرى.

لهذه الأسباب جميعا، فـإن قائمة الأسماء التى وردت فى النص تبدو ناقصة. وهى لا تعكس فى الواقع سـوى جانب من حالات الدخول فى الاسلام التى حدثت فى مكة وغيرها خلال الفترة التى تعنينا.

٤ـ آيات القرآن التى أوردها النص

تثير هذه الآيات الملحوظات الآتية:

أ) الآية ٨١ من سورة آل عمران التى تتـحدث عن الميثاق الذى أخذه الله تعالى على النبيين تتعلق بأمر غيبى لا بسيرة حياة تتحدث عن مسائل دنيوية. والمؤلف، على العموم، لم يفعل سوى أن ردد ما يقوله القرآن.

ب) الآيات ١-٥ من سورة الـعلق وردت فى سياق أول لقـاء، يذكر النص تفـاصيله، بين رسول الله ﷺ وجـبريل عليه السـلام. وليس من

شأننا هنا أن نبدى رأيا فى مدى صحة ما ذكره النص فى هذا الشأن، لكن من الممكن أن نصدق الخبر الذى جاء فيه والذى مؤداه أن هذه الآيات هى أول ما نزل من القرآن.

جـ) الآية ١٨٥ من سورة البقرة تفرض صيام شهر رمضان وتحدد قواعد الصيام. وبالإضافة إلى كونها تتعلق بموضوع دينى بحت فإن الحكمة فى إيراد هذه الآية - التى هى فوق ذلك آية مدنية - فى حديث يتصل ببداية الإسلام غير مفهومة.

د) سورة القدر، والآيات ١-٥ من سورة الدُّخَان التى تتعلق بليلة القدر تشير إلى أمور غيبية ليس لها صلة بسيرة حياة الرسول ﷺ الدنيوية.

هـ) ذكر آية من سورة الأنفال - وهى سورة مدنية - تتعلق بغزوة بدر، التى حدثت خلال الفترة المدنية، لمجرد الإفادة بأنها وقعت فى شهر رمضان، أمر من الغرابة بمكان.

و) النص ، حين أورد سورة الضحى، لم يعط أى بيان عن الفترة التى فتر الوحى فيها عن رسول الله ﷺ ، وكل ما فعله هو أن فسر آيات السورة.

يتضح من هذه الملحوظات أن الآيات القرآنية التى أوردها النص فى جزئه الأول تتعلق فى معظمها بمسائل دينية وليس لها طابع تاريخى.

أما الاقتباسات التى وردت عن آخر الفترة أى قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) .... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ [الحجر: ٨٩ - ٩٤]

وقوله تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

فتستحق أن تدرس بعمق لأنها وردت فى النص دون تعقيب باعتبارها نهاية فتـرة وبداية فترة جديدة: نهاية فـترة الاستخفاء وبداية فـترة مباداة رسول الله ﷺ قومه.

ر) الأمر الوارد فى قـوله تعالى: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِـــينُ ﴾. وذلك الوارد فى قولـه تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾. ، هل يمـكن اعتبـارهما تكليفا جـديدا للرسول ﷺ ، ومرحلة جـديدة فى دعوته، أم أنهما تكرار لأوامـر سابقة فى قرآنٍ التكرارُ إحدى سمـاته المعروفة؟. إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على معرفة ما إذا كانت آيات قرآنية تشبه الآيتين المذكورتين قد أنزلت أم لم تنزل قبل وبعد هذه السورة.

- لقد رأينا أن الأمـر الذى يتضمن تكـليفا فى كلمـة «اقرأ» كان أول أمر صدر لمحـمد ﷺ ، وأول كلمة فى أول سورة أنزلت عـليه. و«اقرأ» فى هذا السياق تؤدى المعنى نفسه الذى تؤديه عبارة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾

- هذا التكليف يؤديه أيضا استخدام كلمة «أنذر» فى قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② ﴾ [المدثر: ١ - ٢]

والمعنى ذاته وارد فى عـدد من الآيات التى نزلت قبل سـورة الحِجْر، مثل قوله تعالى:

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ⑭ ﴾ [الليل : ١٤]

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ [النبأ: ٤٠]

وقوله تعالى:

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾ [الذاريات: ٥٠]

وهو وارد كذلك فى عديد من الآيات اللاحقة على تلك التى أوردها النص، مثل:

قوله تعالى:

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾

[يس: ١٠]

وقوله تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾ [السجدة: ٣]

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ [هود: ١٢]

وبناء على ذلك فإن الآيتين ٨٩ و ٩٤ من سورة الحِجْر لا يصح، تحت أى تفسير ممكن، اعتبارهما النقطة التى تنتهى عندها مرحلة وتبدأ مرحلة أخرى.

أما آية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ من سورة الشعراء، فإن النص لا يوضح بشأنها ما إذا كان المقصود بعبارة «عشيرتك الأقربين» هم قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، أم المقصود عشائر وقبائل قريش الأخرى. والذى يخطر على البال لأول وهلة هو أن المقصود هم قبيلتا الرسول ﷺ أو حتى قبيلة بنى عبدالمطلب وحدها. ومع ذلك فإن هذا ليس هو الموقف الذى يقفه النص، إذ أن من سيتجه إليهم رسول الله ﷺ فى الفترة التالية، كما سيتضح فى دراسة الفترة الثانية، إنما هم، وفقا له، قريش فى مجموعها.

٥ - النتيجة

يتضح من التحليل إذن أن النص لا يعتدّ به فى أى موضوع من الموضوعات التى تناولها بشأن أحداث ثلاث السنوات الأولى من الدعوة، باستثناء قائمة من أسلموا (مع التحفظات التى ذكرناها). وسنرى فى الصفحات التالية ما إذا كان تحليل سور القرآن الكريم التى نزلت خلال هذه الفترة ذاتها يلقى أضواء جديدة على الأحداث التى وقعت فيها وعلى ما ورد بشأنها فى النص من أنباء.

جيم - ما نزل من القرآن

يعطى ما نزل من القرآن خلال الفترة صورة أقرب بكثير إلى التصديق من تلك التى يعطيها النص عن دعوة الرسول ﷺ وعن ردود الفعل التى أحدثتها، فإننا نجد فيها أكثر المعلومات دلالة على أن معظم أسس الإسلام أرسيت خلال هذه الفترة.

وقد استخرجت هذه الآيات من السور من ١ إلى ٤٩ التى اعتبر بلاشير، فى مقدمة ترجمته للقرآن، أنها نزلت أثناء الفترة الأولى من

الدعوة، وتبلغ آيـاتها ١٢١٣ آية، أى ربع ما نزل من الآيات فى الـفترة المكـيـة وهذه السـور هـى: العـلق ١- ٥، والمدثـر ١- ٧، وقـريش، والضحى، والشرح، والعصر، والشمس، والماعون، والطارق، والتين، والزلزلة، والقارعة، والعاديات، والليل، والانفطار، والأعلى، وعبس، والتكويـر، والانشقـاق، والنازعات، والغـاشيـة، والطور، والواقـعة، والحاقة، والمرسـلات، والنبأ، والقيامة، والرحـمن، والقدر ، والنجم، والتكاثر، والعلـق ٦-١٠ ، والمعارج، والمزمل، والإنسان، والمطفـفين، والمدثر ٨-٥٥ والمسد، والكـوثر، والهُمَزة، والبلد، والفيـل، والفجر، والبروج، والإخلاص، والكافرون، والفاتحة، والفلق، والناس.

١- الله سبحانه وتعالى

قرآن هذه الفتـرة، حين يذكر الله، يتحدث عن سـمتيه الرئيسـيتين: تلك التى تتعلق بصفاته، وتلك التى تتعلق بقدراته سبحانه وتعالى.

أ) صفاته

الرحـمن، المـنتـقم، الرحـيـم، الأكرم، الأعـلى، رب السـمـوات والأرض وما بينهـما، رب المشرق والمغرب، ما من إله غـيره، التواب، رب العرش، الـعظيم، الواحد، الأحـد، رب العالمين، واسع المغـفرة، العليم، الحكيم، أهل التقوى وأهل المـغفرة، لم يلد ولـم يولد ولـم يكن له كفؤا أحد ذو الجلال والإكرام. . . إلخ

ب) قدراته

عَلَّم الإنسان ما لـم يعلم، يضل من يشاء ويهدى من يشاء، له الآخرة والأولى، خلق الإنسان فسواه فعدله، فى أى صورة ما شاء ركبه، الذى قدر فهدى، خلق الإنسان من علق، هـو أمات وأحيا، صَبَّ الماء صبا،

ثم شق الأرض شقا، فأنبت فيها حبا وعنبا وقَضْبًا وزيتونا ونخلا وحدائق غُلبا، الذى أخرج المرعى، رفع السماء، أغْطَش ليلها وأخرج ضحاها، دحا الأرض وأرسى الجبال، جعل النوم سُباتا، جعل الليل لِبَاسا، جعل النهار معاشا، خلق الزوجين الذكر والأنثى، علّم القرآن، وضع الميزان، خلق الجان، مَرَجَ البحرين يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، له الجوار المنشئات فى البحر،هو أضحك وأبكى، هو أغنى وأقنى، يدخل من يشاء فى رحمته، إن بطشه لشديد، فعال لما يريد، كل من عليها فان ويبقى وجهه، يسأله من فى السموات والأرض. . إلخ.

ولابد أن صورة الإله الذى اجتمعت له كل هذه الصفات والقدرات قد أحدثت أثرا شديدا عند العرب الذين كانوا يعبدون أصناما وآلهة من كل نوع، نقلوها أحيانا عما كان الناس يعبدون فى بلاد مجاورة (*) وكلما أضافت آيات قرآنية جديدة صفة أو قدرة جديدة إلى صفات وقدرات هذا الإله الواحد الذى لا تدركه الأبصار والقادر على كل شيء، كان ذوو الأحلام من الناس يعقدون ولاشك فى أنفسهم مقارنات بينه تعالى وبين أصنامهم وآلهتهم، ويتحدثون عنه فى بيوتهم ومع أخلائهم وفى الأماكن العامة، وكانوا يتبادلون الرأى فى شأنه، ويتساءلون عن الموقف الذى كان ينبغى اتخاذه إزاء رسوله ﷺ.

٢- الرسول

لم يرد فى أية آية من آيات القرآن تتعلق برسول الله ﷺ أو برسالته إشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى سرية الدعوة، بل العكس هو

(*) أفرد النص ست أو سبع صفحات لذكر أصنام العرب والقبائل وأصنامها وسدنتها والبيوت التى تعظمها، والتماثيل والحجارة التى كانت بالكعبة والتى كان يتخذها أهل كل دار فى دارهم.

الصحيـح، فإن الله تعالى بعد أن قـال لرسوله ﷺ بصيغـة الأمر: «قُمْ فَأَنْذِرْ» فى الآية الثانية من سورة المدثر، قال له: «سَنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَى» فى الآية السادسة من سورة الأعلى، ثم قال: «فَـذَكِّرْ» فى الآية التاسعة من السورة ذاتهـا. والآية ٤٥ من سورة النازعـات تصفه بقولـها «إنما أنت مُنْذِرُ مَنْ يَخْـشاها». والآية ٢١ من سورة الغاشـية تصفه بأنـه «مُذَكِّر». والآيةْ ٨ من سورة المزمل، أخيرا، تـأمره بأن يذكر اسم ربه. ونظرا إلى أن فعلى «فـأنذر»، و«فذكر» لم يقـترنا بأى قيد أو تحـديد فيمـا يتعلق بالأشخـاص أو المجموعات التى كـان على الرسول ﷺ أن يوجه إلـيها دعوته، فأغلـب الظن، خلافا لما يقوله النص، أن رسـالة الرسول صلى الله عليه وسلم كـانت من اليوم الأول موجهة إلى الـكافة. وكون آيات القرآن التـى أنزلت خلال هذه الفتـرة تتضمـن عناصر تشيـر إلى وجود معارضة للرسول ﷺ، وعناصـر أخرى تواسيه وتقرر له أن الله يؤيده، يؤكد هذا الاستنتاج. فهناك، من جهة:

- تأكيد موجـه إلى معارضى محمد ﷺ فـى قوله تعالى: ﴿ومـا صَاحِبُكُم بمجْنُون﴾..

- وتأكيد آخر فى قوله تعالى: ﴿ما ضَلَّ صَاحِبُكُم وما غَوَى.. وما يَنْطِقُ عن الهَوَى﴾.

مما يدل على أن هؤلاء المعارضين كانوا يجادلون الرسول ﷺ بشأن ما كان يراه، ورد على قولهم.

وهناك من جـهة أخرى خطاب موجـه إلى محمـد ﷺ يقول له الله تعالى فـيه: «فمـا أنت بنعمة ربـك بكاهن ولا مجنون»، وتوصـية بأن يصبر على ما يقول معارضوه وأن يهجرهم هجرا جميلا.

والآيات المذكورة ليس فيها أية إشارة إلى حماية أبى طالب أو أية حماية بشرية أيا كانت للرسول ﷺ. إن محمدا ﷺ لم يكن بمفرده أمام معارضيه بل كان الله تعالى معه: «فإنَّكَ بأعيُننا». واذا كانت الحماية مطلوبة فإن الله هو الذى يجب الاتجاه إليه فى طلبها. لذلك فإن القرآن يخبره بأن يتخذ كوكيل له، رب المشرق والمغرب الذى لا إله إلا هو. ومحمد ﷺ ليس هو الذى كان يحتاج إلى حماية. إن الذى كان يحتاج إليها هم خصومه. وبعد أن قال له الله تعالى: ﴿وذَرْنى والمُكَذِّبين أُولى النَّعْمةِ ومَهِّلْهُم قليلا﴾ فإنه لم يكن يشعر، ولا ريب، بكثير قلق على سلامته الشخصية. وهذه الآيات ليست الآيات الوحيدة التى تدل على أن دعوة الرسول ﷺ كانت دعوة عامة وعلى الحماية الربانية التى كان يتمتع بها. وهناك فيما يلى من أجزاء هذه الدراسة شواهد أخرى على ذلك.

٣- القرآن الكريم

قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)﴾ [الطارق: ١٣ - ١٤]

وقال تعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ [عبس: ١١ - ١٦]

وقال تعالى:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾ [التكوير: ٢٥ - ١٨]

وقال تعالى:

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٢]

فى هذه الآيات وفى غيرها، لا سيما فى سورة الحاقة وسورة الإنسان، نجد عددا غير قليل من شواهد معارضة الكفار لدعوة الإسلام.

فبالإضافة إلى أوصاف الجنون والضلال والغواية والكهانة التى رُمى بها رسول الله ﷺ والتى سجلت فى الآيات القرآنية التى نزلت بشأنه، نجد أيضا وصفه بأنه شاعر. كذلك فإننا نعلم من الآية ٢٥ من سورة التكوير أن القرآن قد وُصِفَ بأنه ﴿قَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.

وكون القرآن قد شجب مثل هذه الأقوال شجبا علنيا، معناه أنها لم تُقل فى الخفاء فى لقاءات خاصة بل قيلت على لسان كفار كانوا يعبرون عن آرائهم فى اجتماعات تضم عدة أفراد.

٤- البعث والحساب

ورد فى كثير من السور التى نزلت فى هذه الفترة أن الموت ليس نهاية الحياة، وأن الناس بعد أن يدفنوا فى القبور ويصبحوا عظاما وترابا سيبعثون ويحاسبون.

وفى السور المذكورة وصف بالغ الدلالة ليوم القيامة الذى يتم فى إطاره الحساب. وصف عبئت فيه كل الوسائل لإحداث أكبر تأثير ممكن

ولإثارة مشاعر الخوف والجزع والفزع فى نفس المستمع الكافر ، وذلك على النحو التالى:

أ) بالجمع بين تأثير الصوت: «إذا نُفِخَ فى الصُّور»، «القَارِعةُ ، ما القَارِعَةُ. ومَا أَدْرَاكَ ما القَارِعَةُ»، «يوم تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ» (والراجفة هى الصيحة الهائلة)، وتأثير الصورة.

ب) باستخدام جميع عناصر الكون المعروفة فى الصور الموصوفة: السماء والأرض والجبال والنجوم والقمر والكواكب.

جـ) بعرض العناصر والظواهر التى يسمح استقرارها وانتظامها للإنسان فى الدنيا بأن يحيا حياة طبيعية، وهى فى حالة هائلة من الانفجار والتحول والانهيار والاضطراب والاختلال: حالة الأرض التى تهزها الزلازل وتخرج البراكين فيها أثقالا ثقيلة، والكواكب التى تنتثر، والبحار التى تُسَجَّر، والشمس التى تكدّر (أى التى تُلَف وتُطْوى)، والنجوم التى تُطْمس، والجبال التى تُسَيَّر، والسماء التى تَنْفطر، والقمر الذى يُخْسَف، والشمس والقمر وهما يلتقيان.

د) بالتنويع فى الأوصاف:

- فيوم الحساب يسمى أيضا بيوم الفصل، وباليوم الحق، والميعاد، وبالواقعة، وبالطَّامة الكُبْرى.

- والسماء التى تمور، وتنشق، وتُشَقَّق، وتصبح وردة كالدِّهان.

- والأرض التى ترجّ رجّا، وتَرْجُف، وتَمور، وتُسوّى، وتُخْرِجُ أثقالها، وتُدَكّ دكا.

- والجبال التى هى كالعهْن المنفوش، والتى تُسيَّر، والتى تصبح هباء مُنْبثا، والتى تنسف، والتى تكون سرابا.

- والبحار التى تُفجَّر وتُسجَّر.

هـ) وإلى انهيار النظام العام الذى كانت تدور فيه الحياة السابقة للإنسان الذى يبرز من باطن الأرض يضيف القرآن مناظر مرعبة للجحيم، الذى يسميه أيضا بالنار الموقدة، وبجهنم، التى تملأ مجرد لمحة خاطفة منها بالذعر والهلع قلب أشجع الشجعان، هذا الجحيم الذى سيكون للمجرمين دار الخلود.

و) باستخدام عدة مستويات لتصوير فزع الإنسان وقد وقع بين كارثة ماضيه وبين المستقبل المؤنس الذى ينتظره:

- المستوى الجسدى، فنراه وقد علت وجهه غَبَرَة ترهقها قَترة، قلبه واجف، وبصره خاشع، وقد التفت ساقه بالساق.

- مستوى آخر ، هو مستوى الذكريات، فنحن نراه يعض بنان الندم على ماضيه: «إنه كان فى أهْله مَسْرورا»، «إنه ظَنَّ أن لن يَحُورَ»، «يوم يتذكر الإنسانُ ما سَعَى»، «يسألُ أيانَ يومُ القيامة»، «آثر الحياةَ الدنيا»، «فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى، ولكن كَذَّبَ وتَوَلَّى، ثم ذَهَب إلى أهله يَتَمطَّى»، «يومئذٍ يتذكَّرُ الإنسانُ وأنَّى له الذِّكْرَى»، «يقولُ ياليتنى قَدَّمْتُ لحياتى».

- مستوى ثالث، يتعلق بالحاضر. ونحن نراه فيه وهو يقول «ياليتنى كنت ترابا»، وهو ينبأ بما قدم وأخَّر، وهو يود «لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التى تؤويه. ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه».

- مستوى رابع نراه فيه تحت المحاكمة. إنه لا يسأل عن ذنوبه ولكنه يُعْرَف بسيماه، وهو يخبر بما أحضر وقدم وأخر. إنه لا ينطق. ولا يؤذن له فيعتذر. لقد أوتى كتابه وراء ظهره. ويقال إنه من أصحاب الشمال،

أى أنه مجرم، يؤخذ بالنواصى والأقدام، فى الأغلال، ويطوف بين جهنم وبين حميم آن، وهذا وسط صيحات: «أولَى لك فأولَى، ثم أولى لك فأولى». «فيومئذ لا يُعَذب عذابَه أحد ولا يُوثق وثاقَه أحد».

ز) ومما يزيد فى مأساوية الصورة التى يصور بها مآل الكفرة، الصورة المقابلة التى يصور بها مصير المؤمنين. فالمؤمن يبدو مسفر الوجه، ضاحكا مستبشرا، وهو ينظر إلى ربه. وسوف يحاسب حسابا يسيرا وسيؤتى كتابه بيمينه ويُعْلَن أنه من أصحاب اليمين. وسيكون من المقربين إلى ربهم وسينقلب إلى أهله مسرورا لأنه كان يخاف مقام ربه، وكان ينهى نفسه عن الهوى. وستكون الجنة مأواه، وسيسمع من يحييه بتحية «سلام لك».

ح) إن الكون المادى، والإنس الذين يخرجون من الأجداث، والجن (الذين سيحاسبون بدورهم)، والجنة والنار، لن يكونوا وحدهم أمامه. إن ربه سيُشاهَد فى ذلك اليوم، كما أن الملائكة سيكونون حاضرين، على أرجاء السماء، وقد وقفوا صفًا صفًا. ولن يتكلموا إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. وسيصل الرسل فى الساعة التى أُقتت لهم.

فالعربى الذى كان يسمع أن هناك حياة بعد الموت وأن الجسد، بعد أن كان عظاما وترابا، سيعاد تكوينه، وأنه سيخرج من قبره ليبدأ حياة جديدة، وأن أسلافه الذين ماتوا وجميع من ماتوا ويموتون من البشر على وجه الأرض منذ بداية الخلق سيبعثون بدورهم من جديد، كان ولاشك يندهش غاية الاندهاش، فإن شيئا فى ديانة الجاهلية التى كان يؤمن بها، سواء فى ذلك توقير الكعبة أو الأوثان التى كانت تحيط بها، أو فى كلام حكماء العرب وكهانهم وشعرائهم لم يكن ينبئه بهذه الحياة الجديدة، وإذا كان قد بقى له شىء من دين إبراهيم - خليل الله الذى

ذكره عبدالمطلب فى حـديثه مع مبعوث أبرهة - فليس هو بالتأكـيد حياة ما بعد الموت.

ولعل العرب وجدوا من الصعوبة فى تقـبل هذا الجزء من دين محمد صلى الله عليه وسلم أكثر مما وجـدوه فى جزئه الذى يحدثهم عن الله، الذى كان يقسم به، طبـقا للنص، كثير مـن الناس فى الجاهلية، والذى جـاء فى عديد من آيات القـرآن أنهم كـانوا يقرون بـقدرته، وبصـفتـه كخالق. ولابد أن أصواتا كثيرة ارتفـعت لتقول باستحالة ظاهرة البعث. ولابد أن هذا الاعـتراض هو الذى تشـير إليـه الآيتان ٣ و٤ من سـورة القيامة فى قوله تعالى:

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾. [القيامة : ٣و٤]

هل يستفاد من هذا أن الغالبية العظمى من أهل مكة أصغت إلى هذه الأصوات المعـارضة؟ أيا كان الأمـر فإن كثيـرين منهم لابد أنهم شُدهوا لوصف القيامة ويوم الحساب فى القـرآن. ومن المستحيل أن يتصور المرء عربيـا لا تتحرك نفســه لهذا الوصف الذى لا يبارى فى قوته وتـركيزه. ولكى يقـاوم العربى تأثيـره كان لابـد له من ثقافـة واستـعداد بلغـا من العقلانية شأوا بعيدا، أو من حـضارة مادية بلغت أقصى درجاتها، أو أن يكون على علم بنصوص أدبيـة أو دينية أعلى درجة من الآيات القـرآنية التى تحدثه عن يوم الحساب هذا.

وواقع الأمر أن المستمع العربى وقـتها لم يكن هذا الشخص ولاذاك. كان كقاعدة عامة، أميـا لا يعرف القراءة والكتابة. وحتى إذا كان لبعض كبار التجار المكيين إلمام بالقراءة والحـساب والمحاسبة، فمن غير الممكن أن

يتحدث المرء عن «ثقافة» حتى بين أولئك ممن أتاحت لهم تجارتهم فرصة السفر إلى خارج الجزيرة العربية والاختلاط بمجتمعات متقدمة.

لقد كانت ديانة العرب ديانة وثنية قوامها الأساطير والخرافات التى بقيت منها آثار حتى بعد الإسلام. ولم يكن لدى العرب حضارة متقدمة، ولم يكن شعراؤهم يحدثونهم إلا عن الصحراء وعن ديارهم الخالية وجمال المحبوبة وأمجاد الآباء والأجداد.

ومن الصعب أن يتصور المرء أن تكون هذه الآيات التى تتحدث عن البعث والحساب قد اقتصرت إذاعتها على دائرة محدودة من الأشخاص. وإذا كان نص ابن إسحاق لم يشر إليها ولم يصف ما لابد أنها ولَّدَته فى قلوب العرب من مخاوف وآمال، فليس معنى هذا أنها لم تحرك وجدان كثير من الناس وأن هذا التحريك لم يُفْضِ إلى دخول عديد منهم فى الإسلام.

٥- الخير والشر

الآيات القرآنية التى تتعلق بالخير والشر يمكن أن تقسم إلى أربعة عناوين:

عنوان يتعلق بالمبادىء العامة، وعنوان يبين على وجه التحديد الأعمال التى يجب القيام بها (أى الأوامر) والأعمال المحظورة (أى النواهى)، وعنوان يتعلق بالمحاسبة عن الأعمال، وعنوان يتعلق بمسئولية الفرد.

أ) المبادىء العامة:

يمكن تلخيص فلسفة الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع كالآتى:

- الإنسان مفطور على حب الحياة الدنيا العاجلة. أما أولئك الذين يفضلون الحياة الآخرة، التى هى أطول وأفضل، فهم قلة قليلة.

- الإيمان والعمل الصالح شرطان لا غنى عنهما للنجاة من النار واستحقاق الجنة.

- الظلم والتكاثر والطغيان خطايا كبرى.

- التواضع مأمور به والرياء منهى عنه.

- لابد من التواصى بالحق والصبر والرحمة.

- الأعمال الصالحة تزكى النفس والآثام تدنسها، وأولئك الذين يزكون نفوسهم بها سيسعدون فى الحياة الآخرة. أما الآخرون فَسَيَشْقُون.

- المؤمن الذى يمنع الماعون، سيكون هو أيضا من الأشقياء فى الآخرة.

الحق، والصبر، وتزكية النفس بصالح الأعمال ، والمرحمة، والعدل، هذه هى الكلمات الأساسية فى الدين الذى كان يدعو إليه محمد ﷺ فى مكة خلال الفترة الأولى من بعثته. ولم يكن لدى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم وسواهم من قبائل قريش قطعا اعتراض على هذه الفضائل طالما بقيت مثلا أعلى لكل امرىء أن يأخذ به نفسه أو يتركه. أما إسباغ قيمة دينية عليها وجعلها إجبارية، وتهديد من لا يلتزم بها بنار جهنم، وإقناع المرء أيضا بالإيمان بإله واحد، وحمله على العدول عن فخره بنفسه، وعن تغنيه بأمجاد قبيلته، وإعلانه أن قومه هم أقوى الناس وأكثرهم جودا وأعظمهم شجاعة فى القتال وأوفرهم عددا، فذلك مالا يمكن قبوله، فإن التقوى والتواضع لم تكونا قط بين الفضائل العربية كما يصورها الشعر الجاهلى.

ويلاحظ فى هذا الصـدد أن الآيتين ١ و٢ من سورة التكاثر تـوحيان بأن نفرا من الناس دفعهم التكاثر والتنافس إلى زيارة المقابر. وهذه واقعة تاريخيـة هامة بدليل أن الـقرآن تحدث عنهـا. ولما كانت قد حـدثت فى الفترة التى تعنينـا، فقد كان طبيعيا أن يذكر مـؤلف السيرة الظروف التى أحاطت بها والأشخاص الذين اشتركوا فيها، لكن النص، الذى استطاع أن يتقصى تاريخ زمزم منذ أن ذهبت أم إسماعيل عليه السلام تبحث عن ماء لابنهـا إلى أن تَلَقَّى عبـدالمطلب الأمر بحـفرها، لم يقـدم أى شرح بشأنها.

أخيرا، فإذا كانت هناك عبارة تلخص فلسفة الخلاص فى الإسلام فإن هذه العبارة التى تتردد عشـرات المرات فى القرآن - هى تلك التى نجدها فى سورة العصر، والتى تتحدث عن «الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

ب) الأوامر والنواهى

للنجاة من النار ودخـول الجنة لابد، طبقا لما يقوله قـرآن هذه الفترة، من الإيمان، والإنفاق، والتناهى عـن الفجور ، وعن وأد البنات، ومن مراعاة الأمانة.

(١) الإيمان

الإيمان بـالله وبدينه وباليوم الآخـر هو أول شروط النـجاة. والآيات القرآنية التى نزلت فى هذه الفترة تتضمن عنصرا تاريخيا لا جدال فيه هو الموقف السلبى الذى وقـفه بعض من اتجه إليهـم الرسول ﷺ بالخطاب. إن القرآن يسجل منذ سورته الثانية، أقوال الخطاة الذين اعترفوا بكفرهم. فسورة الطور متلا تحدثت عن المـكذبين «الذين هم فى خَوْضٍ يلعبون». وفى سورة الواقـعة يعجب الـقرآن من كونهم، بـدلا من شكر الله على

قرآنه، يدهنون ويجعلون رزقهم أنهم يكذبون. وفى سورة الحاقة يسجل القرآن أن منهم مكذبين ينكرون أنه لحق اليقين. وفى سورة المطففين أخيرا يكرر القرآن إنذاره بالويل لأولئك الذين لا يظنون أنهم مبعوثون، والذين اذا تليت عليهم آيات الله قالوا «أساطير الأولين». والحاصل أن نص ابن إسحاق لا يذكر أية واقعة أنكر فيها شخص أو أشخاص من قريش وجود الله تعالى أو كذّب بالبعث.

(٢) الإنفاق

اهتم القرآن بمصير الفقراء طوال الفترة المذكورة. وهذا ثابت من تعاقب السور التى تتحدث عنهم. ولابد أن من تتكون منهم هذه الفئة من الناس فى مكة كانوا يشكلون أغلبية السكان. ولم يكن هؤلاء الفقراء أفراد قبائل قريش وحدهم، بل كانوا أيضا من الأجانب الذين يرى المرء أمثالهم اليوم فى مكة وفى كثير من مدن العالم: رجال ونساء وأطفال جاءوا مع جماعاتهم للحج ثم قرروا البقاء أو تركهم ذووهم وراءهم، وآخرون جاءوا بوسائلهم الخاصة من مناطق أشد فقرا، وقد جذبهم رخاء هذه المدينة الظاهر فعاشوا على التسول أو على الفسق أو الجريمة، أو كانوا يكسبون لقمة عيشهم من القيام بأعمال يزدريها أهل البلد.

إن القرآن يذكر أن الله تعالى قد تولى قضية هذه الفئة العريضة من الناس. وهو يبصر الناس بمشكلتهم ويُخصص لهذا الداء من الآيات أكثر مما يخصص لكل الأدواء الأخرى التى اهتم بها.وتتكون فلسفة القرآن فيما يتعلق بالفقراء من أربعة أجزاء:

أ) رد كرامتهم إليهم بقوله إن المعونة التى تقدم إليهم ليست تبرعا وإنما وفاء بدين، وذلك بتقرير أن الصدقة التى تعطى لهم ليست دون

مقابل وأنها تـزكى المال الذى أخذت منه، وبإبلاغ من يؤدونهـا أنهم لا يقدمـونها إلى الفـقراء وإنما يقدمـونها لوجـه الله، وبالتشديـد على أنها قرض مقدم لله، وأن هذا القرض سيرد إليـهم فما سيجدونه عند الله هو خير وأعظم أجرا.

ب) جعل مشكلتـهم مسئولية جماعـية، وذلك بإلزام كل مسلم بدفع جزء من ماله الحـلال كفرض دينى للفقراء سـواء كانوا من ذوى قرباه أو من غيرهم.

جـ) اعتبار أداء أو عدم أداء هذا الفرض مسألة تتعلق بالدين لا مسألة اجتماعية، وجعل مصيـر الإنسان فى الآخرة يتوقف إلى حد كبير على موقفه من الزكاة، واعتبار البخل خطيئة حقيقية.

د) إظهار الكبراء من أصـحاب المال والجاه الذين كانوا يعـيشون فى الأبهة والبحـبوحة، والذين كانوا لا ينفقـون إلا القليل من أموالهم على الفقراء وقد ذُلُّوا يوم القيامة: «ما أغنَى عنِّى مَاليَه. هَلَكَ عنِّى سُلْطَانيَهْ»: «فليس له اليومَ هَا هُنَا حَميمٌ».

وأغلب الظن أن وقع الآيات القـرآنية التى تتحـدث عن هذا الموضوع على الفقراء الذين كانوا يعيشون فـى مكة وحولها كان كبيرا. ولعل هذا الجانب من جـوانب الإسلام بالنسبـة لهذه الطبـقة المغبـونة، التى كانت ترزح تحت وطأة المشكلات المادية اليومية، كان أهم من كل ما عداه.

ولابد أن قلة من هؤلاء الفـقراء هى التى استطاعت أن تقـاوم إغراء اتباع هذا الرسول الذى كان ربه يحبهم ويعـترف بكرامتهم ويمنحهم حقا على ثروة الأغنياء.

وعلى العكس ،فلابد أن هجوم الإسلام المتكرر على الأغنياء ومن كانت بيدهم مقاليد الأمور أوْغَر صدور الطبقة الحاكمة فى مكة على رسول الله ﷺ ، وأنه قضى على كل أمل فى التوصل لحل وسط بين الطرفين، فقد كان من شأن تقرير حقوق للفقراء فى الواقع تعريض سيادة هذه الطبقة للخطر، وكان هذا سببا إضافيا يدعوها لمحاربة محمد ﷺ والدين الذى أتى به.

(٣) تحريم الفسق

قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) ﴾

[الانفطار: ١٤ - ١٥]

وقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج: ٢٩ - ٣١]

وهذا التحريم يوحى بأن الفجور كان متفشيا فى زمن الرسول ﷺ ، بكل ما يجره من شرور على المجتمع: البغاء والأمراض التناسلية (التى لم تكن هناك فى وقتها سبل لمعالجتها)، وولادة أطفال غير شرعيين، والخيانة الزوجية. . إلخ. وكانت الفئة التى تعانى من هذه المشكلة أكثر من غيرها هى، بطبيعة الحال، النساء: البغايا أولا، ثم النساء اللائى كن ينجبن أطفالا من الزنا ويتكفلن وحدهن بإعالتهم، وكذلك الزوجات الشرعيات اللاتى يخونهن أزواجهن أو اللاتى كن يبتلين منهم بالأمراض التناسلية.

والقرآن، حين ألزم الرجال بالاقتصار على زوجاتهم وما ملكت أيمانهم، حمى المرأة والطفل. كذلك فقد خلق حافزا على الزواج فى وقت لم يكن للنساء فيه عمل ولم يكن باستطاعتهن التطلع إلى حياة تصون كرامتهن وتكفل لهن وضعا اجتماعيا محترما إلا فى الزواج. لهذا فلابد أن هذا التحريم هيأ ظروفا مواتية لدخول النساء فى الإسلام.

(٤) تحريم وأد البنات

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ [التكوير: ٨ – ٩]

وكان العرب يعتبرون البنات، كما يتضح من آيتى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ [النحل: ٥٨– ٥٩]

ومن آيات غيرها فى القرآن، عارا ومسبة. وكان إنجاب البنات، بالنسبة للفقراء خاصة، عبئا ثقيلا فى معظم الأحيان. لذلك لم يكن من الغريب أن يعمد الآباء، كما هو الحال اليوم فى عدد من بلدان آسيا الفقيرة، إلى قتل بناتهن فى طفولتهن (أو إلى دفعهن إلى البِغَاء).

وقد جاء تحريم هذه العادة فى الإسلام موازيا للأحكام القرآنية التى تهدف إلى تحسين مصير الفقراء. ولابد أنه كان له وقع حسن فى قلوب جميع النساء، وعند الرجال الذين كانوا يستنكرون هذه العادة اللاإنسانية.

(٥) الأمانة

قال الله تعالى:

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨ ﴾ [الرحمن: ٨ - ٩]

وقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ㉜ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ㉝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ㉞ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ㉟ ﴾ [المعارج: ٣٢ -٣٥]

هذه الآيات التى تأمر برد الأمانات وباحترام العهود، وتنهى عن الغش بجميع صوره، كما تنهى عن شهادة الزور، توحى بأن الغش كان يمارس بكثرة فى مكة وفى غيرها من أنحاء الجزيرة، وبأن تدابير مراقبة صحة الموازين والمكاييل كانت منعدمة أو غير كافية. ولابد أن الأمناء من الناس حين علموا، إزاء هذه الظاهرة، بأن القرآن يقدر أمانتهم حق قدرها وأنه يعدهم بمكان فى الجنة شعروا بميل إلى الدين الجديد.

كذلك فإن ضحايا الغش فى المعاملات، بدورهم ،لابد قد أسعدهم أن يعلموا أن من غشُّوهم سوف يعاقبون على فعلتهم فى الآخرة. أخيرا فإن كل من كانوا يشترون أو يبيعون، أى الناس كافة، لابد أنهم سُرُّوا حين علموا أن الله بالمرصاد للغشاشين، وأن ذلك قربهم إلى الإسلام.

جـ) المحاسبة عن الأعمال

قال الله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]

وقال تعالى:

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) ﴾ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار: ٥ و ١٠ – ١٢]

إن العدالة الإلــهيــة - بخلاف عدالة البشر التى تعـتمد على الظاهر والتى قد تزلّ أو تُخدع - عدالة لا تشوبها شائبة.

هذه العدالة، التى لا تـغفل عن شىء، سمة أخرى لابـد أنها جذبت إلى الإسلام قلوب كثير ممن يتطلعون إلى مثل أعلى للعدالة أو ممن وقعوا ضحية للعدالة القبلية أو القبائلية السائدة.

د) المسئولية

قال الله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) ﴾ [المدثر: ٣٨ و ٤٨]

وقال تعالى:

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) ﴾ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم: ٣٨ – ٣٩]

هذه الآيات ترسى قاعدتين أساسيتين:

- مسئولية كل إنسان، مسئولية كاملة شاملة، عن أعماله.

- رفض كل شفاعة لصالح المجرم.

فسواء كان المجرم غنيا أو فقيرا، سيدا أو شحاذا، وسواء كان ينتمى إلى قبيلة قوية أو ضعيفة، وسواء كان مكيا أو عربيا أو أجنبيا، رجلا حرا أو عبدا أو امرأة، فالبشر جميعا متساوون أمام العدالة الإلـهية. وليس بينهم أى تمييز.

والعدالة التى تستند إلى تعريف دقيق للأعمال التى سيطلب من المرء أن يقدم حسابا عنها، وإلى معرفة كاملة وتفصيلية بجميع الجوانب الظاهرة والباطنة للأعمال موضع الحساب، والمساواة المطلقة أمام القانون، والحيدة المطلقة من جانب القضاة. العدالة التى يعلم المرء إجراءاتها سلفا والتى لا تكتفى، شأن العدالة البشرية، بمعاقبة المرء عن جرائمه، بل تكافئة عن أعماله الصالحة والتى لا تعرف الظلم، كل هذا ما كان يمكن إلا أن تقر به عينا كل إنسان لديه إلمام بأحوال عدالة البشر. ولابد أن هذه الأحكام قد أدت إلى اعتناق نفر كثيرين للإسلام. وفى هذا المجال أيضا فإن الاستخفاء لايمكن تصوره.

(٦) الثواب والعقاب

القرآن يقدم فى سور كثيرة وصفا، من جهة ، لجهنم التى يُعاقب فيها الكافرون والضالون والمجرمون، ومن جهة أخرى، للجنّة التى يكافأ فيها المتقون والذين آمنوا والطيبون والأطهار.

أ) النار:

جحيم، نار مُوقدة، تَرْمى بشرر كالقَصْرِ، كأنه جِمَالاَتٌ صُفْرٌ، نَزَّاعة للشَّوَى، لا تُبْـقى ولا تَذَر، والذين يؤتون كتبهم بشمالهم سيؤخذون

فَيُغَلُّون ثم الجحيم يصلُون، ثم فى سلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعا يسلكون، يلبثون فيها أحقابا، شاربين من الحميم شُرْب الهِيم، لا يذوقون فيها بَرْدا ولا شَرابا إلا حميما وغَسَّاقا. ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يُسْمِن ولا يُغْنِى من جُوع، يستظلون بظل من يَحْمُوم، لا بارد ولا كريم، ظل لا ظليل ولا يُغنى من اللهب. وسَواء صبروا أو لم يصبروا فسواء عليهم. وسيذوقون ولن يزيدهم إلا عذابا.

ب) الجنة:

يمكن تقسيم وصف الجنة فى سور هذه الفترة إلى خمسة أجزاء: الخارج، والداخل، والأسرة، وملاذ المآكل، والرضا.

١) الخارج: جنة عالية، قُطوفها دانية، ذات أفنان، سِدْر مخضود وطَلْح مَنْضُود، وارفة الظلال، فيها ماء مسكوب، عين جارية، نخل ورمان، وحدائق وأعناب، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا.

٢) الداخل: سُرُر مرفوعة، وأرائك ، ونَمَارق مَصْفوفة وزَرَابى مبثوثة، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق، مُلْك كبير، لباس من حرير وسُنْدُس وإستبرق، وأساور من فضة.

٣) الأسرة:

أ- الزوجات: «إنا أنشأناهُن إنشاءً، فَجَعلناهُنَّ أبكَارا، عُرُبًا أترابًا»، حُور عِين، قاصرات الطَّرف، «لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهُم ولا جَان» ، كواعب، حور مقصورات فى الخيام، كالياقوت والمرجان.

ب- الذُّرِّيَة: «والذين آمنوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِيتُهُم بإيمان ألحقنا بهم ذُرِيتَهُم».

حـ- الولدان: «ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون».

د- ملاذ المأكل: يُطاف عليهم بآنية من فـضة وأكواب كانت قواريرا، قوارير من فضة قَدَّرُوها تقديرا، فاكهـة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ذُلّلت قُطوفها تذليلا، لحم طير مما يشتهون، كأس لا يَصَدَّعون عنها ولا يَنْزِفُون، كان مِزَاجُها كافورا وزنجبيلا، شراب طهور، يُسْقَوْن من رحيق مختوم.

هـ - الرضا : النعيم، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعـملون، «وأقبل بعضهم على بعض يتـساءلون. قالوا إنا كنا قَبْلُ فى أهلنا مشفقين. فمن الله علينا». «لا يسـمعون فيها لغوا ولا تأثيما، إلا قيلا سلاما سلاما»، عيشة راضية، لا يسمعون فيها لغوا ولا كِذَّابا، لقَّاهم نضرة وسرورا، جزاهم بما صبروا جنة وحريرا.

ولابد أن وصف الجنة والنـار فى القـرآن، الذى يتكرر فى عـشـرات الآيات، كـان له فى مُخَيِّلة المشـركيـن العرب وقع أشـد حـتى من وقع وصف يوم القـيامة. ولابد أن فـرائص أحدهم كـانت ترتعد حـين كان يتصور نفسه، مدى الدهر ، مقيدا فى سلاسل وأغلال إلى جحيم نزاعة للشوى، يـتمنى الموت ولكن بغـير طائل، ولا يجـد للترويح عن نفـسه سوى ظل من يحموم ولينقع غلّته سوى ماء كالمهل.

كانت القشعريرة تصيب أبدان هؤلاء المكيين وهؤلاء البدو الذين كانت أعـينهم تتفـتح للمـرة الأولى على أهوال هذا العـالم المريع الذى ينتظر الكفار.

وعلى النقـيض من ذلك فـإن تصـور قـضاء الأبـدية بين ذويهم فى فردوس تقدم فـيه بوفرة كل الملاذّ وكل المتع الجـسـدية والمعنوية التى يهنأ

بها الناس وينعمون، أى كل ما هو شهىّ من المأكل والمشرب، وحور عين عذارى كزوجات بارعات الحُسن، وأبناء كاللؤلؤ المكنون، والكل جالسون راقدون على أرائك وثيرة فى ظل ممدود قريبا من مياه جارية، وسط الأشجار والزهور والرياحين، لا يسمعون لغوا ولا تأثيما، فى جو من السلام لا يعكر صفوه شىء..

أقول إن تصور هذه النعم كلها كان ولابد شيْئا تخفق له القلوب، فقد كانت أغلبية العرب يحيون حياة شاقة فى بيئة طبيعية قاسية شديدة الحر، وكان الفقر وشظف العيش فيها تضاعف منهما فترات من القحط والجفاف كان لابد للعرب خلالها من الكفاح المرير للبقاء على قيد الحياة.

ما الذى كان يجب فعله لدخول هذه الجنة وللنجاة من هذه النار؟ كان يجب، بكل بساطة، الإيمان وعمل الصالحات. إن باب الفردوس مفتوح دائما أبدا. ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: ٣٩]

ولابد أن الإغراء بسلوك هذا السبيل كان كبيرا عند أولئك الذين كان يتصل علمهم بالآيات القرآنية المشار إليها. ولابد أن منهم من كانوا يقولون فى أنفسهم: «إن أحداً لا يدرى ما إذا كان ما يقوله محمد عن البعث بعد الموت وعن يوم القيامة والحياة الآخرة صحيحا أو غير صحيح، وما من أحد يستطيع أن يدرى، إذ أن أحدا من الأموات لم يعد ليخبرنا بالحقيقة. لكن ماذا إذا كان على حق؟ إن ما يقوله لنا ليس أبعد عن التصديق من الحكايات التى يقصونها علينا منذ طفولتنا. وما يطلبه منا وما ينهانا عنه ليس فيه، آخر الأمر، شىء سيىء، بل العكس هو الصحيح. فلنوليه ثقتنا، ولنكن فى الجانب الأمثل، ولنؤمن!».

من المتصـور أيضا أن البـعض كانوا يتـحفظون. والعـرب الذين كان محمد ﷺ وأصحابه يتجهون إليهم بدعوة الإسلام كان من بينهم من لم يعتادوا على التـفكير الشخصى فى مسـائل الدين. وكان لابد لهم ، فى هذا الأمر كمـا فى غيره من الشئون الهامـة، من الرجوع الى رؤسائهم. لكن الرؤساء، كـما سبق القول، كـانوا يعادون محمـدا صلى الله عليه سلم ويعـادون دينه، ولابد أنهم، بعـد أن تناقـشوا طويلا فى الأمـر، وبالاتفاق قطعا مـع بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، اتخذوا قـرارا بمحاربته بكل الوسائل لاسـيما، فى البداية، بالهـمز والمجادلة، ووصف مـحمد ﷺ بأنه كاذب، أو ساحر، أو شاعـر، أو مجنون، أو اتهامه بالطموح، وبالتشكيـك فى نبوته، وفى صحـة قرآنه وما جـاء فيـه من حديث عن البـعث والحـساب والجـنة والنار. ولابد أنهم جندوا لهـذا الغـرض كل خطبائهم وشعرائهم.

لقـد رأينا فى بعض ما أوردناه من اسـتشهادات قـرآنية، إشارات إلى رفض الكفار رسالة الإسلام. وفيما يلى أمثلة أخرى على ذلك:

قوله تعالى:

﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) ﴾

[الانشقاق: ٢٠- ٢٣]

وقوله تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِيـــنَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيـثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِيـنَ

﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور: ٣٠ – ٣٣ و٣٥ – ٤٥]

وقوله تعالى:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٧ – ٧٣]

إن هذه الآيات، وغيرها مما ورد فى سورة المدثر وسورة النجم، وسورة التكاثر، وسورة العلق، وسورة المعارج، وسورة الإنسان، وسورة الكافرون، وفى سورة أخرى عديدة، تتضمن أمثلة للانتقادات التى وجهها الكفار لمحمد ﷺ وللقرآن، وتورد ردّ القرآن على هذه الانتقادات. والمرء يجد فيها:

أ) حالة رجل جعل الله له مالا ممدودا ويطمع أن يزيد قال، بعد أن علم بالقرآن، وفكر وقدر، إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، ثم أدبر واستكبر وكان لآيات الله عنيدا.

ب) حالة رجل آخر - أو الرجل ذاته - نهى عبدا إذا صلى ثم كذّب وتولى عن الصراط المستقيم.

جـ) حالة نفر من الكفار ذهبوا إلى الرسول ﷺ مهطعين، عن اليمين وعن الشمال عِزين، يطمع كل منهم أن يدخل جنة نعيم.

د) حالة نفر من الكافرين حاول رسول الله ﷺ أن يجعلهم يعبدون ما يعبد وحاولوا هم أن يجعلوه يعبد ما يعبدون.

هـ) دعوة مستمرة للمكذبين إلى التفكر والتدبر: «هل خلقوا من غير شىء؟»، «هل عندهم خزائن ربك؟»، «أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه؟»، «أم عندهم الغيبُ؟»، ألا يرون أنه لو شاء لجعل ما يحرثون حُطَاما؟ والماء الذى يشربون، أهم أنزلوه من المزْنِ أم الله تعالى هو المنزل؟ أهم الذين أنشأوا شجرة النار التى يُورُون؟

و) آيات تعلن غضب الله الشديد على أولئك الذين يرفضون دينه ويديرون ظهورهم ويكذبون· تقريع وتهديد وتحذير: «ذرنى ومن..»، كلا، «سَأُرْهِقُهُ صَعُودا»، «فَقُتِل كيف قَدَّر، ثم قُتِلَ كيف قدر»،

«سأُصْليه سَقَر»، «فَلْيَدْع ناديَه، سَنَدْع الزبانية»، «قل تَربَّصُوا فإنى معكم من المتربصين»، «فَـذَرْهُم حتى يُلاقوا يومهم الذى فيـه يُصْعقون»، «ثم لترونهـا (أى الجحيم) عَـيْنَ اليقين»، «إنـا لقادرون على أن نبدّل خـيرا منهم»، «فَذَرْهُم يخوضوا ويلعبوا حتى يُلاَقوا يَوْمَهم الذى يوعدون».

ز) تسجيل لأقوال الكفار ومواقـفهم: «فمالهم لا يؤمنون، وإذا قرىء عليهـم القرآن لا يسجدون» ، «بـل الذين كفروا يكذبـون»، «أم يقولون شاعـر نتَربَّصُ به رَيْبَ المَنُون»، «أم يقولون تقـوَّله»، أم لهم إلـه غـير الله، «أفرأيتُمُ اللاَّتَ والعُـزَّى، ومناةَ الثالثةَ الأُخـرى»، «ألكُم الذَّكَرُ وله الأُنثى»، «إن يتّبعون إلا الظنَّ ومـا تَهْوَى الأنفُسُ»، «أفَمِن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون».

يتضح مـن كل هذه الأمثلة أن ثلاث السـنوات الأولى من البعـثة لم تكن، بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فترة هادئة تمكن خلالها من الدعـوة إلى دين الله دون إزعاج، وأنـه كان عليـه أن يواجه حـملة ضارية للقضـاء على اعتباره، وأن حرب التكذيـب أعلنت ضده منذ أيام دعوته الأولى.

كذلك نرى مما تقدم أن الـقرآن تولى مهمة الدفاع عنـه ونقل المناقضة إلى معـسكر خصومه. ونرى أخـيرا أن الرد على ادعاءات الكفـار اتخذ غالبا شكل النـقد اللاذع والتقريع. تقريع من يثق بنـفسه ولا يبدى أى استعداد لتقديم تنازلات.

(٨) المؤامرات

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧]

وقال تعالى:

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) ﴾ [الطور: ٤٢]

وقال تعالى:

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) ﴾ [المرسلات: ٣٩]

ولابد أن السلطة الحاكمة فى مكة، وقد أدركت الخطر الذى تمثله الديانة الجديدة، وتبين لها فشل الجهود التى بذلتها للقضاء على اعتبار الرسول ﷺ على المستوى الفكرى، رأت منذ البداية ضرورة الالتجاء إلى وسائل غير وسيلة الهمز والنقد.

هذا، على أى حال ، هو ما يتضح من الآيات المتقدمة. ومما يلفت النظر أن لهجة الخطاب القرآنى هنا أيضا لهجة قاطعة وأن القرآن يتحدث بقوة وسلطان، وأنه ليست هنا بادرة ضعف، بل هناك تحد وثقة فى النصر والغلبة.

(٩) الأنبياء السابقون

فى آيات من سورة الشمس، وسورة الأعلى، وسورة النازعات، وسورة الحاقة، وسورة النجم، وسورة المزمل، وسورة الفجر، وسورة البروج، نجد أن القرآن أضاف إلى التهديدات المباشرة الموجهة إلى الكفار تذكيرا بالمصير الذى حاق فى الماضى بقوم فعلوا ما فعلوه هم حين أداروا ظهورهم لرسالات أنبياء الله. وتقص هذه الآيات قصص ثمود وعاد وإبراهيم وموسى ونوح.

لقد كذبت ثمود بطغواها وانبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، وأهلكهم

بالنار. أما عاد فأهلكوا بريح صرصر عـاتية سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

وقد نادى مـوسى ربهُ بالوادى المقدس واستجاب لأمـره فذهب الى فرعون وعـرض عليه أن يتزكى وأن يهديه إلى ربه فـيخشى، وأراه الآية الكبـرى فكذب فرعـون وعصى ثـم أدبر يسعى فـحشر فنادى أنا ربكُم الأعلى ، فـأخذه الله تعـالى نكَال الآخرة والأولى. وقـوم نوح، الذين كانوا أظلم وأطغى، أهلكهم الله بالطوفان.

ويلاحظ فى هذا الصدد:

أ) أن حديـث هؤلاء الأقوام وأنبـيائهم جـاء هنا موجـزا ولم يوضح تفاصيل الرسالات التى بعثوا بها لشعوبهم.

ب) أن إبراهيم عليه السلام - الذى انتمى إليه عبدالمطلب فى حديث أبرهة - لم يرد له ذكر إلا فى سورة المدثر، فى آيتين ليس إلا، هما :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾

[الأعلى: ١٨ - ١٩]

كذلك فقد أشير إلى نوح مرة واحدة.وموسى هو النبى الذى ذكر أكثر عدد من المـرات. ولم يذكر فى سـور هذه الفتـرة سوى هؤلاء الأنبـياء الثلاثة بالإضافة إلى نوح.

جـ) من المحقق أن القـرآن قَص قصص هؤلاء الأنبيـاء لحمل المنكرين على التفكير: «وإنه لتذكـرة للمتقين»، «لنجعلها لكم تذكـرة وتعيها أذن واعية»، «هذا نذير من النُّذُر الأولى».

د) حديث القرآن عن هؤلاء الأنبياء السابقين دليل آخر على أن النزاع بين كفـار مكة ورسول الله ﷺ بدأ بعد وقت قصـير من مبعـثه ذلك أن أول ذكر لثـمود فى القرآن جـاء فى سورة الشمس. وكـلام القرآن الذى

يشير إلى الأمم التى عوقبت فى مواقف مماثلة لذلك الذى كان فيه رسول الله ﷺ فى مكة كان سلاحا فى يد الرسول ﷺ ضد خصومه ووسيلة لإثبات أنه لم يكن وحيدا أمامهم، وأن الله تعالى، الذى أرسله، هو ذاته الذى أهلك أمم الأنبياء السابقين الذين تحدثت عنهم الآيات. ولأن محمدا ﷺ كان يستند إلى هذا التأييد الإلهى ، فقد كان إزاء خصومه فى مركز قوة. ولم تكن به من ثم حاجة إلى حماية عمه.

(١٠) أصحاب الأخدود

قال تعالى:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) ﴾ [البروج: ١ - ٩]

ليس فى هذه الآيات ذكر لنبى لم تلق دعوته أذنا صاغية، ولا لقوم أهلكوا لأنهم رفضوا رسالة نبيهم. إنها حدث لم تحدد أشخاصه وركّز كُل الانتباه فيه على منظر رهيب: أناس يلقيهم فى النار أناس آخرون يرونهم وهم يحترقون، كل جريمتهم هى أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد. ولا يقيم نص ابن إسحاق أية علاقة بين هذه الآيات ونزاع القبائل مع المسلمين، ولا بينها وبين اضطهاد المسلمين على أيدى قبائلهم. ومؤلفنا حين يتحدث عن هذه الآيات إنما يتحدث عنها فى أول كتابه ويشرح أن ملكا يهوديا فى الزمن الخالى اسمه ذو نواس غزا نجران، بجنوب الجزيرة العربية، وأنه خيّر أهلها، الذين كانوا نصارى، بين

اعتناق اليهودية والقتل فاختاروا القتل، فَخَدّ لهم الأخدود، فحرق من حرق بالنار، وقتل بالسيف وَمَثَّلَ به حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا(*).

غير أنه يبدو لنا من غير المعقول أن تكون هذه الآيات منقطعة الصلة بحدث وقع فى مكة قبل نزولها بزمن قصير. وليس من المستحيل تصور أن تكون قبيلة من القبائل قد عذبت بعض أفرادها لمجرد أنهم آمنوا بالله. ومن المحتمل جدا أن تكون هذه القبيلة هى قبيلة بنى عبدالمطلب، وأن يكون الأمر بإحراق المسلمين أو بتعذيبهم بالنار قد صدر عن عبدالعُزَّى بن عبدالمطلب وأن تكون هذه الواقعة هى مصدر تسميته بأبى لهب. ومن الممكن أن تكون خطورة هذه الواقعة، التى لا يشير إليها نص ابن إسحاق بكلمة، هى السبب الذى من أجله حكم القرآن على أبى لهب وعلى امرأته بالنار، وهو حكم لم يصدره القرآن قط على شخص غيرهما فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

دال - النتيجة

كان نزول سور القرآن الكريم فى الفترة التى تعنينا حدث الأحداث فى حياة رسول الله ﷺ وفى ظهور الإسلام وانتشاره. وكانت آيات القرآن المتتالية هى التى تخلق الأحداث وتقرر سير الأمور. ومنذ أن بدأت هذه الآيات تذاع على الناس، بدأت عملية تحول عميق فى الأسس التى بنيت عليها حياة الأفراد والمجتمعات البشرية التى كانت تقيم فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة.

وآيات القرآن التى استشهدت بها تشير إلى ضخامة هذا التحول: الديانة القديمة، المتمثلة فى مكة وفى تقديس الكعبة وتقديس بعض

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥.

الحجـارة والأصنام والتمـاثيل، وطقوس الحـج التى لم تكن تتـصل بأية قاعـدة من قـواعد الحـياة أو الأخـلاق، ولا بأى نص دينى، والآلهـة، وأكثـرها من الإناث، التى كانوا يبـتهلون إليهـا، والخرافات بأنواعـها، والحكايات البـدائية التى كـانت الأرواح أو الجن فيـها تظهـر فى أشكال مخـتلفة وتمارس سلطانا خـفيا على بنـى البشر، والاحتكـام إلى الكهنة والكاهـنات، الذين لهم فـى معظم الأحـيان أصـحاب مـن الجن، لحل المشكلات المستعصية أو لفض المنازعات. . .

هذه الديانة - إن جازت تسميتهـا كذلك - حلت محلها ديانة أخرى ليس فيها إلا إلـه واحد، خلق الإنسان والكون، يعلم كل شيء ويحوز كل السلطات والقدرات، ولها كتاب ينشيء قوله صلة مباشرة بين الإلـه الواحـد الأحد والإنسـان. كتـاب تحدد آياتـه وتوضح كل مـا يقتـضى توضيحه من شـئون الحياة والموت، وقواعد للسلوك تتفـق وقواعد الخير والشر التى يشعر بها كل إنسان يعيش فـى مجتمع شعورا غريزيا، وحياة أخرى بعد الموت فـيها ميزان لأعمـال الإنسان بكل ما فيهـا من حسنات وسيئات، ويجازى فـيها كل إنسان وفقا لنتيـجة هذا الميزان بعذاب أبدى ليس فى مثل إيلامه عـذاب إذا رجحت كفة السيئـات كفة الحسنات، أو بسعادة أبدية ليس فى مـثل إمتاعها سعادة إذا رجحت كفـة الحسنات كفة السيئات.

إن نزول ما يناهز ١٢٠٠ آية جاء للجزيرة العـربية بدين مختلف تماما عن دياناتهـا القديمة، رغم أنه كـان يعترف بقدسـية الكعبـة، والأشهر الحرم، وبشعـائر الحج، وجاء كذلك بتنظيم لـلمجتمع يستـند ليس فقط إلى وشائج الدم، بل إلي وشائج الدين وبنظام للقيم يـعتمد اعتمادا كليا على مسئولية الإنسان.

دين ربط الإنســـان بالله تعالـى فـأعطى الإنسان شعـورا بأهميـته فى الكون، كما بثّ، بتـأكيد وجود حياة بعد الموت تأكـيدا قويا، الأمل فى نفوس المعـذبين فى الأرض، وبشر بـعذاب النار أولئك الذين ظـلموهم وأولئك الذين لم يـكونوا يبالون بآلامـهم وأوجاعهم. دين كـان هدفه، وهذه عبارة يكثـر القرآن من استخدامها، أن يخـرج الناس من الظلمات إلى النور.

إن القرآن، الذى يشــكل جوهر رسالة الرسول ﷺ ، لم يكـن كتابا عاديا. ولـم يكن فيما عرفه العرب قبله شىء يشبهه. إنه لم يكن شعرا، كذلـك لم يكن قول حـكيم من الحكمـاء، ولا خطيب من الخطـباء ولا سجع كاهن من الكهنة، ولا تهاويم كتهاويم السحرة.

كان كتابا واضح القول فى متناول الناس جـميعا تشبّع، بالإضافة إلى طلاوته التى لا تبارى، بوقع موسيقى ييسر حفظه واستظهاره.

والمسلم الذى يتلوه فـى صلاته أو خارجها يدخـل فى اتصال مع ربه وينفـذ فى الوقت ذاته إلى عـالم الآخـرة الذى لم يكن لعـرب مكة أو لغيـرهم أدنى معرفة بـه. هذا العالم - أى يوم الحسـاب والجنة والنار - الذى يدعـو القرآن الناس إلى الإيـمان به وإلى جعـله ماثلا أمـامهم لا يغفلون عنه طرفة عين.

وما من شك فى أن آى صفحات هذا الكتاب، التى تقرب من المائة، التى أنزلـت خلال الفـترة الأولى كـانت الشغل الـشاغل لمكة والجـزيرة العربية أثناء هذه الفترة. كانت كالموجة الـعاتية التى تجتاح الناس جميعا. وما من أحد كان باستطاعتـه أن يتجاهلها، لأن أحدا من الناس لم يكن بإمكانه أن يتجاهل مصيره الشخـصى. كان على كل فرد أن يتخذ موقفا

إزاء هذا الكتاب والنبى الذى يدعو إلى الإيمان به. الإيمان أو عدم الإيمان، هذا هو السؤال الذى كان مطروحا على كل شخص بلغته آيات من القرآن.

وكانت المسألة، بالنسبة لكل رجل وكل امرأة، ذات أهمية قصوى، فقد كان عليهم أن يختاروا بين الله والقبيلة. وإذا اختار أحدهم الله فإنه كان يتعرض فى معظم الأحيان لغضب قبيلته ولاضطهادها. لكنه إذا لم يسلم كان يفقد فرص دخول الجنة ويتعرض، إذا كان يعتقد أن ما يقوله له القرآن صحيح، للحكم عليه يوم الحساب بالخلود فى نار جنهم.

والقرار الذى كان عليه أن يتخذه كان بالتالى قرارا نتائجه خطيرة، ولم يكن هناك سبيل للفرار من اتخاذه، وما كان يمكن تأجيل اتخاذه إلى وقت لاحق لأن الموت كان له بالمرصاد. ولم يكن فى الوسع الاعتماد فى اتخاذه على شخص أو أشخاص آخرين، فإن مهمة الاختيار ومسئولية كل فرد فى شأنه، طبقا للقرآن، مسئولية شخصية بحتة.

ومن هنا فإن ما كان يتنزل من القرآن كان يخلق، فى كل مكان يصل إليه، حالة من الاضطراب الشديد. ولابد أن سؤال اليوم ـ وسؤال كل يوم – كان : «مع محمد أو ضده؟»، ولابد أن هذا الأمر كان مطروحا للمناقشة فى البيوت، وفى السوق، وفى الزيارات بين الأصدقاء، وفى الاجتماعات التى كانت كل قبيلة تعقدها لبحثه، وفى اجتماعات رؤسائها مع رؤساء القبائل الأخرى، وفى المحادثات التى كان الناس يتبادلونها مع الحجاج والتجار أو العملاء الوافدين من الخارج، وفى مجلس الحكومة.

ولابد أنهم طلبوا مشورة الحكماء والكهان والنصارى واليهود الذين كانوا يقيمون فى مكة وأولئك الذين كانوا يلقونهم خلال رحلاتهم للمدينة ولخيبر وللشام، لأغراض تجارتهم وأعمالهم.

ولابد أن البعض كانوا يرون استحالة أن يؤلف أمىّ مثل محمد كلاما رائعا كالقرآن وأنه كان يتعلمه من غيره.

ولابد أن آخرين كانوا يدافعون عن محمد ﷺ: إن أحدا لم يعرف عنه الكذب، وإذا كان غيره هو الذى يلقنه القرآن فمن هو، ولماذا لا يسفر عن وجهه بدلا من التحدث بلسان محمد؟.

ولابد أن مناقشات دارت أيضا بشأن القرآن ذاته، وأن بعض الناس كانوا يعجبون به وأن آخرين، لاسيما الشعراء، سواء كانت الهيئة الحاكمة تكافئهم أو لا تكافئهم على ذلك، كانوا يدعون أن به عيوبا.

ولابد أن الصداقات الخاصة، أو صداقات القبيلة، والحزازات، ومشاعر الحسد بين العشائر والقبائل، والمصالح، والمودة، والكراهية، والجهل، وسوء النية، والسذاجة، والخوف، والجرأة، والتحيّز، والرغبة فى المحافظة على القديم، ورغبة التغيير، والأحلاف، والمركز الاجتماعى، والسن، والوضع، وكون الشخص رجلا أو امرأة، حرا أو عبدا، مكيا أو غير مكى، عربيا أو أعجميا، غنيا أو فقيرا، أميا أو ممن يعرفون القراءة..

لاريب أن كل هذه العوامل لعبت دورا فى توجيه الآراء والمواقف. ولابد أن التفكير والمناقشة والاقتناع الشخصى أو تأثير الآخرين جعلت البعض يسلمون ويعملون على إدخال غيرهم فى الإسلام. وفى وقت معين، حين أخذت الظاهرة تتفاقم، لابد أن المحافظين من جميع القبائل

هاجوا وماجوا، وأن السخط على أقاربهم الذين خرجوا على دين آبائهم وأجدادهم تحول إلى قمع واضطهاد.

ولابد أنهم لم يروا من الدين الجديد سوى جانبه الهدام، وأنهم تساءلوا: «إذا ألغى تعدد الآلهة وألغيت القبيلة فما الذى يئول إليه أمر مكة؟ ما الذى سيئول إليه أمر العرب؟» وأنهم قالوا لبعضهم البعض: «إن الدين الجديد يتجاوز الحدود، وهو لا يقترح نظاما للحكم يمكن أن يحل محل النظام القائم، الذى استقر منذ آلاف السنين. إن إحلال الأخوة فى الدين محل الأخوة القبلية وهم لأنه يخالف طبيعة الأشياء. يجب أن نضرب أعداء المجتمع هؤلاء دون هوادة ولا رحمة، فالتسامح معهم معناه نهاية مكة، والكعبة، وقريش، والعرب،ووجودنا ذاته».

هذا، دون شك هو الأثر الذى أحدثه نزول الآيات الألف والمائتين الأولى من القرآن. والحاصل أن النص لا يقول عنه شيئا، أى شىء، وكل الهياج الذى هز نفوس الناس وضمائرهم فى مكة وفى غيرها، وكل المناقشات والمشاورات والاختلافات فى الرأى التى انتهت إما إلى دخول بعض الناس فى الإسلام، وإما إلى مواقف عدائية لهذا الدين، وكل ردود فعل القبائل فيما يتعلق بإسلام بعض أفرادها، كل هذا زال وانمحى بجانب الواقعة الوحيدة الهامة التى عرفتها الفترة فى رأى مؤلف السيرة، أى الحوار الذى أكد أبوطالب لمحمد ﷺ خلاله أنه سيحميه!.

لكن ما الذى آل إليه أمر محمد ﷺ فى نهاية الفترة التى نزلت فيها صفحات القرآن المائة الأولى؟.

لقد أصبح ﷺ، ما فى ذلك ريب ، أهم شخصية فى مكة، بل فى الجزيرة العربية كلها.

أصبح كذلك أولا بالقرآن: لقد كانت الصفحات المائة التى أنزلت فى ثلاث السنوات الأولى من الدعوة، إذا قيست بكل ما قاله العرب أو نظموه أو ألّفوه خلال تاريخهم كله، من الجلال بحيث أن أحدا من الناس ما كان يملك أن يقارن نفسه بمن نزلت عليه، لا فيما يتعلق بالبلاغة، ولا فيما يتعلق بالحكمة، ولا - إن جاز هذا القول - فيما يتعلق باكتشاف الحقائق المجهولة. وتفوق القرآن فى هذه الأمور يصوره قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور: ٣٣ و ٣٤]

وهو تحدّ لم يقبله أحد.

وأصبح محمد ﷺ كذلك ثانيا بالآيات التى ذكرناها التى تطمئنه إلى أنه مشمول برعاية ربه. ولابد أن هذه الآيات، حتى فى أعين أعتى خصومه، خلعت عليه شموخا يفوق قامات البشر. والآيات الأولى التى تطلب منه ﷺ أن يذر ربه والمكذبين، والتى تأمره بأن يقول لهؤلاء بلهجة التحدى أن يتربصوا فإنه معهم من المتربصين، وتلك التى يقول الله تعالى فيها لأعدائه إن كيدهم لن يجديهم شيئا وإنهم هم المكيدون، كانت تجعل قامة محمد ﷺ فوق قامات الكفار جميعا وتجعله يبدو، بالقياس إليهم، إنسانا ليس كمثله إنسان.

وأصبح كذلك أخيرا بالأشخاص الذين دخلوا فى الإسلام والذين كانوا بكل تأكيد أكثر عددا بكثير مما ذكره النص، وبالتفانى الذى كانوا يظهرونه لرسوله.

فهل يعقل أن رجلا وأن رسولا له مثل هذه العظمة كان محميا من أبى طالب؟ هذا شيء يبدو مستحيلا تمام الاستحالة.

ويتضح مما تقدم أن الخبرين الأساسيين اللذين وردا فى النص عن هذه الفترة الأولى، أى الاستخفاء وحماية أبى طالب للرسول ﷺ، لا أساس لهما من الصحة. لكن هذا ليس عيب النص الوحيد، فالنص يحمل فى الواقع علامات واضحة لنية التزييف والاختلاق. والتزييف ناتج من حقيقة أن نص ابن إسحاق حين تحدث عن الاستخفاء إنما أراد، على الأرجح، تفادى التعرض لموقف بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، أقارب الخليفة العباسى، حيال رسول الله ﷺ وحيال أفراد قبيلتهم المسلمين. ولابد أن هذا الموقف، كما ذكرت فيما سبق، كان موقفا عدائيا صريحا، وهو أمر كان فى ذاته مما يتعين إخفاؤه.

على أنه كان هناك سبب آخر يستوجب إخفاء هذا الأمر، هو أن هذا الموقف كان يشكك فى صحة الأخبار المتعلقة بالأعاجيب والخوارق التى يقول النص إنها حدثت فى طفولة الرسول ﷺ وفى صباه، ويشكك أيضا فى صحة الإرهاصات والتنبؤات المتعلقة ببعثته. ذلك أن هذه الأعاجيب والإرهاصات لو كانت صحيحة لكان المفروض أن يكون أول من عرفها هم أفراد قبيلة رسول الله ﷺ ولكان المفروض أن هؤلاء الأقارب، الذين كانوا على علم بها، أول من يؤمن برسالته. فإذا كانوا لم يؤمنوا فمعنى ذلك أنه لم يكن هناك ثمة أعاجيب أو إرهاصات، وأن الحديث المتعلق بها محض اختلاق، وهى نتيجة تسمح مقولة الاستخفاء بتفادى استخلاصها.

وهناك شبهة أخرى للتزييف هى تلك التى تنتج عن كون النص لا يتعرض لأى من الأحداث (المناقشات الكبرى، وحالات الدخول فى

الإسلام، والاضطهاد)، التى أثارتها الدعوة إلى دين الله، ولا لنزول سور القرآن. والسر فى ذلك، على الأرجح، هو رغبة صاحب السيرة فى جعل حديث أبى طالب مع رسول الله ﷺ يبدو الحدث الرئيسى للفترة، ولاختلاق صورة لأبى طالب تجعل منه حاميا للرسول.

وشبهة التزييف فى قائمة من أسلموا ناتجة من حقيقة أن هذه القائمة معروضة على أنها كاملة مع أنها جزئية إلى حد كبير. والسبب الذى يكمن وراء هذا التخفيض فى عدد المسلمين، فى رأيى، سبب مزدوج. فقد أراد مؤلف السيرة أولا إخفاء الدور الذى قام به المسلمون فى حماية الرسول عليه الصلاة والسلام لكى يمكن إبرار بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى مرحلة لاحقة، خلال الفترة الثالثة، وراء أبى طالب، على أنهم الحماة الوحيدون لرسول الله ﷺ . كذلك - وهذا افتراض أطرحه بصورة مؤقتة - فإن مؤلف السيرة متحيز لأهل المدينة ضد المكيين عموما تحيزا جعله يظهر هؤلاء فى مجموعهم بمظهر من لم يلبوأ نداء الإسلام إلا قليلا، بخلاف أهل المدينة.

وسنرى فيما بعد ما إذا كان فى هذه الدراسة عناصر أخرى تؤيد أو تنفى هذا الافتراض.

أما المآخذ التى يمكن إبداؤها على تجاوزات النص فيما يتعلق بالقرآن فهى أربعة مآخذ:

١- فالنص لا يورد الآيات التى هى من أم الكتاب والتى تشكل فى آن واحد جوهر رسالة الرسول والسبب الرئيسى لعظمته ﷺ . والنص إذ يجرد الرسول من القرآن إنما يزيف صورته صلوات الله وسلامه عليه ويخفض حجمه إلى حجم مجرد رجل من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم

تشمله قبيلتـاه بحمايتهما بصفـته هذه لا باعتباره نبيا لله سـبحانه وتعالى خرج على قومه وعلى عقائدهم.

٢- والنص إذ لا يورد من القـرآن إلا شـذرات لا صلـة بينهـا وبين الواقع الحى ويهمل ذكر الضجـة التى هزت مكة ومناطق الجزيرة الأخرى بنزول السـور، الواحـدة إثر الأخرى، زيّف أيضـا تاريخ بداية الإسلام. وجـعل النص محـادثة أبى طالب المزعـومـة مع رسول الله ﷺ تتـلألأ وتشغل الحيز الذى كان المفروض أن يشغله القرآن الكريم والأحداث التى ترتبت على نزوله.

٣- والنص حين يسـتخدم آية: ﴿وأَنْذِرْ عشـيرتَكَ الأَقْرَبِين﴾، وآية: ﴿وقُلْ إنِّى أنـا النَّذيرُ المُبِين﴾، وآيـة: ﴿فـاصْدَعْ بما تُؤْمَر وأَعْرِض عـن المشركين﴾ من سورتى الشُّعراء والحِجْر، لتحديد نهـاية فترة الاستخفاء، التى لم توجد إلا فى خيال مؤلفه، يتلاعب بالقرآن ويسخره لخدمة قضية سيئة.

٤- وهناك، كما سيتضح من فحص الآيات القرآنية التى ساقها النص فى حديث الفتـرة الثالثة، عشر مـجموعات آيات نزلت، وفـقا للترتيب الزمنى لسور القرآن الذى اعتمده بـلاشير، فى الفترة الأولى. وقد نُقلت مناسبات هذه الآيات من فتـرتها إلى فترة لاحقة، فيمـا يبدو لى، لتأييد الدعوى التى مؤداها أن النزاع بين محمد ﷺ وبين قريش لم ينشأ خلال السنوات الأولى من البعـثة، وإنما فى الفتـرة الثالثة التى كـان رسول الله ﷺ يتمـتع فيها بحـماية أبى طالب ووراءه بنو عـبدالمطلب وبنو هاشم، وهى دعـوى باطلة كـمـا رأينا. وهذه النقلة تشكل، بدورها، تـلاعبـا بالتنزيل القرآنى واستخداما غير أمين لآياته.

الفصل الثالث

الفترتان الثانية والثالثة

الفرع الأول ـ الفترة الثانية

ألف ـ النص[1]

ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحدِّث به.[2]

فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومُه ولم يردّوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خِلافَه وعداوتَه، إلا مَنْ عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفُون.[3]

باء ـ التحليل

النص يدلي بهذه الأخبار تحت عنوان «**مباداة رسول الله ﷺ قومه، وما كان منهم**». وقد جاء ذكرها بعد عبارة يقول فيها إنه كان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاثُ سنين من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فاصدَعْ بما تُؤمَرْ، وأعرِضْ عن المشركين﴾. وتثير هذه الأخبار الملحوظات الآتية:

١ - النقطة التي تبدأ فيها هذه الفترة هي إذن، فيما يقول النص، الأمر الذي تلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيتين ٩٤ و٨٩ من سورة الحجر، والآيتين ٢١٤ و٢١٥ من سورة الشعراء. وقد أوضحتُ

---

(١) ، (٢) ، (٣) السيرة، القسم الاول، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.

بصدد تحليل هذه الآيــات أنها لا تأتى بتكليف جديد وإنما تــكرر ما سبق أن ذكره القرآن عدة مرات، وأن آيات فى معناها نزلت بعدها.

٢- النص حيــن تحدث عن «الناس الذين دخلوا فى الإسْــلام أرسالا من الرجال والنساء» لا يوضح ما إذا كان يــعنى الثلاثة والخمســين الذين ذكر أسماءهم فى نهاية الفتــرة الأولى أو أشخاصا آخرين. وكلمة «ثم»، فى بداية الجملة، ترجح الافتراض الــثانى. لكن، إذا كان الأمر كذلك، من كــان هؤلاء المسلمــون الجدد، وكم كــان عددهــم، وفى أية ظروف غيروا ديانتهم الأصلية، وماذا كانت ردود الفعل التى أحدثها دخولهم فى الإسلام؟ النص لا يقول شيئا عن هذه الأمور.

٣- النص لا يوضح المقــصود بعبارة : «حــتى ذكر آلهتهم وعــابها». هل المقصــود هو عيوب ذكــرها القرآن ورددها الرسول ﷺ ، أو عــيوب ذكرها الرسول خارج القرآن:

ونظرا إلى أن مــحمــدا ﷺ لم يكن يملــك، فى مســائل الدين، أن يذهب إلى أبعــد مما يقولــه له القرآن، فــالأرجح أن الإشارة فى العــبارة المذكورة إنما كانت إلى القرآن.

والحاصــل هو أن القرآن ســبق له، فى الآيــتين ١٩ و٢٠ من ســورة النجم، أن عاب آلهة العرب الكبرى، أى اللاتَ والعُزَّى ومَنَاة الثالثة.

ومن جهة أخرى، ألا يُعتبر تأكيد أنه لا إلــه إلا الله الواحد، فى حد ذاته، عيبا لآلهة قريش والعرب؟

أخيرا، هل كان لجميع السور التى نزلت خلال الفترة الأولى من غاية غير تغيير الديانة القائمة بكل آلهتها واستبدال الإسلام بها؟ لقد كان عيب الآلهة الذى يتحدث عنه النص إذن شيئا تم الإقدام عليه بالفعل، صراحة وضمنا، منذ بداية البعثة.

٤- ولأن النص لم يذكر مـا ذكره الرسول ﷺ فى حق آلهـة قومه، فإنه - أى النص - لم يذكر ماذا كانت ردود قريش على نقده لآلهتهم.

٥- وكما أن النص لم يذكر بنى عبدالمطلب وبنى هاشم بين من وجه إليهم الرسول ﷺ رسـالته فى حديثه عن الفتـرة الأولى، فإنه لا يوضح ما إذا كانت كلمة «قومـه» التى وردت فى هذه الجملة تنطبق أو لا تنطبق على هاتين القبيلتين. أى - بعبـارة أخرى - ما إذا كان بين أفراد قبيلتى بنى عبـدالمطلب وبنى هاشم، هم أيضا، أغلبـية خالفته وعـادته، وأقلية عصمها الله بالإسلام.

ومن هذا يتبـين أننا نجهل، حتى نهـاية هذه الفترة الثانيـة، ماذا كان موقف أقرب الناس إلى الرسول ﷺ من محمد ومن دينه.

٦- النص لا يعطى أية فكرة عن المدة، بالشـهور أو بالسنوات، التى استغرقـتها هذه المرحلة من مراحل البعـثة، ولا عن الأحداث التى دارت فيها، ولا عن الأشـخاص أو العشائر أو القبائل التـى اتصل بها الرسول ﷺ والمسلمون أثناءها، ولا عمن رفضوا الإسلام وعمن آمنوا به.

٧- لم يسرد النص عن هذه الفـترة أية آيات نزلت من القرآن ولا أى شعر قيل خلالها.

٨- لم يتحدث النص عن هذه الفترة المـفروض أن الإسلام خرج فيها من دائرة السـرية، وأصبح يُدعى إلـيه بلا عائـق، ويصل إلى جمـهور أعرض لا مانع يمنعه عن الاستـجابة لدعوة الرسول ﷺ لأن ذوى الأمر والنهى كانوا يتسامحون فى شأنه، ويَجْـذب إليه نفرا كبيرا نسبيا، إلا فى جمل قليلة. وعدم التناسب بين قصـر النص وأهمية الحدث الذى يصفه ملفت للنظر.

جيم ـ النتيجة

المعلومات التى يـوردها النص عن هذه الفترة توحى بأنهـا لا تختلف فى كثـير أو قليل عن الفتـرة التى سبقـتها. ومعنـى هذا هو أنه لم تكن هناك، فى الواقع، فترة ثانية.

الفرع الثانى - الفترة الثالثة

تبدأ هذه الفترة فى تاريخ غير محدد، إذ أن النص لا يشير إلى الوقت الذى انتهت فيه الفترة الثانية، وهى تنتهى بموت أبى طالب، الذى يفهم من النص أنه حدث قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات. وإذ اعتبرنا أنه لم تكن هناك فترة ثانية، فإن الفترة الثالثة تكون قد دامت سبع سنوات، علما بأن الفترة المكية كلها امتدت، طبقا للنص، على ثلاث عشرة سنة.

ألف - النص (*)

حديث هذه الفترة الثالثة فى النص هو أطول حديث ورد فيه عن أية فترة من فترات الحقبة المكية الخمس. ويتخلل الحديث أشعار واستشهادات قرآنية عديدة. وسأتناول فى هذا الفصل ما ورد عن الفترة المذكورة من حديث وصفى. أما الشعروالاستشهادات القرآنية، فسأتعرض لها فى الفصل التالى.

ويتكون الحديث الوصفى - شأن كل أحاديث هذه السيرة - من مجموعة مختلطة من الأخبار والملحوظات القصيرة. غير أن فيه موضوعين عالجهما المؤلف بقدر كبير نسبيا من التفصيل، نظرا لأنهما يتعلقان بعدد كبير من الناس، هما الهجرة إلى الحبشة والمقاطعة التى فرضتها قريش على بنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

وفيما يلى موجز لما جاء فى النص (إلا ما يتعلق بدخول عمر فى الإسلام، الذى سيعالج على حدة).

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٤ - ٤١٨.

١ - أبو طالب، وقريش، ومحمد، والمسلمون، والحجاج

- حَدِب [١] أبو طالب على محمد ﷺ، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله على أمر الله، مظهرا لأمره، لا يردّه عنه شيء. فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يرضيهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعَيْب آلهتهم، ورأوا أن عمه قد حَدِب عليه، وقام دونه، فلم يُسْلمه لهم، مشى ستة رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب، منهم أبوسفيان ابن حَرْب (أبو معاوية أول الخلفاء الأمويين)، والوليد بن المغيرة (أبو خالد بن الوليد الذى فتح العراق فى خلافه أبى بكر وأسر جد ابن إسحاق)، والعاصَ ابن وائل (أبو عمرو بن العاص، الذراع الأيمن لمعاوية)، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإما أن تُكفَّه عنَّا، وإما أن تخلِّى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فَنَكْفيكَه، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردّهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه[٢].

ومضى رسولُ الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه. ثم إنهم مَشَوْا إلى أبى طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهه عنَّا، وإنا والله لا نَصْبر على هذا من شَتْم آبائنا، وتَسْفيه أحلامنا، وعَيْب آلهتنا، حتى تكفَّه عنَّا، أو نُنازله وإياك فى ذلك، حتى يَهْلك أحدُ الفريقين [٣].

---

(١) عطف عليه ورقّ له.

(٢) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦

وعظم على أبى طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفسا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خِذْلانه، فبعث إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى، فقالوا لى كذا وكذا، فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك، ولا تُحمِّلنى من الأمر مالا أُطيق: فظنَّ رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ومُسْلمه، وأنه قد ضَعُف عن نصرته والقيام معه، فقال: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمسَ فى يمينى، والقمرَ فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركتُه». ثم استَعْبَر رسولُ الله صلى الله عليه سلم، فبكى ثم قام، فلما ولَّى ناداه أبو طالب، فقال: أقْبِل يابن أخى فأقبل عليه رسولُ الله ﷺ، فقال: «اذهب يابن أخى، فقل ما أحببتَ، فوالله لا أُسْلمك لشىء أبدًا»[1].

وفى محاولة ثالثة، مشت قريش إلى أبى طالب بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب، هذا عُمارة ابن الوليد، أنهد (أشدّ وأقوى) فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عَقْله ونَصْرُه، واتخذْه ولدا فهو لك، وأسْلِمْ إلينا ابنَ أخيك هذا، الذى قد خالف دينكَ ودينَ آبائك، وفَرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامَهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل»، فقال: «والله لبئس ما تسوموننى! أتُعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأُعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا». وحقب الأمر، (أى زاد واشتد)، وحميت الحربُ، وتنابذ القومُ، وبادى بعضهم بعضا[2].

ثم إن قريشا تذامروا بينهم على مَنْ فى القبائل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبى طالب.

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

قام أبو طالب، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبى لهب، عدو الله الملعون(١).

- ولما حضر موسم الحج، تشاورت قريش فى شأن ما ينبغى قوله إلى الحجاج عن محمد ﷺ. أيقولون كاهن؟ أيقولون مجنون؟ أيقولون شاعر؟ واستقر رأيهم بعد المناقشة على أن يقولوا للحجاج إنه ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته (٢).

وصدرت العربُ من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها(٣).

- فلما انتشر أمرُ رسول الله ﷺ فى العرب، وبَلَغ البلدان، ذُكر بالمدينة، ولم يكن حىٌّ من العرب أعلمَ بأمر رسول الله ﷺ حين ذُكر، وقبلَ أن يُذكر، من هذا الحى من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود، وكانوا لهم حلفاء، ومعهم فى بلادهم(٤).

- وأَغْرت قريش برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مُظْهِر لأمر الله لا

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٩.
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧٢.
(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٢٨٢.

يَسْتخفى به، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عَيْب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إيَّاهم على كفرهم. (١)

- اجتمع أشراف قريش يوما فى الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، فبينا هم فى ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشى حتى استلم الركنَ، ثم مَرَّ بهم طائفا بالبيت، فلما مَرَّ بهم غمزوه ببعض القول، ثم مضى فلما مَرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، ثم مَرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذّبح. فأخذت القوم كلمتُه حتى ما منهم رجلٌ إلا كأنما على رأسه طائر وقع، حتى إن أشدهم قبل ذلك ليهدئه ويسكنه بأحسن ما يجد من القول (٢).

- حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحِجْر، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبةَ رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذى تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: نعم: أنا الذى أقول ذلك. فأخذ أحدهم بمجمع ردائه، فقام أبوبكر رضى الله عنه دونه، وهو يبكى ويقول: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟» ثم انصرفوا عنه. ورجع أبوبكر يومئذ وقد شقوا فَرْق رأسه، ممَّا جبذوه بلحيته وكان رجلا كثير الشعر (٣).

---

(١)، (٢) السيرة، القسم الأول، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٩ - ٢٩٢.

- مر أبوجـهل برسول الله ﷺ عنـد الصفا فـآذاه وشتمـه، ونال منه بعض ما يكره من العَـيْب لدينه، والتضعيف لأمره، فـلم يكلمه رسول الله ﷺ . ثم انصرف أبوجـهل عنه فعمـد إلى مجلس القـوم من قريش عند الكعـبة فجلـس معهم، فلـم يلبث حمـزة بن عبدالمطلـب أن أقبل متوشحا قوسه، راجـعا من قنص له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان أعـزّ فتى فى قريش وأشد شكيمة. وعلم حمزة بما حدث فاحتمله الغضب فخرج يسعى معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقـع به، فلما دخل المسجد نظـر إليه جالسا فى القـوم، فأقبل نحوه، حـتى إذا قام على رأسـه رفع القوس فـضربه بها فـشجّه شـجة منكرة، ثم قال: «أتشتِمُهُ وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فَرُدّ ذلك علىّ إن استطعت». فقامت رجال من بنى مَـخْزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جـهل: «دعوا أبا عُمارة، فإنـى والله قد سَبَبْتُ ابنَ أخيـه سبّا قبـيحا». وتمّ حمـزة رضى الله عنه على إسـلامه، وعلى ما تابـع عليه رسول الله ﷺ من قوله. فلما أسلم حـمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قدعزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(١).

- وجعل الإسلام يَفْشو بمكة فى قـبائل قريش، فى الرجال والنساء، وقريش تَحْـبِس من قَدَرَت على حَبْسـه، وتَفْتِن من استطاعت فـتنته من المسلمين (٢).

- اجتـمع نفر من رؤساء قـريش بعد غروب الشـمس ذات يوم عند ظهـر الكعبـة، ثم قال بـعضـهم لبعض: ابـعثـوا إلى محـمد فكلـموه

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

وخاصموه حتى تُعْذِروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلِّموك، فأتِهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَداء، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعزّ عليه عَنَتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبْتَ الدينَ، وشتمتَ الآلهة، وسفَّهت الأحلامَ، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملَّكْنَاك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رَئِيًّا - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطبّ لك حتى نُبرئك منه، أو نُعْذِرَ فيك، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتُكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلك عليكم، ولكنَّ الله بعثنى اليكم رسولا، وأنزل علىّ كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلَّغتكم رسالاتِ ربى، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظُّكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم اللهُ بينى وبينكم (*).

وهنا أخذوا يطلبون من الرسول ﷺ طلبات مستحيلة، فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسيِّر عنهم الجبال التى ضيَّقت عليهم، وأن يبسط لهم بلادهم، وأن يفجر لهم فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لهم من مضى من آبائهم، وأن يكون فيما يبعث لهم منهم قُصَى بن كلاب

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

ليسألوه عما يقول: أحق هو أم باطل. وطلبوا منه كذلك أن يسأل ربه أن يبعث معه ملكا وأن يجعل له جنانا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيه بها عن القيام بالأسواق والتماس المعاش. وتحدّوه أن يسقط السماء عليه كسفا، وادعوا أنه قد بلغهم أنه إنما يعلمه رجل باليمامة يقال له : الرحمن. وقال قائلهم: «نحن نعبد الملائكة، وهى بنات الله». وقال قائلهم: «لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا» (١).

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم، وقام معه عبدُالله ابن أبى أُميَّة بن المغيرة وهو ابن عمَّته، فهو لعاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له: «فوالله لا أُومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتى معك أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيمُ الله، لو فعلت ذلك ما ظننتُ أنى أُصدّقك»(٢).

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ، قال أبوجهل: «يا معشر قريش إنى أعاهد الله لأجْلسَنَّ له غدا بحجر ما أُطيق حَمْله، فإذا سجد فى صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلِمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنَعْ بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم». قالوا: «والله لا نُسْلمك لشىء أبدا، فامضِ لما تريد. فلما أصبح أبوجهل، أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره. وغدا رسولُ الله كما كان يغدو، وقام يصلى وقد غدتْ قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبوجهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبوجهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يَبِست يداه على حَجَره، حتى قَذَف الحَجَر من يده، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمتُ إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوتُ منه عرض لى دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثلَ هَامته ولا مثل قَصَرته (عنقه) ولا أنيابه لفَحْل قطٌّ، فهمّ بى أن يأكلنى (٣).

(١) ، (٢) ، (٣) السيرة، القسم الأول ، ص ٢٩٧ _ ٢٩٩ .

- اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قطُّ، فَمَنْ رجُل يُسْمِعهموه؟ فقال عبدالله بن مَسْعود: أنا؟، قالوا: «إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه» قال: «دَعُونى فإن الله سيمنعنى»، فغدا ابنُ مسعود حتى أتى المقام فى الضُّحى، وقريش فى أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» رافعا بها صوته «الرحمن عَلَّم القرآنَ» ثم استقبلها يقرؤها. فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء اللهُ أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا فى وجهه، فقالوا له: «هذا الذى خشينا عليك»، فقال: «ما كان أعداءُ الله أهونَ علىّ منهم الآن»[1].

- خرج أبوسفيان وأبوجهل والأخنس بن شَرِيق ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تعودوا. وتكرر ذلك ثلاث ليال. وذهب الأخنس إلى أبى جهل وسأله عن رأيه فيما سمع من محمد فقال: ماذا سمعتُ ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ، أطعَموا فأطعمْنا، وحَملوا فَحَمَلْنا، وأعْطَوْا فأعْطَينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكَب، وكُنَّا كَفَرَسَىْ رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحىُ من السماء، فمتى نُدْرك مثل هذه، والله لا نُؤمن به أبدا ولا نصدّقه.[2]

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٥ ـ ٣٢٠ . .

- ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسْلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبتْ كلٌّ قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين، فجعلوا يحْبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرَمْضاء مكة إذا اشتدّ الحر، مَن استضعفوا منهم، يَفْتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفْتن من شدة البلاء الذى يُصيبه، ومنهم من يَصْلُب لهم، ويَعْصمه الله منهم. وكان بلال بن رباح لبعض بنى جُمَح، كان مسلما، وكان أُمية بن خَلَف من بنى جُمَح يُخرِجه إذا حميت الظَّهيرةُ، فَيَطْرَحه على ظهره فى بَطْحاء مكة، ثم يأمر بالصَّخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا والله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللاتَ والعزّى»، فيقول وهو فى ذلك البلاء : «أحَدٌ أحَدٌ».

ومر به أبوبكر الصديق يوما وهم يَصْنعون ذلك به وحاول، دون جدوى، أن يتدخل لصالحه، لكن أمية بن خلف قَبِل أن يستبدله بغلام لأبى بكر على دينه [1]. وقد اشترى أبو بكر بلالاً ثم أعتق ستة من العبيد والإماء منهم واحدة كان عمر بن الخطاب يُعذّبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشركٌ[2].

- وكانت بنو مَخْزُوم يخرجون بعَمَّار بن ياسر، وبأبيه وأمه، وكانوا أهلَ بيت إسلام، إذا حميت الظهيرةُ، يعذبونهم برَمْضاء مكة، فأما أمُّه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام.[3]

- وكان أبوجهل إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شَرَف ومَنَعة، انَّبه وأخْزاه، وقال: «لَنُسَفِّهَنَّ حلْمكَ، ولنُفَيِّلن رأيك[4] ولنضعنَّ شرفكَ»، وإذا كان تاجرا قال: «والله لَنُكَسِّدَن تجارتك، ولنُهلكن مالك»، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.[5]

---

(١) ، (٢) ، (٣) السيرة، القسم الأول ، ص ٣١٥ ـ ٣٢٠.

(٤) لنفيلن رأيك: أي لنقبحنه ونخطئنه

(٥) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١..

- ومشى رجال من بنى مَخزوم إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليدُ بن الوليد بن المُغيرة، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلَموا، فقالوا له: «إنا قد أردنا أن نُعاتب هؤلاء الفِتْية على هذا الدين الذى أحدثوا» قال: «هذا، فعليكم به، فعاتبوه وإياكم ونفسه، احذروا على نفسه، فأقسم الله لئن قتلتموه لأقتلنَّ أشرفكم رجلا». فتركوه (١).

٢- الهجرة الى الحبشة

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكا لا يُظلم عنده أحد(٢).

وحدثت نتيجة لذلك هجرة كبيرة بين مسلمى مكة. ويذكر النص أسماء أصحاب الرسول ﷺ الذين اشتركوا فى هذه الهجرة وأسماء عشائرهم. وكان عددهم ثلاثة وثمانين ما بين رجال ونساء.

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدَين إلى النجاشى فيردّهم عليهم، ليَفْتنوهم فى دينهم، ويُخْرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبدالله بن ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل.(٣)

ووصل هذان الرجلان إلى الحبشة محملين بهدايا ثمينة للنجاشى ولبطارقته ودفعا إلى كل بطريق هديته وقالا له: إنه قد ضَوَى (لجأ) الى

---

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢١.

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٣٣.

بَلَد الملك منَّا غلْمانٌ سفهاء، ، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردَّهم إليهم، فإذا كلمنا الملكَ فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسْلمَهُم إلينا ولا يكلِّمهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشى فقَبَلها منهما، والتمسا منه باسم أشراف قومهما وعشائرهم أن يردَّهم إليهم، وأيّد البطارقة هذا الطلب، لكن النجاشى كان له رأى آخر، ولم يرد أن يتخذ قرارا فيمن نزلوا ببلاده حتى يدعوهم فيسألهم عما يقوله المبعوثان فى أمرهم(*).

ولما قدم المسلمون على النجاشى، دعا أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله. وسأل النجاشى المسلمين: ما هذا الدينُ الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى، فكان الذى كلَّمه جعفر بن أبى طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهلَ جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منَّا الضعيف، فكنَّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصِدقه وأمانَته وعفافَه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدْق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المُحْصنات، وأمَرنا أن نعبد الله وحْدَه، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، وعدد عليه أمور الإسلام، ثم مضى يقول: فصدقناه، واتبعناه على ما جاء به من الله.. فعدا علينا قومُنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

تعالى، وأن نستحِلَّ مـا كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلما قـهرونا وظلمونا وضيقـوا علينا، وحالوا بيننـا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واختـرناك على مَن سواك، ورَغِبنا فى جوارك، ورَجَوْنا ألا نُظلم عندك أيها الملك، فقـال له النجـاشى: هل مـعك مما جاء به عـن الله من شىء؟ فقـال له جعـفر: نعم. فقال لـه النجاشى: فاقـرأه علىّ. فقرأ عليـه صدرا من: «كهيعص» فبكـى النجاشى حتى اخضلّت لحيته (ابتلّت) وبـكت أساقفته حتى أخْضلوا مصاحـفهم، حيـن سمعوا مـا تلا عليهم، ثـم قال لهم النجـاشى: إن هذا والذى جاء به عـيسـى ليـخرج من مِشـكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أُسلمهم إليكمـا. غير أن عمرو بن العاص لم يرض بالهـزيمة، فـغدا علىَ الـنجاشى من الغـد فقـال له: أيها المـلك، إنهم يقولون فـى عيسى ابن مـريم قولا عظيـما، فارسِل إليـهم فسلهم عـما يقولون فيه فأرسـل إليهم ليسألهم عنه. فلما دخلوا عليـه قال جعفر بن أبى طالب: نـقول فيـه الذى جاءنا بـه نبينا ﷺ، يـقول: هو عـبدُالله ورسولُـه وروحه وكَلِمـته ألقـاها إلى مريم الـعذراء البَتـول. فتنـاخرت البطارقة حول النجاشى، أما النجاشى ذاته فقد رضى بهذا الشرح وقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم الآمنـون، من سبّكُمْ غَرِم ، ثم قال: من سبّكُم غَرِم، ثم قال: من سبَّكُـم غَرِم، ما أُحبّ أن لى دَبرًا (جبلا) من ذهب، وأنى آذيت رجلا منكم، وردَّ الهدايا إلى مبعوثى قريش، فخرجا من عنده مَقْبوحَيْن مردودًا عليهما ما جاءا به [1].

- ونازع رجل من الحـبشة النجـاشى فى مُلْكه ونشـبت معركـة بين جيشـه وجيش النجاشى. ودعا المسـلمون الله تعالى للنجـاشى بالظهور على عدوه. وظفرالنجاشى وفرح المسلمون بنصره على عدوِّه[2].

---

(١) ، (٢) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨.

- ولم يكن لأبى النجاشى ولد غيره. وكـان للنجاشى عم له من صلبه اثنا عَشَـر ولدا. ورأت الحبشة أنهم إذا قتلوا أبـا النجاشى وملّكوا أخاه فتوارث أبناؤه ملكه بعده، بقيت الحبشة بعده دهرا، فَغَدَوا على أبى النجاشى فقتلوه، وملّكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينا، ونشأ النجاشى مع عمِّه، وكان لبيبا حازما من الرجال، فغلب على أمر عُمِّه، ونزل منه بكل منزلة. فلما رأت الحبشةُ مكانه منه قالت بينها: والله لقد غَلَب هذا الفتى عـلى أمر عمِّـه، وإنا لنتخوَّف أن يُـملِّكَهُ علينا، وإن ملّكـه علينا ليقتلنا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قـتلنا أباه. فمشوا إلى عمه فقالوا : إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا. ورفض العم أن يقتل ابن أخـيه، فخرجوا به إلى الـسوق، فباعوه من رجل مـن التجار بستٍّ مائة درهم، فقذفه فى سفـينة فانطلق به، حتى إذا كان العشىّ من ذلك اليوم، هاجت سـحابة من سحائب الخـريف فخرج عَمُّه يَسْـتمطر تحتـها، فأصابـته صاعقـة فقتلـته. ففزعـت الحبشة إلـى ولده، فإذا هو محمَّق، ليس فى ولده خير.

وبعد أن تداولوا فى الأمر وجدوا أن ابن النجاشى القديم هو خير من تؤهله صفاته للمُلك. فخرجوا فى طلبه ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سـرير المُلك، فملَّكوه. وجاءهم التاجـر الذى كانوا باعوه منه، فقـال: إما أن تعطونى مـالى، وإما أن أكلِّمه فـى ذلك. قالوا: لا نعطيك شيئا. فجاء النجاشى وشكا إلـيه أن الحبشة منعوه دراهمه، فقال لهم النجاشى: لتُعْطُنَّه دراهمه، أو ليـضعنَّ غلامُه يده فى يده، فليذهبنَّ به حيث شاء.

قالوا: بل نُعْطيه دراهِمَه. فلذلك يقول: ما أخذ الله منى رشوة حين ردّ علىّ مُلْكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىّ فأُطيع الناس فيه. ولما مات النجاشى كان يُرى على قبره نور[1].

- اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشى: إنك فارقتَ ديننا، وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهيَّأ لهم سفنا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزِمتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرتُ فاثبتُوا. ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج الى الحبشة، وصفُّوا له، فقال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبدٌ، قال: فما تقولون أنتم فى عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله، فقال النجاشى، ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى بن مريم، ولم يَزِد على هذا شيئا، وإنما يعنى ما كَتَب، فرضوا وانصرفوا عنه[2]. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فلما مات النجاشى صَلَّى عليه واستَغْفَر له[3].

٣ـ المقاطعة

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا، وأن النجاشى قد منع مَنْ لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة ابن عبدالمطَّلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يَفْشو فى القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم، وبنى المطَّلب، على الا يُنْكحوا إليهم ولا

---

(١) ، (٢) ، (٣) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤١ .

يُنكحوهم، ولا يبيعـوهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجـتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة، ثم تعـاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علَّقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم. ويقول ابن إسحاق إن كاتب هذه الصحيفة كان منصورُ بن عِكْرِمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، لكن ابن هشام يقول إن كـاتبها هو النَّضْر بن الحارث. فدعـا عليه رسولُ الله ﷺ ، فشُلّ بعضُ أصـابعه (1). فلما فعلت ذلـك قريش انحازت بنو هاشم وبنو عبدالمطلّب إلي أبى طالب، فدخلوا مـعه فى شِعْبِه واجتمعوا إليه، وخـرج من بنى هاشم أبو لَهَب، عـبدالعُزَّى بن عبـدالمطلب، إلى قـريش، فـظاهرهم (2). ورسـول الله صلى الله عليـه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلا ونهارا، وسرا وجهـارا، مباديا بأمر الله لا يتقي فيه أحدا من الناس.

فجعلت قريش حين منعه الله منها، وقام عمُّه وقومُه من بنى هاشم، وبنى المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البَطْش به، يَهْمِزونه ويستهزئون به ويخاصمونه (3).

وكان هشـام بن عمرو، من أصـهار بنى هاشم، وكـان ذا شرف فى قومه، يأتى بالبـعير قد أوقره طعامـا، حتى إذا أقبل به فَمَ الشِّعْب خلع خطامه من رأسـه ثم ضرب على جَنْبه، فيـدخل الشِّعب عليهم، ثم إنه مشى الى زُهير بن أبى أُميَّة، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطَّلب، ثم إلى المُطْعِم بن عدىّ، ثم إلى البَخْترِىّ بن هشام، ثم إلى زمعة بن الأسود بن المطلّب وأقنعهم بالعمل على نقض الصحـيفة. وأقبل زُهير بن أُميَّة على الناس فـقال: يا أهلَ مكـة، أنأكل الطعام ونَلبـس الثيـابَ، وبنو هاشم هَلْكى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفةُ القاطعة

---

(1) ، (2) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

(3) المرجع السابق، ص ٣٥٤.

الظالمة. ولما اعترض أبوجهل، وكان في ناحيـة المسجد، على شق الصحيفة، كذبه الأربعة الآخرون، وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد، فقام المُطْعِم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللّهم»[1].

٤- اخبار أخرى

- جعلت قريش حين منع اللهُ رسوله ﷺ منهم، يحذِّرون الناس ومن قدم عليهم من العرب ويقولون إنه فـرق جماعتهم وشتت أمرهـم ، وإنما قوله كالسحر، ويشيرون عليهم بألا يكلموه ولا يسمعوا منه شيئا[2].

- تلقى الطُّفَيْل بن عمرو الدوسىّ ، وكان رجلا شريفا، شاعرا لَبيبا، هذه النصـيحة حيـن قدم مكة. ومازالوا بـه حتى أجمع ألا يسـمع من محمد ﷺ شيئا ولا يكلمـه، وغدا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة. واقترب منه وسـمع بعض قوله ووجده كلاما حسنا، فمكث حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيتـه فاتبعه، حتى إذا دخل بيته دخل عليـه وأخبره بما قـاله له قومه عـنه، وطلب منه أن يعرض عـليه أمره. فعـرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليه الـقرآن، فأسلم الطُّفَيْل على الفـور. وخرج إلى قومه وأقنع بالإسلام أباه وصـاحبته ثم دعا دَوْسا إلى الإسلام فأبطئـوا عليه. ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ بمكة فقال له: يـا نبى الله، إنه قد غلبنى على دَوْس الزنا، فـادْعُ الله عليهم. فقال: اللَّهم اهد دَوْسا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم.

قال الطُّفيل: فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحـد والخندق، ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلت المدينة بسبـعين أو ثمانين بيتا من دَوْس، ثـم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسْهم لنا مع المسلمين[3].

---

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٥.

- قدم رجل من إراش بإبل له مكة، فابتاعها منه أبوجهل، فَمطَله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس فقال: يا معشر قريش، مَنْ رجلٌ يؤدّيني على أبي الحكَم بن هشام، فإني رجل غريب، ابنُ سَبيل، وقد غَلبني على حقي؟ فقال له أهلُ ذلك المجلس: أترى ذلك الرجلَ الجالس - لرسول الله ﷺ ، وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - إذهب إليه فإنه يُؤَدّيك عليه. فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ وسأله أن يأخذ له حقه من أبي جهل فقام معه الرسول وخرج حتى جاء بيت أبي جهل فضرب عليه بابه، فقال : من هذا؟ قال: محمد، فاخرج إليّ، فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة (أي بقية روح)، قد انْتُقع لونُه، فقال: أعطِ هذا الرجل حقَّه، قال: نعم ،لا تَبْرحْ حتى أعطيه الذي له ، فدخل ، فخرج إليه بحقِّه، فدفعه إليه. ثم انصرف رسولُ الله صلى الله وسلم. وأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرا، فقد والله أخذ لي حقي. ثم لم يلبث أبوجهل أن جاء، فقالوا له ويلك! مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قطُّ. قال : ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوتَه، فمُلئت رعبا، ثم خرجتُ إليه، وإنّ فوق رأسه لفحلا من الإبل، ما رأيتَ مثل هَامته، ولا قَصَرته (أصل العنق) ولا أنيابه لِفَحْلٍ قط، والله لو أَبَيْتُ لأكلني(*).

- أقام رسولُ الله ﷺ على أمر الله تعالى صابرا محتسبا، مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومهم، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم: الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يَغُوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث ابن الطُّلاطِلةَ. وأتى

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

جبريل رسول الله ﷺ ، وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جَنْبه، فمر به الأسودُ بن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء ، فَعَمى. ومر به الأسود بن عبد يَغُوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه فمات منه حَبنا، ومر به الوليدُ بن المغيرة، فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله، كان قد أصابه قبل ذلك بسنين، وليس بشىء فانتقض به (أى تجَّدد الجرح بعدما برىء) فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخْمَص رجله فدخلت فى أخْمَص رجله شوكةٌ فقتلته. ومر به الحارث ابن الطُّلاطِلَة فأشار إلى رأسه، فامتخض قَيْحا فقتله[1].

- كان بعض جيران الرسول ﷺ يطرح عليه رحم الشاة وهو يُصَلِّى، وكان أحدهم يطرحها فى بُرْمته إذا نُصبت له، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه الأذى، يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: «يا بنى عبدمناف، أىّ جوار هذا!»، ثم يُلقيه فى الطريق.[2]

- ثم إن خديجة بنت خُويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد، وذلك قبل مُهاجره الى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبوطالب، نالت قريشٌ من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تَطْمع به فى حياة أبى طالب[3].

- لما اشتكى أبوطالب، وبلغ قريشا ثِقَلُه، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمرُ مُحمد فى القبائل كلها، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، وليُعطه منا، والله ما نأمن أن يَبْتزونا أمرنا (ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه). فمشوا إلى أبى طالب فكلَّموه، وهم أشراف قومه فقالوا: يا أبا طالب،

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٠٨ ـ ٤١٠.

(٢) ، (٣) المرجع السابق ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

إنك منّا حيث قد علمتَ ، وقد حَضَـرَك ما ترى، وتخوَّفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبيـن ابن أخيك، فادعُه، فَخُذْ لـه منّا، وخُذْ لنا منه، ليكفّ عنا، ونكفّ عنه، ولـيدَعنا وديننا، وندعه ودينه، فبـعث إليه أبو طالب، فجاءه، فـقال : يابن أخى، هؤلاء أشرافُ قومك، قد اجـتمعوا لك، ليعطوك، وليـأخذوا منك. فقال ﷺ نعم، كلمة واحـدة تُعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. فقال أبوجهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: تقولون: لا إلـه إلا الله، وتَخْلعون ما تعبدون من دونه، فصفَّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يـا محمد أن تجعل الآلهة إلـها واحدا، إن أمرك لَعَجب! ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمُعطيكم شـيئا مما تـريدون، فانطلِقُوا وامـضُوا على دين آبائـكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا، وقال أبوطالب لرسول الله صلى الله عليه سلم: والله يا بن أخى، ما رأيتك سألتهم شَطَطا.[1]

- وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين خرجوا إلى أرض الحبشـة، إسلام أهل مكة، فأقـبلوا لما بلغهم مـن ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بـلغهم أن مـا كانوا تحدثـوا به من إسلام أهل مكـة كان باطلا، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مُستخفيا.

ويورد النص أسمـاء المهاجرين الذين عادوا إلى مكـة وعددهم. وقد كانوا ثلاثة وثلاثين رجلا[2] من بينهم عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسـول الله ﷺ. وقد حُبس أربعـة من هؤلاء العائـدين إلى مكة، حبسهم ذووهم، هم: سلمة بن هشام بن المغيرة، وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل، وعبدالله بن سهيل بن عمرو. أما جعفر بن

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٩.

أبى طالب، فلم يعـد إلا بعد ذلك بكثيـر، بعد غزوة خيبر فى الفـترة المدنية، مع سائر المسلمين الذين بقوا فى الحبشة.

باء ـ التحليل

سيتناول تحليل هذه الفترة الثالثة المادة المتعلقة بستة موضوعات:

١ـ أقارب الرسول الكفار. ٢ـ على وجعفر وحـمزة، أعضاء عشيرة النبى الوحيـدون الذين أسلموا، ٣ـ المسلمون عمـوما، فيمـا يتعلق على الأخص بإسلامـهم وما تعرضوا له من اضطهـاد ٤ـ الهجرة الى الحبـشة والهجرات الأخرى التى من الممكن أن تكون حدثت قبل الهجرة الكبرى إلى المدينة، ٥ـ المقاطعة الاجتماعية الاقتصادية ٦ـ الخلفاء الثلاثة: أبوبكر وعمر وعثمان (باعتبار ما سيكون).

أمـا المادة المتعلقـة بقريش، فـإن تحليلهـا داخل، جزئيـا، فى تحليل الموضوعات أعلاه. وسيعالج الجزء الآخر فى الفصل التالى.

١ـ أقارب الرسول الكفار:

أ) أبوطالب

هذا العم من أعمام الرسول ﷺ هو الشخصية المهيمنة فى هذه الفترة الثالثـة، فإن اللقاءات الثـلاثة بين رؤساء قريش وبينه هى التى تبـدأ بها الفـترة، واللقـاء الرابع الذى تم قـبل موته بقلـيل هو الذى تُختـتم به. كذلك فإن موضوع هذه اللقـاءات وردود فعل أبى طالب هى التى تتقرر بمقتضاها معظم الأحداث الكبرى للفترة.

وأول هذه اللقاءات كان موضوعه شكوى مـجموعة من رؤساء قريش ضد مـحمد ﷺ. ولم يتـخذ أبوطالب أى إجراء بـشأن هذه الشكوى. وفى اللقـاء الثانى، اشتكى رؤسـاء قريش من جـديد من محـمد ﷺ

وشفعوا شكواهم بتهديد بالحـرب ضد أبى طالب وابن أخيه «حتى يهلك أحد الفريقين» إذا لـم يكف محمد عن شتم أبائهم، وتسفـيه أحلامهم، وعيب آلهتـهم. وبعث أبوطالب عقب هذا اللقاء إلى ابن أخيه يسـتدعيه وأبلغه شكوى قريش. لكن مـحمدا أظهر إصرارا على مـواصلة رسالته وبكى لأنه ظن أن عمه خَاذِله ومُسلمه إلـى قريش. وتأثر أبوطالب فقال لابن أخيـه أن يقول ما يحب وأقسم ألا يُسْلمَـه لشيء أبدا. وفى اللقاء الثالث، طلبت قـريش من أبى طالب أن يسلم إليهم ابن أخيه فـيقتلونه وعرضـوا عليه فى مـقابل هذا أنهـد فتى فى قـريش وأجملـه، فرفض عرضـهم. وأخيرا، فـإن الرسول صلى الله عليـه السلام رفض صفـقة عرضتها قـريش على عَمِّه فى اللقاء الرابع الذى تم بينهم وبينه قبل وفاة أبى طالب بقليل.

وحديث هذه اللقاءت يثير الملحوظات الآتية:

١- النزاع بين مـحمـد ﷺ وقريش الذى هو، فـيما يقـول النص، موضـوع شكاوى قريش لدى أبى طـالب لا يرجع، كما أوضـحتُ فى الفصـل السـابق، إلى هذه الفترة، بل الى البـداية الأولى لبعثـة الرسول ﷺ.

٢- حماية أبى طالب للرسول ﷺ، التى تشهد بها لقاءات أبى طالب الأربعة مع رؤسـاء قريش، إنما هى تجـسيـد للوعد المزعـوم الذى وعده أبوطالب لمحمد خلال فترة الاستخفاء والذى يعرضه النص على أنه أهم أحداث الفترة المذكورة.

٣- يعتبر النص حماية أبى طـالب لمحمد من قريش الحدث المركزى فى هذه الفتـرة الثالثة أيضـا، فإن هذه الحمـاية هى التى جعلت قـريشا تتصل بأبى طالب كلمـا أرادت أن تشكوه أو تتفاوض معـه. وهى أيضا

التى دفعت أبا طالب إلى دعـوة بنى عبدالمطلب وبنى هاشم لحـماية ابن أخيه. وهى أخيرا التى جعلت قريشا تقاطع هاتين القبيلتين.

٤- أبوطالب، الذى يبدو فى حديث هذه الفترة الشخـصية الرئيسية، وقد التفّ حـوله بنو عبدالمطـلب وبنوهاشم، فى مواجهـة جميع قـبائل قـريش، وقـد هدى أحـدُ ابنيـه ملكا إلى الإسـلام، يحـجب شـخص محميّه، الذى جُرِّد هنـا أيضا من الجلال الذى أسبغه عليـه القرآن، كما جُرِّد من تأييد المسلمين، الذى يتجاهله النص تماما.

٥- ليس فى السيرة مـا يسمح بمظنة أن قواعد الحكومـة فى مكة تجيز للأشراف أو لقبائلهم أن يطلبوا من قـبيلة ما أن تسلمهم فردا من أفرادها ليعاقبوه على مـخالفة أو جرم ارتكبهما، فإن استـقلال كل قبيلة لم يكن يجيز الاسـتجابة لمثل هذا الطلب، والجهـة الوحيدة التى كانت مخـتصة بالمعاقـبة على المخـالفات أو الجرائم هى قـبيلة المتهـم ذاتها. وفى النص تأكيد لهذه القاعدة الأولية، إذ أنه يذكر أن كل قبيلة تولت عقاب أفرادها الذين اعتنقـوا الإسلام وتعذيبـهم لردهم إلى ديانة الآباء والأجداد. ولم يكن هناك ما يسـوغ استحداث استـثناء على هذه القاعدة الأسـاسية فى النظام القبلى بشأن الرسول ﷺ . وكان الإجراء العادى إذن هو أن يطلب مجلس قـريش الحاكم من بنـى عبدالمطلب وبـنى هاشم منع محـمد من سبّ مـواطنيه أو آبائهم أو دينـهم، وأن يوقعـوا عليه، اذا استـمـر فى هجومه عليهم، العقوبات التى ينص عليها قانون المدينة العرفى أو قانون القـبيلة المعنيـة. لذلك فإن المسـعى الذى أسس عليه لـقاء سادة قـريش وأشرافها الثانى بأبى طالب، يبدو غير مقنع.

٦- النص لا يذكر بصورة محددة الجريرة التى ارتكبها محمد ﷺ فى حق قريش. وهـو لا يوضح ، بصفة خـاصة، مـا إذا كان المقـصود هو

آيات القرآن التى تندد بالكفار وتقول إنهم صم بكم أو عمى أو فاسقون أو عصاة أو من أصحاب الشمال، أم - وهذا فرض احتماله ضعيف - إساءات ذات طابع شخصى.

وأيا كان الأمر فإن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يقولون ما يقوله رسولهم. أى أن كلا منهم كان، بالنسبة لقريش، فى الموقف نفسه الذى كان فيه محمد ﷺ. والثابت أن النص لا يشير إلى أى طلب موجه من أشراف قريش إلى رئيس قبيلة أخرى أو إلى شريف من أشرافها يطلبون فيه أن يكف فردا من أفراد قبيلته دخل الإسلام عنهم، أو يهددون بحرب القبيلة إذا لم تلزمه بالصمت، أو يطلبون تسليمه إليهم كى يقتلوه.

ولما كان جعفر، ابن أبى طالب ذاته، قد دخل فى دين محمد ﷺ وكان، ولابد ، يردد كل ما كان يقوله ابن عمه والقرآن ضد قريش ودينهم، فقد كان من الطبيعى، لو صحت دعوى حماية أبى طالب، أن تطلب قريش تسليمه اليها، هو الآخر. لكن النص لا يقول أنها طلبت ذلك، كما أنه لم يشرح لماذا لم تطلبه.

٧- أبوطالب لم يكن قطعا الشريف القرشى الوحيد الذى يحب ابن أخيه. والحاصل أن النص لا يتحدث عن أى شريف أو رئيس قبيلة آخر سخّر قَدْرَه كله وقَدْر قبيلته لحماية ابن أخ له أسلم ضد قبائل قريش.

٨- لا يشرح النص لماذا لم يضع السادة والأشراف الذين اشتركوا فى اللقاء الثانى مع أبى طالب تهديدهم بحربه حتى يهلك أحد الفريقين موضع التنفيذ، علما بأن هذا التهديد كان موجها فى الواقع الى قبيلة أبى طالب أى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

٩- ليس هناك غرابة فى أن تكون قريش قد فكرت فى قتل محمد للتخلص منه. أما ادعاء أنهم عرضوا صفقة على أبى طالب يتسلمون

محمدا ﷺ بمقتضاها كى يقتلوه مقابل إعطائه أنهد فتى فى قريش، فهو ادعاء فيه من الشطط ما ينزع عنه كل مصداقية. ويلاحظ أن النص لم يذكر المقابل الذى عرض على والد هذا الفتى وعلى قبيلته تعويضا لهم عن فقده.

١٠- إذا كانت قريش تريد، بأى ثمن، أن تتخلص من محمد، فمن الغريب أنها لم تتفق فى هذه المناسبة على ما يقول النص إنها اتفقت عليه بعد ذلك بسنوات، بعد عقد بيعة العقبة الثانية، من اختيار فتى مسلح من كل قبيلة وتكليف مجموع هؤلاء الفتية بضرب محمد ﷺ بسيوفهم ضربة رجل واحد، فيقتلوه ويتفرق دمه فى القبائل جميعا، ولا تقدر بنو عبدالمطلب وبنوهاشم على حرب قومهم جميعا فيضطرون لقبول الدية التى يقدمونها.

١١- من غير المعقول أن تكون قريش قد اتجهت إلى أبى طالب لكف محمد عن دعوته، لسبب آخر هو أن النص - كما سبق أن بينا - لا يذكر أن أبا طالب كان رئيسا لقبيلتى بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم أو لإحديهما. لقد كان أبوطالب رجلا رقيق الحال فى مجتمع لا يحسب فيه حساب إلا لذوى الثراء، وما كان يمكن لذلك أن تخاطبه قريش كمسئول فى شأن محمد الذى كان قد تجاوز الأربعين بسنوات، والذى كان يتحمل تبعة أعماله بالكامل.

١٢- لو أن أبا طالب كان حقا صاحب الكلمة المسموعة كما يصفه النص، لحمى فلذة كبده جعفرا، ولحال دون هجرته إلى الحبشة هربا من الاضطهاد. والحاصل أن جعفرا ما كان له مناص من هذه الهجرة وأن كل الجهود التى لابد أن أباه بذلها لم تغنه عن هذه الضرورة.

١٣- لم يكن بقريش حاجة إلى الاتجاه لأبى طالب وقد كان فى مجلس المدينة، بالتأكيد، واحد على الأقل من ممثلى قبيلة عبدالمطلب. كان معهم أبولهب. لقد كان هذا الشريف الثرى، فيما يقول النص، الوحيد من بين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الذى انحاز الى صف قريش ضد محمد، والنص لا يشير إلى أى إجراء بالخلع اتخذته قبيلته ضده إثر ذلك. ومن هنا كان الطبيعى أن يكون هو الوسيط بين قريش وبين بنى عبدالمطلب أو بينهم وبين أبى طالب فى شأن محمد ﷺ، لاسيما وأنه، كما سنعلم فيما بعد، كان على علاقة طيبة بأخيه المذكور.

ب) بنو عبدالمطلب وبنو هاشم:

يستفاد من النص أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم استجابوا لدعوة أبى طالب ووقفوا صفا واحدا وراءه للدفاع عن محمد ﷺ. ويتعين منطقيا، لقبول هذه الدعوى:

- إما أن يكون بنو عبدالمطلب وبنوهاشم قد أسلموا قبلها.

- أو أن يكونوا قد بقوا على دينهم وأن يكون محمد ﷺ قد تمكن من كسب عطفهم ومحبتهم كما كسب محبة أبى طالب مع مخالفته له فى الدين.

والثابت أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم ظلوا، فى أغلبيتهم العظمى، على عبادة الأصنام، ولم يدخل فى الإسلام منهم سوى على، الذى كان صبيا فى العاشرة من عمره، وجعفر الذى كان يكبره بعشر سنين، فى الفترة الأولى، وعمهما حمزة، فى الفترة الثالثة. أما بنو هاشم فإن أحدا منهم لا يظهر فى قائمة مسلمى الفترة الأولى الثلاثة والخمسين. ولم يتحدث النص عن إسلام أحد منهم فى الفترة الأولى، أو فى الفترة الثانية، أو فى الفترة الثالثة.

لذلك فإن احتمال التكاتف الجماعى لـلقبيلتين دفاعا عن الرسول ﷺ لدخولهم فى الاسلام احتمال غير وارد.

وقد رأينا من الجهة الأخرى أن الـقرآن ، منذ سوره الأولى، قد وجه ضربات شديدة إلى جمـيع الأسس الاجتماعية والدينيـة التى كانت تقوم عليها فى الجـاهلية مجتمعـات العرب عموما، ومجتـمع مكة على وجه الخصـوص. وقد استمـر القرآن فى توجيـه هذه الضربات خلال الفـترة الثالثة فى عـبارات محملة بالنقـد اللاذع، كما استمر فى تـهديد الكفار تهديدا صريحا بنار جهنم.

ونظرا إلى أن هذا الـنقد وهذه التـهديدات لم تكن تميـز بين قبـيلتى الرسول ﷺ وبين غيرهما، ولم يرد فى القرآن احتمال أن يتشفع الرسول لصالح ذويه يوم الحســاب ، فمن غير المتصور أن يكون مـحمد ﷺ قد اسـتطاع أن يحظـى لدى بنى عـبدالمطـلب أو بنى هاشـم، الذين أداروا ظهـورهم لرسالتـه، بأى قدر مـن المحبـة أو الـعطف. كذلك كـان من الصعب جدا إعمال قاعدة التضامن القبلى لصالح رجل كان الدين الذى يدعو إليه يعصف بأسس النظام القبلى ذاته.

إن عداء بنى عبدالمطلب وبنـى هاشم للإسلام، هذا الدين الذى كانوا يشعرون ولاشك بأنه يهددهم فى وجودهم ذاته كما يهدد مجتمعهم، ما كان يمكن من ثم ، كما سبـق أن شرحت ، إلا أن يكون عداء إيجابيا. ونظرا إلى أنـه لم يكن بمقـدروهم فى ذلك الوقت أن يتـصوروا العــالم الذى يمكن أن يحـل محل العالم القـبلى الذى كانوا يعـيشون فـيه منذ الأزل، فلابد أن رؤساءهم وذوى الـرأى فيهم وصفوا محـمدا ودينه لهم بأنهما شـر محض، ولابد أن مقتـضيات الدفاع عن النفس فى مـواجهة خطرهما جعلتـهم ينحازون إلى جانب قريش، الذين كـانوا يشاركونهم المصير، لا إلى جانب محمد ﷺ .

وحالة جعفر بن أبى طالب تصور مشكلة تكافل بنى عبدالمطلب وبنى هاشم المزعوم أبلغ تصوير. إن النص لا يعطى أى شرح للظروف والملابسات التى جعلت هذا الابن الشاب لأبى طالب يهاجر إلى الحبشة مع زوجه. ولأن مكة لم يكن فيها حكومة مركزية تعلو سلطاتها فوق سلطات العشائر والقبائل التى تكوّنها، فإن من اضطروا جعفرا إلى الهجرة (أو نفوه) لم يكونوا بداهة سوى رجال قبيلته. ولو خُيِّر أبو طالب لاختار بالتأكيد أن يستبقى ابنه إلى جواره فى مكة، لكنه رضى برحيله كارها لأنه إن بقى لتعرض لألوان التنكيل التى لابد أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا يدّخرونها لأفراد قبيلتهم الذين تبعوا محمدا ﷺ ، والتى صمت عنها النص للأسباب التى سنذكرها فيما بعد. لذلك فإن مما لا يقبله العقل أن تكون قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، اللتان كانتا ولاشك تعذبان المسلمين، واللتان اضطرتا جعفرا إلى الهجرة، قد حركتهما روح التضامن مع محمد لدرجة الاستجابة كرجل واحد لنداء أبى طالب - على فرض أنه وجه مثل هذا النداء - وأن تكونا قد كونتا حوله درعا بشريا يحميه من اعتداءات قبائل قريش الأخرى. إنهم هم، على العكس، الذين كانوا ولا ريب يمثلون الخطر الرئيسى الذى كان على محمد ﷺ أن يتّقيه. وإذا كان محمد قد كتبت له السلامة فى مكة، فلم يكن الفضل فى ذلك فضلهم ، بل كان لأسباب خارجة عن إرادتهم.

جـ) ابو لهب:

لم يكن هذا الابن من أبناء عبدالمطلب الذى كان يحمل اسم عبد لواحد من آلهة الجاهلية، والذى أطلق عليه ـ فى وقت غير معروف وفى ظروف مجهولة ـ اسم أبى لهب، فى رأى مؤلف النص، رجلا ذا

حيثية. والحيز المخصص له فى السيرة ليس كبيرا. وقد جاء ذكره لأول مرة فى قصيدة لحُذَيْفَة بن غانم [(١)] يذكر فيها فضل عبدالمطلب وفضل ولده من بعده ومنهم أبولهب على التخصيص. وجاء ذكره بعد ذلك بصدد دعوة أبى طالب بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، وهى الدعوة التى لم يستجب لها أبولهب، الذى فضل الانحياز إلى جانب قريش[(٢)]. ويذكر النص كذلك [(٣)] أن أبا لهب لقى هند بنت عُتْبة بن ربيعة، حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشا، فقال: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعُزّى، وفارقتِ مَنْ فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم، فجزاك الله خيرا يا أبا عُتْبة. على أن خلافه مع قبيلته بشأن محمد لم يَحُل دون تدخله فى صف أبى طالب، مما جعل أبا طالب يمدحه فى قصيدة نظمها[(٤)]. وأخيرا فإن النص يشرح الظروف التى نزلت فيها سورة المسد:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد: ١-٥]

وصورة أبى لهب التى تستخلص من هذه البيانات هى صورة رجل قليل الأهمية، فيه جانب سيىء، بدليل أنه انضم إلى أعداء ابن أخيه، كما أن القرآن حكم عليه بالنار، مما جعل النص يصفه بأنه «عدو الله الملعون»، ولكنه ليس عيوبا كله: لقد افتكّ شاعرا أُخِذ بغُرم أربعة آلاف

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ١٧٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣٥١.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٣٧١.

درهم فى مكة، وثار على قوم من قريش كانوا يريدون أن ينزعوا ابنهم المسلم من أبى طالب الذى منعه منهم، بل هددهم بالقيام مع أخيه فى كل ما قام فيه إذا استمروا فى الإكثار عليه. ومن جهة أخرى فإننا لا نكاد نرى أبا لهب أبدا، فى النص، بين النفر القريشيين الذين كان يحلو لهم أن يَسْخَروا من محمد ﷺ، أو أن يسيئوا إليه، أو أن يوجهوا إليه أسئلة محرجة، كما أنه لم يحاول - كما حاولت امرأته - أن يعتدى على الرسول ﷺ، أو أن يقوم بدور فى الأعمال الموجهة ضده أو ضد المسلمين.

المآخذ التى يمكن أن تؤخذ عليه إذن ، فى جملتها، مآخذ هينة. لقد كان ، باختصار رجلا طيبا، لكنه ضل الطريق.

وسنعود فى الفصل التالى إلى قصيدة أبى طالب وإلى الشرح الذى قدم به النص لسورة المسد. على أن الذى يعنينا أن نقوله الآن هو أن هذه السورة القصيرة تظهر أبا لهب فى صورة تختلف تماما عن تلك التى تستنبط من النص. لقد كان أبولهب واحدا من اثنين أو ثلاثة فى تاريخ الأنبياء جميعا، حكم عليهم القرآن بالنار مع ذكر أسمائهم. والذى يستحق هذا الخزى العظيم لايمكن أن يكون شخصا من الصف الثانى أو الثالث. لقد كان أبولهب رجلا غنيا ذا نفوذ، وكان سيدا. سيد بنى عبدالمطلب، أو بنى هاشم، أو حتى سيد قريش. ولابد أن ما جنت يداه من أفعال كان أخطر بكثير مما يوهم به النص. ولابد أنه كان جَلاَّدا، جعل للإرهاب الكلمة العليا فى قبيلته، وأنه استخدم نفوذه لدى رؤساء القبائل الأخرى كى تطبق حيال مسلميها سياسة قمعية لا تعرف الهوادة. ولابد أن تصرفاته جعلت منه أعدى أعداء الإسلام خلال الفترة المكية بأكملها.

ولا يملك المرء، فى هذا المقام إلا أن يلاحظ صلة ما بين سورة المسد والآيات التالية، التى سبقت الإشارة إليها، فى قوله تعالى:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾ [البروج: ٤-١٠]

من كان، بين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، ضحايا الاضطهاد الذى فرضه وشجعه هذا الرئيس؟ وكم كان عددهم؟ هذا شىء لن نعرفه أبدا، لأن أحدا من المسلمين، فيما يؤخذ من النص، لم يلق تعذيبا أو اضطهادا بيد أى رجل من هاتين القبيلتين، وإذا كان جعفر قد هاجر، فليس ذلك لأنه فر من اضطهاد قبيلته، بل للاضطهاد الذى كانت تمارسه قريش، أى الآخرون!

د) النتيجة:

النص لا يعطى أى تعليل لحقيقة أن ثلاثة فقط - منهم صبى قاصر - من قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم هم الذين استجابوا لرسالة محمد ﷺ. وكان هذا التعليل مع ذلك ضروريا لأن الظاهرة غريبة. فكيف يعقل أن ثلاثة فقط، مما يزيد على مائتى هاشمى، دخلوا فى دين أقرب الأقربين إليهم فى الفترة المكية كلها؟

وما الذى جعل أبناء عبدالمطلب، الذين كان لديهم حس بالقداسة جعلهم يستسلمون طائعين لأمر أبيهم حين كان الأمر يقتضى ذبح واحد منهم، يضعون أصابعهم فى آذانهم حين كان محمد ﷺ يحدثهم عن

دين لا يطلب منهم مثل هـذه التضحية ويعرض عليـهم مكافآت أخروية لم يعرض أبوهم مثلها قط عليهم؟

ولمَ لمْ يحـتذ أبناء هؤلاء الأعمـام حذو ابنى عمـهما على وجعـفر ويصدقوا ما كـان ينقله إليهم ابن عمهم محـمد ﷺ من كلام بليغ؟ لماذا لم يستـمع أحفاد هاشم، أبى عبـدالمطلب، وأبناؤهم الى دعوة قـريبهم محمد السـامية، ولماذا أطبقوا أعينهم كى لا يبـصروا النور الذى جاءهم به؟.

لماذا، وقد كانت كل قبـيلة تفخر بشاعرها، لم يفخـر بنو عبدالمطلب وبنو هاشم بالنبى الذى كـان قرآنه يعطيها ميزة لا حدود لهـا على جميع القبائل الأخرى التى كان لها شعراء؟

النص لا يعطينـا عن جميع هذه الأسئـلة إجابة أو ما يشبـه الإجابة. وكما هو الشأن بالنسبة لفترة الاستـخفاء ولاستجابة بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الفورية الساحقة لدعوة أبى طالـب بحماية محمد والوقوف دونه رغم أنهم لـم يكونوا يؤمنون بـدينه، فإن النص هـنا يقود القـارىء إلى طريق مسدود بادعاء أمور غير مفهومة أو لا يمكن تصديقها.

إن رفض بنى هاشم للإسـلام معضلة حقـيقية لايمكن أن تـفسر إلا على أسـاس افتراض من ثـلاثة: سوء الظن، أو العـقلية المحـافظة، أو الخوف.

١) افتـراض سوء ظن شـخصى إزاء محـمد ﷺ، ناشىء عـن كونه مشهورا لدى القبيلة بالكذب، والـثابت أن هذا الافتراض يتنافى كلية مع منطق الـنص، إذ أن بنى عبـدالمطلب وبنى هـاشم قد أجابـوا طلب أبى طالب لمنع محمد.

٢) افتراض عقلية محافظة شاملة، لا بين المسنين منهم وحدهم، بل أيضا بين الشبان، لا بين من كانوا يستفيدون من النظام القبلى وحدهم، بل أيضا بين ضحايا هذا النظام، لكن هذا شىء بعيد الاحتمال نظرا - من جهة - لروح الإسلام الثورية، التى كانت، ولابد ، تروق للشبان، ونظرا، من جهة أخرى للكرامة والمزايا التى كان الدين الجديد يقدمها لضحايا النظام أى للفقراء والمحرومين. وهذه العقلية المحافظة بدورها شىء لا يتمشى وحقيقة انضمام بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى أبى طالب فى حماية محمد.

٣) افتراض خوف الاضطهاد، وتذكير القرآن بالواقعة القديمة المتعلقة بأصحاب الأخدود، التى ليس فيها أية إشارة الى نبى بعينه أو إلى بلد بعينه أو إلى أمة بعينها كان، ولابد، يرمى الى تصوير موقف تاريخى مماثل عن طريق التشبيه(*) . ولم يكن أبولهب قطعا المسئول الوحيد عن هذا الوضع، فإن الآيات التى نقلتها من سورة البروج تشير إلى وجود عدة أشخاص حول النار يشهدون عملية إلقاء المؤمنين فى الأخدود وحرقهم بناره. وإذا كان استنتاجى صحيحا، فقد اشترك عدة من أفراد قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى عملية تعذيب مسلمين بالنار أو قتلهم حرقا بالنار، وكان هذا التنكيل الفظيع العامل الرادع الذى حال بين أفراد هاتين القبيلتين وبين الإسلام. وفى نظرى أن هذا السياق هو الذى تندرج فيه آية:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

(*) قادنى البحث، بعد مناقشة الرسالة، إلى أن سورة البروج لم تكن تشير إلى واقعة قديمة متعلقة بأصحاب الأخدود ولا تصور موقفا تاريخيا مماثلا عن طريق التشبيه، وإنما إلى أخدود حفره الكفار فى مكة للمسلمين دون أية إشارة إلى الماضى.

والإنذار فى هذه الآيـة من إحدى السـور المتأخـرة من الفتـرة الأولى . (التى تحـمل رقم ٤٧ فى ترتيب المصـحف ورقم ٥٨ فى ترتيب بلاشـير لسور القرآن)، لا يمكن أن يعنى «التبليغ»، فإن تبيلغ الرسالة إلى عشيرة الرسول الأقـربين كان قـد تم منذ وقت طويل. والأمر بـالإنذار يعنى، ولاشك، فى هذا الموضع، كما سبق أن ذكـرت، تحذير هذه العشيرة من المضى فى الفظائع التى كانوا يرتكبونها ضد المسلمين.

وفى رأيى أن هذا الافتراض الثالث هو أنسـب الافتراضات لتعليل أن ثلاثة فحسب بين أفـراد قبيلة الرسول ﷺ أسلموا خلال الفـترة المكية من الدعوة. وهو يخالف دعوى النص غير المعقولة التى تذهب إلى أن قبيلة الخليفـة العباسـى المقبل ، الكافـرة. حمت الإسلام ورسـوله ﷺ خلال الفترة المكية.

٢- على وجعفر وحمزة

يضيف النص إلـى فضل أبى طالب، وبنى عبـدالمطلب وبنى هاشم، الكفرة، فى حماية الرسول صلى الله عليه وسلم، فضل المسلمين الثلاثة الوحيدين الذين ينتمون إلى هاتين القبيلتين، أى علىّ الذى كان أول من أسلم من «الرجـال» رغم صغر سـنه، وجعفـر الذى كان ناطقا بـلسان المسلمين فى الحبشة قبل النجاشى والذى كان من نتيجة دفاعه المجيد عن الإسلام ضد كيـد عمرو بن العاص، ومن حُسن عرضـه لرسالة الرسول ﷺ أن دخل النجـاشى ذاته فى الإسلام، وحمـزة، أعز فتى فـى قريش وأشد شكيـمة، الذى ضرب أبا جهل ذا الحَـوْل والطَّوْل بقوسه فـجرحه جرحـا كبيرا حـين علم أنه أهان ابن أخـيه، وأعلن إسلامـه فى الوقت د ـ حمزة الذى يـقول النص إن أصحاب رسول الله ﷺ امـتنعوا به هو وعمر حين أسلما، حتى عازُّوا قريشا (أى غلبوهم).

إن النص لا يتحدث عن هؤلاء الصحابة الثلاثة الذين كتبت لهم الشهادة فى فترات لاحقة وعن جعفر وحمزة على الأخص، إلا فى معرض المواجهة بين قبيلتى رسول الله ﷺ وقريش. ويظهر علىّ وحمزة فى حديث الفترة المدنية، باعتبارهما المقاتلان اللذان قتلا أكبر عدد من القرشيين فى بدر. وقد قُتل حمزة فى غزوة أُحد بحربة قذفه بها عبد حبشى مملوك لجُبير بن مُطْعم. واستشهد جعفر بدوره، بعد عودته من الحبشة، فى إحدى الغزوات.

كان هؤلاء المطَّلبيون الثلاثة إذن، أبطالا حقيقيين فى جهاد الرسول ضد الكفار، والنص يصف حزن الرسول ﷺ لموت حمزة، وحين تلقى نَعْى جعفر.

ونص ابن إسحاق، الذى وضع بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فوق كل الشبهات، والذى أوحى بأنهم أصحاب فضل على الإسلام لحمايتهم الرسول ﷺ، يستفاد منه أن هؤلاء الشهداء الثلاثة كانوا، مع الرسول، خير ممثلين لقبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، قبيلتى الخليفة العباسى.

لكن ما لم يذكره النص هو أن هؤلاء الثلاثة، مثلهم فى ذلك مثل الرسول صلى الله عليه وسلم، كانوا فى حالة قطيعة مع قبيلتيهم. والمشهد الذى يصف النص فيه ظروف إسلام حمزة مشهد غير مقنع، فهو يصور إسلام حمزة على أنه عمل صادر عن سَوْرة غضب قَبلى لا على أنه عمل ناتج عن تفكير وتدبر طويلين.

إن حمزة الذى كان يرى الطريقة التى كانت قبيلته تعامل بها مسلميها، لم يكن قطعا يشعر حيال قبيلته بفخر واعتزاز، ومن المؤكد أن الاعتبارات القبلية لم تكن هى التى دفعته إلى ضرب أبى جهل بقوسه، هذا إذا افترضنا أن المشهد الذى وصفه النص حدث بالفعل وليس اختراعا من المؤلف.

أما الظروف التى أدت الى إسلام جعفر، فإن النص لا يتحدث عنها. وكان بودنا أن نعرف ما إذا كان قد أسلم، مثلا، لأن أباه كان، رغم كل شيء، محبذا للإسلام، أو لأنه كان على صلة خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وكان يثق به، أو لمحبته لابن عمه، أو لأن تعاليم الإسلام كان لها وقع طيب على نفسه، أو لأن رؤيته مسلمى قبيلته الذين كانوا يعذَّبون من أجل دينهم أثار غضبه، أو لأنه شاهد أشخاصا من قبائل أخرى يؤمنون بمحمد فى الوقت الذى كذبه فيهم أعضاء قبيلته ذاتهم. لكننا لا نجد شيئا فى النص عن بواعث إيمان جعفر.

وليس فى النص شيء كذلك عن رد فعل بنى هاشم المئتين وبنى عبدالمطلب السبعين عندما أعلن جعفر وحمزة عن عزمهما على اعتناق الإسلام أو عن اعتناقهما له بالفعل. وهو هنا أيضا لا يشفى غليلنا. ومع ذلك فإن من المحقق أن إسلام هذين الرجلين لم يكن يبدو حدثا عاديا داخل قبيلتيهما الوثنيتين.

هل استدعى أبولهب ورؤساء القبيلتين عليا وجعفرا وحمزة لتوعيتهم بجسامة ما هم مقدمون عليه؟ هل فرضوا عليهم حضور بعض جلسات تعذيب مسلمى قبيلتهم؟ هل طلبوا من زوجاتهم وإخوتهم وأصدقائهم أن يبصّروهم بنتائج فعلتهم؟ هل هددوهم بالتعذيب أو الخلع أو هددوهم فى أرزاقهم، أو بإيذاء أفراد أسرهم؟ هل عذبوهم بالفعل؟ ماذا كان رد فعل جعفر وحمزة إزاء كلام أبى لهب ورؤساء القبيلة، والتهديدات التى وجهت إليهم أو التعذيب الذى عذبوه؟ هنا أيضا لا يذكر النص شيئا.

إن النص يتحدث عن لحظتى مجد عابرتين بالنسبة لحمزة وجعفر. اللحظة التى انتقم فيها حمزة من أبى جهل للإساءة التى صدرت منه ضد محمد ﷺ ، واللحظة التى دحض فيها جعفر حجج عمرو بن العاص

بشأن السيد المسيح وكسب بذلك ثقة النجاشى ثم إسلامه. وقد أبديت فيما سبق تحفظاتى على إحدى هاتين الواقعتين. لكن على فرض أنهما حدثتا فعلا، فإنهما ليستا أهم الأمجاد التى تحسب لهذين المُطَّلِبين، والتى أغفل النص ذكرها، وأعنى بها كفرهما بدين قبيلتهما وقومهما. ونظرا للقسوة الشديدة التى اتسمت بها فى رأيى أعمال القمع التى ارتكبتها هذه القبيلة ضد مسلميها ، فإن إسلام هذين القريبين من أقرباء الرسول ﷺ والتحدى الذى كان يمثله بالنسبة لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم عرَّضا جعفرا وحمزة، ولابد، لعقوبات شديدة.

ومن المحتمل أن تكون هذه العقوبات قد تضمنت تعذيبهما هما أو نساءهما وأولادهما تعذيبا جسديا أو معنويا، ولابد أن هذا الاضطهاد الذى اضطهدتهما به قبيلتهما كى تستأصل كل أثر للإسلام فيها، كان فظيعا للغاية.

وقد ظل هذان المسلمان على إيمانهما، بعكس أفراد آخرين فى قبيلتهما من المحتمل أن يكونوا قد فتنوا لم يعط النص عنهم، لأسباب لا يشق فهمها، أية معلومات.

كان جعفر وحمزة إذن مجاهدين عظيمين، فقد تعرضا للتعذيب والاضطهاد على مدى سنوات. وربما كان هذا هو السبب الذى جعل الرسول ﷺ يكنّ لهما محبة خاصة لا مجرد كونهما من أقربائه، أو لأن أحدهما ضرب أبا جهل ولأن الآخر هدى النجاشى إلى الإسلام. ولابد أن جعفرا عومل فى معسكر الاعتقال بالحبشة معاملة أقسى من معاملة باقى المعتقلين. ولابد أنه تعرض فى هذا المعسكر لكل صنوف التعذيب. ولم يقرر من كانوا فى مكة يتصرفون فى مصيره الإفراج عنه وعودته إلى بلاده إلا فى وقت متأخر، فالنص يقول إنه لم يتمكن من اللحاق

بالرسول صلى الله عليه وسلم، مع باقى المهـاجرين، إلا بعد خيبر، أى فى السنة السابعـة الهجرية. وهذه كلها أمور كان لايمكن الـتصريح بها من جانب أولئك الذين كـان دأبهم التغنى بأمجاد بنى عـبدالمطلب وبنى هاشم وكان يتـعين إخفـاؤها. أما قصة المناقـشة التى دارت بين جـعفر وعمرو بن العاص وقصة إسلام النجاشى على يد جعفر فقد كانت، دون شك، جزءا من مخطط الإخفاء المذكور.

٣- المسلمون :

والآن، وبعـد أن نظرنا فيـما قـاله النص عن بنى عـبدالمطـلب وبنى هاشم، حان وقت دراسـة ما قاله النص - أو ما لم يقلـه - عن مسلمى مكـة وباقى أقـاليم الجـزيرة الـعربـيـة بصـدد تحولـهم إلى الإسـلام، واضطهادهم، وهجرتهم أو إخراجهم. وسنهتم أيضا بمعرفة ما إذا كانت قريش قد فرضت ضدهم إجراء المقاطعة.

أ) إسلامهم :

يثير هذا الموضوع الملحوظات الآتية:

١) حديث هذه الفتـرة الثالثة، مثل حديث الفتـرة الثانيـة، وبخلاف حديث الفـترة الأولى، لا يذكر أسـماء من أسلموا فى مكـة وفى أنحاء الجزيرة الأخرى ولا أعدادهم. ولا يذكر من حالات الدخول فى الإسلام سوى حالتين: حالة عمر وحالة الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوْسى. ونحن، فيما خلا ذلك، لا نعرف سوى أسماء مهاجرى الحبشة الثلاثة والثمانين الذين تظهر أسماء ثمـانية وعشرين منهم فى قائمة مـسلمى الفترة الأولى. ولا يسعنـى هنا إلا أن أكرر الملحوظـة التى أبديتهـا بصـدد قائمة المسـلمين الأوائل، أى قلة اهتمام النص بجـانب الدعوة الأساسى الذى هو دخول الكفار فى الإسلام.

وباستطاعتى أن أضيف هنا أن الاستهانة بهذا الجانب السلمى من عمل الرسول ﷺ قد تكون من الأسباب التى جعلت حديث الفترة المكية موجزا للغاية بالمقارنة بحديث الفترة المدنية المخصص، إلى حد كبير، لحروب الرسول ﷺ.

٢) النص لا يقدم لنا الرسول مطلقا وهو يقوم بالنشاط العادى للأنبياء، أى الدعوة إلى الله، وشرح مبادىء الدين الذى كُلِّف بنشره وآيات القرآن التى نزلت. وإذا قارنا الحيز الذى خصصه النص لهذا النشاط بذلك الذى تتلألأ فيه شخصيات بنى عبدالمطلب بكل أنوارها: أبوطالب وهو يدافع عن محمد فى وجه سادة قريش، وأبوطالب وهو يدعو بنى عبدالمطلب وبنى هاشم لمنع ابن أخيه، وحمزة وهو يضرب أبا جهل لإساءته إلى محمد، وجعفر الذى هدى النجاشى إلى الإسلام، وأخيرا أبوطالب وبنو عبدالمطلب وبنو هاشم وهم يعانون من المقاطعة التى فرضتها عليهم قريش، لبدا الحيز الذى خصصه لمحمد ﷺ وهو يقوم بأمر الرسالة التى بعثه الله بها للناس ضئيلا للغاية، مع أن نشاط الدعوة هذا، الذى هو جوهر البعثة فى قصة حياة أى نبى من الأنبياء، ينبغى فى الأحوال العادية أن يحتل الجزء الأكبر من سيرته.

ومن الغريب أننا لا نرى رسول الله ﷺ قط فى حديث هذه الفترة الثالثة وهو يقول خمس جمل متصلة عن الإسلام أو عن القرآن أو يخاطب الكفار لإقناعهم بدينه. وحين يتحدث أحد عن الإسلام أو القرآن بشىء من التفصيل فليس الذى يفعل ذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما جعفر فى مرافعته أمام النجاشى وبطارقته!

لكن الذى حدث قطعا هو أن الرسول ﷺ لم ينقطع خلال هذه الفترة وخلال الفترتين اللتين سبقتاها عن الدعوة إلى الله، وأنه كان يكرس كل وقته وجهوده لشئون هذه الدعوة.

والرسول صلى الله عليه وسلم، لأن دينه دين قيّم، ولأنه كان يحظى بتأييد الله سبحانه وتعالى، ولأنه كان يتلقى باستمرار تنزيلا يرد على هجمات أعدائه، ولأنه ، صلى الله عليه وسلم، كان ذا طبيعة سمحة وقلب كبير، فمن غير المتصور ألا يكون قد هدى إلى الإسلام كثيرا من عرب مكة وغيرها من بلاد الجزيرة.

٣) النص لا يتحدث عن نشاط صحابة رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الإسلام. وكما هو الحال فيما يتعلق بالمسلمين الثلاثة والخمسين الذين ذكرهم فى أول قائمة لمن أسلموا، فإنه لا يقول شيئا عن ظروف إسلام المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ممن لم ترد أسماؤهم فى القائمة المذكورة. وهو لا يشرح بوجه خاص على يد من كانت هدايتهم إلى هذا الدين.

وليس فى النص حديث عن مسلم ما فى مكة فعل ما فعله جعفر فى بلاط النجاشى من عرض لمبادىء الإسلام، حتى مع جمهور أدنى مرتبة، يفهم لغة الدعوة دون ما حاجة إلى مترجم، أو عن مسلم يفعل ما فعله الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوْسى من قبيلة بنى الدَّوْس غير المكية، ويستخدم المكانة التى يتمتع بها بين ذويه لإقناع أبيه وزوجته وبعض أبناء عشيرته بالدخول فى دينه.

والنص يترك صحابة الرسول هؤلاء فى دائرة الظل وما من أحد منهم، غير أبى بكر، يرجع النص إليه فضل هداية أحد من الكفار.

وللمرء أن يتساءل: هل كان لإهمال مسلمى مكة إهمالا يفهم منه أنهم لم يقوموا بأى دور فى نشر الإسلام ما يبرره؟ لا. ليس هناك مبرر لهذا الإهمال.

وواقع الأمر أن المثل الذى كان يضربه الرسول ﷺ لصحابته، فضلا عما كان يدعوهم إليه القرآن، كان يحفز هؤلاء الصحابة إلى المشاركة بصورة فعالة فى إذاعة دينهم ويجعل من هذا النشاط شاغلا لكل منهم. وإذا كنا نراهم، من جهة أخرى. ، بعد ذلك بسنوات، يهجرون بلدهم وديارهم لاصطحاب الرسول ﷺ إلى المدينة وللجهاد فى سبيل دينهم، فمن الصعب تصور أنهم كانوا يكتفون فى مكة بحياة خاملة بينما كان رسولهم يتفرغ للدعوة إلى دينه.

يضاف إلى ذلك أن قريشا إذا كانت قد نكّلت بالمسلمين واضطهدتهم فإن ذلك لم يكن راجعا إلى مجرد دخولهم فى الإسلام، وإنما لأنهم كانوا يعملون على نشر دينهم. لذلك يحق لنا أن نقول، مرة أخرى، إن مسلمى مكة قاموا بدورهم فى نشر دعوة الرسول ﷺ فى جميع مراحل رسالته وأنهم شاركوا ، نتيجة لذلك، بقسط وافر فى إسلام من أسلموا من الكفار.

٤) النص لا يتحدث عن انتشار الإسلام بين عرب الجزيرة. ولما كانت رسالة محمد ﷺ غير قاصرة على قريش، فلابد أن الرسول وصحابته دأبوا منذ بداية الدعوة على إذاعتها على أوسع نطاق ممكن. ولابد أنهم استغلوا كل الفرص التى كانت متاحة لهم لإبلاغ أكبر عدد من الناس بدعوة الإسلام. وكان موسم الحج يقدم لهم فرصة مثلى فى هذا السبيل.

لقد كان الحجاج العرب منبثين فى كل مكان: فى المسجد الحرام وفى مختلف مشاهد الحج، وفى الحوانيت وفى الطرقات والأماكن العامة. ولم تكن شعائر العبادة تستغرق إلا بعضا من وقتهم، وكانوا بلا شاغل خلال ساعات طويلة كل يوم، وكان أحب ألوان التلهى إليهم بلاشك

الاستمـاع إلى أى شخص لديه شيء طريف يريد أن يقصـه أو يعرضه، وكان الشـعراء والقصاصون والمـغنون والخطباء والكهنة وقـارئات البخت يعطون ما لديهم لجمهور خالى البال سهل التقبل.

وكان المســلمون يملكون فى هـذا الجو كل مقـومات النجـاح، وكان باستـطاعتهم أن يـنافسوا أفـضل هؤلاء وأن يجذبـوا إليهم اهتـمام هذا الجمهور بجمال الكلمة وحكمة القول. أما تحذيرات قريش ضد المسلمين والأنباء التى كانت تصل إلى أسماع الحجاج بشأن اضطهادهم فقد كانت ولاشك تزيد من فضـولهم وتحفز أولئك من بينهم الذيـن لم يتصل بهم المسلمون إلى الاستطلاع ومحاولة رؤية هذا الرسول الذى تدور حوله كل هذه الضجة.

والمتصور هو أن المسلمين كانوا ينظمون جلسات عامة للتعريف بدينهم يتضمن برنامجـها تلاوة من القرآن وخطبة لشرح ما جاء فـيها، ومناقشة فيها أخـذ ورد. ولابد أن الاستماع إلى ترتيل القرآن بـصوت رخيم كان تجربة لا ينســاها من عرفهـا لأول مرة. إن مـا كانوا يسمعـونه لم يكن غناء. كذلك فإنه لم يكن شعرا كالشعـر الذى كانوا ينتشون لسماعه فى الاحتفـالات والمناسبات والأسواق كـسوق عكاظ، بل كان شيـئا جديدا تماما ، نغماته ولغته وإيقاعاته الموسيقية تخلب الألباب.

وكانت موضوعـات القرآن هى الأخرى مختلفة عمـا ألفوه فى الشعر والغناء، فليس فيها غزل ولا وصـف لمحاسن المحبوبة، ولا حنين للديار التى عاش فيها الشاعر زمنا ثم تركـها لينصب خيامه فى مكان آخر، ولا وصف للصحـراء وأمجاد القبيلة وسخاء رجـالها وشجاعة محاربيها وهم يشرعون سيوفهم التى تلمع فى تراب المعارك وتحصد رؤوس الأعداء.

كانت آيات القرآن التى تتلى عليهم تتحدث عن إله واحد، قوى، رحيم، وعن التقوى والتواضع، وعن يوم يسمى يوم القيامة، وعن جنات وارفات الظلال، وجحيم ترتعد له الأوصال، وعن الأعمال الصالحة، وعن الأغنياء والفقراء، وعن دعوة عامة للإنفاق على المعوزين، وعن نهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. كلام يتحدث عن عالم عجيب يخرج فيه الناس من قبورهم، وعن ملائكة وشياطين، وعن مناظر يشيب لهولها الولدان، وأبواب من الأمل مفتوحة على حياة أفضل فى ذلك العالم وجنات من النعيم لم يُسمع بمثل جمالها أبدا.

وبعد انتهاء التلاوة، كان الرسول ﷺ، فى الجلسات التى كان يرأسها، (أو أحد أصحابه فى تلك التى تعقد فى أماكن أخرى) يتحدث ويفسر الآيات التى استمع إليها الناس ويجيب عن أسئلتهم، ويشرح فى الوقت ذاته مبادىء الإسلام، . ولابد أنه كان ، هو وأصحابه، ينتهزون الفرصة لتكذيب الادعاءات التى كانت قريش تشيعها عن دينهم، وكان هذا الشرح يفضى أحيانا إلى مناقشات، ولابد أن من الحجاج ومن عملاء قريش من كانوا يعترضون على بعض ما سمعوه من عرض أو شرح.

ولابد أن مصدر القرآن كان من أهم الموضوعات التى كانت تثير الاعتراضات. ولابد أن مصدره الإلهى، وتأكيد أنه كان يوحى إلى محمد ﷺ عن طريق مَلَك كانا كثيرا ما يقابلان بالشك، وأنه كان يقال أحيانا إن القرآن من صنع محمد ذاته، أو أن بشرا كان يلقنه آياته.

ولابد أن محمدا والمسلمين كانوا يردون على هذه الاعتراضات بتلاوة مزيد من القرآن وبالتحدى الذى ورد فيه: أى أن يجتمع المعترضون فيما بينهم ويصنعوا سورا مثل سوره.

ولابد أن بعض المستمعين حاولوا ذلك، وأنهم حين عرضوا إنتاجهم على الناس أثاروا ضحكهم وسخريتهم.

ولابد أن هذه الجلسات كانت تنتهى دائما بفوز المسلمين وبإسلام بعض المستمعين فورا أو بعد حين. ولابد أنها كانت تجتذب جمهورا غفيرا، وتعتبر من المعالم البارزة فى كل موسم من مواسم الحج. ولابد أن الحجاج كانوا، حين يعودون إلى بلادهم، يتحدثون عنها فيما بينهم ومع أقاربهم ومعارفهم، حتى إذا لم يكونوا قد اهتدوا إلى دين محمد، وأن حديثهم هذا، فى حد ذاته، كان دعاية للإسلام. أما إذا كانوا قد أسلموا ، فإن هذه الدعاية كانت ولاشك تؤدى إلى إسلام أشخاص آخرين.

وإذا بحثنا فى النص عن وصف لما كان الرسول ﷺ وصحابته يقومون به من نشاط فى مجال الدعوة لما وجدنا له أثرا. لكننا نجد، على العكس، فى بداية حديث الفترة الثالثة، بعد جملة يقول فيها «فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس» (أى أن محمدا ساحر جاء بقول هو سحر يُفَرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته) الجملة الآتية: «وصدرت العربُ من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلِّها.»(*) وليس بين الجملة الأولى والجملة الثانية أى حديث عن لقاء أيا كان بين الرسول ﷺ أو المسلمين وبين الحجاج، وهو ما يدعو إلى الظن بأن الأنباء المتعلقة بمحمد، التى كان الحجاج يحملونها فى طريق عودتهم، هى فقط تلك التى زودتهم بها قريش تنفيذا لقرار سادتها وأشرافها.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٢٧٢.

أين كان المسلمون خلال موسم الحج الذى اتخذ بشأنه، ثم نفّذ، هذا القرار؟ أين كانوا خلال المواسم التى سبقته وتلك التى تلته حتى نهاية الفترة الثالثة؟ وكيف ترك المسلمون فرصا ذهبية كهذه الفرص لعرض الإسلام على العرب وهداية أكبر عدد منهم الى دينهم؟ النص، هنا أيضا، لا يرد.

على أن الحج لم يكن الفرصة الوحيدة المتاحة للرسول ﷺ وللمسلمين لنشر دينهم بين العرب غير المكيين. ولابد، كما رأينا فى الفصل الثانى، أنهم عملوا على نشره باتصالاتهم فى السوق مع أعضاء القبائل التى كانت قوافلها تقدم إلى مكة للبيع أو للشراء، وأثناء رحلاتهم هم فى أنحاء شبه الجزيرة. كذلك فإن سور القرآن ومبادىء الإسلام كانت تنتقل قطعا من منطقة لأخرى من الجزيرة، وبين قبيلة وأخرى، بوساطة مسلمى هذه القبائل، ولابد أن أشخاصا عديدين قد دخلوا الإسلام دون أن يطأوا أرض مكة أو يعرفوا الرسول أو واحدا من أصحابه. لكن النص ليس فيه أية إشارة الى هذه الحالات هى الأخرى.

٥) أخيرا فإن موضوع الهداية إلى الإسلام يعود بنا إلى مسألة سبق التعرض لها هى عدد مسلمى مكة فى آخر الفترة الثالثة. لقد ذكرنا أن النص لا يعطى فكرة عن هذا العدد، وأن الرقم الوحيد الذى تحت أيدينا هو عدد مهاجرى الحبشة أى ثلاثة وثمانون مسلما. إلا أن هذا الرقم يزودنا بمادة تسمح بتقدير تقريبى لعددهم. فإذا افترضنا - نظرا لافتقارنا إلى معلومات محددة فى النص - أن هذه الهجرة قد تمت بعد خمس أو ست سنوات من بدء الدعوة وقلنا، وهو أدنى فرض، إن مسلما من كل عشرة مسلمين هاجر (أو نُفِى) إلى الحبشة، فإن عدد مسلمى مكة فى حوالى منتصف الفترة المكية، كان يناهز الثمانمائة

والثلاثين. وإذا افترضا أيضا نسبة مضطردة من الزيادة فى عددهم حتى نهاية الفترة، لتوصلنا إلى عدد قدره ١٦٦٠ بالنسبة لمسلمى مكة وحدهم. ومن المحتمل أن الرقم الحقيقى كان أكبر من هذا لأن هجرات أخرى غير الهجرة إلى الحبشة قد تمت ، أغلب الظن، قبل هذه الهجرة، لكن النص لم يشر إليها.

ب) الاضطهاد:

أن يترك ثلاثة وثمانون شخصا من الرجال والنساء، عدا الأطفال، ديارهم وأسرهم ووطنهم، وأن يقبلوا مخاطر عبور البحر الأحمر، وهى مخاطر كانت لا يستهان بها، للإقامة فى بلد لا يعرفون لغته ولا أهله ولا عاداته، وفرص العمل فيه معدومة أو شبه معدومة، واحتمالات عداء سكانه كبيرة - حدث غير عادى فى مجتمع انفصالُ الفرد فيه عن قبيلته كان نوعا من الانتحار. وإذا كان ما دفع هؤلاء الناس إلى التزوح عن بلدهم هو الاضطهاد فلابد أن هذا الاضطهاد كان واسع النطاق لاسيما إذا لم يكن من فعل قبيلة أو قبيلتين بل كان من فعل عدد كبير من القبائل. وكان المفروض أن يخصص النص لمثل هذه الظاهرة مساحة تتناسب مع أهميتها يطلع القارىء فيها على أسماء من اضطهدوا، وأسماء قبائلهم وعشائرهم، وأسماء من كانوا مكلفين بتعذيبهم ونوع التعذيب الذى سلط عليهم.

وكان المتوقع من النص أيضا أن يوضح ما إذا كان هذا التعذيب يتم فى الخفاء أو على مرأى ومسمع من العشيرة وحدها أو، كما فى حالتى بلال وآل ياسر ، على رؤوس الأشهاد ليعلم القاصى والدانى مدى صرامة العشيرة فى معاملة من ينشقون عليها من أفرادها، وأن يذكر ماذا كانت ردود فعل من كانوا يشاهدون مناظر التعذيب هذه، وما إذا كان

أفراد العشيرة يصفقون لتصرف رؤسائهم أو يستهجنونه، وما إذا كان من أمهات أو أخوات أو زوجات من يتعرضون للتعذيب من كان يغشى عليهن أو تولولن من هول ما ترينه، وما إذا كان ضحايا التعذيب أنفسهم يصرخون من الألم، ويطلبون الرأفة، أو يتحدّون جلّاديهم ويشتمون رؤساءهم، أو يتضرعون إلى الله، أو يطلبون النجدة من الرسول، أو يرددون عبارات التجديف التى كان يطلب منهم ترديدها، وما إذا كانت الثورة على سياسة التعذيب لم تدفع نفرا من أقارب ضحايا التعذيب أو بعض المشاهدين إلى رفض دينهم والتحول إلى الإسلام، وما إذا كان الرسول ﷺ وأصحابه يحضرون هذه الجلسات، وماذا كان موقفهم وماذا كانت تعقيباتهم؟ وما إذا كان بعضهم لم يحمل على القائمين بالتعذيب أو لم يتدخل لإيقافه، وما إذا كان هناك تنافس بين القبائل فى شدة الاضطهاد، وأى القبائل تميزت بقسوتها، وما إذا لم يكن رئيس كل قبيلة، قبل بدء جلسات التعذيب يخاطب الحضور ويوجه أصبع الاتهام إلى محمد ﷺ باعتباره المسئول عما حاق ويحيق بأتباعه، ويندد بالشرور التى جرّها الإسلام على الناس وينذر مثيرى الشغب من أفراد قبيلته بأنهم سيلاحقون ويعاقبون بغير رحمة ولا هوادة، وما إذا كانت هذه الجلسات تعقد خارج مواسم الحج والأشهر الحرم الأربعة أو طوال العام ليرى العرب مدى حرص مكة على حماية دين الآباء والأجداد، وماذا كان رأى حجاج مختلف القبائل: هل أبدوا رضاهم لسلطات مكة أو أن بعضهم وجد أن التعذيب مبالغ فيه أو غير كاف؟ وما إذا كان الحجاج القادمون من خارج مكة قد أُشرِكوا فى اتخاذ القرارات المتعلقة بمعاملة المسلمين أو أبدوا رأيهم بشأن تدابير القمع التى طبقت ضدهم، إلخ.

إن شيئا من هذه البيانات لم يرد فى النص. وقد أسدل النص ستارا من الصمت على هذه الظاهرة التى كانت، بكل تأكيد ، مع إخراج المسلمين واعتقالهم فى الحبشة، أفظع الظواهر فى الفترة الثالثة. والحيز المخصص لها فى حديث هذه الفترة أقل ، مثلا، من ثلث الحيز المخصص، فى حديث عبدالمطلب، لقصة الآتى الذى كان يأتيه وهو نائم ليأمره بحفر زمزم والأعمال التى قام بها تنفيذا لهذا الأمر، وهو أقل من نصف الحيز المخصص فى حديث الفترة الثالثة لقصيدة أبى طالب الطويلة التى سنتحدث عنها والتى يُشَك فى صحتها.

وفيما يلى كل ما ذكره النص تقريبا عن اضطهاد المسلمين:

- لما رأت قريش فشو الإسلام وثَبَّت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم. ومن المسلمين من فتن من شدة البلاء الذى يصيبه، ومنهم من صلب لهم.

- بلال بن رباح، الذى كان لبعض بنى جُمح، كان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، لكن بلالا لم يقل كلمة الكفر.

- كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، وقد قتلوا أمه وهى تأبى إلا الإسلام.

- أراد رجال من بنى مخزوم أن يأخذوا أحد أبناء الوليد بن المغيرة لمعاقبته على إسلامه، لكن أخاه، الذى لم يكن يعارض فى فكرة التأديب، هددهم بقتل رئيسهم إذا أزهقوا روحه، ففضلوا العدول عما كانوا اعتزموه.

- ثلاثة أو أربعة من مهاجرى الحبشة الذين عادوا الى مكة حُبسوا فيها لفترات طويلة أو قصيرة.

والطريقة التى عالج بها النص موضوع اضطهاد المسلمين تثير الملحوظات التالية:

١) قرار تعذيب المسلمين حتى يرتدوا عن دينهم ما كان يمكن أن يُتخذ دون مشاورات عديدة بين قبائل قريش فى اجتماعات يبحث فيها موقف كل منها ويجرى فيها التنسيق بين سياساتها إزاء الخطر الذى كان يمثله الإسلام بالنسبة لها. ولابد أن هذه الاجتماعات كانت أهم الاجتماعات التى عقدت فى مكة خلال الفترة الثالثة كلها.

والثابت أن النص لا يتحدث عن هذا التنسيق وهو، بالتالى، لا يذكر ما إذا كان قرار اضطهاد المسلمين قد اتخذ بالإجماع، أو أن بعض قبائل قريش مانعت فيه لأسباب تتعلق بها أو لمجرد أنها لا ترى سببا لتعذيب أفرادها المسلمين فى الوقت الذى يحمى بنو عبدالمطلب وبنو هاشم فيه محمدا.

٢) النص لا يذكر كذلك ما إذا كان ممثلو قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم حضروا هذه الاجتماعات، كما لا يذكر الأسباب التى كانوا يفسرون بها غيابهم إذا كانوا قد امتنعوا عن حضورها. وإذا كانوا قد حضروها فإن النص لا يذكر ماذا كانت إجابتهم على الملحوظة السابقة، أو ماذا كان رأيهم فى مبدأ الاضطهاد ذاته. هل قالوا إنهم يمارسون الاضطهاد بالفعل على جميع أعضائهم، ما خلا محمدا؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف سوغوا هذا الاستثناء؟ وإذا كانوا قد أعلنوا عن عدم استعدادهم لاضطهاد أفرادهم المسلمين، هل اعترضوا أيضا على اضطهاد القبائل الأخرى لأفرادها المسلمين، أو أنهم أيدوا هذا الاضطهاد؟ أو

قالوا إن المسألة غير مطروحة فى قبيلتهم لأن عدد من أسلموا فيها لم يكن يزيد على الثلاثة!

٣) حالتا التعذيب اللتان وردتا فى النص - أى حالة بلال وأسرة ياسر - ليس فيهما الكفاية إطلاقا لتصوير ضخامة ظاهرة الاضطهاد، الذى كان حربا حقيقية أعلنت على الإسلام فى مكة.

وإذا عرفنا أن سبعة أفراد من عشيرة بنى عبدالدار ابن قصى وأربعة عشر فردا من عشيرة بنى سهم، وخمسة عشر فردا من عشيرة بنى جُمح مثلا هاجروا إلى الحبشة، لأدركنا أن هذا الاضطهاد قد بلغ مداه. وأسماء ضحايا هذا الاضطهاد، وأسماء من نفذوه، ونوع إجراءات التعذيب التى اتخذت ضد المسلمين والظروف التى جرى فيها كانت، على الأقل فى أخطر الحالات، جديرة بالذكر فى النص بشىء من التفصيل.

وكان من المهم كذلك أن يتضمن النص هذه البيانات إذا كان التعذيب قد أفضى إلى الموت أو ترتبت عليه عاهة أو إصابات تعذّر علاجها.

٤) إن قيام ثمانية وعشرين من عشائر قريش التى هاجر نفر من أفرادها إلى الحبشة، للمرة الأولى فى تاريخها، باضطهاد أفرادها المسلمين لا لجرائم ارتكبوها بل لأنهم آمنوا بدين غير دينها، وإهدارها قواعد الوحدة القبلية التى تقررت منذ وجدت القبيلة يدل على أن العشائر المذكورة كانت تشعر بأن زيادة عدد المسلمين فيها خطر حقيقى على وجودها وبأن استخدام الهوادة فى مكافحتهم لا يجدى.

٥ - لابد أن فكرة حل المشكلة بقتل محمد قد عُرضت على بساط البحث حين اتخذ خطر الإسلام على النظام المكى أبعادا مقلقة، وحين وصل الأمر بالقبائل المكية إلى أن تضطهد أفرادها ذاتهم.

ومسوغات المطالبة برأس محمد ﷺ لم تكن قليلة حين لم تعد مشكلة قريش مع محمد هى كونه ينتقدهم هم وآباءهم ودينهم، بل أصبحت الخطر الحقيقى والوشيك الذى كان هو وأصحابه يمثلونه بالنسبة لمكة.

وما كان بوسع أبى طالب أن يرد على هذه الحجة. وتهديد قريش بحربه هو وابن أخيه - إن صح أنه كان هناك مثل هذا التهديد وهو ما أشك فيه - كان مكانه فى سياق الاضطهاد الشامل ضد المسلمين فى منتصف الفترة الثالثة ، لا فى أولها. لكن النص لا يشير أية إشارة إلى فكرة قتل الرسول فى هذا السياق. ولهجة سادة قريش وأشرافها فى لقائهم بأبى طالب الذى اختتم الفترة الثالثة لايمكن إطلاقا وصفها باللهجة القتالية.

وهكذا يريد منا النص أن نصدق أن القبائل التى كانت تضطهد أفرادها وتضطرهم إلى الهجرة أو تنفيهم كانت، فى الوقت ذاته، على استعداد لقبول استمرار محمد ﷺ فى عملية نسف مجتمعهم تحت سمع عمه وبصره وتحت حماية قبيلته.

٦) ومن غرائب هذا الجو المحيط الذى يشكل خلفية الاضطهاد والهجرة أيضا أن فكرة حبس الرسول ﷺ أو إخراجه لم ترد فى حديث هذه الفترة. ومع ذلك فلابد أن هذا الخيار كان معروضا باعتباره حلا وسطا مناسبا لأولئك الذين لم يكونوا يريدون قتل محمد وأولئك الذين لم يكونوا يريدون تركه يواصل دعوته.

٧) بطولة بلال وآل ياسر أمام التعذيب لم تكن، ولا شك، البطولات الوحيدة التى حدثت فى مكة. ولأن النص لم يسجل هذه البطولات فقد سقطت نهائيا من التاريخ. كذلك فإن النص لا يعطى أمثلة للمسلمين الذين قال إنهم فُتنوا تحت التعذيب، كما أنه لا يذكر

عـددهم ولا ظروف ردتهم، ولا يوضـح مـوقف عـشـائرهم ومـوقف المسلمين حيالهم، ولا ما آل إليه مصيرهم: هل ظلوا فى الحبس أم أطلق سراحـهم، وما إذا كانوا، فى هذه الحـالة الأخيرة قد استأنفوا حـياتهم المعتادة، أم أن بعضهم انتهز الفرصة ليهاجر؟.

٨) النص لا يذكر شيئـا عن اضطهاد المسلمين خارج مكة. ومع ذلك فإن الإسلام، كما رأينا فيـما سبق ، ما كان يمكن أن يكون، على مدى تسع سنوات من البعـثة، ظاهرة قاصـرة على مكة. بل إن من المؤكد أن انتشاره فى مـختلف مناطق شبه الجـزيرة وبين قبائلها كـان أيسر منه فى مكة، فإن المصالح المادية وتلك المتـعلقة بالسلطة لم تكن فى كل مكان، كما فى مكة، مـرتبطة ببقاء الديانة القديمـة وببقاء الأوضاع الاجتمـاعية والسـياسية على حالها دون تغيير.

على أن هذا لا يمنع أن المسلمـين فى بعض المناطق ولدى القبـائل المتمـسكة بعبادتها الوثنيـة وبنظامها القـبلى، ولدى القبائل المتحـالفة مع قريش، كـانوا فى موقف مشابه لموقف إخـوانهم فى الدين بمكة، وأنهم بدورهم ذاقوا الأمرّين من الاضطهاد والتنكيل.

ولم يسجل النص صـفحات البطولة أو الضـعف التى سطرها هؤلاء المسلمون، فقد ضاعت هى الأخرى من التاريخ.

٩) فى حـالات الحـبس الـتى تحـدث عنهـا النص ليـس هناك مـثل محسـوس لمسلمين مضطهـدين، والأشخاص الوحيدون الذيـن يتحدث عنهم النص هـم: سلمـة بن هاشم بن المغـيـرة، وهشـام بن العـاص، وعبدالله بن سهيل، وكانوا ثلاثتهم ضمن من عادوا من الحبشة لا ضمن من اضطهـدوا. كـذلك لا يعطى النص أى تفـصـيل عن الأمـاكن التى حبسوا فيها، ولا عن حالة حبسهم.

١٠) هذه الصورة المتعلقة باضطهاد المسلمين ، هل تتغير إذا ثبت أن الهجرة إلى الحبشة كانت نفيا وإبعادا منظما موّلته وأشرفت عليه قريش؟ من الممكن أن تكون الإجابة بالنفى لأن حياة هؤلاء الأشخاص كانت أغلب الظن، أشبه بحياة نزلاء معسكر من معسكرات الاعتقال منها إلى حياة المهاجرين الطوعيين.

ولابد أن الإبعاد والاعتقال فى هذه المعسكرات كانا، فى هذه الحالة، أقسى عقوبة يعاقب بها أخطر عناصر المسلمين. وليس هناك، على أى حال، ما يمنع من تصور أن بعض هؤلاء الأشخاص قد عذبوا قبل إبعادهم، لكن انشغال النص بالمناقشة التى يذكر أنها دارت بين جعفر وعمرو بن العاص صرفه عن توضيح ذلك!

جـ) الهجرة إلى الحبشة :

يثير حديث هذه الهجرة الملحوظات التالية:

١) للمرء أن يتساءل أولا عما إذا كان فى الإمكان تصديق الخبر الذى مؤداه أن الرسول ﷺ نصح المسلمين بالهجرة إلى الحبشة فرارا من اضطهاد قريش. ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم، الذى لايُشك فى حكمته، ما كان يقدّم مثل هذه النصيحة إلا إذا كانت لديه معلومات كافية تطمئنه على عدة مسائل:

أ- على قدرة أصحابه المهاجرين على العثور على عمل أو على ممارسة نشاط فى الحبشة يسمح لهم بكسب قوتهم.

وهنا تثار مسألة: ما هو النشاط الذى كان يمكن لهؤلاء المسلمين الذين كان أكثرهم، فى الغالب، تجارا أو عمالا أو موظفين لدى تجار، والذين لا يعرفون من اللغات إلا العربية أن يقوموا به فى الحبشة، علما، على الأخص، بأن الأجانب من غير ذوى الثروة أو المصلحة الذين

يفدون الى بلد ليس فيه مـن يتكفل بنفقات معيشتهم يعـتبرون عادة غير مرغوب فيهم، أو حتى أعداء، ويتعرضون للطرد أو للأسر أو للقتل؟

ب- على قدرتهم على أن يعيشـوا فى جوار حسن فى المجتمع الذى كان عليهم أن يقيموا فيه. والحاصل أن اختلاف اللغة والعادات والعقيدة كان عائقا يـحول دون هذا الجوار . وذكريات هزيمة أبرهة وجـيشه على أبواب مكة لم تكن، بالإضافة إلى ذلك، تهيـىء نفوس الأحباش لتقبل وجود العرب بين ظهرانيهم بصدر رحب.

حـ - على أمنهم: وعلـى الرغم من أن شيئا فى النص لا يـشير إلى أن الرسول ﷺ كانت تربطـه علاقات بالحبشة، هذا البلد الـبعيد، أو أنه كان يتلقى أخباره، وإذا افترضنـا جدلا أن الرسول ﷺ كانت لديه أسباب تحمله على الاعتقاد بأن النـجاشى «ملك لا يظلم عنده أحد» فإن ذلك، فى حد ذاته، لم يكن يكفل للأجانب المقيمين فى بلد ذلك الملك ظروفا مُثْلى للأمن، إذ أن الجرائم كـانت ، ولا تزال، ترتكب كل يوم فى كل البلاد، بما فى ذلك البلاد التى تتمتع بأفضل الحكومات.

ولو أن الرسـول ﷺ كانت لديه مـعلومات كـافية عـن الحبشـة لعلم ولاشك، من جهة ، أن الحـبشة بلد مساحاته شـاسعة وطبيعتـه جبلية، وأن سكان المناطق الجبلية وقبائلها لا يخـضعون خضوعا كاملا فى العادة لسلطات البـلد المركزيـة، وأن هؤلاء السـكان أو هذه القبائـل، أو حتى بعض العصابات المسلحة، كانوا يشكلون تهديدا للمسلمين العرب العزّل الذين لم يكن فى مقدورهـم الاعتماد على جالية من جنسـهم لحمايتهم عند الخطر، ولعلم كذلك أن الحبـش - إن صح ما يذكره النص - كانوا قوما لا يؤمن جانبهم ولا يتورعـون عن الاعتداء والقتل بما فى ذلك قتل مليكهـم، لا لأنه كان يسىء حكمـهم، أو لأنه كان ظالما، وإنما لـسبب

واحد هو أنه لم يرزق إلا بولد واحد، وأنهم لا يكفلون للمهاجرين الى بلدهم ضمانات السلم والأمن التى يرجوها المرء لمؤمنين فارين من الاضطهاد.

وللمرء، بناء على ذلك، أن يشك فى صحة ما ينسبه النص للرسول ﷺ من أنه كان يشجع أصحابه على الهجرة إلى الحبشة.

٢) ومن الأمور التى لا يقبلها العقل أيضا ما يدعيه النص من أن قريشا أوفدت مبعوثين إلى الحبشة لاستعادة مهاجرى مكة المسلمين، وذلك للأسباب الآتية:

أ- من الغريب ، بدلا من أن تُسَرَّ مكة لرحيل عشرات من المسلمين الذين كانوا يهددون نظامها العام، أن تحاول استردادهم لتفتنهم عن دينهم، علما بأنها لم تفعل شيئا لمنعهم من الرحيل!

ب- كيف لم يشك المسلمون الثلاثة والثلاثون الذين عادوا إلى مكة، بعد وقت قليل من فشل مهمة هذين المبعوثين، فى الأنباء التى جاءتهم عن إسلام أهل مكة، وكيف لم يفكروا فى استشارة النبى ﷺ فى أمر عودتهم أو فى الرجوع الى مصدر للمعلومات جدير بالثقة؟

جـ - لو أن قريشا كانت هى التى روّجت هذه الأنباء الكاذبة لتوقعنا أن تُلْقى عشائر المهاجرين القبض على أفرادها العائدين وأن تعذبهم حتى تفتنهم عن دينهم، إذ أن هذا هو المقصد الذى من أجله رغّبتهم فى العودة إلى مكة. وكان المفروض، بالمناسبة ذاتها أن تمنع القبائل إجارتهم.

والحاصل أن النص يخبرنا أن سَلَمَة بن هشام بن المغيرة كان الوحيد الذى حبسه عمه لدى عودته وأن باقى المهاجرين الذين عادوا إلى مكة

تمكنوا من الاستخفاء أو أجيـروا. ولا يذكر النص سوى حالتين فقط من هذا النوع هما حالـتا أبو سلمة الذى أجاره خاله أبوطالـب، وعثمان بن مَظْعُون الذى أجاره الوليد بن المغيرة.

د- من الصعب تصـديق ما يقوله النص من أن النجاشـى حين سمع ترجمـة جزء من سـورة مريم بكى حـتى اخْضَلَّت لحـيتـه وأن أساقفـته بدورهم بكوا حتى أخْضَلوا مصاحفهم. ومما يلفت النظر فى هذا الصدد، أن النص لا يحكى واقعـة واحدة جاشت فيها عـواطف قوم من العرب إلى درجة البكاء حين كان الرسول ﷺ ذاته يـتلو عليهم بلغتهم آيات من القرآن الذى أنزل عليه.

هـ - تحدث جعفر فى العرض الذى قدمه أمام النجاشى عن الصوم، والواقع أن الصوم لم يتقرر إلا فى الفترة المدنية.

٣) لن نتـوقف هنا عند النبـذة التاريخـية التى وردت فـى النص عن ظروف تنصيب النجـاشى على عرش الحبشة ولا عند الأحـداث اللاحقة (الحرب مع منافس له على العرش، وثـورة الشعب على هذا النجاشى، والحيلة التى لجأ إليها لتـهدئة خواطرهم... إلخ) ، فإن هذه الأحداث، علاوة على كونها لا تتـعلق بموضوعنا بصورة مباشرة، أكـثر شبها، فى الواقع، بقصص الأطفال منها إلى التاريخ.

٤) ذكر هذه الموجة غيـر العادية من موجات الهجرة يثـير أخيرا عددا من التساؤلات: كيف وصل هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة؟ من الشمال أو بعبور البحر الأحمر عن طريق اليمن؟ ما هو الميناء الذى أبحروا منه؟ هل كانت السفن التى نقلتهم مملوكة لعرب أو لأحباش؟ هل أبحر الرجال مع أسلحتهم أم دون سلاح؟ هل تمت رحـلتهم دون حادث أم أن قراصنة أو أفرادا بلا ضمير من الطاقم سرقوهم أو أسـاءوا معاملتهم؟ كيف عوملوا

لدى وصولهم إلى الحبشة؟ هل حاول أحد أن يسترقهم؟ فى أى ميناء أو منطقة نزلوا؟ هل كان من بينهم من يعرف لغة الحبشة كى يشرح للسلطات المحلية أسباب مجيئهم إلى بلادهم؟ ألم يصادفوا صعوبات فى الحصول على إذن بالإقامة؟ كيف كانت أحوال إقامتهم. وماذا كانت مواردهم المالية؟ هل أحضروا معهم ذهبا أو فضة كى يدفعوا ثمن ما يشترونه، أم أن الرجال وجدوا عملا يرتزقون منه فى البلد الذى نزلوا به؟ أى عمل؟ ماذا كانت علاقات هؤلاء المهاجرين بأهل البلد؟ هل اكتفوا بمعيشة هادئة بعيدة عن المشاكل أم دعوا لدينهم؟. هل كانوا يعيشون فى عزلة أم حاولوا أن يندمجوا فى الأهالى؟ هل كانوا يؤدون صلواتهم علنا أم كانوا يستخفون بها؟ هل بنوا مسجدا؟ إذا كانوا قد دعوا إلى دينهم، كم كان عدد من اهتدوا على أيديهم؟ ماذا كان موقف رجال الدين النصارى حيالهم؟ هل أظهروا لهم العداء كما فعلت قريش، أو تركوهم يدعون إلى دينهم فى سلام؟ وإذا كانوا قد أظهروا لهم العداء، كما هو طبيعى ، فهل سعوا فى طردهم من البلاد؟ ما اسم المدينة أو القرية التى عاشوا فيها؟ ما هى الصعوبات التى صادفوها فى حياتهم العادية؟ لما كان عدد النساء العربيات بين المهاجرين إلى الحبشة أقل من ربع عدد الرجال، هل حدثت حالات زواج بين مهاجرين مسلمين وحبشيات؟ ماذا كان اسم النجاشى؟

إن النص ، الذى يكثر من التفاصيل عن مسائل تافهة من كل نوع، لا يزودنا بإجابات عن هذه الأسئلة البديهية.

والنتيجة التى تستخلص من مجموع هذه التساؤلات والملحوظات والفراغات هى أن جانبا كبيرا من حديث النص عن الهجرة إلى الحبشة ترد عليه تحفظات.

إن كون مجموعة تتكون من ثلاثة وثمانين من مسلمى مكة وصلت إلى مكان ما فى الحبشة أمر لا محل للتشكيك فيه، لكن الجزء المتعلق بمهمة مبعوثى قريش لدى النجاشى، على الأرجح، تركيبة تهدف إلى إقناع القارىء بثلاث دعاوى رئيسية هى:

- أن جعفرا ، فرد قبيلة الخلفاء العباسيين، وليس عثمان بن عفان، الذى سيكون خليفة والذى هو فرد من قبيلة الخلفاء الأمويين، هو الذى كان الناطق بلسان مهاجرى الحبشة على الرغم من صغر سنه.

- أن جعفرا انتصر على عمرو بن العاص فى المناقشة التى دارت بينهما أمام النجاشى (وعمرو بن العاص كان ممثل معاوية فى التحكيم الذى أعقب معركة صِفِّين (٣٧ هـ / ٦٥٧م) والذى أعلن أن معاوية هو الخليفة، على حساب علىّ كرم الله وجهه).

- أن جعفرا كان له الفضل الكبير فى هداية النجاشى إلى الإسلام (ومن الغريب أن النجاشى كان الشخص الوحيد الذى نجح جعفر والمهاجرون الاثنان والثمانون الآخرون فى هدايته إلى الإسلام خلال فترة إقامتهم فى الحبشة التى دامت عدة أعوام).

كان المقصود إذن، من وراء هذا الحديث، تسجيل أفضال لصالح بنى العباس ضد بنى أمية وضد عمرو بن العاص الذى كان من أعظم أعوانهم، وأن يضاف، بإسلام النجاشى، مجد جديد إلى مجموعة أمجاد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم المصطنعة، وكان المقصود أخيرا إخفاء موضوع الاضطهاد الذى اضطر جعفرا إلى الهجرة ، تحت هالة الشرف التى أحاطه بها النص.

إن إقامة ثلاثة وثمانين مسلما عدة سنين فى أرض الحبشة تبدو لنا أقرب الى العقل اذا نظرنا إليها من زاوية أخرى هى زاوية النفى. وفى

رأيي أن رؤساء قبائل قريش، الذين أقضّ مضاجعهم نجاح الدين الجديد، انتهوا إلى أن مكة، لافتقارها إلى سجون يمكن أن يحبس فيها المسلمون المنشقون، الذين كان عددهم في تزايد مستمر، بوسعها أن تتخلص من أخطر عناصرهم بنفيهم في بلد بعيد، وأن هذا النفي يحقق غرضين، أولهما: هو استبعاد الخطر الذي يمثلونه على النظام القائم ، والثاني: إرهاب من سبق أن أسلموا، وتثبيط همم من يفكرون في اعتناق الإسلام.

ولابد أنهم عقدوا اتفاقا مع سلطة محلية في الحبشة بشأن حبس عدة عشرات من مواطنيهم غير المرغوب فيهم، تصحبهم أحيانا زوجاتهم وأولادهم، وإطعامهم ومراقبتهم ، على أن تتلقى السلطة المذكورة مقابلا للخدمات التي تقدمها والتكاليف التي تتحملها في هذا الصدد.

ولابد أن كل قبيلة اختارت من بين أفرادها من كانت ترى أنهم عناصر نشطة وخطيرة ونفتهم إلى الحبشة وحرّمت عليهم دخول مكة لفترة معينة. وكان المكان الذي أودع فيه هؤلاء المسلمون يؤدي، بصورة ما، وظيفة السجن أو معسكر الاعتقال أو مستعمرة ما وراء البحار، التي توجد لها أمثلة في التاريخ.

ومن يَدَّعي النص أنهم كانوا مهاجرين في الحبشة لم يكونوا في الواقع سوى نفر من المسلمين الذين حكم عليهم بالنفي لجهادهم الذي اعتبرته قبائلهم، على وجه الخصوص، وقريش عموما، نشاطا يهدف الى زعزعة النظام القائم.

د) هجرات أخرى ؟

أخيرا هناك سؤال يرد بصورة طبيعية إلى الذهن لدى قراءة الصفحات التي يخصصها النص لموضوع الهجرة إلى الحبشة، هو: هل كانت

هناك، قبل الفترة المكية الثالثة وبعدها، موجات هجرة غير هجرة «مهاجرى» الحبشة الثلاثة والثمانين؟ النص لا يتحدث عن أية هجرة أخرى ولكن شيئا، فى نظرى، لا يمنع هذا الاحتمال.

وفى رأيى أن من غير المستبعد أن يكون بعض المسلمين الذين كانوا ينتمون الى قبائل تعذب أفرادها المسلمين وتنفيهم أو تقيم فى وجوههم صعوبات كثيرة فى حياتهم اليومية قد فكروا فى الهجرة هربا من هذه الإجراءات والصعوبات، ولم يكن ذلك بالأمر السهل فى نظام كان ارتباط الفرد فيه بقبيلته قويا إلى درجة تعرضه لفقد هويته ولكل ألوان المخاطر، بما فى ذلك خطر الوقوع فى الأسر والاسترقاق أو خطر الموت، إذا قطع ما يربطه بها من وشائج.

على أن هذا الوضع فقد شدّته بظهور الإسلام، الذى أنشأ بين المسلمين أخوّة فى الله إذا كانت لا تحل محل صلات القبيلة إلا أنها تخلق تكافلا فى الدين يزدوج مع التكافل القبلى ويمنع الرجل الذى يترك قبيلته أو الذى طردته قبيلته من الوقوع فى هوة بلا قرار.

وينبغى من جهة أخرى أن نأخذ فى اعتبارنا حقيقة شبه مؤكدة هى أن الإسلام والقرآن فشيا فى أنحاء الجزيرة العربية وكسبا لرسالة محمد ﷺ مناطق وقبائل أو جماعات من الأشخاص لم تكن لديهم فى محاربتها الأسباب نفسها التى كانت لدى قريش.

وإذا كان الأمر كذلك فمما يقبله العقل أن يكون المسلمون الذين أصبحوا غير مرغوب فيهم بين قبائلهم بسبب دينهم الجديد أو الذين يخشون التعذيب قد سعوا إلى الهجرة بمحض إرادتهم ووجدوا ملاذا لدى إخوانهم فى الدين المقيمين فى مناطق أخرى. كذلك فلابد أن قبائل

عربيــة منافســة لقريــش أو بينها وبين قريش حــزازات عرضت أن تقبل وتستضيف هؤلاء المسلمين الذين تخاصمهم قبائلهم.

ومن المعقول فـضلا على ذلك أن تكون الأمة الإسلاميــة المتنامية فى مكة قد استخدمــت علاقاتها التجارية والعائلية مع القـبائل «الأجنبية» - حتى إن لـم تكن أسلمت - كى تقبل فى كنفـها بعض المسلمين الراغبين فى الهجرة. ومــن المحتمل جدا أن يكون عدد من هـؤلاء قد هاجر إلى المدينة خلال الفترة المكية.

ومن ثم فإن الهــجرات لم تكن، على الراجح، تتم فــى اتجاه واحد، انطلاقا من مــكة. ولابد أن هجرات أخرى حدثــت فيما يتــعلق بمسلمى المناطق أو الــقبائــل غير المــكية الذين كــانوا، كمــسلمى مكة، مــوضع الاضطهاد أو إساءة المعاملة من جانب قبائلهم. ولابد أنه كانت هناك فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة تحركات، على سبيل الهجرة، للأشخاص بأعداد أكبر من عدد مسلمى مكة الذين «هاجروا» إلى الحبشة.

وإذا كان النــص لم يتحدث عــن هذه الهجرات، وإذا كــان يدعى أن الهجرة الوحيــدة التى حدثت بعد الهجرة إلى الحبــشة هى هجرة الرسول ﷺ وللمسلمــين إلى المدينــة، فإن مرجــع ذلك هو - كمــا سنرى - أن مؤلفه يعــتبر أن مسلمى المدينة هــم الوحيدون الذين استضــافوا الرسول ﷺ وإخوانهــم المكيين فى الدين والــذين فتحــوا، نتيجــة لذلك، طريق النصر العسكرى لــلإسلام واستحقوا لقب «الأنصار» الــفخرى الذى جاء ذكره فى القرآن.

هـ) المقاطعة:

المقاطعة التى يقــول النص إن قريشا قررتها ضد بنــى عبدالمطلب وبنى هاشم كعقاب لتأييدهم الرسول ﷺ تثير الملحوظات الآتية:

١) قصة هذا الحدث الذى يعتبر مـن أهم أحداث الفترة المكية لا تحتل فى النص، أولا عن آخر، سوى عشرة أسطر، (*) والنص، كأمر واقع، لا يقول شيئا عن الظروف التى تمت فيها المقاطعة: ما الذى حمل أبا طالب على ترك مسكنه فى مكة ليقيم فى شِعْبِه؟ كم كان عدد أفراد هاتين القبيلتين الذين انضموا إليه؟ كيف كانوا يعيشون؟ ما الذى جعلهم يتركون دورهم وخيامهم للانضمام إليه؟ ما هى المشاق التى ترتبت على انتقالهم الى الشِّعْب فى حياتهم اليومية؟ ماذا كان مآل محالهم التجارية والديون التى كانت لهم على أهل مكة والديون التى كانوا مدينين بها لهم؟ ما الأثر الذى نتج عن غياب التجار والعاملين فى التجارة من هاتين القبيلتين فى السوق؟ هل أفلس بعض تجارهما؟ هل ترتب على إفلاسهم سلسلة من حالات الإفلاس كما يحدث عادة فى التجارة؟ ماذا كانت ردود فعل قبائل الجزيرة الأخرى حين علمت أن قريشا لفظت قبيلتين من قبائلها؟ كيف كانت هاتان القبيلتان تحصلان على طعامهما، وأى ألوان الحرمان فرض عليهما؟ ماذا كان موقف حلفائهما منهما؟ أكان بعض الطعام يصلهما بطريق التهريب؟ ما هى الإجراءات التى اتخذتها مكة للتحقق من تطبيق المقاطعة تطبيقا دقيقا؟ هل كان هناك من خالف أحكام المقاطعة غير هشام بن عمرو بن ربيعة الذى يتحدث عنه النص؟ كيف كان أفراد القبيلتين الذين فقدوا تجارتهم أو عملهم نتيجة للمقاطعة يقضون وقتهم؟ أكانوا يتسكعون فى انتظار رفع المقاطعة؟ أكان منهم من حاول أن يشتغل بالزراعة أو كان يخرج للصيد ليوفر لأقاربه ولو جزءا مما يسد الرمق؟ أية نسبة من أغنامهم وأنعامهم ذبحوا كى يعيشوا؟ أكانوا يبعثون بعضهم لشراء الطعام من خارج مكة؟ هل حدثت حالات طلاق

(*) السيرة، القسم الاول ، ص ٣٥٠.

أو فسخ خطبة نتيجة للمقاطعة؟ هل وجهت إساءات لرجالهم ونسائهم الذين كان لهم أزواج من أفراد القبائل التى اشتركت فى المقاطعة؟ هل حاول بعض هؤلاء أن يرسلوا المؤن سرا إلى أقاربهم؟ هل حدثت حالات وفاة أو مرض خطير نتيجة لنقص التغذية بين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم؟ هل قطعت الاتصالات تماما بين هاتين القبيلتين وبين قريش أم كانت هناك بين الحين والآخر محاولات لإصلاح ذات البين؟ ألم تفكر هاتان القبيلتان فى وقت من الأوقات فى الثورة على هذا الإجراء والقيام بعمل يهدف الى تحطيمه أو فى الهجرة؟ ألم يحاول أحد منهم، عن اقتناع أو لأسباب إنسانية نظرا للحالة المؤسية التى آل إليها أقاربهم بعد شهور طويلة من الحرمان، أن يقنع محمدا بالعدول عن دعوته؟ ألم يحدث لفرد أو لآخر من أفراد القبيلتين أن انهارت مقاومته فانضم إلى أبى لهب وإلى قريش؟ ما من سؤال من هذه الأسئلة الأساسية حظى بجواب فى النص. وعلى العكس، فإننا نجد فى النص بيانا، فى عدة صفحات، عن الجهود التى بذلها خمسة من قريش لإنهاء المقاطعة. والنص يورد قصائد الشعر التى نظمت فى مدحهم، وهو يحكى قصة أعجوبتين صغيرتين وقعتا بشأن الصحيفة: فقد شُلَّت أصابع كاتبها، كما أن الأرضة أكلتها إلا جزءها الذى كان مكتوبا فيه «باسمك اللَّهم».

٢) النص لا يذكر شيئا كذلك عن الصعوبات والمشاق التى صادفها بنو عبدالمطلب وبنو هاشم حين اقتضى الأمر، بعد إلغاء المقاطعة، إعادة بناء ما أهدرته المقاطعة فى حياتهم وفى أعمالهم وتجارتهم خلال شهور عديدة، وهو لا يذكر ما إذا كان رفع المقاطعة مشروطا، وما إذا كانت قريش قد قبلت استمرار بنى عبدالمطلب وبنى هاشم - الذين لم يسلم منهم أحد فى هذه الأثناء - فى تأييد محمد ومنعه.

هذا، ويلاحظ أن النص لا يحدد متى دخلت المقاطعة حيز التنفيذ ومتى انتهت. والشيء الوحيد الذى يذكره عن مدتها هو أنها دامت سنتين أو ثلاث سنوات. وعدم الدقة فى هذا البيان مستغرب فى حادثة بمثل هذه الأهمية.

والنتيجة التى تستخلص من شدة إيجاز الحديث المتعلق بالمقاطعة ومن عدم وجود مادة فيه تسمح بالرد على الأسئلة العديدة التى تثار بشأنها، من جهة أخرى، هى أن حديث هذه المقاطعة ترد عليه عدة تحفظات.

وتصوير بنى عبدالمطلب وبنى هاشم بأنهم كانوا ضحايا للمقاطعة التى فرضتها قريش يبدو لى جزءا من مخطط يهدف إلى إخفاء النوائب والآلام التى حاقت بالمسلمين فى مكة، ومن جهة أخرى إلى الايحاء بأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا الوحيدين الذين لحقهم الضرر من حماية الرسول ﷺ بمكة. وهى دعوى تمنح العباسيين سندا ثمينا لمشروعية خلافتهم.

إن من غير المستبعد أن تكون قريش قد قررت فرض المقاطعة. لكن هذا الإجراء لم يكن موجها ضد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، وإنما، فى رأيى، ضد مسلمى مكة، لأن التدابير التى اتخذتها قريش ضد المسلمين- كتعذيب الضعاف ونفى المناضلين- لم يبد أنها كانت كافية للقضاء على الإسلام ، بل إن من غير المستحيل أن تكون قد انتجت عكس ما قصد منها وأسهمت فى زيادة عدد حالات الدخول فى الإسلام فى مكة.

ونظرا إلى أن قريشا - بما فى ذلك بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - لم يكن فى مقدورهم تعذيب أو نفى كل من أسلم من سكان البلدة، فقد أضافوا السلاح الاقتصادى إلى ترسانة تدابير قمعهم بفرض مقاطعة تحظر

بيع أية سلعة للمسلمين أو شراءها منهم، وتحظر إقراضهم أو توظيفهم. وفى النص أثر لهذه المقاطعة الاقتصادية جاء فى الخبر الآتى:

«وكان أبوجهل الفاسق الذى يُغْرى بهم (أى بمن أسلم) فى رجال من قريش، إذا سَمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومَنَعه، أَنَّبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خيرٌ منك، لَنُسَفِّهن حِلْمك، ولنُفَيِّلن (أى لنقبحن) رأيَك، ولنضعن شـرفك، وإذا كان تاجرا قال: والله لَنُكَسِّدن تجارتكَ، ولنُهلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به»(*)

كانت هذه المقاطعة إذن فى منطق الأمـور. ولابد أنها فرضت لتخلق للمسلمـين متاعب تتعلق بحياتهم من شأنها أن تمنعـهم من الدعوة إلى دينهم أو، على الأقل، إلى التخفيف مـن حماسهم لدعوتهم. والنص، كما سبق أن ذكرنا، لا يميـل إلى إطالة الحديث عن مسلمى مكة، وهو بالتالى يتحرز أن يدخل فى تفاصيل الويلات التى كانوا يعانونها، ولذلك فإنه لايـعطى أمثله للـضـرر الذى سببـه لأصحـاب الرسول ﷺ تنفـيذ التهديدات الـتى صدرت عن أبى جهل والتى لابد أنهـا كانت جزءا من استراتيجية عامة اتبعتها قريش.

لكن لنا أن نعتبر أن هذه المقاطعة أضـرت كثيرا بتجارة المسلمين، وأن الأذى الكبيـر الذى لحقهم من جـرائها كان من الأسـباب التى أدت الى نشوء فكرة الهجرة.

ولابد أن قريشـا - بما فى ذلك بنو عبدالمطلـب وبنو هاشم - قررت بالإضافة إلى هذه المقـاطعة الاقتصادية مقـاطعة اجتماعيـة ضد المسلمين بتحريم كل زواج بين رجالهم ونسائهم ونساء المشركين ورجالهم. وهذه

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٢٠.

المقاطعة الاجتماعية كانت بدورها شيئا طبيعيا، فإن اختلاف الديانة، فى معظم المجتمعات، يعتبر حائلا دون الزواج.

إن الشىء الذى فعله النص بصدد المقاطعة الاجتماعية - الاقتصادية، هو أنه اختلس من القرآن ومن مسلمى مكة الفضل فى تأييد الرسول ﷺ وحمايته، ومَنَحه لقبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الكافرتين، وهو كذلك أنه ، كما قَدَّمت، أنكر على مسلمى مكة (لصالح القبيلتين ذاتهما) فضل المعاناة فى عيشهم فى سبيل عقيدتهم. والنص حين فعل ذلك إنما زيف التاريخ.

و) الإخراج من المسجد الحرام:

طبقت قريش على المسلمين شكلا آخر من أشكال المقاطعة هو منعهم من دخول المسجد الحرام. وقد ذكر النص شيئا من ذلك فى قصة إسلام عمر. لكن الذى يفهم من النص بوضوح هو أن هذا الإجراء لم يطبق على محمد ﷺ فإن عديدا من الآيات القرآنية التى أوردها النص تستند إلى ملحوظات أبدتها قريش للرسول ﷺ أثناء وجوده فى المسجد أو إلى وقائع حدثت فيه. ومن أمثلة ذلك:

- أن قريشا حين عرضت على الرسول الثروة والشرف والملك، فعلت ذلك فى المسجد.

- المشهد الذى نرى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وبجواره جبريل والذى أصاب فيه أحد المستهزئين به بالعمى وأمات أربعة من سادة قريش بإشارة من يده، حدث فى المسجد.

- محاولتا الاعتداء ضد الرسول ﷺ من أبى جهل ومن زوجة أبى لهب حدثتا فى المسجد.

- كان الرسول فى المسجد حين طلب الإراشى من بعض قريش الذين كانوا فيه أن يدلّوه على شخص يقبل معاونته فى إقناع أبى جهل بأداء ما عليه له.

- أبوبكر كان مع الرسول ﷺ فى المسجد حين تشاجروا مع الرسول وأخذه أحدهم بمجمع ردائه.

- إساءة أبى جهل للرسول التى ترتب عليها إسلام حمزة حدثت فى المسجد.

- الطُّفَيل بن عمرو الدَّوسى حين رأى الرسول أول مرة رآه فى المسجد.

فالنص حين يقدم لنا الرسول ﷺ يقدمه لنا معظم الوقت وهو فى المسجد الحرام، وهو يقدمه لنا دائما - باستثناء حالة واحدة - بمفرده.

أما المسلمون فإن النص يخبرنا أنهم لم يتمكنوا من الصلاة فى المسجد إلا بعد أن صلى فيه عمر عقب إسلامه الذى حدث بعد الهجرة إلى الحبشة، أى بعد ست أو سبع سنوات من البعثة. ويخبرنا النص أيضا أن عبدالله بن مسعود جهر فى المسجد بتلاوة بعض آيات من القرآن وأن قريشا ضربوه فى وجهه.

وهذه البيانات تثير عددا من الملحوظات والتساؤلات.

١) والواقع :

أ- أن من المستغرب أن تترك قريش لمحمد ﷺ حرية الدخول فى الحرم الذى فيه أصنامهم والذى كانوا يؤدون فيه عبادتهم، وهم يعتبرونه صابئا وزعيما للثورة الإسلامية والرجل الذى جعلهم ينكلون بأبنائهم وإخوتهم وأخواتهم.

ب- نحن لا نكاد نرى الرسول فى المسجد بصحبة جماعة من المسلمين، أو وهو يؤدى صلاة الجماعة معهم. هل معنى ذلك أن قريشا كانت تسمح له بدخول المسجد مع تحريم دخوله على المسلمين؟ أو أنهم كانوا يرخصون للمسلمين بدخوله بشرط ألا يؤدوا فيه صلوات الجماعة؟ لكن، إذا كان الأمر كذلك ، أين كان الرسول ﷺ يؤدى هذه الصلوات؟

جـ - باستثناء حمزة الذى رأيناه وهو يضرب أبا جهل بقوسه فى المسجد، لا يظهر النص أحدا من بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم وهو يدافع عن الرسول ضد إساءات قريش.

د- ما السر فى أن قريشا، التى ضربت عبدالله بن مسعود فى وجهه لأنه جهر بقراءة القرآن فى المسجد لم تمنع الرسول ﷺ من تلاوة القرآن فى صلاته بصوت عال سمعه عمر والطُّفيل بن عمرو الدَّوْسى؟

٢) جاء فى قصة إسلام عمر، على لسان عبدالله بن مسعود: «ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلَّينا معه» (*) . ولا يوضح النص ما إذا كان المسلمون قد صلوا مع عمر ذلك اليوم فقط أو أن عمر استطاع بمفرده أن يرغم قريشا على رفع الحظر المفروض على المسلمين جميعهم، بصورة نهائية. وهو لا يقول كذلك أين كان الرسول ﷺ حين كان المسلمون يؤدون صلواتهم. إن النص يتحدث عن المسلمين هنا، كما فى حديث الفترة الأولى، كما لو كانوا يكوّنون كيانا منفصلا عن الرسول ﷺ.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٢٤٢.

٣) لو أن قريشا أذنوا لمحمد ﷺ وللمسلمين فرادى أو جماعات بدخول المسجد الحرام، وسمحوا على هذا النحو لكل أهل مكة وللحجاج برؤيتهم وهم يؤدون الصلاة ويتحدثون إليهم، فكيف كانوا يسوغون لأنفسهم أو يفسرون لسائر العرب السبب الذى يجعلهم ينكّلون بهم؟ ألا يعنى سماحهم للمسلمين بالصلاة فى المسجد الحرام اعترافا بالإسلام؟ لقد كان هذا التسامح من جانب قريش مفهوما فى منطق الفترة الثانية المزعومة، أما فى منطق الفترة الثالثة فهو غير مفهوم.

٤) لو أن الرسول ﷺ كان يتلو القرآن فى صلاته بالمسجد بصوت مسموع، فماذا كانت حاجة سادة قريش - الذين كانت لديهم وسائل أخرى للحصول على نص ما ينزل من قرآن - للذهاب كاللصوص فى عتمة الليل لاستراق السمع إلى ما يتلو الرسول من آيات فى صلاته من وراء الجدران؟

٥) ليس من الواضح كيف استطاع عمر، لمجرد أنه تشاجر مع جماعة من الكفار، أن يثنى قريشا عن التزام قرارها بمنع دخول المسلمين الى المسجد. وإذا كانت مشاجرة ما كافية للتوصل إلى هذه النتيجة، لقد كان بين أصحاب الرسول ﷺ قطعا أكثر من رجل قادر على فعل ما فعله عمر، ولَمّا كان على المسلمين أن ينتظروا إسلام عمر كى يفعلوه.

ولهذه الأسباب جميعا، لا يسع المرء إلا أن يشك فى صحة الأخبار التى فحواها أن الرسول ﷺ والمسلمين كانت لهم حرية دخول المسجد الحرام بصورة دائمة. والأرجح أن دخولهم كان، على العكس، محظورا منذ بداية الدعوة، ولابد أن سلطات مكة قد اتخذت إجراءات خاصة لتكفل احترام هذا الحظر.

ومن غير المتصور أن تكون قريش قد تركت للرسول ومئات المسلمين الذين تبعوه حرية استخدام المسجد كمكان للاجتماع وكمنبر لنشر آرائهم، التى كانت السلطة تعتبرها هدّامة، بين أهل مكة والعرب القادمين من خارجها.

وكان حظر دخول المسلمين إلى المسجد كذلك ضرورة تمليها على قريش اعتبارات المحافظة - على الأمن فى الحرم ووسيلة لتفادى الاضطرابات التى كان من المحتمل أن تنشأ عن احتكاك الأهالى المحليين والعرب القادمين لعبادة أصنامهم، والمسلمين.

ومن المؤكد أن هذا الحظر الذى فرض على دخول الرسول ﷺ إلى المسجد الحرام والاجتماع والصلاة فيه، فى الوقت الذى كانت أبوابه مفتوحة فيه على مصراعيها لاستقبال كفار مكة والجزيرة، كان شيئا يحزّ فى نفوس المؤمنين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الحقيقيين لملة إبراهيم، ناهيك بالمضايقات اليومية التى ولدتها صعوبة العثور فى مكة على مكان قريب من بيوتهم ومن السوق يستطيعون ان يؤدوا فيه صلوات الجماعة اليومية وراء رسولهم صلى الله عليه وسلم. ولابد أن فكرة إنشاء مسجد آخر مخصص للمسلمين عُرضت للبحث، لكن قريشا، التى كانت لا تعترف بالإسلام، عارضتها بلا أدنى شك.

كذلك فالأرجح أن الرسول ﷺ لم يكن، من ناحيته، متحمسا لهذه الفكرة لأن تنفيذها كان يعنى، بصورة ما، عدول المسلمين عن تراث إبراهيم مؤسس الكعبة الذى كانوا ينتمون إلى ملته.

وفى رأيى أن هذه الظروف، لا ظروف فترة الاستخفاء، هى التى جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر إقامة صلوات الجماعة مع المسلمين الذين أعلنوا إسلامهم فى شعب من الشِّعاب الواقعة خارج

مكة. أما المسلمون الذين لم يعلنوا إسلامهم خشية الاضطهاد فلابد أنهم حصلوا من الرسول ﷺ على رخصة تسمح لهم بأداء الصلوات فى بيوتهم على انفراد.

والسؤال هو: لماذا يصر النص على إنكار هذا الحظر وعلى إظهار الرسول فى معظم الأحيان وهو فى المسجد؟ والإجابة عن هذا السؤال ترجع، فى رأيى الى اتجاه لدى المؤلف، رأيناه فى ظروف أخرى، يجعله يتجنب التعرض للمواقف التى يبدو المسلمون فيها ضحايا لاضطهاد قريش ويقصر ضحايا الاضطهاد على بنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

ز) الخلفاء الثلاثة :

١) أبوبكر :

يصور النص هذا الصاحب الكبير من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فى الفترة المكية الأولى، على أنه كان رجلا مألفا لقومه، محبَّبا سَهْلا، وأنه كان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وأنه كان رجلا تاجرا، ذا خلق ومعروف، وأن رجال قومه كانوا يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه، وأن ستة من الصحابة، من بينهم عثمان بن عفان، أسلموا بدعوته، وأن الرسول ﷺ كان يقول: «ما دعوتُ أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كَبْوَة ونَظَر وتردُّد، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قُحافة، ما عكَم عنه حين ذكرتُه له، وما تردَّد فيه».

والنص يخبرنا، فى حديث الفترة الثالثة، أن أبابكر اشترى وأعتق ستة أو سبعة من العبيد، رجالا ونساء، منهم بلال وامرأة كان عمر يقسو فى ضربها. ونحن نرى أبابكر، فى النص، حين أحاطت جماعة من

قريش بالرسول ﷺ وأخذ أحدهم بمجمع ردائه، يبكى وهو يقول لهم: «أتقتلوا رجلا أن يقول ربى الله؟» ونراه أيضا، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له، فخرج أبوبكر مهاجرا، ثم نراه عائدا إلى مكة تحت جوار ابن الدُغُنَّه سيد الأحابيش، ثم نراه يرد جوار ابن الدغنة عليه حين تشكّت قريش لابن الدغنة من أن أبابكر كان يرق ويبكى إذا صلَّى وقرأ ما جاء به محمد فى مسجد عند باب داره، وقالوا إنهم يتخوفون على صبيانهم ونسائهم وضعَفَتهم أن يفتنهم. وقد ترتب على حرمان أبى بكر من هذا الجوار أن لقيه سفيه من سفهاء قريش فحثا على رأسه ترابا.

والخبر المتعلق بهجرة أبى بكر ثم بعودته (*) يثير بعض التحفظات:

١- فإن النص لا يوضح الجهة التى كان يقصدها أبوبكر حين غادر مكة. هل كان يريد أن يلحق بمهاجرى الحبشة؟ هل كان يريد أن يهاجر إلى جهة أو إلى قبيلة فى الجزيرة العربية؟ ماذا كانت وجهته حين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش. نحن لا نعرف ذلك، والشيء الوحيد الذى نعرفه هو أن هذا اللقاء حدث بعد أن سار من مكة يوما أو يومين.

٢- سبب هذه الهجرة مذكور بإيجاز، وهو غير واضح. والنص يبدأ بذكر أسباب شخصية: «حين ضاقت عليه مكة». ويذكر بعد ذلك أنه «أصابه فيها الأذى». ولما كانت كلمة «الأذى» فى العربية كلمة فضفاضة تشمل إساءات القول كما تشمل المعاملة السيئة، فنحن لا نعرف بالضبط نوع العنف الذى ضاق به صدر أبى بكر. والنص يتحدث بعد ذلك عن

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٧٢ - ٣٧٤.

سبب يتعلـق بالرسول ﷺ وأصحابه، أى تظاهر قـريش عليه ﷺ وعلى أصحابه.

٣- نظرا إلى أن أحـدا لم يخرج أبا بكـر، وإلى أن قريشـا لـم تحاول استعادته كما حاولت أن تستعيد مهاجرى الحبشة، وإلى أنه لـم يكن يمثل بالنسبة للنظام القائم خطرا أكبر من ذلك الذى كان يمثله سائر المسلمين، وإلى أن هجرته كانت عملا إراديا بحتـا، فإن الحكمة فى كونه قد احتاج لجوار سيد الأحابيش كى يرجع إلى مكة غير مفهومة.

٤- السبب الـذى دفع أبا بكر إلى رد جوار ابن الـدُّغُنَّة عليه تنقـصه الجدِّيَّة: فـمن الغريب أولا أن يكون أبـو بكر قد أقام فى بـيته مسـجدا صغيرا إذ آن الصلوات فى الإسلام تؤدى جماعة، وأن المفروض أنه كان يؤديها مع الرسول ﷺ، وأن الرسول ذاته لـم ينشىء مثل هذا المسجد فى بيته.

٥- على فرض أن هذا المسـجد الصغير قد وُجـد، فإن رد جوار ابن الدُّغُنَّة كان ينبغـى أن يترجم بعمل من جانب قريش لغلـقه أو لهدمه أو لإرغام أبى بـكر بكل الوسائـل التى كانت تملـكها على أن يفـعل ذلك بنفســه. والحاصل، أن الأثر الوحيد الذى ترتـب على رد هذا الجوار هو أن سفيها من سفهاء قـريش حثا ترابا على رأس أبى بكر، وهو عمل لا صلة بينه بين موضوع المسجد.

إن ما فى حديث هجرة أبى بكر من تهافت ومن مجافاة للمنطق وبُعْد عن المعقول يجعـل تصديقه أمرا عسيرا. ومن المحـتمل جدا أن يكون قد لُفِّق لغاية واحدة هى الإيحاء بأن أول الخلفاء بعد وفاة الرسول ﷺ، رغم مناقبه كلها، كان فَرَّارًا يتخلى عن الرسول ﷺ، بينما كان واجبه يقتضيه أن يظل إلى جواره ويشارك مصيره ومصير مسلمى مكة الآخرين.

فأبو بكر إذن، طبقا للنص، مؤمن قوى الإيمان، ومحسن ينفق من ماله بغير حساب لشراء العبيد وعتقهم، وداعية نشط هدى إلى الإسلام عديدا من شخصيات قريش البارزة، ورجل رقيق الحاشية يتصف بالأخلاق العالية وبشدة التقوى، لكنه ضعيف الشخصية. إنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولا عن الرسول ﷺ، وبدلا من القيام بعمل، كما فعل حمزة، كان يكتفى بالبكاء. كذلك فلا يمكن المقارنة بينه وبين أبى طالب الذى أيد الرسول وشمله بحمايته وجعل قبيلتيه تنضمان إليه فى ذلك.

٢) عمر:

ما يلى، بشىء قليل من الاختصار، ما يقوله النص عن عمر [١].

- مر أبو بكر بجارية بنى مُؤَمَّل، حى من بنى عدىّ بن كعب، وكانت مُسلمة، وعمرُ بن الخطاب يُعذبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إنى أعتذر إليك، إنى لم أتركك إلا ملالة، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبوبكر، فأعتقها [٢].

- قالت أم عبد الله: «والله إنا لنترحّل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر فى بعض حاجاتنا، إذا أقبل عمر ابن الخطاب حتى وقف علىّ وهو على شركه. وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا، فقال: إنه للانطلاق يا أمَّ عبدالله. فقلت: نعم والله، لنخرجنّ فى أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا. فقال: صَحِبكم الله، ورأيت له رقّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحْزنه - فيما أرى - خُروجنا. فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت

---

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٤٢ ـ ٣٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١٩.

عمر آنفا ورقَّته وحُزْنه علينا. قال: أطمعتِ فى إسلامه؟ قلت: نعم؛ قال: فلا يُسلم الذى رأيتِ حتى يُسلم حمار الخطاب، قالها يأسا منه، لما كان يُرى من غِلْظته وقَسْوته عن الإسلام (*).

- أسلمت فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، وأسلم بعلُها سعيدُ بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر. وكان نُعَيْم بن عبد الله النحَّام، رجل من قومه، قد أسلم، وكان أيضا يستخفى بإسلامه فَرَقا من قومه. وكان خبّاب بن الأَرَتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفَه يريد رسولَ الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصَّفا، وهم قريب من أربعين، ما بين رجالٍ ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمُّه حمزةُ وأبوبكر وعلى، فى رجال من المسلمين، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعَيْم بن عبدالله فقال له: أين تريد يا عمرُ؟ فقال: أريد محمدا هذا الصابىء، الذى فَرَّق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينَها، وسب آلهتها فأقتُله؛ فقال له نُعَيْم: أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرَهم؟ قال: وأى أهل بيتى؟ قال خَتَنُك وابن عَمِّك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما. فرجع عُمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خَبَّاب بن الأرتّ ومعه صحيفة، فيها: «طه» يقرئهما إيَّاها. فلما سمعوا حسّ عمر، تَغَيَّب خَبَّاب فى مُخدع لهم (المُخدع: البيت الصغير الذى يكون داخل البيت الكبير) وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

عمرحين دنـا إلى البيت قراءة خباب عـليهما، فلما دخـل قال: ما هذه الهَيـنمةُ (الهَيـنمة : صوت كـلام لا يفهم) التى سـمعت؟ قـالا له: ما سمعتَ شيئـا، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتـما محمدًا على دينه، وبطش بخَتنه سعيد، فقامت إليـه أختُه لتكُفَّه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالـت له أخته وختَنه: نعم قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عـمر ما بأخته من الدم نَدِمَ على ما صنع، فارعوى، وقـال لأخته: أعطينى هذه الصحيفة الـتى سمعتُكم تقرأون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمـد،وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك، قالت له أختـه: إنَّا نخْشاك عليها، قال: لا تـخافى، وحلف لها بآلهـته ليردنَّهـا إذا قرأها إليهـا، فلما قـال ذلك، طمعتْ فى إسـلامه، فقـالت له: يا أخـى، إنك نَجِس، على شِـرْكك، وإنه لا يمـسَّهـا إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصـحيفة وفيها: «طه» فقرأها،فلما قرأ منهـا صدرًا، قال: ما أحســن هذا الكلام وأكرمه! فلمـا سمع ذلك خبَّاب خرج إلـيه، فقال له: يا عمر، والله إنـى لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدَعْـوة نبيه، فإنى سَمِـعته أمس وهو يقـول: اللهم أيِّد الإسلام بأبى الحكَم بن هشام، أو بـعُمر بن الخطاب، فالله الله يا عمـر. فقال له عند ذلك عمر: فدلّنـى يا خباب على محمد حتى آتيـه فأُسْلم. فقال له خبَّاب: هو فى بيت عند الصـَّفَا، معه فيه نَفَر من أصحـابه، فأخذ عمر سيفه فتـوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابـه، فضرب عليهم الباب، فـلما سمـعوا صوته، قـام رجل من أصحـاب رسول الله ﷺ، فنظر من خَلَل الباب فرآه متوشّحا السيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشّحا السيفَ، فقال حمزة بن عبد المطلب: فَأْذَن له، فـإن كان جاء يريد خيرًا بَذَلْناه له، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ : ائذن له، فأذن له

الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لَقيه فى الحجرة، فأخذ حُجْزته (أى موضع شد الإزار)، أو بمجمع ردائه، ثم جَبَذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعةً (أى داهية)، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأُومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عَزّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سَيَمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم (*).

ويقول المؤلف إن هذا هو حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب. ويورد النص بعد ذلك رواية أخرى بلسان عمر ذاته يقول فيها:

«كنت للإسلام مُباعدًا، وكنت صاحبَ خَمْر فى الجاهلية، أُحبُّها وأُسرّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحَزْورة عند دُور آل عمربن عَبْد بن عِمْران المخزومى، فخرجت ليلةً أريد جُلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك، فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحدًا، فقلت: لو أنى جئتُ فلانا الخمَّار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلى أجد عنده خمرًا فأشرب منها. فخرجتُ فجئته فلم أجده. فقلت : فلو أنى جئتُ الكعبة فطُفْت بها سبعا أو سبعين. فجئتُ إلى المسجد أُريد أن أطوفَ بالكعبة، فإذا رسولُ الله ﷺ قائم يصلّى وكان إذا صلّى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليمانى، فقلت حين رأيتُه: والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع منه لأروِّعنَّه، فجئت

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦.

من قِبَل الحجر، فدخلت تحت ثيابها. فجعلتُ أمشي رويدا، ورسول الله ﷺ قائم يصلى يقرأ القرآن، حتى قمت فى قِبلته مستْقبلَه، ما بينى وبينه إلا ثيابُ الكعبة. فلما سمعتُ القرآن رقَّ قلبى، فبكيتُ ودخلنى الإسلامُ، فلم أزلْ قائما فى مكانى ذلك، حتى قضى رسولُ الله ﷺ صلاتَه، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين، وكانت طريقَه، حتى يَجْزع المسْعى (أى يقطعه)، ثم يَسْلُك بين دار عباس بن المطَّلب، وبين دار ابن أزْهر بن عَوْف الزهرى، ثم على دار الأخنس بن شَرِيق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنُه ﷺ فى الدار الرقْطاء، التى كانت بيدَىْ معاوية بن أبى سفيان، فتبعتُه حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزْهر ، أدركتُه، فلما سمع رسولُ الله ﷺ حِسِّى عرَفنى، فظن رسولُ الله ﷺ أنى إنما تَبِعْته لأُوذيه فنَهمنى (أى زجرنى)، ثم قال: ما جاء بك يابن الخطاب هذه الساعة؟ قلت: جئت لأُومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فَحَمِد اللهَ رسولُ الله ﷺ، ثم قال: قد هَدَاك الله يا عمر، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثَّبات، ثم انصرفتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل رسولُ الله ﷺ بيتَه (*).

ويقول النص، بعد سرد هذه الرواية، إن عمر قال: أىّ قريش أنْقَلُ للحديث؟ فقيل له: جَميل بن معْمر الجَمحى، فغدا عليه وأبلغه أنه أسلم ودخل فى دين محمد. وقام جميل على باب المسجد وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، ألا إن عمر بن الخطاب قد صَبَا، وعمر من خلفه يقول : كَذَب، ولكنى قد أسلمتُ، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبدُه ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يُقاتلهم ويُقاتلونه

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٨.

حتى قامت الشمس على رءوسهم، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم. فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صَبا عمر، فقال: فمَه، رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أترون بنى عدىّ بن كعب يُسلمون لكم صاحبَهم هكذا! خلُّوا عن الرجل، فوالله لكأنما كانوا ثوبا كُشِط عنه[1].

يقول النص إن عمر لما أسلم تلك الليلة تذكَّر أن أبا جهل، وكان خاله، أشد أهل مكة عداوة لرسول الله ﷺ، فأتاه وضرب عليه بابه، فخرج إليه أبوجهل مرحبا، فقال له عمر: «جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدَّقت بما جاء به» فضرب أبوجهل البابَ فى وجهه وقال: «قَبَّحك الله، وقَبَّح ما جِئْتَ به»[2].

قال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة.

وتثير البيانات التى وردت فى النص عن عمر الملحوظات الآتية:

أ- قصة جارية بنى مُؤَمَّل التى كان يضربها عمر، وقصة أم عبد الله (أم عامر بن أبى رَبيعة حليف قبيلة عمر) وبيانات أخرى عامة، تظهر عمر بمظهر الرجل الذى كان، قبل إسلامه، يكره الإسلام كراهة التحريم. والمشرك الوحيد الذى كان يستطيع منافسته فى القسوة على المسلمين كان خاله أبوجهل. لكن قسوة أبى جهل حيال المسلمين إذا كانت قد ذكرت مرة فى عبارات عامة فقد ذكرت قسوة عمر عدة مرات، كما ضرب عنها مثلان بقصد إبرازها، هما: حالة جارية بنى مُؤَمَّل،

(١)السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٠.

وحالة أم عبدالله. كـذلك يتميز عمر عن الشخصـين اللذين كانا يقومان بتـعذيب المسلمـين فى النص، أى ذلك الذى كان يعـذب بلالا، وذلك الذى كان يعذب آل ياسر، فى أن هذين الشخصـين كانا يقومان بأعمال تعذيب فـردية، أما عمر فـقد كانت رغبـته فى تعذيب المسلمين مـسألة مبدأ.

صورة عمـر فى النص إذن أشبه بصـورة الوحش المرعب الذى يعادى الإسلام أكثـر من معاداة أى شخص آخـر له، وذلك على مدى سنوات من ظهور الإسلام، إذ أنه لم يسلم إلا بعد هجرة الحبشة.

ب- هناك فيما يتعلق بالرواية الأولى لإسـلام عمر عدد من الأسئلة التى يمكن طرحها مثل:

- كيف لم يختر رجل له حصافـة عمر لارتكاب جريمته لحظة يكون الرسول ﷺ فيها وحده، فى ظلمة الليل، دون شهود، بدلا من أن يقدم على فعلته فى وضح النهار والرسول فى صحبة عدد كبير من المسلمين؟

- هل كان عمـر بحاجة إلى نُعَيم كى يذكره بأنه إن قتل مـحمداً فلن يلبث بنو عبد مناف أن يثأروا له؟

- كيف يُعـقل أن يشى نُعَيم، الذى كـان هو ذاته مسلمـا يسـتخفى بإسلامـه خشية اضطهـاد قبيلته، بأخـته وأخيه فى الدين، فـاطمة بنت الخطاب وبعلها، اللذين كانا مثله قد أسلمـا سرا، وكيف يدفع عمر إلى «إقامة أمرهم»؟

- لماذا أخذت فاطمة الصحيفـة التى فيها سورة «طه» من خبّاب حين تغيب فى داخل البيت عندما سمع حسّ عمر بالباب، ولماذا جعلتها تحت فخـذها، وكيف لم يلحظ عـمر هذه الصحـيفة فـى المكان الذى كانت تجلس فيه حين قامت فاطمة لتكُفّه عن زوجها؟

- كيف استطاعت فاطمة وزوجها، اللذان يبدو أنهما أسلما بعد بدء الدعوة بقليل (فقد ورد اسماهما فى قائمة المسلمين الأوائل) إخفاء إسلامهما عن عمر عدة سنوات إلى أن علمه من نُعَيْم. ولماذا لم تحاول فاطمة أن تقرأ على عمر آيات من القرآن لإقناعه بالإسلام قبل الواقعة التى يحكيها النص وهى تعرف جانبه الطيب خيرا من غيرها؟

جـ - أما رواية النص الثانية بخصوص إسلام عمر، فهى تبدو، للوهلة الأولى، أقرب إلى التصديق من الرواية الأولى إلا - ربما - بالنسبة لبعض المسائل:

- فإن النص لا يفسر سر غياب جلساء عمر من المكان الذى اعتادوا أن يجتمعوا فيه لمعاقرة الخمر، ولا سر غياب الخمار عن خمارته، والتوافق بين الأمرين لا يخلو من غرابة.

- والنص لا يفسر كذلك لماذا لم يعلن عمر إسلامه للرسول مجرد انتهائه ﷺ من الصلاة، بدلا من تعقبه من المسجد إلى بيته بصورة أوقعت فى روع الرسول أن عمرا يريد أن يؤذيه!

- النص يصور الرسول ﷺ وهو يصلى وحده فى المسجد ليلا رغم أنه، كما أوضحت، كان ممنوعا من دخول المسجد وأنه كان يؤدى الصلوات مع المسلمين.

- المفروض أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا يعلمون أن أعداءه كثيرون وأن حياته فى خطر، كانوا يحيطون به دائما ويشكلون حوله حرسا لحمايته من المعتدين، وأنهم ما كانوا يتركونه يؤدى الصلاة وحده فى الليل دون حارس أو رفيق.

د- هناك، بالإضافة إلى هذه الملحوظات التى تتعلق بكل من الروايتين، ملحوظتان تتعلقان بهما كلتيهما:

- الروايتان - كالروايات التى تتعلق بعبدالمطلب - من كثرة التفاصيل بحيث يصعب تصديقهما. وخلافا للجانب الأعظم من أخبار الفترة، التى تتميز بالقصر والغموض والتشتت التى تتسم بها الأحاديث المنقولة شفاهة عبر أجيال عديدة، فإن هاتين الروايتين محكمتا البناء، مليئتان بالتفاصيل التى تزودنا، فى الرواية الأولى، بأسماء عدة أشخاص، وبحوار يجرى بينهم، وباسم سورة بعينها من سور القرآن، وباسم الحى الذى فيه البيت الذى كان فيه الرسول (والذى لابد أنه كان فسيحا للغاية، إذ أن الرسول ﷺ اجتمع فيه بأربعين من أصحابه)؛ وفى الرواية الثانية، المكان بالضبط الذى كان يؤدى فيه الصلاة فى الكعبة، والتحركات بالضبط التى كان عمر يقترب بها من الرسول كى يتمكن من الاستماع إليه دون أن يراه، والطريق بالضبط الذى سلكه الرسول ﷺ للذهاب من المسجد إلى بيته، وأسماء ملاك الدور التى كان يمر بها ليصل إلى داره، واسم مالك بيته، والكلام الذى دار بين عمر والرسول.

لقد وردت كل هذه التفاصيل فى الروايتين بدقة كبيرة فى النص، مع أن النص لم يعط بيانات عن عشرات من المسائل الأساسية المتعلقة بهجرة الحبشة، مثلا، وأن المقاطعة لم توصف إلا فى سطور قليلة، وأن النص لم يحدد ما إذا كانت هذه المقاطعة قد استمرت سنتين أو ثلاث سنوات.

- إسلام عمر، فى كلتا الروايتين، حدث بعد قراءة أو سماع سورة من القرآن الكريم. ومعنى ذلك أنه كان إسلاما فوريًا وقع فى نفس عمر «وقع الصاعقة».

وهذا البيان يبدو لنا موضع شك. فلو أن إسلام عمر كان يرجع إلى بداية الدعوة أو لو كان عمر يعيش مع قبيلته على بعد مسافة كبيرة من

مكة لفهمنا أن هذه كانت المرة الأولى التى يعلم فيها شيئا عن القرآن. أما وهو من أهالى مكة، ونظرا إلى أن إسلامه قد تأخر إلى ما بعد هجرة الحبشة، أى إلى ست أو سبع سنوات على الأقل من بدء الدعوة، فى وقت كان قد تنزّل فيه ألفان من آيات القرآن (أى نحو ثلث آيات القرآن كله)، التى تبلغ ٦٢٣٦ آية، كانت تتناقلها الأفواه فى مكة، وكان جميع المسلمين بمن فيهم مسلمو قبيلة عمر يتلونها فى صلواتهم، وكان رؤساء قبائل قريش، ولا شك، يفحصونها فرادى أو مجتمعين فى مجلس حكومة مكة، أولا بأول بعد إذاعتها، كى يقرروا ما يجب اتخاذه بصددها من إجراءات لإلغاء أثرها فى نفوس الناس أو لتقليله، فقد كانت أمامه، أى أمام عمر، ألف مناسبة ومناسبة للاستماع إلى القرآن فى الوقت الذى يدرج فيه النص واقعة إسلامه.

وإذا لم يكن قد فعل فلابد أنه كان الشخص الوحيد فى مكة الذى يجهل ظاهرة القرآن والذى لم يشعر بما أسميته بالزلزال المستمر الذى كان يحدثه نزول هذه الآيات التى تعد بالمئات، والذى كان يجهل أنها مصدر الهزات التى كانت تقلب الأوضاع فى المجتمع المكى والتى جعلت مختلف قبائل قريش، التى أحنقها دخول المئات من أفرادها فى الإسلام نتيجة لها، تضطهد أبناءها وتنفيهم أو تضطرهم إلى الهجرة، والوحيد الذى لم يشهد، ولو من باب الفضول، شيئا من الاجتماعات أو الجلسات التى كان الرسول ﷺ وأصحابه يعقدونها خلال مواسم الحج أو خارج هذه المواسم للتعريف بالإسلام والقرآن، والذى لم يكن على علم بالاتصالات التى لا تحصى التى كان يجريها مسلمو مكة يوميا فى الأسواق وفى الأماكن العامة فى البيوت، والتى كان الحديث فيها يدور حول القرآن والدين الذى يعلنه على لسان محمد.

هـ - لكل هذه الأسباب تبدو لى الرواية الأولى والرواية الثانية عن إسلام عمر، على السواء، مجرد اختلاق. لقد كانت الدعوى المستفادة من النص والتى مؤداها أن أبا طالب وبنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا وحدهم الذين تصدُّوا للدفاع عن الرسول ﷺ بحاجة، لكى تكتمل لها مظاهر الصدق، إلى أعداء ألدَّاء للرسول ﷺ بين الكفار، لكنها كانت بحاجة أيضا إلى عدو كافر صار مسلما.

وكان السادة والأشراف الذين سعوا إلى أبى طالب ليشكوا محمدا وأولئك الذين نزلت فى حقهم آيات من القرآن (طبقا للنص) أعداء المجموعة الأولى. أما الكافر الذى تحول إلى الإسلام، فقد كان عمر الشخص المناسب ليمثله. لماذا عمر بالذات؟ لأنه كان قريشيا، ومكيا، ولأنه أصبح فيما بعد خليفة افتئاتا على أعضاء قبيلة الرسول ﷺ، ولأن بلاد فارس كلها فتحت تحت خلافته، ولأنه كان مسئولا، جزئيا، عن تعيين واحد من بنى أمية - وهو عثمان - خليفته حين رشحه، قبل اغتياله، واحدا من ستة من الصحابة (هم: على، وعثمان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبدالله، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف) يختارون أحدهم ليتولى الخلافة من بعده وأخيرا لأنه مهد الطريق لمعاوية، حين عينه واليا على الشام، للتطلع إلى الخلافة بعد مقتل عثمان ولتأسيس الخلافة الأموية.

إن عمر لم يكن، لهذه الأسباب، مقربا إلى نفس المؤلف شخصيا ولا إلى نفس العباسيين. لهذا كان يصلح لأن يسند إليه دور عدو الإسلام الذى أصبح مسلما فى «السيناريو» الذى تظهر فيه قبيلة الخليفة العباسى كحامية للرسول ﷺ.

وإذا كانت صفته كمسلم تحميه من النقد بعد إسلامه (على الرغم من أنه لم يسلم منه تماما فى حديث الفترة المدنية)، فلم يكن هناك حرج فى إطلاق العنّان للقلم لتسويد صفحته والعيب فى شخصه والتنديد بسلوكه حيال المسلمين قبل إسلامه، ويترك للقارىء بعد ذلك أن يعقد المقارنات بينه وبين أبى طالب، وبينه وبين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الذين لا يذكرهم النص أبدا بسوء.

كان الواجب إذن أن يقال وأن يعاد فى النص إن عمر كان قبل إسلامه يبطش بالمسلمين (فى الوقت الذى لم يمس واحد من بنى عبدالمطلب أو من بنى هاشم، ولا حتى أبولهب، مسلما، على الرغم من كونهم كفارا مثل عمر)، وأن يصور عمر بصورة الرجل العنيف، القاسى، الساخر، الدنىء، الذى لا يتورع عن ضرب جارية مسكينة حتى يملّ لأنها أسلمت، وأن يسىء معاملة أم عبدالله وأسرتها (فى الوقت الذى لم يتزل أبوطالب أو أحد أيا كان من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى هذا الحضيض فيستحق إهانة من جارية أو أن يشبّه بالحمار، كعمر).

ولم يكن كل هذا كافيا، فلُفّقت حكاية أسندت إليه هو ذاته يعترف فيها بأنه كان صاحب خمر فى الجاهلية يحبها ويسرُّ بها. لكن هذا أيضا بدا غير كاف، وكان الواجب الذهاب إلى أبعد منه، فلفّقت حكاية يظهر فيها عمر وهو يتأهب لقتل الرسول ﷺ. وألصقت الحكايتان بقصة إسلامه، واعتمد مؤلف النص على أن المسلمين- الذين يغرمون عادة بقصص الشيطان الذى أصبح ملاكا بعد اعتناقه الإسلام - يتقبلون أيا من الروايتين بشغف.

وبهذا تكون هناك صورة لعمر قبل إسلامه تتجاوز فى القبح صورة أشد الناس عداوة للرسول ﷺ: أبوجهل، الذى أراد أن يهشم رأسه ﷺ

والذى كان يضـرب المسلمين أو يحرض على ضـربهم، وامرأة أبى لهب التى أرادت أن تلقى حـجارة على رأس الرسول ﷺ، والسـادة الخمسـة الذين كانوا يستهزئون به.. إلخ. وقـد أريد أن تيـسر بشاعة هذه الصورة تَقَبُّل مـقولة أن بنى عـبـد المطلب وبنى هاشم - الذين لم يكن أحـدهم يحب الخمر أو يُسَرُّ بها، ولم يؤذ أحدهم مسلما - عانوا من المقاطعة من أجله ﷺ ورفضـوا تسليمه وكـانوا على استعـداد لبذل أرواحهم دفـاعا عنه. حتى أبـولهب، قريبهم «الملـعون» الذى حكم عليه الـقرآن بالنار، كان أفضل من عـمر، فإنه لم يعرف عنه أنه صاحب خمـر، كما أنه لم يعذب المسـلمين، ولا ضرب جارية ولا حاول أن يقتل محمداً.

و- مما هو جدير بالذكر هنا أن الحيز الذى خصصه النص لإسلام عمر يتجـاوز فى الطول، بكثيـر، ذلك الذى خصص لإسلام باقـى المسلمين قاطبة خلال هذه الفترة.

والواضح أن الهـداية إلى الإسـلام فى الروايتـين - اللتـين تخـتلف إحـداهما عن الأخـرى كل الاخـتلاف - لم تكن إلا ذريعـة، وأن أهم أجزاء الحـديث هما فى الواقع المقـدمتان اللتـان يظهر عمـر فيهـما وهو يخرج من بيته وقد عقد العزم على قتل النبى ﷺ أو وهو صاحب خمر معتاد على ارتياد حاناته بصحبة جلساء من محبى المعاقرة.

ز - إذا كان الأمر كذلك، كيف نفسر الجملتين اللتين وردتا فى النص فى مدح عـمر: الجملة التى يقال فـيها إن إسلام عـمر كان فتـحا، وإن هجرته كـانت نصرا، وإن إمـارته كانت رحمـة، وتلك التى اختـتم بها النص الرواية الأولى بقوله إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا من مكانهم «وقد عزّوا فى أنفسهم حين أسلم عمـر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعـان رسول الله ﷺ، وينتصفـون بهما من عدوهم»، وكـيف نفسر

كذلك الخبر الذى فحواه أن المسلمين استطاعوا أن يُصَلُّوا مع عمر عند الكعبة بعد إسلامه؟.

قد تكون الإجابة عن هذه الأسئلة أن الجملة الأولى تعبر فى الواقع عن رأى أحد الصحابة وتتعلق بعمر المسلم لا بعمر الكافر، ولا تعبر عن رأى مؤلف النص. وواضح أن النص حين أوردها لم يكن يتحرى الموضوعية بقدر ما كان يريد أن يبدو موضوعيا.

والقول نفسه يمكن أن يقال عن الجملة الثانية التى ليست فى واقع الأمر سوى انطباع. ومما يلاحظ فى هذا الصدد أنه كلما ذكر عمر بخير فى النص ذكر بالخير كذلك حمزة، وأن عمر عندما قرع باب البيت الذى كان الرسول مجتمعا فيه بأصحابه كان حمزة هو الذى قال: «وإن كان جاء يريد شَرا قتلناه بسيفه» أى أن حمزة، الهاشمى، كان دائما هناك لحماية النبى ﷺ. والجملة الثانية التى تجمع بين عمر وحمزة فى الثناء ليس لها، فى هذا السياق، إلا قيمة نسبية فإن أيا من عمر أو حمزة، كما سيتضح من باقى هذه الدراسة، لن يبدو خلال ما بقى من الفترة المكية، أنه لعب دورا أكبر من ذلك الذى لعبه سائر المسلمين فى الدفاع عن الرسول ﷺ أو الانتصاف من أعدائه وأعداء المسلمين.

أما كون المسلمين استطاعوا أن يُصَلُّوا فى المسجد بعد مشاجرة عمر مع بعض رجال قريش عقب إسلامه، فقد سبق أن أوضحنا أن ذلك فيه شك.

ح- فى هاتين الروايتين أبلغ مثل على الاختلاق فى النص. وحتى إذا لم أكن مصيبا فى النتيجة التى خلصت إليها من أنهما كلتيهما اختلاق، فمن المقطوع به أن إحداهما مختلقة، وأن وجودها دليل على

رغبة مبيّتة لتشويه الحقيقة خدمة لبعض المصالح، لا خطأً فى النقل أو خلط حدث بحسن نية.

وإذا كان الأمر كذلك فمن أصحاب المصلحة فى رواية تتحدث عن ماض غير مشرف لعمر إن لم يكونوا أولئك الذين كانوا يعتبرون تولّيه الخلافة اغتصابا لحق أقارب الرسول ﷺ فيها، وأولئك الذين كانوا يحقدون عليه لأنه أخضع الفرس للعرب، وسمح لبنى أمية بالاستيلاء على السلطة؟.

ط ـ الاختلاق فى حديث إسلام عمر يوحى بأن المعلومات الأخرى التى ترمى إلى تشويه صورة عمر قبل الإسلام هى بدورها اختلاق قصد به الإساءة. ويلاحظ هنا أن النص لم يقل شيئا عن رد فعل بنىَ المُؤَمَّل حين أوسع عمر جاريتهم ضربا، ولا عن رد فعل عامر بن أبى ربيعة حليف بنى الخطاب، حين كان عمر يسىء معاملة أسرة عامر، وهو أمر غريب حين نتذكر أن التعذيب، فيما يقول النص، وكما هو طبيعى، كان يتم دائما بأيدى أفراد القبيلة التى ينتمى إليها من يقع عليهم التعذيب، وبأيدى سادة العُبيد.

٣) عثمان :

لم يرد فى النص، كأمر واقع، شىء عن عثمان بن عفان، الذى سيصبح ثالث الخلفاء الراشدين، سوى أنه وزوجته رقية كانا فى عداد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة.

ولنا أن نتساءل:

كيف يمكن تفسير إهمال النص لأمر شخصية فى مثل أهمية عثمان الذى كان واحدا من السابقين إلى الإسلام فى قريش، والذى أحبه قلب

الرسول ﷺ محبة جعلته يزوجه ابنتين من بناته، الواحدة بعد وفاة الأخرى، والذى هاجر مع بنت الرسول ﷺ إلى الحبشة؟ وكيف للمرء أن يفهم، من جهة أخرى، أن جعفرا، الشاب - مع افتراض صحة القصة التى تتناول المناقشة التى جرت فى حضرة النجاشى بشأن عودة المهاجرين إلى مكة - تصدر على هذا الصحابى الجليل من أصحاب الرسول ﷺ فى النيابة عن المسلمين والنطق باسمهم؟ والرد المعقول على هذين السؤالين يكمن فى حقيقة أن بنى العباس كانوا يعتبرون عثمان بن عفان مغتصبا للخلافة، وهى سُبَّة تضاف إليها سُبَّة كبرى هى انتماؤه إلى قبيلة معاوية مؤسس الخلافة الأموية التى أسقطها العباسيون.

جيم - النتيجة

فيما يلى تجميع للنتائج التى تستخلص من تحليل مادة النص:

١- تأكيد أن أبا طالب وبنى عبدالمطلب وبنى هاشم حموا الرسول ﷺ أمر لايمكن تصديقه للأسباب التالية:

أ) إذا كان الله تعالى حمى رسوله ﷺ بالمعجزات (فحل الإبل الذى أخاف أبا جهل وحجب الرؤية عن أم جميل) واذا كان الرسول ﷺ - بمعاونة جبريل - قد استطاع بحركة من يده أن يسبب العمى أو يميت خمسا من خصومه، فما كانت بالرسول حاجة - فى منطق النص - إلى حماية آدمية.

ب) ليس فى الإمكان أن يكون سادة قريش وأشرافها، أو حتى مجموع قبائل قريش، قد طلبوا من أبى طالب أو من قبيلته تسليمهم محمدا ﷺ كى يقتلوه، إذ أن مكة لم يكن فيها سلطة مركزية مختصة بالمحاكمة فى القضايا الجنائية، تملك إصدار الأحكام أو تنفيذها، وأن هذا الإجراء كان من اختصاص القبيلة دون غيرها.

جـ) حماية القبيلة لفرد من أفرادها متصوّرة حين يحترم هذا الفرد دين القبيلة والنظام القبلى ، لكنها غير متصوّرة حيال فرد مُنْشَق ديانته تلعن ديانة الآباء والأجداد، وتحكم بنار جهنم على من لا يؤمنون بها، وتعطى للأُخُوَّة فى الدين الأسبقية على الأُخُوَّة القبلية، وتضع الله فوق القبيلة.

د) أبو طالب، الذى عجز عن حماية ابنه من الاضطهاد، مما جعل هذا الابن يقرر الهجرة إلى الحبشة (وفقا لدعوى النص)، ما كان يمكن أن يحمى ابن أخيه.

هـ) إذا كان محمد ﷺ بحاجة إلى حماية بشرية، فإن المسلمين الذين يُكنون له محبة لا يكنونها لأحد فى العالم والذين كان عددهم، على أقل تقدير، أربعة أمثال عدد بنى هاشم، كانوا أقدر على بذلها له من قبيلتيه.

و) إذا لم يكن أبوطالب العم الوحيد الذى يحب ابن أخيه فما الذى جعل أقارب مسلمى مكة من أعضاء قبائل قريش الأخرى، الذين كانوا حيال أبناء إخوتهم (أو أبنائهم هم) فى الموقف ذاته الذى كان فيه أبوطالب حيال محمد ﷺ، لا يحمونهم من الاضطهاد كما حمى أبوطالب محمداً؟

ز) قريش باعتبارهم سلطة سياسية، لم يطلبوا من أى سيد أو رئيس قبيلة من قبائلهم أن يسلمهم ابنه أو ابن أخيه، على الرغم من أن كل مسلم كان يقول عنهم وعن دينهم ما كان يقوله محمد ﷺ؛ وهم لم يقتلوا أى مسلم على الرغم من أن القبائل الأخرى لم تشمل أفرادها المسلمين بالتأييد والحماية اللتين يدعى النص أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم شملوا بهما محمداً.

٢- كانت قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى واقع الأمر، شأنهما فى ذلك شأن سائر قبائل قريش، من خصوم الإسلام، وكانتا، مثل سائر القبائل، تضطهدان أعضاءهما المسلمين. وهذا ثابت:

أ) من القرينة المتعلقة بجعفر، فإن الذين كانوا يضطهدون المسلمين كانوا، فى جميع الأحوال، رجال قبائلهم.

ب) من حقيقة أن ثلاثة فقط من أفراد هاتين القبيلتين اعتنقوا الإسلام خلال الفترة المكية بأكملها وهى فترة استمرت ثلاث عشرة سنة وأنه لم يكن بوسع قبيلتى الرسول أن تلتزما موقفا محايدا أو سلبيا فى النزاع القائم بين قريش ومحمد ﷺ.

٣- الهجرة إلى الحبشة كانت، على الأرجح، نفيا موّلته ونظمته وأشرفت عليه قريش - بما فى ذلك بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - لمعاقبة مثيرى الشغب المسلمين فى مكة، ولاستبعاد الخطر الذى كانوا يمثلونه، ولبث الرعب فى قلوب من كانوا يفكرون فى اتباع محمد.

٤- كانت هناك، أغلبَ الظن، هجرات أخرى للمسلمين لم يتحدث عنها النص.

٥- لابد أن الرسول ﷺ والمسلمين أُخرِجوا من المسجد الحرام طوال الفترة المكية.

٦- المقاطعة الاقتصادية الاجتماعية تقررت لا ضد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم وإنما ضد المسلمين، وكان بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، فى واقع الأمر، وراء أبى لهب، فى صف من طبقوا المقاطعة، لا فى صف من عانوا ويلاتها.

٧- النص يشوبه تحيز واضح ضد مسلمي مكة، بدليل:

أ) أنه لم يذكر أسماء أي من المسلمين الذين أسلموا منذ نهاية الفترة الأولى - باستثناء عُمر ومن هاجروا إلى الحبشة - ولا عددهم ولا الظروف التي تمت فيها هدايتهم إلى الإسلام.

ب) أنه لم يتحدث عن المشاق والآلام والمحن التي ترتبت على اضطهاد قريش للمسلمين في مكة إلا شذرات مختصرة ومثلين أو ثلاثة أمثلة مر عليها مرورا سريعا في سطور قليلة.

جـ) أنه لم يعترف لهم بأي دور في تأييد الرسول ﷺ وحمايته.

٨- يستخدم النص عليا وجعفرا وحمزة، الذين كانوا، شأن ابن عمهم رسول الله ﷺ، ضحايا قبيلتين تصرَّان على عدم الاعتراف بدينهم وتعتبران محمدا كذّابا، والذين كانوا في حالة قطيعة معهما، يستخدمهم لمصلحة هاتين القبيلتين، أي بني عبدالمطلب وبني هاشم. وهو يخلع على عليّ وجعفر وحمزة شرفا زائفا ويحرمهم من أفضالهم وأمجادهم الحقيقية التي اكتسبوها خلال سنوات من المقاطعة ومن الجهاد إلى جانب الرسول عليه الصلاة والسلام وكذلك، بالنسبة لجعفر، من النفي والتشريد.

٩- النص، الذي يضفي على بني عبدالمطلب وبني هاشم كل صفات العظمة، ولا يقول كلمة سوء في واحد منهم، يتفنن بشتى الطرق في اكتشاف مناقب لأبي لهب تجعله يبدو أقل استحقاقا للمؤاخذة من أبي لهب الذي يُدينه القرآن، ويرسم عن أبي بكر وعمر، اللذين ستئول إليهما الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، صورة تشوب جمالها شوائب، ويعتبر عثمان ، ثالث الخلفاء، كمّا مهملا.

١٠- النص لا يتحدث عن هداية أحـد من الناس إلى الإسلام خارج مكة، باستثناء الطُّفَيل بن عمرو الدَّوْسى والنصارى العشرين الذين سيرد الحديث عنهم فى الفصل التالـى. وهو يوحى - خلافا لكل الشواهد - بأن مكة كانت مـجال الإسلام الوحـيد طوال تسع أو عـشر سنين، وأن الحجاج كـانوا يجيئـون ويذهبون، خلال هذه الفتـرة وليس فى رحالهم سوى الافتراءات والأخبار الكاذبة التى كانت تشـيعهـا الطبقة الحاكمة فى مكة عن محمد ودينه.

١١- النص يركـز فى شـخص الرسول ﷺ كل نـشاط الدعـوة فى الإسلام ولا يعترف إلا لأبى بكر بالفضـل فى هداية بضعة أشخاص إلى هذا الدين، وحديث الفترة الثالثة لا ينسب إلى أى من أصحاب الرسول ﷺ فضلا فى هداية أحد من المشركين، وهو شىء لا يقبله العقل.

١٢- النص يتجاهل تمامـا كل الإمكانيات التى كانت متـاحة للرسول ﷺ وللمسـلمين خارج موسم الحج لهداية كفار الجزيرة إلى الإسلام: فى السوق، وفى البيوت، وخلال الرحلات التـى كان المسلمون يقومون بها إلى البلاد خارج مكة للتجارة أو للزيارة.

١٣- النص يرجع النزاع بين قريش ومـحمد ﷺ إلى الفتـرة الثالثة، والواقع، كما اتضح من تحليل حديث الفترة الأولى، أن الثورة التى جاء بها الإســلام على المستـويين الدينى والاجتمـاعى، وحملتـه على القيم التقليدية، التى قام بسببها هذا النزاع، بدأت مع سور القرآن الأولى.

١٤- النص يتـحدث عن الـرسول ﷺ من بداية الفـتـرة الثالثـة إلى نهايتها، كما فـعل فى حديث الفترة الأولى، من زاوية واحدة هى زاوية كونه محـميا: المحمى الذى يحضر أمـام حاميه حين يستـدعيه، والذى

يبكى حين يتصور أن حاميه نزع عنه حمايته. محمد ﷺ إذن، حسبما يصوره النص، أقصر قامة من أبى طالب، الذى يتمتع، هو ، بمكانة تمنع الآخرين من مسِّه بكلمة أو من الاستهزاء به، والذى يسعى إليه أعظم سادة قريش وأشرافهم، بتوقير كبير، متى كانت لديهم شكوى يعنّ لهم أن يتقدموا بها ضد محمد، أو صفقة يريدون أن يعرضوها عليه، والذى يستطيع، بكلمة منه، أن يلزم بنى عبدالمطلب كلهم وبنى هاشم كلهم بالانضمام إليه فى حماية محمد. وتصوير أبى طالب ومحمد ﷺ على هذا النحو ينطوى على تزييف كبير للحقيقة، فالواقع:

أ- أن أبا طالب لم يكن بالعظمة التى يصوره بها النص، وهو لم يكن رئيس بنى عبدالمطلب ولا رئيس بنى هاشم، لأنه لم يكن غنيا، ولأنه كان عاجزا عن إعالة كل أبنائه، وليس هو الذى تقدم لخطبة خديجة لمحمد، وأخيرا فإنه لم يستطع حماية ابنه من الاضطهاد فى مكة.

لقد كان أبوطالب فى الحقيقة من أقارب بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الفقراء، وكان على الأرجح عَمّا يحب ابن أخيه حبا جما، وقد أشرك معه ابنيه فى هذه المحبة، وعانى بالتأكيد من موقف قبيلتيه حيال محمد، كما عانى من سفر ابنه، الذى لم يتمكن من منعه، إلى الحبشة.

لكن مؤلف النص لم يصور أبا طالب بهذه الصورة الواقعية لأنه كان محتاجا لشخصية بارزة يبنى حولها دعواه فى حماية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسول ﷺ، فوجد أن ابنيه المسلمين اللذين كتبت لهما الشهادة فيما بعد يؤهلانه لهذا الدور ويخلعان عليه هيبة لم تكن له فى الحقيقة.

ب) أن محمداً ﷺ الذى جعل منه القرآن، كما رأينا، فى تحليل حديث الفترة الأولى، أعظم رجال قريش، ازداد عظمة فوق عظمته

بعثات الآيات القرآنية التى نزلت خلال الفترة الثالثة وبازدياد عدد أصحابه. لذلك فإن صورة «المحمى» لم تكن صورته الحقيقية، والقصص التى كانت تجعل أبا طالب يحجب عظمته والتى كانت تصور أبا طالب باعتباره الشخصية المهيمنة على هذه الفترة تجانب للموضوعية.

١٥- فى النص، من حيث مكوناته، اختلال وعدم تناسب صارخين فيما يتعلق بالمساحة التى يخصصها لموضوعاته المختلفة. وهذا الاختلال وعدم التناسب ناتجان عن نهج يجمع - فى غير توفيق أكثر الوقت - بين مراوحة الظل والضوء، والصمت والتفصيل، مع عادة غريبة تتمثل فى تقديم معلومات غير مفهومة أو يصعب تصديقها دون أن يشفعها بالحجج أو الشرح التى تسمح بقبولها أو فهمها.

ومن أمثلة لعبة الظل والصمت ما يقوله النص عن قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. إن هاتين القبيلتين تؤديان فى النص دورا رئيسيا، إذ أن حمايتهما هى المفروض أن الرسول ﷺ مدين لها بالبقاء على قيد الحياة وبقدرته على مباشرة دعوته. ومعنى هذا أن الإسلام مدين لهما بوجوده. لكنّ كم كان عدد أفراد هاتين القبيلتين؟ إننا لا نعرف منهم، كأمر واقع، إلا ستة أفراد : أبوطالب وأبولهب وحمزة والعباس وعلى وجعفر. ماذا كان موقفهم حيال النبى ﷺ والإسلام قبل أن يظهروا على مسرح الأحداث ليساندوا أبا طالب وليشكلوا خطا دفاعيا حول محمد ﷺ؟ ماذا كان موقفهم خلال الفترتين الأولى والثانية وجزء من الفترة الثالثة؟ ظل وصمت ! لماذا لم يدخل منهم فى الإسلام سوى ثلاثة فى ثلاث عشرة سنة مع أنهم كانوا أقرب الأقربين إلى الرسول ﷺ، وأنهم كانوا يعلمون أكثر من غيرهم بالبشائر والإرهاصات التى تنبىء ببعثه والمعجزات التى صحبت طفولته وشبابه، ويعرفون أنه رجل

أمين بكل معنى الأمانة؟ ظل وصمت ! هل اشتركوا أم لم يشتركوا فى اضطهاد أقاربهم المسلمين كما حدث لدى جميع قبائل قريش، وإذا لم يكونوا قد اضطهدوهم فما الذى حمل جعفرا إلى الهجرة إلى الحبشة؟ ظل وصمت! وإذا كان جعفر قد هاجر فرارا من اضطهاد قريش، لا من اضطهادهم، فلم لم يحموه كما حموا محمدا؟ ظل وصمت ! ماذا كان ردهم حين وجهت إليهم قبائل قريش الأخرى استجوابات بشأن حمايتهم لمحمد، وشرحت لهم أن هذه الحماية هى فى الواقع حماية للإسلام، هذا الدين الذى كان يمثل تهديدا خطيرا لمكة ولنظامها ومجتمعها ودينها ومستقبلها؟ ظل وصمت!

ومن أمثلة هذه الطريقة أيضا مثل فردى يتعلق بصمت النص بشأن عثمان. إن كون الرسول ﷺ قد زوج اثنتين من بناته لعثمان دليل على أن محبته له كانت لا تقل عن محبته لزوج ابنته الآخر، علىّ. وبهذه الصفة، ولأنه كان من أوائل الصحابة إيمانا بالرسول ﷺ فقدكان يستحق أن يخصص له ولو فقرة توضح السبب الذى قربه بهذه الدرجة إلى قلب الرسول، ولماذا حرص الرسول ﷺ على توثيق علاقته به بتزويجه ابنتيه. لكن النص يترك عثمان فى الظل ويلزم فى شأنه الصمت ذاته الذى لزمه حيال أغلبية المسلمين الساحقة.

أما طريقة الضوء والتفصيل فيصورها مثلان: جعفر فى الحبشة وإسلام عمر. ففى الحالة الأولى سلطت الأضواء على جعفر الذى يصوَّر على أنه المتحدث بلسان مسلمى الحبشة، والمندوب ذو الحظوة لدى النجاشى، وصاحب الفضل فى هدايته إلى الإسلام، والخصم الذى كانت له الغلبة على عمرو بن العاص. ومقالته مسجلة تسجيلا حرفيا،

بينما تركت أهم جوانب الهجرة فى الظل. والضوء والتفصيل فى حالة عمر مستخدمان لإبراز ماضيه غير المشرّف.

ظل وصمت إذن حين يتعلق الأمر بإخفاء أشياء قد تضر بمصداقية الكلام أو بصورة بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم، أو أشياء قد يكون فيها إبراز صورة شخصية أموية من أصحاب الرسول ﷺ، وضوء وتفصيل حين يتعلق الأمر بإعلاء شأن واحد من قبيلة عبدالمطلب أو الغض من شأن شخصية لا تنتمى إلى هذه القبيلة.

١٦- فيما يتعلق بالموضوعية، هناك تحيز فى مسألتين وفكرة مسيطرة، تصور اتجاه النص والمؤثرات التى خضع لها مؤلفه:

أ) تحيز يؤدى إلى ابتداع مناقب لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم، قبيلتى الخليفة العباسى الذى كتبت السيرة فى ظله. وهذا التحيز الذى لاحظناه فى الصورة التضخيمية التى رسمها لعبدالمطلب يظهر هنا فى الدور الذى يسنده إلى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى تأييد الرسول ﷺ وفى حمايته، وفى الخلال التى يعزوها إلى أبى لهب لتخفيف جريرته، وفى مسألة المقاطعة، وفى مناقشة جعفر مع عمر فى الحبشة، وفى هداية النجاشى إلى الإسلام.

ب) تحيز يغالى فى وصف أفضال أهل المدينة، وهو واضح:

- فى عديد من الأفكار المسبقة السيئة فى حق مسلمى مكة: الإيهام بقلة عددهم، وضآلة المساحة المخصصة لذكر فضلهم وما عانوه من آلام، والمحاولات الخفية التى ترمى إلى الغض من قدرهم؟

- فى كون النص لا يشير إلى أى انتشار للإسلام خارج حدود مكة ولا لأى هجرة سابقة على هجرة المدينة غير الهجرة إلى الحبشة. وسيظهر هذا التحيز بصورة أوضح فى الفصل الخامس.

جـ) فكرة مسيطرة مؤداها أنه لا نصر إلا النصر العسكرى وأن الفترة المكية، تبعا لذلك، لم يكن لها وزن كبير فى تاريخ الإسلام. وتلاحظ هذه الفكرة على الأخص فى قلة اهتمام النص بحالات اعتناق الإسلام، كما تلاحظ فى حقيقة أن حديث الفترة المكية، منذ بدء الرسالة حتى الهجرة، لا يمثل، من حيث عدد الصفحات، إلا ربع حديث الفترة المدنية، المخصص أساسا لحروب الرسول ﷺ. هذا بالرغم من أن الفترة المكية كانت أطول من الفترة المدنية، ومن أن ثلاثة أرباع آيات القرآن نزلت فى الفترة المكية طبقا لترتيب السور عند بلاشير.

وسنرى فى الفصل الخامس أدلة أخرى على وجود هذه الفكرة.

١٧- كل هذه العوامل: التحيز إلى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم والتحيز لأهل المدينة، والنزعة العسكرية، كانت جذورها ترجع إلى أسباب شخصية تتعلق بمؤلف السيرة الأصلى، وإلى أسباب أخرى هى المؤثرات السياسية وروح عصره:

أ) تنحصر المؤثرات الشخصية أساسا فى:

- كون ابن إسحاق ولد ونشأ وتعلم فى المدينة، التى كان أهلها وعلماؤها لا يزالون يحسون بالإحباط لأن أحدا من الأنصار لم يتولّ الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، وأن معظم المناصب العليا فى الخلافة تحت حكم الأمويين أسندت إلى قريشيين أو إلى عرب من غير أهل

المدينة. ويحسون أيضا بالكره للأمويين الذين جردوا ضد المدينة حملتين تأديبيتين لأنها عارضت فى مشروعية خلافتهم.

- كون ابن إسحاق من أصل فارسى، وكونه أنفق السنوات الأخيرة من حياته فى العراق (فارس) بلد جَدِّه، الذى كان معظم سكانه يتألفون من الشيعة والعباسيين المناوئين للخلافة الأموية.

ب) يمكن تحليل الأسباب السياسية وروح العصر على النحو الآتى:

- كون المؤلف كتب «سيرته» فى الفترة الأولى من الخلافة العباسية التى أسسها خلفاء العباس عم الرسول ﷺ (قبل أن ينقلبوا على الشيعة الذين حاربوا معهم ضد الأمويين) الذين كانوا يسوغون مشروعية خلافتهم بقرابتهم للرسول ﷺ.

- كونه عاش فى فترة جعلت فيها جيوش المسلمين حدود الإسلام تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسى مما ولد عند عامة المسلمين فكرة أن نصر الإسلام مرادف للفتوحات الإقليمية التى كانت بداياتها ترجع إلى الفترة المدنية.

هذه هى الاستنتاجات التى تستخلص من حديث الفترة الثالثة. وسنرى فى الفصل التالى ما إذا كان تحليل ما قيل من الشعر وما نزل من القرآن فى هذه الفترة يؤيدها أم ينقضها.

الفصل الرابع

الفترتان الثانية والثالثة «تابع»

الشعر والقرآن

سأتناول فى هذا الفصل عنصرين من عناصر الفترة الثالثة، هما: الشعر، والاقتباسات القرآنية، وهما عنصران مكملان لحديث الفترة المذكورة، وليس هناك مثلهما فيما يتعلق بالفترة الثانية. وسيشمل هذا الفصل أيضا نبذة سريعة عن القرآن الذى أنزل خلال هذه الفترة لمعرفة ما إذا كانت الصورة التى تتضح منه تطابق تلك التى يقدمها النص.

الفرع الأول- الشعر

ألف- ما قيل من شعر وتحليله

الإشارات الشعرية المتعلقة بهذه الفترة تتضمن:

- سبع قصائد لأبى طالب مجموع أبياتها مائة وسبعة وستون بيتا.
- قصيدة من خمسة وثلاثين بيتا لقيس بن الأسلَت.
- ثلاثة أبيات لحكيم بن أميَّة.
- ثلاث قصائد مجموع أبياتها خمسة عشر بيتا لعبدالله بن الحارث.
- قصيدة من خمسة أبيات لعثمان بن مظعون.
- قصيدتان مجموع أبياتهما أحد عشر بيتا لحسان بن ثابت.
- قصيدة من ثلاثة وعشرين بيتا لأعشى ميمون بن قيس بن ثعلبة.
- ست قصائد مجموع أبياتها سبعة وعشرون بيتا لأربعة شعراء، منهم حسان بن ثابت، تتعلق بنزاع بين أبناء الوليد بن المغيرة وثلاث قبائل.

ومن المهم هنا ملاحظة أن معنى ما يريد أن يقوله الشاعر فى هذا الشعر، كما فى معظم ما ورد فى السيرة من شعر، غير واضح أحيانا. ذلك أن هذا الشعر كثيرا ما يشير إلى أشخاص (لا تذكر إلا أسماؤهم الأولى)، أو إلى قبائل ليس لدى القارىء عنهم وعنها أية معلومات؛ وقد جَشَّم ابن هشام نفسه، بالنسبة لأطول قصائد أبى طالب، عناء استكمال الأسماء؛ لكنه لم يفعل ذلك بالنسبة لمعظم القصائد الأخرى، كما أنه لم يوضح الأحداث والظروف التى كان الشاعر يشير إليها.

وفى حالات أخرى غير قليلة نجد أن حروف بعض الكلمات غير يقينية، مما يؤدى إلى اختلاف معنى البيت من الشعر بحسب الطريقة التى تُقرأ بها إحدى كلماته، وقد اجتهد المحققون اللاحقون فى حل مشكلات الفهم التى تنشأ عن مثل هذه الحالات؛ لكنهم لم ينجحوا دائما فى استخلاص معنى محدد للأبيات الشعرية، أو مجموعة الأبيات التى تثير مشكلة.

وأخيرا فإن من المستحيل فى بعض الحالات، وهى لحسن الحظ قليلة، استخلاص معنى القصيدة، ومن ثم فإن تلخيص القصائد الذى سيجده القارىء فى الصفحات التالية تلخيص تقريبى أو ناقص.

١- أبوطالب

فيما يلى ملخص أشعار هذا العم من أعمام النبى ﷺ، مع تحليلها:

أ) القصيدة الأولى وتتكون من أحد عشر بيتا (*)، تلى مباشرة خبرا بأن أبا طالب رفض أن يأخذ أنهد فتى فى قريش وأجمله، وأن يسلم فى

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٧.

مقابله محمدًا ﷺ إلى قريش لتقتله. وأبوطالب يهجو فى هذه القصيدة عمرا، والوليد بن المغيرة، والمُطْعِم بن عَدِىّ، كما يهجو عبد شمس ونَوْفَل (وهما قبيلتان من بنى عبدمناف) لأنهما نبذتا قبيلته، ويحمل أيضا على تَيْم ومَخْزُوم وزُهْرة، الذين أظهروا العداء لذويه بعد أن كانوا لهم «مولى إذا بُغى النَّصْر». هل لهذا الهجاء والنقد صلة ما برسول الله ﷺ وبالحماية التى شمله بها أبوطالب؟ هذا شىء غير ظاهر. أولا، لأن اسم محمد ﷺ لم يرد فى هذه القصيدة، ثم لأن الشاعر لا يذكر السبب الذى من أجله قام النزاع بين عشيرته وبين الأشخاص الذين يشير إليهم.

ومن جهة أخرى، فإن النص لا يتحدث عن أى مسعى قام به أبوطالب لدى بنى عبد شمس ونوفل. ولا يشرح كذلك الأسباب التى حدت بتيم ومخزوم وزهرة إلى تغيير مشاعرهم حيال بنى هاشم.

ب) هذه القصيدة التى تتكون من سبعة أبيات (*) واردة بعد خبر يقول إن أبا طالب، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب، دعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبى لهب.

ويقدم النص هذه القصيدة بقوله: «فلما رأى أبوطالب من قومه ما سرّه فى جهدهم معه، وحَدَبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم، ليشدّ لهم، وليَحْدَبوا معه على أمره».

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٩.

يقول أبو طالب فى هذه القصيدة إن عبد مناف سرّ قريش وصَميمُها، وإن فى هاشم أشراف عبد مناف وقديمها، وإن هاشم إن فخرت يوما فإن محمداً هو المصطفى من سرّها وكريمُها.

وهو يقول كذلك إن قريشا غثُّها وسميتُها قد تداعت عليهم - أى على بنى هاشم - فلم تظفر وطاشت حلُومها. وهو يذكّر بأمجاد قومه الذين كانوا قديما يقيمون الظلامات، ويضيف:

بنا انتَعَش العُود اللَّواء وإنما   بأكنافنا تندى وتَنْمى أرُومُها

وهذه القصيدة تستخدم حيال القبيلة الأم، أى قبيلة بنى عبدمناف، لهجة تختلف عن تلك التى نجدها فى القصيدة السابقة. فليس فى هذه القبيلة لوم موجه إلى هذه القبيلة أو تلك من قبائل بنى عبدمناف. والنقطة الأساسية التى تبرزها هذه القصيدة هى النزاع بين بنى هاشم وقريش، ولم تقل القصيدة صراحة إن منشأ هذا النزاع هو محمد ﷺ.

ومحمد ﷺ مقدم كموضع فخر بنى هاشم، لكن ليس فى القصيدة أية إشارة إلى صفته ﷺ كنبى ورسول على الرغم من أن القصيدة تستخدم لوصفه، على ما فى ذلك من غرابة، لفظة «المصطفى» التى يستخدمها المسلمون أخذا عن القرآن حين يتحدثون عنه، ولا تشرح هذه القصيدة لماذا، ومحمد هو «المصطفى»، وهو الذى يشرّف بنى هاشم، لم يصدقه هؤلاء ولم يتبعوه؟

والقصيدة لا تقدم الرسول ﷺ على أنه فى قطيعة مع قبيلته، بل هى على العكس «تأخذه لحسابها» إن جاز هذا التعبير.

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن عبدالمطلب ليس له وجود فى قصيدة الفخر القبلى هذه، بين الشخصيات التى تعتز بها القبيلة، والتى

عدّدها ابنه ذاته. هذا فى الوقت الذى يصور فيه النص عبدالمطلب، كما رأينا، على أنه أجلّ أسلاف محمد ﷺ وأعظمهم قدرًا.

جـ) القصيدة الثالثة، التى يبلغ عدد أبياتها أربعة وتسعين بيتا (*)، قصيدة قدم لها النص بهذه الكلمات: «فلما خَشِى أبو طالب دَهْماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التى تعوّذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودَّد فيها أشرافَ قومه، وهو على ذلك يُخبرهم وغيرَهم فى ذلك من شعره أنه غير مُسْلم رسولَ الله ﷺ، ولا تاركه لشىء أبدا «حتى يهلك دونه». وأبوطالب، فى هذه القصيدة:

- يتحدث عن موقف القوم الذين لا وُدّ فيهم، والذين قطعوا كل العُرَى والوسائل معه ومع ذويه، والذين صارحوهم بالعداوة، وحالفوا قوما عليهم.

- يقول إنه صَبّر لهم نفسه بِسَمْراء (سيف) سَمْحة من تُراث المقاول (أى الملوك).

- يقول إنه أحضر عند البيت رَهْطَه وإخوته وأمسك بكسوته.

- يعوذ بَربِّ الناسِ من كل طاعن عليهم بسوء أو مُلِحّ بباطل. . «ومن مُلْحِق فى الدين ما لم نُحاول» (هكذا!).

- يتعوذ من أعدائه بالبيت، وبالله الذى لا يغفل عن شىء، وبالحجر الأسود، وبِمَوْطِىء إبراهيم فى الصخر رَطْبَة على قدميه حافيا غير ناعل، وبالأشواط بين المَرْوَتين والصَّفا، وبالمَشْعر الأقصى، وليلة الجَمْع أى المزدلفة، وبالجمرة الكبرى والحِصَاب (موضع رمى الجمار).

- يكذب ما أشيع من أن قومه سيتركون مكة.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٧٢ ـ ٢٨٠.

- يقول [1] :

كَذَبْتُم وبيتِ الله نُبْزَى محمدًا ولَمَّا نُطاعن دونَه ونناضل
ونُسلمه حتى نصرَّع حولَه ونَذْهَل عن أبنائنا والحلائل
ويَنْهض قوم فى الحديد إليكمُ نهوض الرَّوايا تحت ذات الصَّلاصل

- يفخر بشجاعة قومه فى القتال.

- يشرح الأسباب التى من أجلها لا يترك قَومُه محمدا، الذى يحوط الذمار، ويستسقى الغَمام بوجهه والذى هو ثمال اليتامى وعصمة الأرامل، والذى يلوذ به الهُلاَّف من آل هاشم.

- يهجو أشخاصا وقبائل عديدة، لاسيما بنى عبد شمس وبنى نوفل الذين كانوا يُؤلِّبون العدا على قبيلته ويطيعون أعداءها ولا يرْقُبون فيهم مقالة قائل.

- يفخر ببنى هاشم وينعى على بنى عبد مناف عقوقهم وخذلانهم بنى هاشم وتركهم فى المعاقل رغم صلة القربى التى تربطهم بهم.

- يثنى على محمد صلى الله عليه وسلم ويعبر عن مشاعره نحوه فى هذه الأبيات [2]:

لَعَمْرى لقد كُلِّفت وجدًا بأحمد وإخوته دَأبَ المُحِبّ المُواصل
فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها وزينا لمن والاه ربُّ المشاكل

---

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٧٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

فَمَنْ مِثْلُه فى الناس أىُّ مُؤَمَّل   إذا قاسه الحُكَّام عند التفاضل

حليمٌ رشيد عادل غيرُ طائش   يُوالى إلهـا ليس عنه بغافل

- يشرح السبب فى عدم اتباعه محمدا صلى الله عليه وسلم فى قوله(1) :

فوالله لولا أن أجىء بسُنَّة   تُجَرُّ على أشياخِنا فى المحافل

لكنَّا اتبعْناه على كل حالة   من الدهر جِدًا غير قول التهازل

لقد عَلموا أنَّ ابننا لا مُكَذَّبٌ   لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمدٌ فى أرومَة   تُقصِّر عنه سَوْرَةُ المُتطاول

- يؤكد حمايته له وثقته فى تأييد الله له، فى قوله(2) :

حَدِبْتُ بنفسى دونه وحَمَيْتُه   ودافعتُ عنه بالذُّرا والكلاكِل

فأيَّدَه ربُّ العباد بنَصْره   وأظهر دينا حقُّه غيرُ باطل

- يعيب على أُسَيْد (ابن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف)، وعلى بِكْرِه عتَّاب بن أسيد، أنهما حضَّا على بُغْضهم (أى بنى هاشم).

وعلى عثمان (بن عبيد الله، أخى طلحة بن عُبيد الله التَّيْمىّ) أنه أطاع أُبَىّ (بن الأخنَس بن شريق الثَّقفىّ، حليف بنى زُهْرة بن كلاب) وابن عبد يَغُوث، أنهم لم يرقبوا فيهم (أى فى بنى هاشم) مقالة قائل.

(1) ، (2) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

وعلى سُبَيْع (بن خالد، أخى بَلْحارث بن فِهْر) وعلى نوفل (بن خُوَيْلد بن أسد بن عبد العُزّى) أنهما توليا مُعْرِضَين، ويهدد بأن يكيل لهما صاعا بصاع.

وعلى أبى عمرو (بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف) أنه أبغض (بنى هاشم) وأنه يناجى بهم فى كل ممس ومصبح ولو أنه يحلف ببراءته.

وعلى أبى الوليد (عُتْبة بن ربيعة) بأنه يسمع قول الكاشحين (فى بنى هاشم) الحاسدين المبغضين.

و يُعَرِّض بنفاق أبى سفيان فى ثلاثة أبيات يقول فيها:

وَمَرَّ أبو سُفيان عنّىَ مُعْرِضًا ... كما مَرَّ قَيْلٌ من عظام المقاول

يَفِرُّ إلى نَجْدٍ وبَرْدِ مياهِه ... ويزعمُ أنى لسْتُ عنكم بغافِل

ويُخبرنا فعلَ المُناصِحِ أنه ... شَفيقٌ ويُخْفِى عارمات الدَّواخل

و يذكّر مُطْعِم (بن عدى بن نوفل بن عبد مناف) بأنه لم يخذله فى يوم نجدة ولا يوم خصم إذا أتَوْهُ ألدّة أُولى جَدَل من الخصوم.

ويدعو على عبد شمس ونوفل بأن يجزيهم اللهُ عُقوبة شر عاجلا غير آجِل.

ويهاجم أولئك الذين فَضَّلُوا بنى خَلَف والغَياطل (من بنى سَهْم بن عمرو بن هُصَيص، وأبى سفيان بن حرب بن أمية، ومُطْعِم بن عَدِىّ بن نَوْفَل بن عبد مناف) ومخزوم، الذين تَمَالَوْا وألّبُوا (على بنى هاشم) العدا من كل طِمْلٍ وخامل.

ويقـول إن بنى نوفل «شـر من وطىء الحصـى والأم حاف من مَـعَدّ وناعِل».

ويتجـه إلى بنى عبـد مناف قائلا إنهـم خير قـومهم وينصحـهم بألا يشركوا غيرهـم فى أمرهـم ويسجل عليهم وَهَنَهم وعَجْزَهـم وكونهم جاءوا بأمر مخطىء.

ويذْكر قُـصيّا، الأب الأكبـر لقبيلـته، ويبشـره بأن أمرهـم سيتـشر. وبأنهم «نسل كرام لسادةٍ بهم نُعِي الأقوام عند البَواطل».

وتثير هذه القصيدة الملحوظات الآتية:

١) هى تتناول مـوضوعـا تناولته القـصيـدتان الأولى والثانيـة، وهو موضوع عداء قريـش لقبيلة أبى طالب وتتوسع فيه، وإلـى أسماء عمرو (ابن هشام بن المغيرة)، والوليد (بن المغيرة)، والمُطْعِم (بن عدى بن نوفل ابن عبـد مناف)، وإلى قـبائل بنى عـبد شمـس، ونوفل (من بنى عـبد مناف) وتَيْم ومَخْزُوم وزُهرة، ممن وردت أسماؤهم فى القصيدة الأولى، تضيف هذه القـصيدة أسماء أُسَيْد (مـن قبيلة أمية بن شمـس)، وعثمان (ابن عبيد الله من بنى تميم)، وقُنْفد (ابن عُمير بن تَيْم)، وأُبَيّ (الأخنس ابن شريق الثَّقَفى)، وابن عبد يغـوث (وَهْب بن عبد مناف)، وسُبَيْع (بن خالد، أخا بَلْحارث بن فِهْر)، ونـوفل (بن خُوَيلد بن أسد)، وأبا عمرو (من بنى نوفل بن عبد مناف)، وأبا الوليد (عُتْبَة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبدمناف)، وأبا سفيان، وقـبائل سَهْم ومخزوم وكلاب. وقد وردت أسماء المُطْعِم وقبيلتى عبد شـمس ونوفل أكثر من مرة فى هذه القصيدة. وورد فى القصيدة أخيرا أن نوفلا شرَ من وطىء الحصى.

٢) حديث الفترة في السيرة - كما ذكرت في التعليق على القصيدة الأولى ـ لا يفسر وجود ولا أسباب عداء الأشخاص والقبائل التي تذكر القصيدة أسماءهم حيال قبيلة الشاعر، ولا الظروف التي جعلت بني عبد شمس وبني نوفل ينشقون على بني هاشم الذين ينتمون مثلهم لقبيلة بني عبد مناف.

صحيح أن الشاعر يعلن أن ذويه لن يسلموا محمدا أبدا، لكن العلاقة بين موقف هؤلاء الأشخاص وهذه القبائل، وحقيقة أن بني هاشم يرفضون تسليم محمد ليست واردة في القصيدة بصورة واضحة. كذلك فإن معظم الأشخاص والقبائل الواردة أسماؤهم في القصيدة لم يرد لهم ذكر في حديث الفترة، ولم يكونوا بالتالي ممن طلبوا تسليم محمد إليهم.

على أنه مما لا يخلو من أهمية أن أذكر أن ثلاثة من الأشخاص الاثنى عشر الذين أشار إليهم الشاعر، وهم أُسَيْد وعُتبة وأبوسفيان، ينتمون إلى قبيلة الخليفتين اللاحقين عثمان بن عفان ومعاوية، وأن رَهْط نُفَيل، «شَرّ من وطيء الحصَى» هي قبيلة عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين.

٣) هذه القصيدة تطرى محمداًﷺ كما أطرته قصيدة أبي طالب الثانية، وتزيد في إطرائه. وصفات محمد التي تبرزها هي كونه لا مثيل له في التأسي به، وكونه في أرومة لا تُطاول، وكونه رجلا مبروكا، يحوط الذمار ويحوط به الهُلاَّف من آل هاشم.

ويقول الشاعر إنه كَلِف به وَجْدًا وإنه - أي محمد ﷺ - في الدنيا جمال لأهلها، ويضيف إنه حَدِب بنفسه دونه وأنه حماه ودافع عنه، وهو قول نجد في النص ما يقابله في الواقع. أما صفاته كسيد وكرجل لا

مشيل له، يحيط به الهُلاف من آل هاشم ويفخر به بنو هاشم، فلا تتمشى وصورة الرجل المحمى التى وردت فى النص.

والواقع أن محمدًا ﷺ لا يظهر فى أى منظر من المناظر التى يصورها النص كرئيس وسيد أو كشخصية عظيمة من شخصيات بنى هاشم، ولو أنه كان كذلك لاتبعه الكثيرون من أفراد قبيلته، ولما فات الشاعر أن يسجل ذلك فى قصيدته. والحاصل أن الشاعر لا يتحدث عن مسلمين بين بنى هاشم.

٤) أكثر من ربع القصيدة مخصص لذكر الأماكن المقدسة، والشاعر يذكر هذه الأماكن بعد حديثه عن زيارة يقول إنه ورهطه وإخوته قاموا بها حين قطع قوم من قبيلته الكبرى كل العرى معهم، وصارحوهم بالعداوة والأذى، وحالفوا قوما عليهم.

والشاعر يتحدث عن نفسه فى هذا الجزء من القصيدة كما لو كان سيد بنى هاشم، الأمر الذى لا يؤيده النص إطلاقا. كذلك وردت فى هذا الجزء من القصيدة عبارة «قل أعوذ برب الناس»، وهى منقولة بالحرف عن أولى آيات سورة الناس، الأمر الذى يبدو غريبا فى لغة شاعر وثنى.

وهذه الأبيات تذكّرنا بتلك التى أنشدها عبدالمطلب ودعا الله فيها على أبرهة، وهو ممسك فى يده بحلقة باب الكعبة وبإصرار النص المتعلق به على وصفه؛ وهو يذهب إلى الكعبة، ويدعو الله كلما حزبه أمر.

والمؤلف يهدف، كما هو واضح، إلى إبراز أبى طالب وإخوته ورهطه لا كجماعة من عبدة الأوثان رفضوا فى جملتهم دين محمد ﷺ ، لكن كقوم أتقياء بطريقتهم الخاصة، يشتركون مع محمد ﷺ فى توقير الكعبة والأماكن المقدسة، وفى إقامة جميع شعائر الحج. ويعزز هذه النية تأكيده

أن محمداً عند الشاعر «غير مكذَّب» فالخلاف فى العقيدة بين بنى هاشم ومحمد ﷺ، فيما يبدو أن القصيدة توهم به ليس شاسعا، وبنو هاشم لم يكونوا، فى آخر المطاف، كفاراً حقيقة.

٥) تذهب القصيدة إلى أبعد من هذا : إنها تعترف بأن الله ليس بغافل عن محمد ﷺ، وأنه أيده بنصره «وأظهر دينا حَقُّه غيرُ باطل»، هذا الدين الذى كان أبوطالب على استعداد لاتباعه، لولا خشيته أن يحرج أشياخ قبيلته.

ويلاحظ هنا أن الأسباب التى من أجلها تحرَّز أبوطالب من اعتناق الإسلام فى هذه القصيدة تختلف عن تلك التى سبق ذكرها فى النص؛ لكن هناك ملاحظة أهم من ذلك، وهى أن من غير المعقول أن يكون أبوطالب قد عبر عن رأيه هذا فى أبيات معدة للإذاعة، لأنه يعنى أنه اعتنق الإسلام حُكْما؛ فالإسلام لا يقتضى لدخوله إجراءً رسميا أو إشهارا علنيا.

٦) أخيراً، فإن الشاعر يؤكد أن قبيلته لن تترك مكة أبدا، وهذه معلومة لا تتصل بأى خبر فى النص.

لجميع هذه الأسباب، فإن هذه القصيدة المنسوبة إلى أبى طالب تكتمل لها كل مظاهر الانتحال، وهذا هو أيضا رأى بعض أهل العلم بالشعر الذين رجع إليهم ابن هشام والذين أنكروا أكثرها.

د) بعد أن ساق النص الخبر المتعلق بالقرار الذى اتخذته قريش بإيفاد رجلين من قريش إلى النجاشى ليرد المهاجرين المسلمين إلى مكة، قدم القصيدة الرابعة لأبى طالب بهذه الكلمات : «فقال أبوطالب، حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه، أبياتا للنجاشى يحضُّه على حسن جوارهم والدَّفْع عنهم» وهذه هى الأبيات (*):

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

ألا ليتَ شعرى كيف فى النأى جَعْفَرٌ   وعـمرو وأعـداء العـدو الأقـاربُ

وهل نالت أفعال النجـاشىّ جعفرا   وأصـحـابَه أو عـاق ذلك شـاغب

تَعلَّـمْ، أبيت اللَّعـن، أنك ماجـدٌ   كـريمٌ فلا يَـشْقـى لديك المُجـانب

تَـعـلَّـمْ بـأن الله زادك بَـسـطَـةً   وأسـبـابَ خيـر كـلُّهـا بك لازب

وأنَّك فـيـضٌ ذو سِـجَـال غـزيرةٍ   ينـال الأعادى نـفعَـهـا والأقـارِب

ومن الغريب أن يكون أبو طالب قد خـاطب نجاشى الحبشة، الذى لا يعرف العربيـة ولا الـشعر العربى، بأبيات من الشعـر. ولا يذكر تقديم هذه القصيدة ما إذا كانت هذه الأبيات قد وصلت إلى أسماع من وجهت إليه، كما لا يصف الأثر الذى تركته فى نفسه.

هـ) بعد أن تحدث الـنص عن القرار الذى اتخذته قريش بمقـاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب، والذى سجلته فى صـحيفة عُلقت فى الكعبة، قدم قصـيدة أبى طالب الخامسة بهـذه الكلمات : «فلما اجتـمعت على ذلك قريش، وصنعوا فيه الذى صنعوا، قال أبوطالب» فى هذه القصيدة التى تتكون من خمسة عشر بيتا (*):

ألم تَعْـلمـوا أنا وَجَـدنا مـحمـدًا   نبيـا كموسى خُـطَّ فى أول الكُتْب

وأن علـيـه فى الـعـبـاد مـحبـةً   ولا خـيـر ممن خـصّه الله بـالحُبّ

وأن الكتـاب الذى ألصقوه (والإشـارة هى إلى لؤى بن كعب) سـيكون نحـسا عليـهم، ويدعوهم بحـرارة إلى عدم اتبـاع الوشاة، وعـدم قطع

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

الأواصر بعد المودة والقـرب، وألا يستجلبوا الحرب الـعوان، فإن جلب الحرب مرير على من ذاقه. ويضيف:

فلسنا وربِّ الـبيت نُسلمُ أحـمدًا   لعزَّاءَ من عضِّ الـزمان ولا كَرْب

ويقول فى هذه القصـيدة إن قومه سيدافعون عنـه بالسيوف والحرب، فإن أباهم هاشما أوصى بنيه بـالطِّعان وبالضرب، وهم لا يملّون الحرب حتى تملهم.

وهذه القصـيدة تكرر ما أعلنته القـصيدة الثالثـة من رفض بنى هاشم تسليم مـحمد، وأنهم علـى استعداد للمـنافحة عنه بالـسلاح. على أن سؤال: «ألم تعلموا أنا وجدنا محمـدًا نبيا كموسى خطّ فى أول الكتب» الموجه إلى بنى كـعب يستحدث، للمـرة الأولى، اعترافا صريحـا بنبوة محـمد ﷺ وبأول الكـتب. والأمر الغـريب هنا هو أن هذا الاعـتراف المزدوج، الذى يشكل اعـتناقا للإسلام، أى حدثا على أقـصى درجة من الأهمية، بـالنسبة للقبـيلة، لا يشغل، فى أبيـات هذه القصيدة الخـمسة عشر، سوى بـيت واحد، وأن الصفة الوحيـدة فى هذا النبى التى تقف عندها القصيدة، هى أنه موضع محبة الله والعباد، لا تحتلّ بدورها سوى بيت واحد.

أخيرا فإن الشـاعر لا يخصص إلا بيتا واحدا للكتـاب الذى ألصقته كعب والذى سـيجّر عليها النـحس. أى كتاب؟ لا إجابة فى القـصيدة. والقصيدة، كما هى، تثير عدة تساؤلات:

١) كيف يمكن التوفيق بين اعتراف القبيلتين اللتين يتحدث أبو طالب باسمهما بصفة محمد ﷺ كنبى وبأول الكتب، وبين الحقيقة التى يقررها

النص، وهى أن أبـا طالب رفض أن يُسْلم، وكـون النص لم يـذكر أن أحدا منهما ما عدا عليا وجعفرا وحمزة، قد دخل فى الإسلام؟

٢) وإذا كان صـحيحا- كـما يوحى به النص- أن السـبب الذى من أجله قطعت كـعب الأواصر مع بنى هاشم إنما هو اعتـراف هؤلاء بنبوة محمد ورفضهم تسليمه، فأين الوشاية هنا؟

٣) كيف يمكـن تفسير أن قصـيدة أبى طالب لم تشـر إلى أى تهديد صادر من قريش إلـى أبى طالب بحربه إن لم يسلم لهم مـحمدًا ﷺ، وأن قبيلته هى، على العكس، التى تهدد باللجوء إلى الحرب للدفاع عن محمد، مع أن النص لا يشير إلى مثل هذا التهديد؟

٤) كيف للمرء أن يفهـم أن قصيدة قيلت بعد تطبيق مـقاطعة تهدف إلى خراب بنى هاشم مـباشرة لا تخصص لحدث فى مـثل هذه الأهمية سوى بيت واحد، وأنها تـخصص أكثر من عشرة أبيات للفـخر والهجاء والتهديد بامتشاق السلاح؟

و) والقصيدة السادسة من شـعر أبى طالب واردة فى النص بعد قصة أبى سَلَمة (*) . لقد كان هذا الصحابى، من بنى مَخْزوم، وزوجه، بين المسلمين الذين هاجـروا إلى الحبشة. وقد استجار أبا طالب، فـيما يقول النص، لدى عـودته إلى مكة؛ فـمشى رجـال من بنى مخـزوم إلى أبى طالب فقالوا له: يا أبا طالب، لقد منعت منّا ابن أخيك محمدًا، فمالكَ ولصاحـبنا تمنعهُ منّا؟ قال إنـه استجار بى، وهو ابـن أختى، وإن أنا لـم أمنع ابن أختى لمْ أمنع ابن أخى، فقام أبولهـب فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، مـا تزالون توثّبون عليه فى جواره من

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

بين قومه، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه، حتى يبلغَ ما أراد، فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عُتْبة، وكان لهم وليا وناصرا على رسول الله ﷺ، فأبْقَوا على ذلك، فطمع فيه أبوطالب حين سمعه يقول ما يقول، ورجا أن يقوم معه فى شأن رسول الله ﷺ، فقال أبوطالب يحرض أبا لهب على نُصرته ونُصرة رسول الله ﷺ :

وإنّ امْرأ أبو عتيبة عمُّه ... لفى رَوْضة ما إن يُسامُ المظالما

أقول له، وأين منه نصيحتى ... أبا مُعْتب ثَبِّت سوادَك قائما

ولا تقبلنّ الدهر ما عشتَ خُطة ... تُسبّ بها إما هبَطت المواسما

ووَلّ سبيل العَجْز غيرك منهمُ ... فإنك لم تُخلَق على العَجز لازما

وحاربْ فإن الحربَ نُصْفٌ ولن ترى ... أخا الحرب يُعطَى الخَسف حتى يُسالما

وكيف ولم يجنُوا عليك عظيمةً ... ولم يخذلوك غانما أو مُغارما

جَزَى اللهُ عنَّا عبد شمس ونَوْفَلا ... وتَيْما ومَخْزوما عُقوقا ومأثما

بتَفريقهم من بعد وُدٍّ وأُلفَةٍ ... جماعتنا كيما ينالُوا المحارما

كذبتم وبيت الله نُبزَى محمدًا ... ولما تَرَوْا يوما لدى الشِّعب قائما

يكرر الشاعر هنا تأكيدا ورد فى قصيدتين سابقتين مؤداه أنهم - هو وقبيلتاه - لن يسلموا محمدًا ﷺ . وهو يكرر أيضا حملته على بنى عبد شمس وبنى نوفل وبنى تَيْم وبنى مَخْزُوم، التى ظهرت فى القصيدة الأولى، وأيضا، فيما يتعلق ببنى عبد شمس ونوفل، فى القصيدة الثالثة، كما يكرر اتهامها بتفريق جماعتهم. والعنصر الجديد الوحيد الوارد فى القصيدة الراهنة هو ثناء الشاعر على أبى لهب، فى قوله:

«وإن امرأ أبو عتيبة عمه لفى روضــة ما أن يسام المظالما»، والنصيحة التى أزجاها له بإظهار الحزم تجاه الآخرين وبالمحاربة فى صفّ ذويه.

والصورة التى تعـطيها القصـيدة عن أبى لهب غير متناسقة: فبـينما توحى الأبيات الأولى بـأنه شخص شديد البأس، لا يـخشى المرء الذى هو عمه أن يســام المظالم، تصوره الأبيات الأربعة التالـية بصورة الرجل الضعيف الذى يتحاشى المعارك، والذى يـسهل التأثير عليه. وهى صورة ليست سلبية تماما. والواقع أن القصيدة تكاد تقول إن أبا لهب إن كان قد أثم، فإن اثمــه يرجع إلى كونه كان مـجاملا أكثـر من اللازم، وأنه ترك نفسه فى يد قوم كان كل همهم إضعاف قبيلته، وأنه لم يكن ميئوسا منه بدليل أن أخاه كان يطمع بأبياته فى جعله يغير معسكره. والنص لا يذكر ماذا كان رد فعل أبى لهب إزاء هذه الأبيات.

والواضح أن هذه القصيدة تهدف إلى أمرين:

الهدف الذى تتـوخاه معظم القـصائد المنسوبـة إلى أبى طالب، وهو تأييد الدعوى التى يقدمـها النص، والتى تذهب إلى أن أبا طالب ووراءه بنو عـبدالمطلب وبنو هـاشم منعوا الرسـول ﷺ، وهدف تخفـيف وقر الإدانة الرهيبة التى أصدرها القرآن فى حق أبى لهب.

وهناك نقطة فرعية يمكن إبداؤها بشأن هذه القصيدة هى المناسبة التى قيلت فيهـا: إن الحجة التى رد بها الشاعر على بنـى مخزوم الذين قالوا له: «لقد منعت منا ابن أخـيك محمدا، فما لك ولصاحـبنا تمنعه منا»، وهى قوله: «إن أنا لـم أمنع ابن أختى لـم أمنع ابن أخى» حجة واهية فى النظام القبلى عند العرب، الذى يرجح القرابة من جهة الأب على القرابة من جهة الأم.

ز) وقصيدة أبى طالب السابعة (*) تلى مباشرة الخبر الوارد فى النص بشأن اتفاق خمسة من سادة قريش على تمزيق صحيفة المقاطعة المعلقة فى الكعبة، واكتشاف أن الأرضة قد أكلتها.

ويقدم النص لهذه القصيدة بالكلمات الآتية:

«فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها، قال أبو طالب، فيما كان من أمر أولئك النفر الذين قاموا فى نقضها يمدحهم».

وتتكون القصيدة المذكورة من خمسة وعشرين بيتا يخاطب الشاعر فيها «بَحْرِيِّنا» أى من كان هاجر من المسلمين إلى الحبشة فى البحر، ويخبرهم بأن الصحيفة التى «تراوحها إفك وسحر» قد مزقت.

وهو يذكّر بأمجاد قبيلته التى نشأت بمكة والناس فيها قلائل؛ فما انفكوا يزدادون خيرا ويحمدون، ويفخر بعزتهم وكرمهم، وهو يكيل الثناء للرهط الأشراف الذين التقوا بالحَجُون (قرب مكة)؛ وينعتهم بأجمل الأوصاف: فهم المقاولة، أى الملوك، وكلهم سيد وابن سيد، وهم صقور، وهم شُهُب، وعلى وجوههم يسقى الغمام ويسعد. . . إلخ. وهو قرير العين بهذا الصلح، ويرى أن سهل بن بيضاء وأبا بكر ومحمدا سيسرون به.

إن جزءا كبيرا مما ورد فى هذه القصيدة مما يصعب فهمه. والشاعر يتحدث فيها عن صحيفة وعن صلح لكن شيئا فى القصيدة لا يشير إلى المقاطعة. كذلك فإن القصيدة لا تذكر اسم واحد من الأشخاص الخمسة الذين يقول النص إنهم اشتركوا فى نقض المقاطعة. والقصيدة لم يرد فيها، فضلا على ذلك، اسم شخص من الأشخاص أو قبيلة من القبائل

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٧٨ ، ٣٨٠ .

التى دعت إلى فرض المقاطعة أو إلى تطبيقها، أو إلى قبيلة من القبائل التى وردت أسماؤها فى القصائد الأخرى.

أخيرا فليس فى القصيدة أى بيان يتعلق بمدّة المقاطعة، ولا وصف للظروف الذين أحاطت ببنى عبدالمطلب وبنى هاشم خلالها، ولا بأى حادث حدث بمناسبتها، ولا بأية نتيجة ترتبت عليها بالنسبة لمن فرضت عليهم أو لمكة.

ملحوظات:

شعر أبى طالب، فى مجموعه، يثير الملحوظات الآتية:

أـ عدم صحة القصيدة الثالثة التى هى أطول قصيدة، لا فى الفترة المكية وحدها، بل أيضا فى السيرة كلها، دليل لا يقبل إثبات العكس على وجود محاولات، فى الفترة التى كتب فيها النص، لتزييف السيرة عن طريق انتحال الشعر، وقد رأينا مثلا لهذا الانتحال فى القصائد الست المنسوبة لبنات عبدالمطلب. وهناك أمثلة أخرى عديدة له فى السيرة أشار إليها ابن هشام بعد الرجوع إلى أهل العلم بالشعر؛ لكن المرء ليس محتاجا لأن يكون من أهل العلم بالشعر أو لأن يعيش فى زمن المؤلف للحكم على صحة القصائد التى لم يبد خبراء الشعر فى عصر ابن هشام تحفظات بشأنها.

إن مقارنة القصائد بعضها ببعض، ومقارنتها بما جاء فى النص من أخبار ومعطيات، وتطبيق نتائج تحليل النص عليها، تسمح فى كثير من الحالات بتمييز الصحيح والمنتحل فيها. وإذا طبقنا هذه المعايير على شعر أبى طالب، فإننا نلاحظ أن معظم الموضوعات التى تناولتها القصائد الأولى والثانية والخامسة والسادسة والسابعة (وباستثناء القصيدة الموجهة

إلى النجاشى) واردة، مع فروق طفيفة، فى القصيدة الثالثة التى تمثل، من حيث طولها ٥٦ فى المائة من شعر أبى طالب كله؛ فإذا كانت هذه القصيدة منحولة فى معظمها، فللمرء، على الأقل من حيث المبدأ، أن يعتبر أن القصائد الأخرى التى تعالج الموضوعات ذاتها بالطريقة نفسها منحولة بدورها. وعلى هذا:

١) يمكن القول إن القصيدة الخامسة منحولة، لأن معظم مكوناتها (نبوة محمد ﷺ، وتأكيد أن (بنى هاشم) لن يسلموا محمداً، والحملة على بنى كعب بن لُؤَى، أى على قريش) وارد فى القصيدة الثالثة، وهى قرينة يعززها أولا أن أبا طالب، الذى يقول النص إنه رفض دعوة ابن أخيه إلى الإسلام حتى نهاية أيامه، لايمكن أن يكون قد اعترف بنبوة محمد ﷺ، ويعززها ثانيا ما ذكرته فى الفصل السابق من أن قريشا ما كان يمكن، طبقا للنظام القبلى السائد، أن تطلب من قبيلتى الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسلماه لهم، وأن قريشا لم تقدم مثل هذا الطلب، أى طلب التسليم، لأى من القبائل الأخرى، وأن محمداً ﷺ لم يكن بحاجة إلى حماية وأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، الذين كانوا كفارا، وكانوا يضطهدون المسلمين، ما كان يمكن أن يحموا محمداً ﷺ، وأنه ﷺ لو كان محتاجا إلى حماية بشرية، لتوافرت له حماية أصحابه رضوان الله عليهم، الذين آمنوا بدينه والذين كانوا أكثر عددا من بنى هاشم.

٢) حملة النقد ضد قريش، التى هى موضوع القصيدة الوحيد، والتى نجدها فى جميع قصائد أبى طالب الأخرى تقريبا، تستند إلى دعوى حماية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسول التى أوغرت ضد هاتين القبيلتين صدور قبائل قريش الأخرى. ونظرا إلى أننى أوضحت بطلان هذه الدعوى، فإن الحملة المذكورة تفتقد أساسها.

ب) لو أن أبا طالب كان حقا الشاعر الذى يقدمه النص لكان مدحُ بنى عبد مناف وبنى هاشم الذى نجده فى القصائد الثانية والثالثة والخامسة والسابعة شيئا يتفق وأغراض الشعر العربى التقليدية؛ لكن غرض هذه القصائد مرتبط فى الواقع بالخطة الشاملة التى تهدف إلى إعلاء شأن بنى هاشم، قبيلة الخليفة العباسى، والغض من قدر القبائل المكية، فى مجموعها، على اعتبار أنها القبائل التى اتخذ منها الخلفاء القرشيون الثلاثة الأول وخلفاء بنى أمية أعوانهم الرسميين؛ لذلك اقترن مدح بنى هاشم، فى كل ما أسند إلى أبى طالب من شعر، بذم قبائل قريش الأخرى.

جـ) القصيدة السادسة (مدح أبى لهب وهجاء قبائل قريش و«كذبتم وبيت الله نبزى محمداً») يمكن اعتبارها، هى الأخرى، منحولة وذلك للأسباب التى ذكرناها أعلاه فيما يتعلق برفض قوم الشاعر تسليم محمد ﷺ وهجاء قريش، ثم لشبهة أن يكون هدف القصيدة هو تبرئة ساحة شخصية من شخصيات بنى هاشم - أى أبى لهب - التى يثقلها المصير الفظيع الذى أعلنه القرآن. وهذه الوقائع تماثل معطيات أخرى سبقت الإشارة إليها، ومعطيات ستظهر بمعرض دراسة الاقتباسات القرآنية المتعلقة بهذه الفترة.

د ـ أما القصيدة الرابعة، الموجهة للنجاشى، فهى لا تتناول موضوعا من الموضوعات التى تناولتها القصيدة الثالثة. والملحوظات التى أبديت بشأنها توضح أن احتمالات الوضع فيها كبيرة. وأستطيع هنا إضافة أن أبا طالب لو كان شاعرا حقيقة، وأن قريشا لو كانت هى - لا قبيلته - التى اضطرت جعفرا إلى الهجرة، لنظم فى صدد هذه الهجرة، التى كانت تمسه شخصيا، قصيدة من أطول وأعظم قصائده: قصيدة تذكر على التحديد أسماء الأشخاص أو قبائل قريش المسئولة عن رحيل ابنه،

والأشخاص الذين دفع اضطهادهم جعفرا إلى الهجرة، والخطر الذى كان يتعرض له لو أنه لم يهاجر، والجهود التى بذلها أبو طالب نفسه لحماية ابنه، وتجنيبه هذه القفزة فى المجهول، وتلك التى بذلها إخوته، أعمام جعفر، أو سادتها وشرفاؤها للغرض نفسه؛ والأسباب التى أدت إلى فشل تلك المساعى، وموقف أخيه أبى لهب، الذى كان قريبا من مراكز القرار القرشية، قبل هجرة جعفر وبعدها، ومنظر وداع جعفر الذى تتقطع له نياط القلوب، والمشاعر التى هاجت فى نفس أبيه ولدى أسرته وإشفاقهم من رحيله إلى أرض غريبة لا يعرف لغتها ولا أهلها، وأساهم الشديد لانقطاع أخباره، وما إلى ذلك.

والحاصل أن النص لا يورد أية قصيدة تسجل الحدث من هذه الزاوية. لهذا فأغلب الظن أن هذه القصيدة لم توضع إلا ليبقى فى شعر أبى طالب المزعوم أثر للهجرة إلى الحبشة.

هـ) بقى موضوع كلمة «كتابكم» فى البيت الذى يقول:

وأن الذى ألصقتمُ من كتابكم لكُم كائن نحسا كَراغية السَّقْبِ

فى القصيدة الخامسة، وكلمة «الصحيفة» فى القصيدة السابقة. هذا أيضا موضوع لم تطرقه القصيدة الثالثة. وهاتان الكلمتان لا تعرّفان فى الواقع شيئا محددا. علاوة على ذلك فإن «الصحيفة»، طبقا للنص، كما رأينا، لم تمزق وإنما أكلتها الأرضة.

والانطباع العام الذى يخرج به المرء من كل هذه القصائد، التى تمثل ٤٢ فى المائة من الشعر المنسوب إلى أبى طالب هو أنها، شأنها فى ذلك شأن القصيدة الثالثة، تحمل علامات واضحة على التزوير. وهناك دلالتان تقويان هذا الانطباع:

١) أن أبا طالب لم يمدح أباه ذاته، ولا أخاه حمزة ذاته، ولا قبيلته ذاتها، أى قبيلة بنى عبدالمطلب، مع أن المفروض أن يكون هؤلاء فى مقدمة من يذكرهم فى معرض المدح والفخر.

٢) أن شعر أبى طالب منحصر فى الفترة الثالثة، فالنص لا يورد أية قصيدة له فى الفترتين الأولى والثانية ولا خلال السنوات الأربعين ونيف التى عاشها الرسول ﷺ قبل مبعثه، ولا خلال حياة أبيه عبد المطلب، مع أن حياة هذا الأب ووفاته كانت، طبقا للنص، حافلة بالعظمة والأعاجيب وجلائل الأعمال، وأن مشاعر التوقير والمحبة التى كان ابنه يكنها له ولا ريب كانت قمينة بإلهام أى شاعر مطبوع.

ويلاحظ أخيرا أن محتوى القصائد المذكورة ينطوى على اختلافات توحى بأنها ليست من وضع شخص واحد. وأبرز مثل على هذا هو ذلك الذى يتعلق ببنى عبد مناف، الذين يُمدحون جملة فى إحدى القصائد ويلامون على تفرقهم وانقسامهم فى قصائد أخرى.

٢. باقى الشعراء :

أ ـ فى قصيدة من خمسة وثلاثين بيتا (*) يتجه الشاعر أبو قَيْس بن الأَسْلَت إلى بنى لُؤَىّ بن غالب (إحدى قبائل قريش الكبرى) ويذكّرهم بالله ويدعوهم ، كصديق يعيذهم بالله، إلى أن يذروا الحرب التى تقطع أرحامهم ويُخشى أن تهلكهم. كما يطلب منهم أن يعتبروا بحربى داحس وحاطب وبالخراب الذى تسببتا فيه، ويهيب بهم أن يبيعوا حرابهم وأن يذكروا حسابهم عند الله. وهو يعبر عن أمله، وهم للناس نور وعصمة وموئل أصحاب الحاجات، فى أن يقيموا للناس دينا حنيفا، ويحثهم على القيام والصلاة لربهم والتمسح بأركان البيت، ويتحدث عن «ذى

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٦ .

العرش» الذى رد مليك الأحباش، فـولوا سراعا هاربين، ولم يقرب إلى أهله منه غير عصائب.

يقول النص فى تقديم هذه القصيدة إن الشاعر كان يحب قريشا وكان لهم صهـرا، وإنه كان يقيم عندهـم السنين بامرأته، ويضـيف إنه يعظم بقصيدته الحُرمة وينهى قريشـا عن الحرب، ويأمرهم بالكفّ بعضهم عن بعض، ويذكرهم فـضلهم وأحلامهم، ويأمرهـم بالكفّ عن رسول الله ﷺ، ويذكرهم بلاء الله عندهم، ودفْعَه الفيل وكيده عنهم.

والملاحظ أن ما جاء فى تقديم القصيدة من أن الشاعر يأمر قريشا بالكف عن رسول الله ﷺ غير واضـح من عبارتها. كذلك فإن هذا القـول يناقضه خبر آخر لاحق سيتضح فى دراستنا للفترة الخامسة مؤداه أن هذا الشاعر ذاته قد منع عشائر أمية بن زيد وخطمه ووائل وواقف من اعتناق الإسلام.

ب) قصيدة من أربعة أبيات (*) يقول فيها حكيم بن أمية بن حارثة، حليف بنى أمية، وقد أسلم:

هل قـائـلٌ قولا هـو الحق قـاعـدٌ ... عليـه وهل غضبـانُ للرشْد سـامعُ
وهل سَـيِّد ترجـو العـشيـرةُ نَفْعَـه ... لأقـصى الموالى والأقـارب جـامعُ
تبـرأتُ إلا وجه مَنْ يمـلك الصبَّـا ... وأهجـرُكم مـا دام مُـدْلٍ ونـازع
وأسْلِـم وجهـى للإلــه ومنْطـقى ... ولو راعـنى مِـنَ الصـديـق روائع

يقـول النص فى تقـديم هذه القـصيـدة إن الشاعـر يروِّع قـومه (أى يصرفـهم ويردهم) عما أجمـعوا عليه من عـداوة رسول الله ﷺ، وكان فيهم شريفا مطاعا. وهذا تفسير مفتعل للقصيدة، التى لم يذكر فيها اسم الرسول ﷺ.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٨٩ .

جـ) ثلاث قصائد (*)، اثنتان منها من ستة أبيات، والثالثة من ثلاثة أبيات، لعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدىّ بن سعد يقول الشاعر فى أولاها:

ياراكـبـا بلّـغَنْ عَـنّى مـغـلـغـلةً مَنْ كـان يـرجـو بلاغَ الله والـدين
كل امرىء مـن عباد الله مضـطهد ببـطن مكـة مـقْـهـور ومَـفْـتـون
أنّـا وجَـدْنا بـلادَ الله واسـعـةً تُنْجِـى من الذل والمخـزاة والهُـون
فلا تُـقيـموا على ذلّ الحـياة وخِـزْ يٍ فى الممـات وعَيْب غـير مـأمون
إنّا تَـبـعْـنا رسـولَ الله واطّـرَحـوا قـولَ الـنّبىّ وعـالُـوا فى المـوازين
فاجْـعَل عذابكَ بالقوْم الـذين بَغَوْا وعـائذا بك أنْ يَـعْلوا فـيُـطْغـونى

ويقول فى قصيدته الثانية:

أبَتْ كَبِـدى، لا أكْذِبَنْك، قتـالهم عـلـىٌّ وتَـأْبـاه عـلـىٌّ أنـامِـلـى
وكَـيْفَ قـتـالى مَـعْـشَرًا أدّبُـوكُم علـى الحق أن لا تَـأْثبـوه ببـاطِل
نَفَتْـهم عبادُ الجنّ من حُـر أرضِهم فأضْـحَوْا على أمْـرٍ شديد البَـلابل

وينعى على قبيلته، قبيلة عدىّ بن سعد، خُبْثُهُم وعدم تقواهم.

ويقول عبدالله بن الحارث أيضا:

وتلـكَ قُريـشٌ تَجْـحَدُ الله حـقَّـه كما جَـحَدت عادٌ ومديـنُ والحِجْرُ
فـإن أنا لـم أبْرِق فـلا يَـسـعَنَّـنى من الأرض بَرٌّ ذُو فَـضاء ولا بحـر
بأرضٍ بهـا عَـبَدَ الإلـــه مـحمـدٌ أُبيّن مـا فى الـنّفس إذ بُلـغ النَّقْـرُ

(*) المرجع السابق، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

ومما يسترعى الانتباه فى هذه القصائد أمران : الأول هو أن الكلمة المستخدمة لوصف رحيل المسلمين من مكة إلى الحبشة هى كلمة «نفتهم»، والنفى غير الهجرة، وأن الذى استخدم هذه الكلمة هو الشاعر فى البيت الثالث من قصيدته الثانية، وهو أيضا المؤلف فى قوله : «وقال عبدالله بن الحارث أيضا، يذكر نفى قريش إياهم فى بلادهم، ويعاتب بعض قومه فى ذلك». والأمر الثانى هو أن الشاعر يهاجم قبيلته جملة، وهو ما يؤكد فكرة أن الذى قرر نفى المسلمين هى قبائلهم لا قريش فى مجموعها.

د) وفى قصيدة من خمسة أبيات يهجو عثمان بن مَظْعون [1] تيْم بن عمرو لأنه أخرجه من مكة ويقول له:

وحارَبْتَ أقواما كِراما أعِزَّةً   وأهلكتَ أقواما بهم كنت تَفْزع

ويقول النص فى تقديمه لهذه القصيدة إن الشاعر يعاتب فيها أُمَيَّة بن خلف، وهو ابن عمه، الذى كان يؤذيه فى إسلامه، وأن أمية كان شريفا فى قومه فى زمانه ذلك. وهذه حالة أخرى تجسد الحقيقة التى وردت فى النص والتى تقرر أن الاضطهاد لم يكن يتم على أيدى سلطة مركزية فى مكة؛ لكن على أيدى كل قبيلة من القبائل ضد أفرادها الذين أسلموا.

ويلاحظ أن هذه القصيدة تشير إلى إهلاك - أى قتل - أشخاص بسبب دينهم.

هـ) قصيدة من ثمانية أبيات [2] لشاعر المدينة الكبير حسان بن ثابت يبكى فيها المطْعِم «بن عدىّ»، ويسمى المطْعِم «عظيم المشعرَين» ويصفه

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٠ .

بأنه صاحب مجد، وبأنه يوفى بخُفرة جاره وذمَّته، وأنه أعَزّ أبناء قبيلة مَعدّ وقَحْطان وجُرْهُم وأعظمهم، وهو يمدحه لأنه أجار رسول الله ﷺ ويرى أنه سوف يُخلد الدَّهر.

ويورد النص فى تقديم هذه القصيدة أن حسان بن ثابت يذكر فيها «قيامه فى نقض الصحيفة»، لكن ليس هناك شىء فى القصيدة يشير أدنى إشارة إلى الصحيفة المذكورة. ويشرح النص بيتا فى القصيدة يقول فيه حسان:

أجَرْتَ رسولَ الله منهم فأصبحوا   عبيدَك ما لَبَّى مُهِل وأحْرَما

بقوله إن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يُجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تَصْديقه ونصرته، صار إلى حِراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق لِيُجيره، فقال: أنا حليفٌ والحليف لا يُجير. فبعث إلى سُهَيل بن عمرو، فقال: إن بنى عامر لا تجير على بنى كَعْب. فبعث إلى المطْعِم بن عدىّ فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المطْعم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف ترجع، طبقا للنص، إلى الفترة المكية الرابعة، ولم يكن حسان بن ثابت فى ذلك الوقت قد أسلم بعد. وهذا معناه أن هذه القصيدة لايمكن أن تكون قد قيلت إلا فى الفترة المدنية. وإذا كان حسان لم يمدح الرسول ﷺ ولا أبا طالب فى هذه المناسبة أو فى مناسبة قبلها فمن الغريب أن يكون قد أثنى على المُطْعِم بن عدىّ كل هذا الثناء؛ وسنعود إلى هذا الموضوع فى الفصل التالى.

و) فى قصيدة من ثلاثة أبيات[1] يقول حسان بن ثابت:

هل يُوفينّ بنو أمية ذِمَّةً عَقْدًا كما أوفى جِوَارُ هشامُ
مِنْ مَعْشَر لا يَغْدرون بجارهم للحارث بن حُبَيِّب بن سُخام
وإذا بنو حِسْل أجارُوا ذِمَّةً أوفَوْا وأدَّوْا جارَهم بسلام

وورد فى تقديم النص لهذه الأبيات أن من قيلت فى مدحه هو هشام ابن عمرو، وأن حسان يمدحه فيها لقيامه فى الصحيفة. لكن الحاصل، فى هذه القصيدة كما فى قصيدة حسان السابقة، أنه لم ترد فيها أية إشارة إلى صحيفة المقاطعة أو إلى أية صحيفة أخرى. والشاعر يتحدث هنا عن «جوار»، والجوار عمل لايمكن الخلط بينه وبين نقض صحيفة المقاطعة. وأخيرا فإن من الغريب أن بنى أمية (قبيلة الخليفة الأموى اللاحق) كانوا، من بين جميع الأعداء الذين ذكرهم أبو طالب، الوحيدين الذين وقع عليهم اختيار شاعر المدينة مثالا للغدر وخفر الذمّة. وواضح أن هذه القصيدة قصيدة مزورة، انتحلت فى الفترة العباسية ونسبت إلى حسان.

ز) فى قصيدة من ثلاثة وعشرين بيتا [2] يقول الشاعر أعشى بن قيس ابن ثعلبة إنه مازال يبغى المال مذ هو يافع، وإنه كان يحب الترحال، وإن إبله السريعة يممت وجهها إلى يثرب، ويقول:

وآلَيْتُ لا آوى لها من كَلالة ولا من حَفًى حتى تلاقى محمدا
متى ما تُناخى عند باب ابن هاشم تُراحى وتَلْقَى من فواضله نَدَى
نبيًّا يرى ما لا ترَوْن وذِكْرُه أغار لعَمْرى فى البلاد وأنْجدَا

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٨١.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨ .

له صَـدقـاتٌ مـا تُغِـبُّ ونائـل   وليـس عطاء اليـوم مـانعَـه غـدا
أجِـدَّكَ لم تسـمع وَصَـاةَ مـحمـد   نبى الإلـه حيـث أوْصَى وأشْهَـدا
إذا أنت لم تـرحل بزاد من التُّـقى   ولا قيْـتَ بعد الموت من قـد تزوَّدا
ندمـتَ على أن لا تكـون كـمثـلِه   فتُـرصد للأمـر الذى كـان أرْصدا
فـإيـاك والمُيْـتـات لا تقـربنَّـهـا   ولا تأخذَنْ سـهما حديدا لتُـفْصدا
وذا النُّصَـب المنصـوبَ لا تنسـكنَّه   ولا تعـبـد الأوثان والله فـاعـبُـدَا
ولا تَقْـرَبنَّ حُـرّة كـان سـرّها   عليـكَ حراما فـانْكَحَـنْ أو تأبَّدَا
وذا الرّحِـم القُـربى فـلا تَـقطعَـنَّه   لعــاقـبـة ولا الأسـيـر المُـقَـيَّـدَا
وسَبّح على حين العشيَّات والضحى   ولا تحمـد الشيـطانَ والله فاحـمدَا
ولا تسْـخرًا من بائـس ذى ضَرارة   ولا تحْـسَـبَنّ المال للـمـرء مُخْـلِدا

ورد فى النـص أن أعشى بـن قيس خـرج إلى رسـول الله ﷺ يريد الإسلام فـقال القصـيدة فلما كـان بمكة أو قريبا مـنها، اعتـرضه بعضُ المشركيـن من قريش، فسأله عن أمـره، فأخبره أنه جـاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم؛ فقال له: يا أبا بصيـر، إنه يُحرِّم الزّنا؛ فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمرٌ مـا لى فيه مـن أرَب؛ فقال له: يا أبا بـصير، فإنـه يحرم الخمـر، فقال الأعـشى: أما هذه فـوالله إن فى النفس منهـا لعُلالات، ولكنى منصرفٌ فأتروّى منها عامى هذا، ثم آتيه فأُسْلم. فانصرف فمات فى عامه ذلك، ولـم يَعُد إلى رسول الله ﷺ .

لا يشرح النص السـبب فى إدراج هذه القصيدة، التى يقـول الشاعر فيها إن إبله يممت وجهها إلى يثـرب كى يلاقى محمدًا، فى شعر الفترة

المكية الثالثة. كذلك فإن كل شىء فى القصيدة يشير إلى أن الشاعر كان مسلما بالفعل. والدخول فى الإسلام، كما هو معروف يتم بمجرد الشهادة، ولا يفترض المثول أمام رسول الله ﷺ شخصيا.

ولابد أن الشاعر كان يعرف تعاليم الإسلام ويقبلها، وأنه كان على علم مثلا بأن الإسلام يحرم الزنا، وإذا كان قد رغب فى رؤية الرسول ﷺ فالاحتمال هو أن يكون قد أراد أن يسعد بالتعرف على شخصه، وأن يعبر له عن كل المحبة والعرفان اللذين كان يكنهما له، لأنه هداه بالقرآن إلى الإسلام. ويلاحظ فى هذا الخصوص أن النهى عن شرب الخمر لم يرد فى القرآن إلا فى المدينة، فى سورة المائدة، وهى آخر ما أنزل من السور.

ح) فى قصيدة من ثلاثة أبيات (*) يقول عبدالله بن أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، قبيلة الوليد بن المغيرة، إلى قبيلة (يقول النص إنهم خزاعة):

إنِّى زَعيم أن تَسيرُوا فتهربوا ... وأن تتركوا الظَّهران تَعْوى ثعالبُه

وأن تتركوا ماءً بجِزْعة أطْرقا ... وأن تسألوا: أىَّ الأراك أطايبه؟

فإنَّا أناسٌ لا تُطَلّ دماؤنا ... ولا يَتعالى صاعدًا مَنْ نُحاربه

يشرح النص هذه الأبيات فيذكر أن الوليد بن المغيرة جُرِح بأسفل كعب رجله وهو يَجُرُّ ثَوبَه، وذلك أنه مَرَّ برجل من خُزاعة وهو يَريش نَبْلا له، فتعلق سهم من نَبْله بإزاره، فخدش فى رجله ذلك الخدش. وعندما أشار رسول الله ﷺ - وجبريل إلى جنبه - إلى أثر ذلك الجرح الذى كان قد التأم، انتقض به الجرح فقتله.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤١١.

ويضيف النص أن الوليد لما حضرته الوفاة طلب من بنيه ألا يهدروا دمه فى خزاعة. ولما هلك الوليد وثَبَتْ بنو مخزوم على خزاعة يطلبون منهم عقل الوليد أى ديَته، وقالوا: إنما قتله سهم صاحبكم - وكان لبنى كعب حِلْف من بنى عبدالمطلب بن هاشم - فأبت عليهم خُزاعة ذلك، حتى تقاولوا أشعارا، وغلظ بينهم الأمر، وكان الذى أصاب الوليدَ سهمُه رجلا من بنى كعب بن عمرو، من خُزاعة، فقيلت القصيدة المذكورة بمناسبة هذه الواقعة، وكانت الظهران والأراك منازل بنى كعب من خُزاعة.

ط) قصيدة من ثلاثة أبيات [1] يجيب فيها الجَوْنُ بن أبى الجَوْن، أخو بنى كعب بن عمرو الخُزاعىّ عبدالله ابن أمية فيقول:

والله لا نُؤْتى الوليدَ ظُلامةً ولما فروْا يوما تَزول كواكبُه
ويصْرَع منكم مُسْمِنَ بعد مُسْمن وتُفْتَح بعد الموت قَسْرا مَشاربه
إذا ما أكلتم خُبْزَكم وخزيرَكم فكلُّكم باكى الوليد ونادبه

هذا ويضيف النص أن الناس ترادّوا وعرفوا أنما يخشى القومُ السبَّة، فأعطتهم خزاعة بعض العقل، وانصرفوا عن بعض.

ى) فلما اصطلح القوم قال الجَوْنُ بن أبى الجَوْن [2]:

وقائلَةٍ لما اصطلحْنا تَعجُّبا لِمَا قد حَمَلْنا للوليد وقائلِ
ألم تُقْسِموا أن تُؤْتوا الوليد ظُلامةً ولما تَروْا يوما كثيرَ البلابلِ
فنحن خلطنا الحربَ بالسِّلْم فاستوتْ فأمَّ هواه آمنا كلُّ راحلِ

---

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١١ ، ٤١٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٢ .

ك) ثم لم ينتـه الجَوْنُ بن أبى الجَوْن حتى افـتخر بقتل الولـيد، وذكر أنهم أصابوه، وكان ذلك باطلا، فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك ما حَذره، فنظم الجونُ بن أبى الجون قصيدة من ثمانية أبيات قال فيها [1]:

ألا زَعَم المُغيرة أن كَعْبا بمكة منهُمُ قَدْرٌ كثيرُ
فلا تَفْخر مُغيرةُ أن تراها بها يمشى المُعَلْهَج والمَهيرُ
بها آباؤنا وبها وُلِدْنا كما أرْسَى بمَثْبَتِه ثَبيرُ
وما قال المغيرة ذاك إلا ليعلَم شأننا أو يسْتثير
فإنّ دمَ الوليد يُطَلُّ إنا نَطُل دماءً أنت بها خبيرُ
كساهُ الفاتِكُ الميمونُ سهما زُعافا وهو مُمتلئٌ بهيرُ
فَخَرّ ببطن مكة مُسْلحِبا كأنَّه عند وجبته بعير
سيكفينى مطالَ أبى هشام صغارٌ جعْدةُ الأوْبار خُور

ل) قصيدة من خمسة أبيات لحسان بن ثابت يقول فيها [2]:

غدا أهلُ ضَوْجَىْ ذى المجاز كلَيْهما وجارَ بن حَرْب بالمُغمَّس ما يغدو
ولم يمنع العَيْرُ الضَّرُوطُ ذِمارَه وما منعت مخزاة والدِها هِنْد
كساكَ هشامُ بن الوليد ثيابَهُ فأبْل وأخْلِف مثلَها جدُدا بعدُ
قضى وطرًا منه فأصْبح ماجدا وأصبَحتَ رخوًا ما تُخبّ وما تعْدو
فلو أنَّ أشياخا ببدر تشاهدوا لَبَلَّ نعالَ القوم مُعتبط وَرْد

يبين النص أن أبا أُزَيْهر الدَّوْسّى زوّج الوليد بن المُغيرة بنتا له، ثم

---

(1) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١٢ .

(2) المرجع السابق ، ص ٤١٤ .

أمسكها عنه، فلـم يُدْخلها عليه حتى مات. وقد أوصـى الوليد بنيه بأن يأخذوا عُقْرَه (أى دِيَة الفَرْج المغصوب) عن أبى أُزَيْهر. . وعدا هشام بن الوليد على أبى أُزيهر، وكان أبوأزيهر رجلا شريفا فى قومه، فقتله بعُقْر الوليد الذى كان عنده، لوصيَّـة أبيه إيَّاه، وذلك بعد أن هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، ومـضى بدرٌ وأصيب به مَنْ أُصيب من أشـراف قريش من المشركين.

وكانت عند أبى سفيان بن حرب عـاتكة بنت أبى أُزَيهر. فخرج يزيد ابن أبى سفـيان، فجمع بـنى عبدمناف، وأبوسـفيان بذى المجاز، فـقال للناس: أُخْفِرَ (والخفر: الغدر، ونقض العهد) أبوسفيان فى صهْره، فهو ثائر به، فلمـا سمع أبوسفـيان بالذى صنع ابـنُه يزيد - وكان أبوسفـيان رجلا حليـما داهية، يحب قومـه حبا شديدا - انحطّ سـريعا إلى مكة، وخشـى أن يكون بين قـريش حَدَثٌ فى أبى أُزَيهـر، فأتى ابـنه وهو فى الحديد، فى قومـه من بنى عبد مناف والمطيِّبيـن ، فأخذ الرمح من يده، ثم ضرب به على رأسه ضربة هدَّه منهـا، ثم قال له: قَبَّحك الله! أتريد أن تضرب قريشا بعضهم ببعض فى رجل من دَوْس. سنُؤتيهم العقل إن قبلوه، وأطفأ ذلـك الأمرَ. فانبعث حسَّان بـن ثابت يُحَرّض فى دم أبى أزيهر، ويعيِّر أبا سفيان خُفْرَته ويُجْبنه فى القصيدة المذكورة.

وهذه القصيدة أيضا تحمل علامات تزوير ترجع إلى الفترة العباسية.

م) قصيدة من خمسة أبيات لِضرار بن الخطَّاب بن مِرْداس الفِهْرِىّ (*) يقول فيها:

جَزَى الله عنَّـا أم غَيْلان صـالحا   ونسوَتـها إذ هُنَّ شُعْـثٌ عَواطلُ

فـهنَّ دفعـن الموتَ بعـد اقتـرابه   وقـد بَرزتْ لـلثـائرين المـقـاتل

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١٥ .

دعتْ دعوةً دَوْسا فسالت شعابُها بعـزّ وأدّتهـا الـشّـراج القـوابل

وعمْـرًا جَزاه الله خيرا فـما وَفى ومـا بردتْ مـنه لدىّ المـفـاصل

فجـرّدتُ سَيْفى ثم قـمتُ بنَصْله وعن أى نَفْس بعـد نفسى أقـاتل

يوضح النـص فى تقديمـه لهذه الـقصـيدة أن ضِرار بـن الخطّاب بن مِرْداس الفِـهْرِىّ خرج فى نـفر من قريش إلى أرض دَوْس، فـنزلوا على امرأة يقـال لها أمّ غَيْـلان، مولاة لدَوْس، وكانت تَـمْشُط النساء وتجـهِّز العرائس، فأرادت دَوْس قَتْلَهم بأبى أُزَيْهر فقامت دونهم أم غَيْلان ونسوة معها، حتى منعتهم، فقال ضِرار قصيدته فى ذلك.

وهذا التوضيح محل اعتراض لأسباب عديدة:

١) لم يذكر النص السبب الذى جعل الشاعـر وجماعته يخرجون إلى أرض دَوْس التى لهم فيها عدو.

٢) من غير المفهوم على أى أساس، على الرغم من أن النص لا يشير إلى أية صلة قـربى بين الشاعر وجـماعته وقـبيلة الوليد التى قـتل أحد أفرادها أبا أزيهر، اعتبرتهم دوس مسئولين عن قتل هذا الأخير، وأرادت قتل الشـاعر وأصحابه، لاسيـما وأن دَوْسا تلقت من أبى سفـيان ديَّة أبا أزيهر.

٣) إذا كان مجرد انتـساب شخص ما إلى قريش كافيـا لجعل الشاعر وجماعته مـحل انتقام دوس، فإن هؤلاء كانوا يعرضون أنفـسهم لمعاملته بالمثل أو كانوا يبتعثون حربا مع خصم لا قبل لهم بحربه.

٤) كيف تسـتطيع مجمـوعة من النساء أن يـقمن دون مجمـوعة من الرجال تشير الدلائل إلى أنهم كانوا أكثر منهن عددا؟

٥) أنَّى لامرأة من الإمـاء أن تتصدى لمالكى رقـبتها فى عـمل خطير كالثأر لقتيل منهم.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الواقعة، إن صح أنها حدثت، لم تكن تدخل فى إطار الفتـرة المكية مـا دام مقتل أبى أزيهـر قد حدث، وفـقا للنص، خلال معركة بدر، أى بعد عام ونصف من الهجرة.

باء- النتيجة

يثير الشعر الذى أورده النص الملحوظات الآتية:

١- هو لا يحمـل أى أثر للحدث الذى لاشك أنه كـان أهم أحداث الفتـرة، أى نزول مئـات الآيات من القرآن بعـضهـا فى إثر بعض، ولا للانقلابات والتـحولات العظيـمة التى أحدثتـها فى حيـاة الناس فرادى وحياة المجتمعات فى مكة وفى شبه الجزيرة.

٢- يتناول القدر الأكبر منه، كأمر واقع، موضوعين اثنين: النزاع بين بنى هاشم وقريش، من جهـة، وحماية هاتين القبـيلتين لرسول الله ﷺ من جهة أخـرى. أما ما عدا ذلك من أحداث هامة، كـدخول أقوام فى الإسلام، وكالاضطهاد ، والهجرة، والمقاطعـة، فإن الشعر لا يمسها إلا مسا خاطفا بكلمة أو بيت، أو هو يتغافل عنها تماما.

٣- شعـر أبى طالب كله تقريبـا منحول. وقد زُوِّر هذا الشـعر فيـما يبدو لإضفـاء مصداقيـة على الدعوى الأساسية للـفترة، ألا وهى أن أبا طالب، هو وقبيلة بنى هاشم، حموا الرسول ﷺ وتعـرضوا بسببه لعداء قبائل قـريش الأخرى، وكذلك لتكبير الصـورة التى يصور بها النص أبا طالب باعتباره الشخصية المهيمنة للفترة.

والنص يقدم أبا طالب هنا على أنه أكبر شعراء مكة، ويجعل صوته- بالمساحة التى يحتلها شعره فى شعر الفترة - أعلى صوت فى مكة. والشعر المستخدم كوسيلة لتضخيم أبى طالب يقوم هنا بدور مماثل للدور الذى قام به، فى حالة أبيه عبدالمطلب، تصويره باعتباره ممثلا رئيسيا فى قصة الفيل القرآنية، ورجلا ملهما من السماء فى قصة زمزم، وشخصا قادرا، مثل إبراهيم عليه السلام، على التضحية بفلذة كبده إرضاء لله.

٤- يظهر أبوطالب فى حقل الشعر لا كأعظم شاعر مكى فحسب، بل كشاعر مكة الوحيد الذى يستحق هذا الوصف، بدليل أن مجموع أبيات القصائد التى قالها شعراء مكة الآخرون- سواء فى ذلك الشعراء المشركون والشعراء المسلمون - أى سبعة وأربعين بيتا، لا يمثل أكثر من ٢٨ فى المائة من شعره.

٥- لقد أعلنت قريش، ما فى ذلك شك، حرب دعاية شاملة ضد محمد ﷺ، وضد القرآن، وضد المسلمين وضد الإسلام عموما. وفى بلد كان الشاعر فيه هو الناطق الرسمى للقبائل، وكان الشعر يقوم فيه بالدور الذى تقوم به اليوم الخطب السياسية ومقالات الصحف، لاشك أن كل شعراء قريش المشركين، وكل شعراء القبائل المناهضة للإسلام فى الجزيرة العربية قد عبئوا لمحاربة «الخطر» الإسلامى، ولابد أن مكافآت سخية قدمت لهم، وأن مئات من القصائد قد نظمت وذاعت بين الناس فى مكة، وبين الحجاج وفى جميع أنحاء الجزيرة فى هذه الحرب «الإعلامية» التى يرجح أنها بدأت مع بداية بعثة الرسول ﷺ ولم تنته إلا عند نهاية الفترة المدنية، لكننا لا نجد فى النص أى أثر لهذا الشعر الكثير.

٦- على الرغم من أن القرآن قد تكفل بالرد على هجمات أعداء الإسلام، فلابد أن شعراء من المسلمين تولوا الرد على شعراء الكفار

وبالأسلوب نفسه. ولابد أنهم نظموا مئات من القصائد للدفاع عن نبيهم وعن دينهم وعن قرآنهم، وللرد على أكاذيب المشركين وافتراءاتهم. لكن النص - هنا أيضا - ليس فيه أثر لهذا الإنتاج الشعرى الذى كان، أغلب الظن، إنتاجا غزيرا.

٧- ما الذى جعل النص يخفى شعر الكفار وشعر المسلمين، الذى كان يشكل بلا ريب أحداثا هامة للعرب طيلة حياة الرسول ﷺ، وبخاصة خلال هذه الفترة المكية الثالثة؟ لقد رَجَّحْتُ أعلاه أن الغرض من هذا الإخفاء كان الرغبة فى إبراز أبى طالب كشاعر مكة الوحيد الجدير بهذا الاسم. على أنه فى الإمكان أن نضيف إلى هذا السبب سببين آخرين هامين هما:

أ) خشية مؤلف النص أن يكتشف القارىء، من خلال شعر الشعراء الكفرة، حقيقة موقف بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من رسول الله ﷺ، وأن يدرك فى النهاية أن هاتين القبيلتين، وراء أبى لهب، كانتا تعاديان الرسول ﷺ، وتضطهدان أفرادهما المسلمين، وأن الهجرة إلى الحبشة كانت فى واقع الأمر نفيا، وأن مقاطعة قريش كانت فى الحقيقة موجهة ضد المسلمين. وحين زال هذا الظرف خلال الفترة المدنية، اتخذ شعر الكفار ، الحقيقى والمنحول، مكانه فى النص، لذا فإننا نجد بعد غزوة بدر، فى السنة الثانية من الهجرة، مالا يقل عن ستة عشر من هؤلاء الشعراء، منهم أربع شاعرات، يبكون قتلاهم ويندبون حظهم على هزيمتهم ويتوعدون بالثأر، وعدد الأبيات التى أوردها النص بمناسبة هذه الغزوة وحدها مائتان وواحد وخمسون بيتا، أى ما يوازى ٨٨ فى المائة مما قيل من شعر خلال الفترة الثالثة بأكملها.

ب) خشية مؤلف النص أيضا أن تظهر الحقيقة من شعر المسلمين بصدد:

- موقف بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من رسول الله ﷺ والمسلمين، ومن أحداث الفترة العظمى التى ذكرناها فيما سبق.

- ظهور أمة من المسلمين فى مكة أصبحت تدرك حجمها سواء فيما يتعلق بأهميتها العددية، أو فيما يتعلق بإخلاصها للرسول ﷺ وبقدرتها على حمايته، وعلاوة على ذلك ظهور معاناة أفرادها المعنوية لإقصائهم من المسجد الحرام، ومعاناتهم المادية والمعنوية لاضطهادهم ونفيهم؛ أو إجبارهم على الهجرة من جانب ذويهم، ولفرض المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية عليهم فى مكة.

- وجود شعراء مسلمين فى مكة، الأمر الذى كان يجب التعمية عليه بأى ثمن، كى لا ينازع أحد أبا طالب مركزه كشاعر مكة، ولكى يستطيع شعراء المدينة أن يَلْمَعُوا بكل لألائهم، وأن تكون لهم الكلمة العليا بلا منافس خلال الفترة التالية.

ومن هنا فإن الشعراء المكيين فى شعر بدر لم يكونوا سوى ستة (بما فى ذلك حمزة وعلىّ، اللذان شكك خبراء الشعر فى صحة ما نسب إليهما من شعر)، وأن ٧٥ فى المائة من الأبيات التى قالها الشعراء المسلمون فى هذه الغزوة إنما هى من نظم شاعرى المدينة الكبيرين، حسان بن ثابت وكعب بن مالك.

٨- صحيح أن فى النص قصائد مجموع أبياتها ثلاثة وعشرون بيتا، قالها ثلاثة من شعراء مكة المشركين، هم عبدالله ابن أمية بن المغيرة، والجَوْن بن أبى الجَوْن، وضِرار بن الخطّاب. بيد أن الموضوعات التى تعالجها هذه القصائد لا تمت بأية صلة للإسلام، أو للنزاع الذى كان ناشبا خلال هذه الفترة بين قريش من جهة، ومحمد ﷺ والمسلمين من

جهة أخرى؛ وهذه القصائد تندرج ، فيما يبدو، في الخطة التي رسمها ابن إسحاق لتصفية حساباته مع خالد بن الوليد، الرجل الذي أسر جَدَّه، وهي خطة تتمثل في إظهار أبي خالد بمظهر سيىء وإظهار أخيه كقاتل.

ومن هنا فإن النص يذكر اسم الوليد بن المغيرة، أبي خالد، بين الأشخاص الخمسة الذين كانوا يهزأون بالرسول ﷺ ، والذي لقى حتفه مع نفر منهم بعد أن أشار الرسول ﷺ ، في وجود جبريل في المسجد بإصبعه إلى هذا الجزء أو ذاك من أجسامهم. فبعد أن ذكر المؤلف هذا المنظر في عشرة أسطر، نراه يترك جانبا القرشيين الأربعة الآخرين، ويتوقف عند الوليد بن المغيرة. وهو يخصص مالا يقل عن ثلاث صفحات ونصف للوصايا الثلاث التي أوصى بها بنيه لما حضرته الوفاة: وصية ضد الرجل من خُزاعة الذي أصابه عن غير قصد بجرح في قدمه انتقض وتسبب في وفاته بعد أن أشار إليه رسول الله ﷺ، ووصية باسترداد عُقْره من أبي أُزَيْهر الدَّوْسيّ الذي رفض أن يدخل عليه ابنة له كان قد زوجها له، ووصية ثالثة تتعلق باسترداد ربا كان له في ثقيف.

وقصائد عبدالله بن أمية بن المغيرة، والجَوْن بن أبي الجَوْن، وضِرار بن الخطّاب، وقصيدة حسان بن ثابت تندرج في إطار ما تم بصدد تنفيذ الوصيتين المتعلقتين بدم الوليد في خُزاعة، وبعُقْرة عند أبي أزيهر الدَّوْسيّ.

وفي صفحات النص المتعلقة بهاتين الوصيتين، التي كتبت في عبارة بالغة الصعوبة والتعقيد، نقرأ الشيء وضده في أكثر من موضع. فنحن نقرأ مثلا أن الوليدبن المغيرة قال لبنيه ألا يَطُلُّوا (أي يهدروا) دمه في خزاعة، لكننا نقرأ أيضا أن الوليد قال: «والله إني لأعلم أنهم منه براء»، أي أن المطالبة بديته كانت بغير أساس. ونحن نقرأ أن خزاعة، ولو أنها

«أبت عليـهم ذلك» ، «أعطتهم بعض العـقل» أى بعض الدية، ثم أنهم لم يدفعوا شـيئا، كما يتضح من قـصيدة أبى الجون الثانيـة. ويفخر هذا الشاعر بأن فاتكا ميمونا من قومه أطلق سهما زعافا على الوليد فَخرَّ هذا كالبعير، مع أننا نعـرف، منذ البداية، أن الوليد شُفى منذ أمد طويل من جرحه، الذى لم يكن جرحا عَمْديا.

وفى قصة الزوجة الأوْسيَّة نحن نعلم، من جهة أخرى، أن هشام بن الوليد انتقم لأبيه بقتل أبى هذه المرأة (وهو انتقام لا محل له، إذ أنه كان باستطاعة هشام بن الوليد بكل بساطة أن يطالب برد المهر الذى دفعه أبوه ليتـزوجها، طبـقا لوصيـة أبيه). إذن كان هذا الابن مـن أبناء الوليد بن المغيرة قاتلا.

وكان من الممكن أن تقف القصـة عند هذا الحد، لكن ها هو استطراد جديد يتـفرع عن استطراد آخر بشـأن واقعة حدثت بعد الـواقعة الأولى بزمن، أى فى غـزوة بدر: إن يـزيدا ، أخـا مـعـاوية، الذى كـان أبوه أبوسفـيان مـتزوجـا بابنة أخرى من بنات أُزَيْهـر، الذى قتله هـشام بن الوليـد، أراد أن يثأر لأزيهر (وهو شـىء غريب فإن عبء هذا الـثأر لم يكن يقع عليه وإنما على الدَّوْس قـبيلة أزيهر)، فمـا كان منه إلا أن أخذ حربة وأقنع رجالا من بنى عـبدمناف بأن يسيروا معه لحرب قـبيلة الوليد ابن المغيرة. لكن أبا سفيان، لمَّا علم بهذا التطور الخطير، الذى من شأنه أن يحدث صداما دامـيا بين قبيلتين من قبائل قـريش والحرب دائرة بينها وبين النبـى ﷺ ، عـجل بالعـودة إلى مكة، وعنف علـى ابنه وأبدى استعداده لدفع دِيَّة أزيهر لدَوْس، الأمر الذى ترتب عليه أن حمل حسان ابن ثابت عليه وعلى ابنتـه هند حملة شعواء، فقد كـان حسان - نزولا

على منطق غير معروف - يعتبر أن على أبى سفيان واجب شرف يقتضيه أن يثأر لأبى زوجته.

وها نحن نصل أخيرا إلى قصة لا يقبلها عقل عاقل، هى قصة ضِرار ابن الخطاب ورفاقه، الذين دافعت عنهم نساء من الإماء فى وجه ساداتهن من أَوْس، وهى استطراد جديد متفرع عن الاستطراد الثانى. وهكذا نجد أن أسماء ثلاثة من شعراء قريش ودوس، واسم أعظم شعراء المدينة، من بين شعراء الفترة المكية العشرة، وقد أشركوا فى نظم شعر مما يمثل عُشْر شعر الفترة، لا لتصوير أحداث هامة من أحداث السيرة النبوية، بل لإشباع غِلٍّ قديم فى صدر المؤلف ولذم ذرية أبى سفيان، أعداء الخلفاء العباسيين.

٩- والجدول التالى يوضح نصيب كل فئة من الشعراء فى الشعر الذى قيل خلال الفترة الثالثة:

الفئات والشعراء	عدد القصائد	عدد الأبيات	مجموع الأبيات لكل فئة	النسبة المئوية
قريشيون ومشركون				
أبو طالب	٧	١٦٧		
عبد الله بن أمية	١	٣		
الجَوْن بن أبى الجَوْن	٣	١٥		
ضِرار بن الخطاب	٢	٥	١٩٠	٦٦ ٪
مدنيون				
أبو قيس بن الأسْلَت	١	٥		
حسان بن ثابت	٣	١٣	٥١	١٨ ٪
مسلمون				
حكيم بن أمية	١	٤		
عبد الله بن الحارث	٣	١٥		
عثمان بم مَظْعُون	١	٥	٢٤	٨ ٪
عرب غير قريشيين				
أعشى بن قيس	١	٢٣	٢٣	٨ ٪
المجموع	٢٢	٢٨٨	٢٨٨	١٠٠ ٪

يتضح من هذا الجدول أن الشعراء المسلمين الثلاثة يأتون فى ذيل القائمة وأن شعرهم لا يمثل إلا ٨ فى المائة من شعر الفترة الثالثة. وشعرهم لا يمثل سوى ١٤ فى المائة من شعر أبى طالب وحده، كما لا يمثل سوى ٤٧ فى المائة من شعر شاعرى المدينة أبى قيس بن الأسلت وحسان بن ثابت، اللذين كانا فى ذلك الوقت من المشركين.

١٠- فيما عدا أبيات حكيم بن أمية الأربعة، فإن شعر الشاعرين المسلمين الآخرين، أى عشرون بيتا، يتعلق بإطار الحبشة وحده. وليس هناك إذن فى شعر الفترة مكان للشعراء المسلمين الذين بقوا فى مكة مع رسول الله ﷺ.

١١- ليس فى كل ما قيل من شعر فى الفترة المكية الثالثة قصيدة واحدة يعبر قائلها حيال رسول الله ﷺ عن مشاعر المحبة والعرفان والإجلال التى يلهمها للمؤمن دخوله فى الدين الذى هداه إلى الله وأخرجه من الظلمات إلى النور.

وليس فى هذا الشعر كذلك قصيدة يعبر فيها أى مسلم عن سعادته باعتناق الإسلام، ويحمد الله على هدايته إلى هذا الدين، ويذكر تعاليم الإسلام أو يقارنه بديانات الجاهلية مظهرا فضله بالنسبة لها. والقصيدة الوحيدة التى وردت فيها مثل هذه المشاعر هى قصيدة أعشى قيس، وهى تتعلق بالفترة المدنية، وكان قائلها على الأرجح قد أسلم بالفعل، لكن النص، الذى يريد أن يجعل المشاعر الطيبة حيال الرسول ﷺ وقفا على أبى طالب وعلى أهل المدينة وشعرائها، جعل أعشى قيس كافرا، ونقله من الفترة المدنية إلى الفترة المكية، واستخدم للغض من قَدْره الطريقة التى استخدمها للغَضِّ من قدر عمر فى جاهليته، وهى تصويره ظلما بأنه محب للخمر لدرجة تجعله يؤجل الإيمان ويموت على الكفر.

١٢- تقديم المؤلف للقصائد، كما أشرت فى تعليقى على كل منها، كثيرا ما يختلف عن موضوعها، والنص يجعل الشعراء، فى مثل هذه الحالات، يقولون ما لم يقولوه.

١٣- من الغريب ألا يرد فى كل شعر أبى طالب وشعر الشعراء المكيين الثلاثة وشعر أبى قيس الأسلت ، ذكر للأصنام والآلهة والخرافات والمعتقدات التى كانت تشكل ديانة قبائل قريش، وتشكل فى الوقت ذاته محور النزاع بين قريش ومحمد ﷺ ، كما كانت محور الشكاوى التى كان سادة قريش وأشرافها يرفعونها إلى عمه أبى طالب. ولغة هذا الشعر تشبه تماما لغة المسلمين، وفى ذلك دلالة لايستهان بها على أن هذا الشعر انتحل فى فترة لاحقة بكثير للفترة التى يعزى إليها، بعد أن انمحت من ذاكرة الناس إلى حد كبير المعلومات المتعلقة بديانات الجاهلية الوثنية.

١٤- الشعر الوارد فى النص لا يتعلق إطلاقا بمحمد ﷺ وبرسالته، ولا بالنجاح الذى أحرزه والصعوبات التى كان يواجهها. وفى هذا- بالإضافة إلى ضآلة الحيز الذى خصصه للشعر الإسلامى- فإن الشعر الوارد فى النص يشبه، فى خطوطه العريضة، الصورة التى تستخلص من حديث الفترة الثالثة. ومن هنا فإن الفراغ غير المتناهى، وشبهة التزوير والاختلاق التى تشوب الرواية النثرية، يشوبان أيضا الجانب الأكبر من شعر الفترة.

الفرع الثانى - الاقتباسات القرآنية

يشتمل نص الفتـرة الثالثة على أربعين اقتبـاسا من القرآن، ويُقدِّم كل اقتباس من هذه الاقتباسات بكلمة تشرح الظروف التى نزلت فيها الآيات موضـوعه. وسأتعـرض لهذه الاقتبـاسات بالتـرتيب الذى وردت به فى النص. وفى الحالات التى ينقطع فيها سياق الآيات فى فقرة من الفقرات بعـبارة: «إلى قـوله...»، رأيت من المـناسب فى مـعظم الأحيـان، لوضوح العرض، أن تثبت الآيات التى أحال النص إليها.

ألف - الاقتباسات

الاقتباس رقم ١ (*)

النص:

تحت عنوان **«تحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن»** يقول النص: إن نفرا من قريش اجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة من قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهـم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا، ويردّ قولُكم بعضـه بعضا، قالوا: فأنت يا أبا عبد شـمس، فقُلْ وأقِمْ لنا رأيا نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسْـمَع، قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكـاهن، لقد رأينا الكُهّـان فما هو بزَمـزمة الكاهن ولا سَجْـعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجُنون وعرفناه، فما هو بخَنْقه، ولا تخالُجه، ولا وَسْوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال:

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٧٠.

ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلَّه رجزَه وهزَجه وقريضَه ومَقْبوضه ومَبْسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول : ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسِحْرَهم، فما هو بنفْثهم ولا عَقْدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوةً، وإن أصلَه لعَذَق، وإن فَرْعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يُفَرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموْسِمَ، لا يمر بهم أحد إلا حذّروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة وفى ذلك من قوله:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر: ١١ - ١٦]

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾

[المدثر: ١٧ - ٢٥]

وأنزل الله تعالى فى النفر الذين كانوا معه يصنِّفون القول فى رسول الله ﷺ، وفيما جاء به من الله تعالى:

﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [الحِجْر: ٩٠ - ٩٣]

الملحوظات:

أ) الخبر الذى يستند إليه التقديم يبدو مستعارا من القرآن ، الذى نجد فيه:

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ [الطور: ٢٩ - ٣٠]

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) ﴾ [ص: ٤]

أما عبارة: «جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته» فمن المحتمل أن يكون مستعارا جزئيا من الآية فى قوله تعالى:

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) ﴾
[البقرة: ١٠٢]

أما باقى العبارة فمن المحتمل أن يكون قد أضيف لإخفاء هذه الاستعارة.

ب) هذا الاقتباس جزء من سورة المدثر، ومعنى ذلك أن آياته نزلت خلال الفترة الأولى التى يقول النص إن رسول الله ﷺ كان يدعو

خلالهـا إلى الله فى الخفاء، فى وقـت لم يكن نزاعه مع قـريش قد بدأ بعد. وهـذه الآيات تقدم الدليل علـى أن الاستخـفاء خدعة وأن حـملة الدعاية التى شنتها قريش على الإسلام بدأت منذ الفترة الأولى.

جـ) القول بـأن الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الحِجْـر تُشير إلى الـنَّفَر الذين كـانوا مع الوليـد بن المغيـرة قول مـشكوك فيـه. والواقع أن هذه السـورة تفصلهـا عن سورة المـدثر التى استـشهـد بها الـنص أولا اثنان وعشـرون سورة. وليس فى الـشرح الوارد فى النص أخـيرا ما يـسمح باستنتاج أن «المقْتَسمين الذين جـعلوا القرآن عِضين» فى سورة الحِجْر هم النفر المذكورون.

الاقتباس رقم ٢ (*)

النص:

يقول النص: إن أشدّ ما لقى رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوما فلم يَلقه أحدٌ من الناس إلا كذَّبـه وآذاه، لا حُر ولا عَبْد، فرجع رسولُ الله ﷺ إلى منزله فتدثَّر من شدة ما أصابه، فأنزل الله عليه قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾

[المدثر: ١ - ٢]

ملحوظة:

هاتان الآيتان، اللتان هما جزء من سورة المدثر، تثبتان، بدورهما، أن موقف الكفـار العدائى حيال الرسـول ﷺ بدأ منذ البداية الأولى لبعـثته صلوات الله وسـلامه عليه. ولما كـان أول من حَدَّثهم الـرسول ﷺ عن

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩١.

نبوته هم، حسبما أرى، أفراد قبيلته، فلابد أنهم هم بوجه خاص الذين كانت تشير إليهم الآيتان المذكورتان. وللمرء من جهة أخرى أن يتساءل عما إذا كان مؤلف النص يحوز حين كتب شرحه لهاتين الآيتين معلومات صحيحة عن ظروف نزولهما، أو ما إذا كان هذا الشرح مجرد استنتاج من الآيتين.

الاقتباس رقم ٣ (*)

النص:

عُتْبَة بن رَبِيعة الذى كان سيِّدا، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسولُ الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلّمَه وأعْرِضَ عليه أموراً لعلَّه يقبل بعضَها فنعطيه أيَّها شاء، ويكف عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ،فقال: يابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة (أى الشرف) فى العشيرة، والمكان فى النَّسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم وعِبْت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به مَنْ مضى من آبائهم، فأسمع منِّى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد ، أسمَع، قال: يا بن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طَلَبْنا لك الطبَّ

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٩٣ .

وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوَى منه. حتى إذا فرغ عُتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمَعْ منى، قال: أفعل، فقال:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤﴾

[فُصِّلَت: ١ – ٥]

فقام عُـتْبةُ إلى أصحابه فقـال: إنى قد سمعتُ قولا والله مـا سمعتُ مثلَه قـطُّ، والله ما هو بالشِّعـر، ولا بالسِّحر، ولا بـالكهانة، يا معـشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخـلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتَـزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سـمعتُ منه نبأٌ عظيم، فـإن تُصبْه العربُ فـقد كُفيتـموه بغيركم، وإن يَـظْهر على العرب فمُـلكُه مُلْككم، وعزّه عزكـم، وكنتم أسعد الناس بـه. قالوا: سَحَرك والله يا أبـا الوليد بلسانه ؛ قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

ملحوظات :

أ) العرض الذى يقول النص إن عُتْبة بن ربيعة عرضه على محمد ﷺ لايمكن أن يُحْمل على مَحْمَل الجد. أن تكون قريش أو قبيلة رسول الله ﷺ قد فكرت فى أن تعـرض عليه صلوات الله وسلامه عليـه مبلغا من المال ليكـف عنهم، شيء من الممـكن تصوره. أمـا أن تعده قـريش بأن تجعله أكثرها مـالا، فهو أمر يخالف العقل. وأما أن تسـود عليها الرجل الذى فرَّق جماعتهم، وسفَّه أحلامهم، وعاب آلهتهم ودينهم، وكَفَّر من مضى من آبائهم، فهو ما لايمكن تصوره، ليس فقط بالنسبة لأهل مكة،

بل أيضا بالنسبة لكل عرب الجزيرة؛ لقد رأينا فى التاريخ رجالا ممتازين تختارهم أقوامهم ليسودوا مدينة أو بلدا كرؤساء أو ملوك، ورأينا قادة عسكريين أو زعماء ثوريين يستولون على السلطة بالقوة، ورأينا السلطة تنتقل من يد إلى يد حين تؤيد أغلبية الشعب رئيسا معينا، لكننا لم نر أبدا طبقة حاكمة تتخلى باختيارها عن السلطة لصالح رجل تخالفه الأغلبية، مبادئه تعتبر مبادىء هدامة، ولا يستند إلى تأييد شعبى معروف. وأما العرض الخاص ببذل الأموال لمعالجته إن كان الذى يأتيه رَئِيًّا لا يستطيع ردّه عن نفسه، فهو تخريف لا يستحق أن يؤخذ بعين الاعتبار، فكيف يمكن تصور أن تعرض قريش السيادة أو الملك على رجل لديها أى شك فى صحته العقلية.

ب) يقول النص فى صدد هذه الواقعة إن عُتْبة بعد أن سمع خمس آيات من سورة فصلت ذهل لدرجة جعلته يقسم لأصحابه أنها ليست شعرا ولا سحرا ولا كهانة. والذى يفهم من ذهول عُتْبة هو أنه لم يسمع شيئا من القرآن قبل ذلك. والحاصل أن هذه السورة (عند بلاشير) هى السورة الثانية والسبعون من حيث الترتيب الزمنى لنزول سور القرآن، والمفروض أن أحدا من سادة قريش لم يكن وقتها على جهل بألوف الآيات القرآنية التى كان نزولها يقيم الدنيا ويقعدها، والتى كانت قطعا على ألسنة أكثر الناس، مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

ثم إن عديدا من سور القرآن تقول ما تقوله هذه السورة؛ كذلك فللمرء أن يتساءل: كيف كان يمكن لعُتْبَة ولغيره من سادة قريش وأشرافها يدركون الخطر الذى كان يمثله محمد ﷺ على مؤسساتهم أن يعرضوا عليه العرض، الذى لم يسمع بمثله، الذى عرضوه عليه إن لم يكونوا على علم بجميع السور الاثنتين والسبعين التى كانت السر فى قوته، أو بجزء منها.

جـ) من الغريب أن تقديم عرض عُتْبة، وكذلك عرض قريش، للرسول لم يتم، كما يقضى المنطق، قبل أن تتخذ قريش قرارها، بناء على اقتراح الوليد بن المغيرة، بتحذير الحجاج من سحر ما جاء محمد ﷺ به من قول، بل بعد اتخاذ هذا القرار، وذلك لتفادى أن يتساءل الحجاج (لو أن محمدا ﷺ قبل عرضهم بجعله ملكا): «كيف يُنَصِّبُون اليوم عليهم ملكا كانوا يقولون بالأمس إنه ساحر؟».

د) لا يشرح النص لماذا لم يسلم عُتبة بدين محمد عليه الصلاة والسلام وقد أعجبه القرآن الذى أتى به أيما إعجاب، وتوقع له نجاحا كبيرا بين العرب.

هـ) من المحتمل جدا أن قول عُتْبة الذى مؤداه أن القرآن ليس شعرا ولا سحرا ولا كهانة يستند إلى استعارة من القرآن هى التى ذكرتها تحت «أ» من تعليقى على الاقتباس رقم «١».

الاقتباس رقم ٤ (*)

النص:

كان النَّضْر بن الحارث بن عَلْقَمة بن كَلْدَة بن عبدمناف من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث الفرس وأحاديث رُسْتم واسفنديار. فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا، فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن، وحذّر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية، خَلَفه فى مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رُسْتم السنديد، وعن اسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا منى، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبتها. فأنزل الله فيه قوله تعالى:

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٠٠، ٣٥٨.

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ⑤ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ ﴾
[الفرقان: ٥ - ٦]

ونزل فيه قوله تعالى:

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ⑮ ﴾ [القلم: ١٥]

ونزل فيه قوله تعالى:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧ ﴾ [الجاثية: ٧ - ٨]

وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن.

ملحوظات:

أ) التأكيد بأن جميع الآيات التى وردت فيها عبارة «أساطير الأولين» إنما تشير إلى النَّضْر بن الحارث تأكيد بلا أساس. إن المرء، إذا كان كافرا، لم يكن بحاجة للسفر إلى فارس وتعلم تاريخ ملوكها وشخصياتها الأسطورية ليقول عن قصص الأنبياء والقيامة والحساب والجنة والنار إنها أساطير الأولين. ومن المؤكد أن عشرات أو مئات من الكفار استخدموا هذا التعبير من تلقاء ذاتهم للتعبير عن شكوكهم فيما يتعلق بالقرآن.

ب) ورد تعبير «أساطير الأولين» فى ثمانى سور، سبع منها مكية وواحدة مدنية. وفيما يلى الآيات التى ورد فيها خارج الحالتين اللتين ذكرهما النص:

قال تعالى:

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾ [المؤمنون: ٨٢ – ٨٣]

وقال تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾

[النمل: ٦٧ – ٦٨]

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾

[النحل: ٢٤]

وقال تعالى:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) ﴾ [الأحقاف: ١٧]

وقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾ [الأنعام: ٢٥]

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) ﴾ [الأنفال: ٣١]

فى جميع هذه الآيات، ما خلا آية سورة الأحقاف، استخدمت صيغة الجمع وهو ما يعنى أن الذى تحدث عن أساطير الأولين أشخاص عديدون. ومن جهة أخرى فإن آية سورة الأحقاف التى يتحدث فيها شخص إلى أبيه وأمه تشير إلى قصة ليست على الإطلاق قصة رجل يرد على رسول الله ﷺ. بقيت الآية ١٥ من سورة القلم، وصيغة المفرد فيها لا تعنى بالضرورة شخصا معينا، ومن الممكن جدا أن تكون الإشارة فيها إلى هذا أو ذاك من الكفرة المتشككين.

حـ) صورة النَّضْر بن الحارث فى هذه الظروف، باعتباره رجلا شيطانيا وخصما عنيدًا لرسول الله ﷺ ،لايمكن التوفيق بينها وبين صورة أعطاها النص عنه فى موضع آخر هو الذى يتحدث فيه النص عن محاولة أبى جهل الفاشلة فى فضخ رأس رسول الله ﷺ بحجر وهو يصلى، وما قاله لقريش من أنه لما دنا من الرسول ﷺ عرض له دونه فحل من الإبل لم ير مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قطُّ، وأن هذا الفحل هم به أن يأكله. فقد قام النضر بن الحارث فقال: يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حَدَثا أرضاكم فيكم، وأصدَقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به،قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعَقْدهم به، وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالُجهم وسَمِعْنا سَجْعهم، وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمِعْنا

أصنَافَه كلهـا: هزَجه ورَجزه؛ وقلتـم مجنون، لا والله ما هو مـجنون، لقد رأينا الجنون فمـا هو بخَنْقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا مـعشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم [1].

الاقتباس رقم ٥ [2]

فلما قال لهم ذلك النَّضْر بن الحارث بعثـوه، ويعثوا معه عُقْبَة بن أبى مُعَيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهـما: سَلاهم عن محمد، وصِفَا لهم صِفَتَه، وأخبـراهم بقوله، فإنهم أهـلُ الكتاب الأوّل، وعندهم عِلْم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصَفَا لهم أمْره، وأخـبراهم ببعض قـوله، وقالا لهم: إنكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم لتُخْبـرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار اليـهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبـركم بهنّ فهو نبى مُرْسَل، وإن لم يفـعل فالرجل مُتَقَوِّل، فَرَوْا فيـه رأيكم. سَلوه عن فتـية ذهبوا فى الدهر الأوَّل مـا كان أمرهـم، فإنه قد كـان لهم حديث عجب، وسَلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ينبئـه، وسَلوه عن الروح ما هى؟ فإذا أخبركم بذلك فاتَّبـعوه، فإنه نبى، وإن لم يفعل، فـهو رجل مُتَقَوِّل، فاصنعوا فى أمـره ما بدا لكم. فـأقبل النَّضْر بن الحـارث، وعُقْبة بن أبى مُعـيط حـتى قدمـا مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحـبارُ يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فـإن أخبركم عنها فهو نبى، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، فَرَوْا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله ﷺ، فـقالوا: يا محمد أخبرنا عن فـتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانـت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طـوّافا قد بلغ

(١) ، (٢) السيرة ، القسم الأول ، ص٢٩٩ ، ٣٠٠

مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحْدِث الله إليه في ذلك وَحْيا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعَدَنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مُكثُ الوحي عنه، وشَقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة: ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حُزْنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الله الفتْيَة، والرجل الطواف، والروح. وقال رسول الله لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤتُ ظنًّا، فقال له جبريل:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤]

ثم نزل قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ

فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ

مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾ [الكهف: ١ - ٢٦]

وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطَّوَّاف:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾

[الكهف: ٨٣ - ٨٥]

حتى انتهى إلى آخر قصة خبره.

وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتى ما لم يُؤْت أحدٌ غيره، فَمُدَّت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها لا يطأ أرضا إلا سُلِّط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخَلْق.

قال ابن إسحاق: فحدثنى من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علمه: أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر، اسمه مَرْزُبان ابن مَرْذبة اليونانى، من ولد يونان بن يافث بن نوح.

قال ابن هشام: واسمه الإسكندر، وهو الذى بنى الإسكندرية فنُسبت إليه.

وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء: ٨٥]

ملحوظات:

يثير تقديم هذه الاقتباسات والشروح المتعلقة بها الملحوظات الآتية:

أ) على الرغم أن الاقتباسات القرآنية الواردة هنا هى أطول اقتباسات فى الجزء المكى من السيرة، فإن الصلة بينها وبين حياة الرسول وعمله معدومة فى الواقع.

ب) فيما عدا السطور التى تشرح الظروف التى نزلت فيها الآيات المقتبسة، فإن تعقيب النص ليس تعقيبيا تاريخيا بمعنى الكلمة. إنه مجرد تفسير لقصة تتحدث عن أحداث وشخصيات بَعُدَ العهد بها كثيرا.

جـ) الشرح المتعلق بذى القرنين لا يشرح شيئا فى الواقع. وكل ما يفهم منه هو أن هذا الشخص هو الإسكندر، حفيد نوح!

د) مادامت سورة الكهف تجيب، طبقا للنص، على المسائل الثلاث التى طرحتها قريش على محمد ﷺ، فقد كان المفروض أن يذكر النص ردود فعل قريش على الإجابات التى وردت بها، لكن النص لايذكر شيئا عن ردود الفعل المذكورة.

هـ) مادام اختيار قريش قد وقع على يهود المدينة كمستشارين، ومادامت أسئلتهم قد طرحت على محمد ﷺ، فقد كان المفروض أن تعرض الآيات القرآنية التى أجابت على هذه الأسئلة عليهم كى يقرروا ما إذا كان محمد ﷺ، على أساسها، رسول حقيقى أم كذّاب. لكن شيئا فى النص لم يَرِد عن هذا القرار على الرغم من يشكل موضوع الاستشارة والنقطة الأساسية فى كل الشرح الذى تضمنه النص.

و) شرح هذا الاقتباس يُوحى بأن كلام جبريل عليه السلام بشأن فتور الوحى الذى حزن له الرسول ﷺ والإجابات عن الأسئلة الثلاثة اليهودية

المصدر التى طرحتها قريش على محمد ﷺ نزلت معا. والحاصل أن كلام جبريل وارد فى سورة مريم وترتيبها هو الستون عند بلاشير؛ أما الرد على الأسئلة المتعلقة بالفتية وذى القرنين فوارد فى سورة الكهف وترتيبها عند بلاشير هو السبعون. أخيرا فإن الرد على السؤال المتعلق بالروح وارد فى سورة الإسراء، وترتيبها عند بلاشير الرابعة والسبعون. أى أن هناك فارقا كبيرا فى ترتيب السور، فضلا عن فارق زمنى مدته عدة شهور بين الآيات التى تردّ على عناصر هذا الاستبيان.

ز) هناك إذن محل لاعتبار أن قصة المبعوثَيْن اللذين أوفدتهما قريش إلى أحبار المدينة، والأسئلة التى طرحت على محمد ﷺ، ووعده بالرد إذا كان الغد، اختلاق تخيله المؤلف انطلاقا من المادة الواردة فى سورة الكهف عن أهل الكهف، وعبارة: «ويسألونك عن ذى القرنين»، من الآية ٨٢ من السورة ذاتها، وعبارة «ويسألونك عن الروح» من الآية ٨٧ من سورة الإسراء.

الاقتباس رقم ٦ (*)

النص:

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قالت أحبار يهود: يا محمد، أرأيت قولكَ: «وما أُوتيتُم من العِلْم إلا قليلا». إيانا تريد، أم قومك؟ قال: كُلا؛ قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنَّا قد أُوتينا التوراة فيها بيانُ كل شىء. فقال رسول الله ﷺ: إنها فى عِلْم الله قليل، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتُمُوه. فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان: ٢٧]

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٠٨.

أى أن التوراة فى هذا من علم الله قليل.

ملحوظتان:

أ- يقول النص إن الواقعة التى أدت إلى نزول هذه الآية حدثت فى المدينة. وليس من الواضح لماذا تناولها فى إطار الفترة المكية.

ب- العلاقة ليست واضحة تماما بين الواقعة والآية المذكورة التى تشبه كثيرا من آيات القرآن التى تتحدث عن قدرة الله.

الاقتباس رقم ٧ (١)

النص:

وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض، وبعث من مضى من آبائهم من الموتى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا (٣١) ﴾ [الرعد: ٣١]

أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت.

ملحوظة:

تقديم هذا الاقتباس هو فى الواقع مجرد تفسير للآية حوّله النص إلى مادة تاريخية.

الاقتباس رقم ٨ (٢)

النص:

وأُنزل عليه فى قولهم: خُذْ لنفسك، ما سألوه أن يأخذ لنفسه، أن يجعل له جِنانا وقصورا وكنوزا، ويبعث معه مَلَكا يصدّقه بما يقول، ويردّ عنه:

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٣٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٩.

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ⑧ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ⑨ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ⑩ ...... ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ⑳ ﴾ [الفرقان: ٧ - ١٠ و٢٠]

ملحوظة:

تقديم هذا الاقتباس هو فى الواقع مجرد تفسير للآية، حَوَّله النص إلى مادة تاريخية.

الاقتباس رقم ٩ (*)

النص:

وأنزل الله عليه فيما قال عبدالله بن أُمَيَّة بن المُغيرة من أنه لن يؤمن به أبدا حتى يتخذ إلى السماء سلما، ثم يرقى فيه وهو ينظر إليه حتى يأتيها ثم يأتى معه أربعة من الملائكة يشهدون له إنه كما يقول، ومن أنه حتى لو فعل ذلك فلن يصدقه:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ⑨⓪ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ⑨① أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ⑨② أَوْ

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩٨، ٣٠٩.

يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾
[الإسراء: ٩٠ – ٩٣]

ملحوظة:

التقديم، الذى يشير إلى كلام عبدالله بن أمية، ليس فى الواقع إلا نقلا لا يضيف سوى اسم شخص للآيات المذكورة. ويلاحظ أن هذا القرشى، الذى كانت أمه ابنة عبدالمطلب، قد أسلم فيما بعد، خلافا لمعظم من وردت أسماؤهم فى الاقتباسات القرآنية، وقتل خلال حصار الطائف فى الفترة المدنية.

الاقتباس رقم ١٠ (*)

النص:

أنزل عليه فى قولهم: إنا قد بَلَغَنا أنك إنما يُعَلِّمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، ولن نؤمن به أبدًا:

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾ [الرعد: ٣٠]

ملحوظتان:

أ) تقديم هذا الاقتباس لا يتمشى مع معنى الآية، فإن من لم يكن يؤمن به القرشيون فهو رجل، أما من يلوم القرآن القرشيين على عدم الإيمان به فهو الله سبحانه وتعالى.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١١

ب) إذا افترضنا أن ما كانت قريش تريد أن تقوله هو: «نحن لا نؤمن بمن تقول إنه الرحــمن لأنه، طبقا لمعلوماتنــا، ليس إلا رجلا» ، لكانت تلك الملحوظة مفهومة فى البداية الأولى لبعثة الرسول ﷺ حين استخدم اسم الرحمن فى القرآن للمرة الأولى، لكنها غير مفهومة فى نهاية الفترة المكية بعــد أن استخدم هذا الاسم، الذى نجده أيضــا فى بداية كل سورة من سور القــرآن، عشر مرات، فــإن سورة الرعد التى وردت فيــها هذه الآية هى آخر سور القرآن المكى.

الاقتباس رقم ١١ (*)

النص:

وأنزل عليه فيما قال أبوجهل بن هشام، وما هَمّ به (حين أراد أن يفضخ رأس رسول الله ﷺ بحجر):

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩) ﴾ [العلق: ٩ - ١٩]

ملحوظات:

أ) الآيات المذكــورة جزء من سورة أنزلت فــى الفترة المكــية الأولى، وهى الفترة التى يقول النص إن الرســول ﷺ كان يدعو فيها إلى الله فى الخفاء. والمفــروض إذن أن أبا جهل كان يجهل خلالهــا هذه الدعوة وأنه بالتالى لم ينه أحدا من المسلمين عن الصلاة.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣١١ .

ب) المنع الموجه إلى رسول الله ﷺ فى آخر الآية المذكورة من إطاعة «الَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ» يُفهم منه أن هذا الشخص كانت له على الرسول سلطة تسمح له بأمره أو نهيه. وهذا يؤيد الافتراض الذى طرحته وقرينة أن أول من أبلغهم الرسول ﷺ برسالته هم رؤساء قبيلته، ويسمح بتصور أن آيات هذا الاقتباس تشير إلى واحد من سادة بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم وأشرافهم، ولعله أبولهب.

جـ) يلاحظ أن أبا جهل، فيما يقول النص، قُتِل فى بدر وكان الذى قتله رجلان من الخزرج ومهاجر.

الاقتباس رقم ١٢ (*)

النص:

وأنزل الله تعالى فيما عرضوا عليه من أموالهم:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ: ٤٧]

ملحوظات:

أ) تقديم هذه الآية لا يتضمن عرض مال كان الكفار قد عرضوه على محمد ﷺ من تلقاء أنفسهم.

ب) فكرة أن كل الخير الذى يعرضه الرسول ﷺ على الناس معروض مجانا وبلا مقابل واردة، فى العبارة ذاتها، تقريبا، فى الآيات التالية:

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١٣ .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور: ٤٠]

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾ [ص: ٨٦]

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾

[الفرقان: ٥٧]

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾

[يوسف: ١٠٤]

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) ﴾ [الشورى: ٢٣]

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾ [الأنعام: ٩٠]

وواضح من هذا أن أول مرة ذكر فيها هذا القول كانت فى سورة الطور؛ التى نزلت فى الفترة المكية الأولى، وأنه تكرر طوال هذه الفترة. وليس فى لغة أية آية من هذه الآيات ما يؤيد المعنى الذى يقترحه النص.

جـ) حجة المجَّانية فى القرآن، حجة كان الانبياء السابقون على محمد ﷺ يقولون بها دائما فى دعوتهم. وفى سورة الشعراء وحدها، استخدمها نوح عليه السلام فى الآية:

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾

[الشعراء: ١٠٩]

ثم استخدمها هود وصالح ولوط وشعيب بنصّها فى الآيات ١٢٧ و١٤٥ و١٦٤ و١٨٠، كما وردت فى [illegible] [illegible]:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]

د) عرض الثروة، طبقا للنص، كان واحدا من ثلاثة عروض عرضتها قريش على محمد ﷺ، وكان العرضان الآخران هما: عرض بجعله سيدهم أو بتمليكه عليهم، وعرض بالتماس الأطباء له. وإذا صح أن الآية التى اقتبسها النص تشير إلى عرض الثروة والمال، فقد كان المنتظر أن تتضمن الآية المقتبسة أيضا إشارة إلى العرضين الآخرين، لا سيما العرض بجعله سيدهم أو ملكهم، لكن هذه الآية لم يرد فيها شىء عن العرضين المذكورين.

هـ) نحن هنا، إذن، بإزاء تفسير خاطىء لآية قرآنية، بنى عليه النص مادة تاريخية.

الاقتباس رقم ١٣ (*)

النص:

قال أبوجهل يوما وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعمُ محمد أنما جنود الله الذين يعّذبونكم فى النار ويَحْبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددا وكَثْرةً، أفيعجِزُ كلُّ مئة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من قوله:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر: ٣١]

إلى آخر القصة.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١٣.

ملحوظات:

أ) الإشارة هنا هى إلى الآيات الآتية من السورة ذاتها:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾ [المدثر: ٢٧ - ٣٠]

ب) الآية ٣١ لا تتجه فقط إلى الكفار، بل تتجه أيضا إلى أهل الكتاب وإلى المؤمنين، وهذا ثابت بوضوح من الجزء التالى من الآية الذى أحال إليه النص دون أن يذكره:

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١)﴾ [المدثر: ٣١]

جـ) السورة التى تتضمن الآية ٣١ هى واحدة من أوائل سور الفترة المكية، أى فترة الاستخفاء المزعومة. وهى تؤكد رأيى الذى مؤداه أن هذه الفترة لم يكن لها قط وجود، وتدل على أن مؤلف النص أخطأ بوضع الآية المذكورة فى فترة لاحقة على تلك التى نزلت فيها.

الاقتباس رقم ١٤ (*)

النص:

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلى، يتفرقون عنه، ويأبون أن يستمعوا إليه، فكان الرجل منهم

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١٣، ٣١٤.

إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يُصلى، استرق السمَع دونهم فَرَقًا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خَشْية أذاهم فلم يستمع، وإن خفض رسولُ الله ﷺ صوته، فظَّن الذى يستمع إليه أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته، وسمع هو شيئا دونهم، أصاخ له يَسْتمع منه. وقد أنزلت آية:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) ﴾

[الإسراء: ١١٠]

من أجل أولئك النفر.

ملحوظات:

أ) من الصعب تصور شخص يستمع فى المسجد إلى الرسول ﷺ وهو يتلو القرآن بصوت منخفض فى صلاته دون أن يفطن إلى ذلك الأشخاص الموجودون فى المسجد.

ب) الاستماع إلى رسول الله ﷺ وهو يؤدى صلاته، لم يكن الوسيلة الوحيدة لمعرفة القرآن؛ لقد كانت الآيات التى تنزل والتى كان الرسول ﷺ يلقنها لأصحابه تذاع بين الناس أولا بأول، وكانت ألسنتهم تتداولها، كما كانت تتداول ما سبقت إذاعته من سور القرآن وآياته، وكان باستطاعة أى شخص أن يلم بها، دون أن يجعل شخصه موضعا لشبهة، من مئات المسلمين الذين كانوا يقيمون بمكة ومن غيرهم، بل وفى دوائر السلطة. ولابد أن مجلس قريش قد اتخذ من التدابير ما يسمح له بجمع ما هو متداول من القرآن، وأنه كان يبلغ به الشعراء والخطباء وغيرهم من العملاء المكلفين بنقده، أو بالرد على ما جاء فيه أو بتزييفه.

جـ) الصلة بين الأمر الصادر لرسول الله ﷺ بعدم الجهر بصلاته وعدم المخافتة بها، وبين السياق الذى يصفه النص غير واضحة، فلو أن المقصود بهذا الأمر هو السماح للناس بالاستماع إلى القرآن الذى يتلوه رسول الله ﷺ خلال صلاته، لصدر له الأمر بالجهر بصلاته لا ابتغاء سبيل بين الجهر والمخافتة، ومن الصعب أيضا تصور رب العالمين يصدر قاعدة للعبادة لمجرد التستر على الأشخاص الذين كانوا يريدون أن يستمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يراهم الناس.

د- والواقع أن هذا الأمر يرسى قاعدة عامة التطبيق ودائمة، موجهة الى جميع المسلمين فى كل زمان ومكان. والحاصل هنا أيضا أن مؤلف النص فسر آية قرآنية تفسيرا شخصيا، واستخدمها كمادة ذات طابع تاريخى.

الاقتباس رقم ١٥ (*)

النص:

كان رسول الله ﷺ إذا تلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، قالوا يهزءون به: (قُلوبنا فى أكنَّة مما تدعونا إليه»، لا نفقه ما تقول (وفى آذاننا وَقْر)، لا نسمع ما تقول (ومن بيننا وبينك حجاب)، قد حال بيننا وبينك (فاعمل) بما أنت عليه (إننا عاملون) بما نحن عليه، إنا لا نفقه عنك شيئا، فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من قولهم:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣١٦ .

ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) ﴾

[الإسراء: ٤٥ – ٥١]

ملحوظات:

أ) مؤدى تقديم الاقتباس أن رسول الله ﷺ كان يتلو القرآن على قريش. وإذا كان ذلك صحيحا – وأرى أنه صحيح – فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل كل شيء بشيرا ونذيرا، فيحق للمرء أن يرفض المعلومات التي وردت في النص، والتي مؤداها أن الكفار كانوا يحاولون أن يستمعوا إليه دون أن يراهم أحد، كما في تقديم الاقتباس رقم ١٤، وفي الرواية الثانية المتعلقة بإسلام عمر، وفي الخبر الذي يفيد أن أبا سفيان وغيره من سادة قريش، كانوا يذهبون فرادى إلى حيث بيت الرسول صلى الله عليه وسلم تحت جنح الظلام ليلا، ليستمعوا إليه من وراء الجدران، وهو يتلو القرآن في صلاته .

ب) تقديم الآيات هو في الواقع ببساطة نقل للآية ٤٦ من الاقتباس الراهن وللآية:

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت: ٥]

وهذه حالة من حـالات عديدة سرق فـيها النص مادة مـن القرآن ثم استخدمـها ، دون ذكر المصدر ، لتقديم شيء فـي القرآن أو لعرض بعض الوقائع .

الاقتباس رقم ١٦ (*)

النص :

قال أبو قحافة لأبي بكر : يابنيّ، إني أراك تُعْتِق رقابا ضِعَافا، فلوأنك إذ فعلت أعتقت رجالا جُلْدًا يمنعونك ويقومون دونَك؟ فقال له أبو بكر، رضي الله عنه: يا أبت، إني إنما أُريـد ما أُريد، لله عزّ وجلّ. فيـتحدث أن الآيات التالية نزلت فيه وفيما قال له أبوه:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ٥ – ٢١]

ملحوظات :

تقديم هذا الاقتباس يثير الملحوظات الآتية:

أ) النص يضع هذا الاقتباس في الفترة الثالثة، مع أنه يرجع إلى الجزء الأول من الفترة الأولى.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣١٩ .

ب) العلاقة بين شراء الرقاب وعتقها وبين آيات هذا الاقتباس غير واضحة، والواقع أن هذه الآيات لم تنزل فى مناسبة معينة، بل هى من الآيات التى تقرر مبادىء كبرى فى الإسلام. ومحتواها وارد فى عشرات من الآيات الأخرى.

جـ) ليس من المؤكد أن قريشا كانت قد بدأت فى اضطهاد المسلمين فى التاريخ الذى نزلت فيه هذه السورة، وأن أبا بكر كان قد بدأ فى شراء العبيد لإنقاذهم من التعذيب.

د) إذا كان والد أبى بكر قد أبدى الرأى الذى يذكره النص، فمن المؤكد أن ذلك قد تم فى حديث خاص، بعيدا عن أسماع الشهود.

هـ) من الغريب أن الشرح مع الإشارة إلى أبى بكر وأبيه لا يتناول سوى آيتين من آيات السورة، وألا يذكر النص شيئا عن الظروف التى نزلت فيها باقى الآيات.

و) إذا كان شرح هذا الاقتباس يبدو فى الظاهر وكأنه ثناء على أبى بكر، إلا أنه يبرز كذلك حقيقة أن أبا قحافة والده لم يسلم كابنه. ويشرح النص، فى جزئه المدنى، أن أبا قحافة لم يسلم إلا بعد فتح مكة، أى أنه لم يكن خيرا من أغلبية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الساحقة.

الاقتباس رقم ١٧ (*)

النص :

كان أبولهب، عم الرسول ﷺ، يقول فى بعض ما يقول: يَعدنى محمد أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع فى يدىّ

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٥١ ، ٣٥٥.

بعد ذلك؟ ثم ينفخ فى يَدَيْه ويقول: تَبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد. ومن جهة أخرى كانت أم جميل، امرأة أبى لهب، تحمل الشوك وتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر.

فأنزل الله تعالى فيهما:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [سورة المسد]

ملحوظات:

أ) السورة المذكورة، التى وضعها النص فى الفترة الثالثة، ترجع فى الواقع إلى الفترة الأولى، ويتضح منها أن الخلاف بين أبى لهب ومحمد ﷺ بدأ فى هذه الفترة التى يصورها النص على أنها فترة هادئة الحدث الوحيد الهام الذى حَدَثَ فيها هو وعد أبى طالب لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه سيحميه.

ب) هذه السورة على قدر كبير من الأهمية، نظرا إلى أنها السورة الوحيدة فى القرآن التى ذكر فيها واحد من الكفار فى زمن رسول الله ﷺ بالاسم والتى كان هذا الكافر وزوجه موضوعها الوحيد، والتى يحكم الله عز وجل عليهما فيها بالنار.

جـ) لابد أن نزول هذه السورة كان حَدَثًا من أهم أحداث الفترة المكية، نظرا للمكانة التى كان يتمتع بها أبولهب، عم الرسول ﷺ وخصمه، وامرأته، فى مكة، وكان من الواجب بالتالى أن يعالج مؤلف النص هذه السورة من جميع نواحيها بأكبر قدر ممكن من التفصيل، وبخاصة فيما يتعلق بالصدى الذى أحدثته فى مكة، وما

وراءها، وبالأثر الذى تركتـه فى قريش فى مجموعهـا، من جهة، وفى أبى لهـب وزوجه، من جـهة أخـرى. لكن شـيئـا من هذا لـم يرد فى النص.

د) الشـرح الوارد فى الـنص بشـأن الملابسـات التـى أدت إلى نزول السورة يفتقر إلى الجدية. فهو لا يقول إن أبا لهب كان شريرا فى تعامله مع رسول الله ﷺ أو أنه أسـاء إليه، وكل ما يقوله هو أنه، شـأن معظم قريش، كان يشك فى البعث بعد المـوت. والعمل الذى ارتكبته امرأته – أى طرح الشوك على طـريق الرسول ﷺ – لا يمثل اعتـداء خطيرا على الرسول، الذى كان باستطاعته أن يتفاداه أو أن يتخذ طريقا آخر.

ولـم يشرح النص لمـاذا لم يصدر حكم نهائى بالعـذاب فى النار على من ارتكبوا أعمالا هينة كالأعمال التى ارتكبها أبولهب وزوجته، مع ذكر أسمـائهم؟ مع أن الأشخـاص الذين ارتكبـوا أعمالا أخطر، لـم يصدر عليهم مـثل هذا الحكم ،وأتيحت لهم الـفرصة كى يتوبوا ويهـتدوا إلى الإسلام.

هـ) من الواضح أن الواقعة التى يرويها النص، أى نفخ أبى لهب فى يديه وقوله لهما: «تَبا لكما، ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد»، مجرد حيـلة تخيـلها النص، لإقـامة عـلاقة بيـن هذه الكلمـات وأول آية فى السورة، أى تلك الـتى تقول: «تبت يدا أبى لهب وتـب». والقول ذاته يصدق على زوجـه التى تُصور وهى تحمـل حِزْمة من الأشواك تطـرحها على طريق الـرسول صلى الله عليـه وسلم (وقد كان بوسـعها مـثلا أن تكلف بهذه المهمـة أحد عبيدها) لإقامة الصلة بـين هذه الصورة والآيتين الأخيرتين، اللتين تصورانها، وهى تحمل الحطب فى جهنم.

و) من الغريب أن شخصية هامة كشــخصية أبى لهب تختفى تماما من مسرح الأحــداث فى مكة بعد حــديث المشادة التى قامت بــينه وبين بنى مخزوم لأن أبا طالب أجار أبا سلَمة ابن أخته.

ز) للمرء، نظرا لمــا سبق، أن يشك فيمــا ورد فى النص عن الظروف والملابســات التى أدت إلى نزول سورة المــسد. وإدانة أبى لهب وامــرأته هذه الإدانة الصــارمة تفترض، كــما ذكرتُ فيــما سبق، أنه كــان شديد الفظاظة مع ابن أخــيه، حين اتصل بــه رسول الله ﷺ هو وأفراد قبــيلته الآخرين فى بداية مبعثه، ليبلغهم أنه مرسل من الله تعالى.

لقد كان أبــولهب، الرجل الغنى ذو المال، على الأرجح، سـيدا لبنى عبدالمطلب، أو لــبنى هاشم، ولابد أنه كان بصفتــه هذه عضوا بارزا فى مجلس الحكم بالمدينة. ولابد أنه فهم فى وقت مبكر الخطر الذى تنطوى عليه رسالة محــمد ﷺ بالنسبة للنظام العام ولمكة، العاصــمة الاقتصادية والتجارية والروحية للجزيرة العربية، ولابد أن أكثر من مُشَادَّة نشبت بينه وبين ابن أخــيه. ولابد أنه، فى الوقت ذاته، اســتخدم نفــوذه كله لدى قبيلته كى تضطهد محمدا ﷺ وأخاه حمزة وابنى أخيه على وجعفر بشدة أدت إلى قلة أفــراد بنى عبــدالمطلب وبنى هاشم الــذين اعتنقــوا الإسلام خلال الفــترة المكية؛ ولابد أنه تبــرأ علانية من ابن أخــيه باعتبــاره ممثلا لقبيلتــه فى مجلس القبائل، وذلك خــدمة لمصلحته الخاصــة، ومصلحة قبيلته وبصفته واحدا من القائمين على حماية الدولة.

ولابد أنه، لهــذه الاعتبارات كــلها، كان أعــتى من غيره من أعــضاء المجلس فى الحــملة على دين الإســلام، الذى كان يعــتبره كــفرا، وفى محاربته علــى جميع الجبهات. ولابد أن امرأته كــانت شريكة له فى كل أعمــاله، وأن هذا كان السبب الــذى جعل القرآن يديــنها ويصدر عليــها الحكم القاطع الذى نطقت به ضدها سورة المسد.

ح- من المحقق أن نزول سورة المسد في مجتمع بدائي المعتقدات كالمجتمع المكي في ذلك الوقت أحدث وقعا عميقا في نفوس الناس ولابد أن قلوب خصوم رسول الله ﷺ - حتى أشدهم، وقلوب الكفار حتى أقلهم تقبلا لرسالته - تملكها الفزع لدى الاستماع إلى تلك السورة؛ ولاشك في أن أحدا من الرجال أو النساء في مكة يعلم أن المسلمين يتلون هذه السورة يوميا في صلواتهم وخارج هذه الصلوات ما كان يحبّ أن يتعرض لمصير أبي لهب وامرأته أو أن يكون موضوعا لإدانة كتلك التي صدرت في حقهما؛ ومن ثم فلابد أن هذه السورة أحدثت أثرا ردعيا على الأشخاص الذين كانت أنفسهم تحدثهم بالاعتداء على رسول الله ﷺ ، أو الذين كانوا يؤجرون لذلك.

ط) ليس من المستبعد، كما سبق أن ذكرت، أن يكون في الآيات:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) ﴾ [البروج: ٤-٩]

إحالة إلى أعمال ارتكبها أبولهب أو أمر بارتكابها ضد المسلمين، بما فيهم مسلمو قبيلته، وأن تكون تسميته بأبي لهب (وكان الاسم الذي أطلقه عليه أبوه عبدالمطلب هو عبد العُزَّى) قد نشأت عن مثل هذه الأعمال. ومما لا يخلو من طرافة ومن مغزى، في هذا الصدد، أن النص يعزو هذه التسمية إلى أن أبا لهب كان وضيء الوجه.

ي) أدخل مؤلف النص على صورة أبي لهب تحسينات (من نوع «الرتوش» التي يُجملُ بها المصورون صور من يرسمونهم)، بعدة طرق:

- بالتخفيف من جسامة الجرائر التي أدت إلى الحكم عليه بالنار.

- بإضافة جوانب إيجابية لشخصه.

- بتقليل المساحة المخصصة للحديث عنه فى تاريخ الفترة.

- بإسناد أقوال وأفعال أخطر وأكثر عددا من تلك التى أدين من أجلها لأشخاص آخرين من قريش فى شرح الظروف التى نزلت فيها آيات قرآنية أخرى اقتبسها النص.

والظاهر أن الغرض من هذه «الرتوش» هو الإيحاء بأن الإدانة التى صدرت ضد أبى جهل فى سورة المسد كانت قاسية أكثر من اللازم، فالنص يقول فى الواقع، فيما يبدو، أن أبا لهب لم يكن أسوأ الرجال ولا أكثر خصوم الإسلام ضراوة.

ك) وحاصل الأمر هو أن النص يكره أن يقدم فردا من أفراد قبيلة الخليفة العباسى بالصورة التى تصوره بها السورة المذكورة، أى باعتباره أعدى أعداء الإسلام.

الاقتباس رقم ١٨ (*)

النص:

كان أُمية بن خَلَف بن وَهْب إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزَه ولمزَه، فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) ﴾ [سورة الهمزة]

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥٦.

ملحوظات:

أ) كل ما فعله النص هو أن نقل الآية الأولى من السورة، بما فى ذلك كلمتا «هُمَزَة لُمَزة»، وهما كلمتان ليستا من المفردات التى كانت شائعة، وألصق بهما اسما لشخص.

ب) كلمة «لكُل» تعنى «كل شخص»، لا شخصا واحدا معينا، كما يزعم التقديم.

جـ) السورة المقتبسة هى من سور الفترة الأولى، وهى تثبت أن الانتقادات، التى يرد عليها القرآن، ترجع إلىٰ هذه الفترة، لا إلى الفترة الثالثة، كما يدعى النص.

د) يلاحظ أن أُمَيَّة بن خَلَف، كما يذكر خبر بدر فى النص، قُتِل فى هذه الغزوة، وكان الذى قتله رجل من الأنصار من بنى مازن أو ثلاثة من الخزرج.

الاقتباس رقم ١٩ (*)

كان خَبَّاب بن الأرتّ، صاحبُ رسول الله ﷺ، قَيْنًا بمكة يعمل السيوفَ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفا عملها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه فقال له: يا خَبَّابُ أليس يزعمُ محمد صاحبُكم هذا الذى أنت عَلى دينه أن فى الجنة ما ابتغَى أهلها من ذهب، أو فضة، أو ثياب، أو خدم؟ قال خَبَّاب: بلى. قال: فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خَبَّاب، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حَقَّك. فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خَبَّاب آثَرَ عند الله منى، ولا أعظم حَظا منى فى ذلك. فأنزل الله فيه:

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٥٧ .

﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠]

ملحوظات:

أ) ليست هنا علاقة واضحة بين الواقعة التى يرويها التقديم والآيات المقتبسة. وليس فى الآية ٨٠ إشارة إلى أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة.

ب) فى مدينة تجارية كمكة، لابد أن المَدِين الذى يرفض سداد دينه، مع اعترافه به، كان يتعرض لسوء السمعة، وأن الدائن كان لديه من الوسائل القانونية ما يسمح له بالحصول على حقه. لذلك فإن المنظر الذى يصوره التقديم مشكوك فى صحته.

جـ) النص لا يورد ردا طبيعيا لابد أن خبابا رد به على العاص بن وائل: أن العاص، لأنه كافر، لن يكون معه يوم القيامة فى الجنة.

د) كان العاص بن وائل أبا عمرو بن العاص، حاكم مصر فى عهد معاوية، وكان من أقرب الأعوان إلى معاوية، كما كان الحكَم الذى ثَبَّته فى الخلافة بعد معركة صِفِّين سنة ٣٧ هـ.

الاقتباس رقم ٢٠ (*)

النص:

لقى أبوجهل بن هشام رسولَ الله ﷺ فقال له: والله يا محمد، لتتركنّ سبّ آلهتنا، أو لَنَسُبَّنَّ إلهك الذى تعبد. فأنزل الله تعالى فيه:

(*) السيرة، القسم الأول، ص٣٥٧.

﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ (١٠٨) ﴾ [الأنعام : ١٠٨]

فكفَّ رسولُ الله ﷺ عن سب آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله.

ملحوظات :

أ) لا يعطى النص أى مثل للألفاظ التى تقول إن رسول الله ﷺ كان يَسُبُّ بها آلهة قريش؛ لذلك فمن المستبعد أن يكون الرسول ﷺ هو الذى كان يتجه إليه الخِطَابُ فى الآية المذكورة.

ب) فعل «يَسُبُّ» ورد فى الآية بصيغة الجمع؛ لذلك فإن الآية إنما تتجه على الأرجح إلى المسلمين.

جـ) كل ما فعله النص، فى الواقع، هو أن نقل ما ورد فى الآية وأضاف إليه اسما لشخص.

الاقتباس رقم ٢١ (*)

النص :

جلس رسول الله ﷺ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النَّضْر بن الحارث، حتى جلس معهم فى المجلس، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلَّم رسولُ الله ﷺ ، فعرض له النَّضْر بن الحارث، فكلَّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٥٨ .

لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾ [الأنبياء : ٩٨ - ١٠٠]

ملحوظات :

أ) ليست هناك أية علاقة بين التقديم والآيات المقتبسة. والنص على أى حال لا يريد أن يقيم مثل هذه العلاقة، وهو يريد أن يقول ببساطة إن رسول الله ﷺ أبلغ الوليد بن المغيرة والنَّضر بن الحارث ورجال قريش الحاضرين، بالآيات الثلاث المذكورة، إنهم سيدخلون النار.

ب) من المستغرب أن هذه الآيات الثلاث هى الآيات الوحيدة من جميع الآيات التى نزلت حتى ذلك اللقاء، التى يقول النص إن رسول الله ﷺ تلاها على كفار قريش.

جـ) من المحتمل أن يكون هدف النص هنا هو الإيحاء بأن أبى لهب لم يكن الوحيد من قريش الذى حكم عليه بدخول جهنم وأن الوليد ابن المغيرة والنَّضر بن الحارث وغيره من القرشيين صدر عليهم الحكم ذاته بلسان محمد ﷺ .

الاقتباس رقم ٢٢ (*)

النص :

ثم قام رسول الله ﷺ ، وأقبل عبدالله بن الزِّبَعْرى السَّهْمىّ حتى جلس؛ فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله بن الزِّبَعْرى : والله ما قام النَّضْر ابن الحارث لابن عبدالمطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَب جهنم، فقال عبدالله بن الزِّبَعْرى: أما والله لو وجدته لخَصَمْته، فسلوا محمدا: أكلّ ما يُعبد من دون الله فى جهنم مع

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٥٩ .

مَنْ عَبَـدَه؟ فنحن نعبدُ الملائـكة، واليهود تعبـد عُزَيرا، والنصارى تـعبد عيـسى بن مريم، فعـجب الوليد، ومن كـان معه فى المجـلس من قول عبدالله بن الزِّبَـعْرى، ورأوا أنه احتج وخاصم. فَذُكـر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزِّبَعْرى، فقـال رسول الله ﷺ إن كل مَنْ أحبَّ أن يُعبد من دون الله فهو مع مَنْ عـبده، إنهم إنما يعبدون الشيـاطين ومن أمرتهم بعبادته، فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾

[الأنبياء : ١٠١ - ١٠٢]

أى عيسى بن مريم، وعُزَيْراً ، ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهـم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله.

ملحوظتان :

أ) ليست هناك أية علاقة بين التقديم والآيات المقتبسة.

ب) معنى هـذه الآيات وارد فى عديد من آيات القـرآن، ولا ينصب على واقعة بعينها.

الاقتباس رقم ٢٣ (*)

النص :

ونَزَّل فيما يذكرون، انهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٦٠ .

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

[الأنبياء : ٢٦ - ٢٩]

ملحوظة :

التقديم لا يتمشى مع منطوق الآيات المقتبسة، وهو فى الواقع ليس إلا تفسيرا مفتعلا للآيات حَوَّلَه النص إلى مادة تاريخية سابقة.

الاقتباس رقم ٢٤ (*)

النص :

ونزَّل فيما ذكر من أمر عيسى بن مريم أنه يُعْبَدُ من دون الله، وعَجِب الوليد ومن حَضَرهُ من حُجَّته وخصومته:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ثم ذكر عيسى بن مريم فقال:

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٧ و٥٩ - ٦١]

أى ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة.

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١.

ملحوظة:

التقديم فى سطر والشرح المقتضب لا يضيفان شيئا إلى معنى الآيات الواضح، كما أنهما لا يذكران الظروف التى أنزلت فيها السور المقتبسة، فيما عدا عَجَب الوليد والآخرين من حجة الرسول ﷺ.

الاقتباس رقم ٢٥ (*)

النص:

والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وَهْب الثَّقَفِى، حليف بنى زُهرة، وكان من أشراف القوم وممن يُستمع منه، فكان يُصيب من رسول الله ﷺ، ويردّ عليه، فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾ [القلم: ١٠-١٣]

ملحوظات:

أ) كلمة «كُل» فى الآية ١٠ تنفى أن يكون المقصود شخصا معينا بذاته.

ب) هناك فرق بين التقديم والآيات المقتبسة. ذلك أن الأخنس بن شَريق لم يكن من أقرباء رسول الله ﷺ، بل لم يكن قرشيا، والمفروض أن الشخص الذى تنهى الآية ١٠ الرسول ﷺ عن إطاعته، على فرض أن هذه الآية تشير إلى حادثة فردية، كان يملك ممارسة قدر من السلطة على النبى ﷺ.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٦٠، ٣٦١.

جـ) الأخنس بن شَـريق واحد من الأشخاص الذيـن يقول النص إن الرسول ﷺ طلب منهم إجارته لدى عـودته إلى مكة بعد زيارته الفاشلة إلى الطائف (إثـر موت أبى طالب). ولو أنه كـان الشخص الذى تشـير إليه الآية المذكورة، لما طلب الرسول ﷺ منه أن يُجيره.

الاقتباس رقم ٢٦ (*)

النص:

قال الولـيد بن المُغيـرة: أَيُنَزَّل على مـحمد وأُترك وأنـا كبيـر قريش وسيدها، ويُتـرك أبومسعود عمرو بن عُـمير الثقفى سيِّـد ثقيف، ونحن عظيما القريتين! فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢]

ملحوظتان:

أ) هل كان الوليد بن المغيرة حقا كـبير قريش وسيدها؟ ليس فى مادة السيرة ما يعترف له بهذه الصفة.

ب) تقديم الاقتباس لا يتمشى والآيات المذكورة. والمعنى الظاهر لهذه الآيات هو أن بعض الناس لم يحملوا الرسـول على محمل الجد لأنه لم يكن قبل مـبعثه من عظمـاء الرجال، وهو رأى لا غرابة فيـه. وقد جاء فعل «قالوا» فى الآية ٣١ بصـيغة الجمع، بينما أسند التـقديم هذا القول إلى شخص مفرد هو الوليد بن المغيرة.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٦١.

الاقتباس رقم ٢٧ (*)

النص :

أُبىّ بن خَلف وعُقبة بن أبى مُعيط، كانا مُتصافيين، حَسَنا ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبيا، فأتى عُقبة فقال له: ألم يبلُغنى أنك جالست محمدا وسمعت منه! وجْهِى من وجهك حَرام أن أُكلِّمك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلستَ إليه أو سمعتَ منه، أو لم تأته فتَتْفل فى وجهه ففعل ذلك عدوّ الله عُقْبة بن أبى مُعيط لعنه الله. فأنزل الله تعالى فيهما:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]

ملحوظات:

أ) ليست هناك أية علاقة بين الواقعة التى يرويها النص فى التقديم وبين الآيات المقتبسة. ومضمون هذه الآيات مضمون عام وواضح، وكلمة «الظالم» فى الآية ٢٧ تعنى فئة من الناس لا فردا أو مجموعة من الأفراد بذواتهم.

ب) منظر الكفار يوم القيامة وهم يعضون بنان الندم لأنهم لم يتبعوا أنبياءهم منظر كثيرا ما يصفه القرآن.

جـ) من الغريب أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، الذين حموا محمدا ﷺ ، فيما يقول النص، قد قبلوا أن يتفل عُقْبة بن أبى مُعيط فى وجهه

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٦١.

وأنه لا حمزة (الذى ضرب أبا جهل فشجه) ولا عمر (المفروض أن إسلامه وإسلام حمزة قد أعزّا الإسلام وأعزّا رسوله من باب أولى) تدخلا لمعاقبة عُقبة بن أبى مُعيط على فعلته.

د) من الغريب كذلك أن الرسول ﷺ، الذى تسبب فى موت أربعة أشخاص وأصاب بالعمى شخصا خامسا من المستهزئين، بإشارة من يده، فيما يقول النص، لم يعاقب عُقْبة على إهانة هى أكبر من الاستهزاء.

هـ) قُتل عُقبة بن أبى مُعيط فى بدر وكان الذى قتله واحد من الأوس، لكن البعض يقول إن الذى قتله هو عَلِىّ.

الاقتباس رقم ٢٨ (*)

النص:

مشى أُبَىٌّ بن خَلَف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد ارْفتَّ، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرمّ، ثم فتّه فى يده، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار، فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾

[يس: ٧٨ - ٨٠]

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٦١.

ملحوظات :

أ) من غير المحتمل أن تكون الإشارة، فى الآية ٦٨ المقتبسة، إلى أُبَىّ ابن َخلَف، فإن هذه الآية تتبع، بصورة منطقية، الآية ٧٧ فى قوله تعالى:

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾

[يس: ٧٧]

وواضح أن الإشارة هنا غير شخصية.

ب) من الصعب تصديق أن يحكم الرسول على شخص بالنار لمجرد أنه سأله سؤالا وأنه نفخ فى وجهه تراب عَظْمَة قديمة. وليس فى القرآن على أى حال ما يشير إلى أن محمدا ﷺ يملك إصدار مثل هذا الحكم أو أنه كان يعلم الغيب.

جـ) أُبَىٌّ بن خَلَف هو أخو أُميَّة بن خَلَف الذى رأيناه فى الاقتباس رقم ١٨ والذى قُتِل فى بدر. وقد جرح أُبَىٌّ ذاته فى أُحُد بيد الرسول ﷺ ثم مات متأثرا بهذا الجرح.

د) حالة أُبَىّ حالة إضافية، يوحى فيها النص بأن هناك، غير أبى لهب الذى حكم عليه القرآن بالنار، أشخاصا آخرين حكم عليهم بها محمد ﷺ.

الاقتباس رقم ٢٩ (*)

النص :

اعترض رسولَ الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة الأسودُ بن المطَّلب،

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٦١ .

والوليدُ بن المُغيرة، وأُميَّة بن خَلَف، والعاصُ بن وائل السهميّ، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبدْ ما تعبد، وتعبدُ ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تَعبُّد خيرا مما نَعبُد، كنا قد أخذنا بحظّنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد، كنت قد أخذت بحظّك منه، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

ملحوظات:

أ) هذه السورة نزلت فى الفترة الأولى. وهى تدل إذن، خلافا لما يدعيه النص، على أن النزاع بين قريش ومحمد بدأ مع بداية بعثته.

ب) العرض الذى يرجع إليه النص سبب نزول هذه السورة غير معقول. فكيف يتصور أن يخطر على بال هؤلاء الأشراف الأربعة المجربين، ولو للحظة واحدة، أن محمدا ﷺ، الذى كان الهدف الأساسى لدينه محاربة شركهم وإحلال عبادة الله الواحد محله، قد يقبل عرضهم الذى يترتب عليه التنكر لرسالته. وكيف، من جهة أخرى، كان يمكن أن يتصوروا أن الغفلة بلغت بمحمد ﷺ درجة أن يقبل عرضهم علما بأن القرآن لم يكن يكف عن تحذيره من المشركين ومن العقاب الذى ينتظره لو أنه أشرك بربه أحدا.

جـ) إذا افترضنا أن هذه الواقعة صحيحة، فمن الغريب أن محمدا لم يرفض العرض فورا.

د) السورة المذكورة ليس فيها أية إشارة إلى صفقة عرضها على محمد نفر من قومه. وهى تقول للكافرين ببساطة إن محمدا لن يتبع مِلّتهم أبدا وأنه لا يلزمهم باتباع دينه، وهذا قول يتردد كثيرا فى القرآن.

هـ) من الواضح أن تقديم المؤلف لهذا الاقتباس هو مجرد نقل حوّله المؤلف، مع إضافة بضعة أسماء، إلى مادة تاريخية سابقة.

الاقتباس رقم ٣٠ (*)

النص:

لمّا ذكر الله عز وجل شجرة الزَّقوم تخويفا بها لهم، قال أبوجهل بن هشام: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزَّقوم التى يخوّفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزُّبد، والله لئن استَمكنّا منها لنتزقمنَّها تزقما. فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦]

ملحوظة:

التكرار إحدى سمات القرآن الكبرى. وقد رأينا عدة أمثلة عليه فى وصف نار جهنم. والآيات المقتبسة هى أحد هذه الأمثلة. كذلك فليس فى الآيات ما يشير إلى أن القرآن يرد على ملحوظة أبداها أحد من الناس.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٦٢.

الاقتباس رقم ٣١ (*)

وقف الوليد بن المُغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله ﷺ يكلّمه ، وقد طمع فى إسلامه، فبَيْنا هو فى ذلك، إذ مَرَّ به ابنُ أم مكتُوم الأعمى، فكلَّم رسول الله ﷺ ، وجعل يستقرئه القرآن ، فشقّ ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضْجَرَه، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه. فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسا وتركه. فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾

[عبس: ١ – ١٦]

ملحوظة:

السورة المقتبسة هى إحدى سور الجزء الأول من الفترة المكية الأولى. وإن صح تقديمها فهو يكذب مقولة الاستخفاء. والتقديم فى الواقع مجرد تفسير للاقتباس حوّله المؤلف، مع إضافة اسمين، إلى مادة تاريخية سابقة.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٦٣ .

الاقتباس رقم ٣٢ (*)

النص :

قدم علـى رسول الله ﷺ ، وهو بمكة، عـشرون رجلا أو قـريبٌ من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبرهُ مـن الحبشة، فوجدوه فى المسجد، فجـلسوا إليـه وكلَّموه وسـألوه ، ورجال من قـريش فى أنديتهـم حول الكعبـة؛ فلما فرغـوا من مسألة رسـول الله صلى الله عليه وسلم عـما أرادوا، دعاهـم.رسول الله ﷺ إلى الله عز وجـل وتلا عليهم الـقرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعيُنهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدَّقوه، وعـرفوا منه ما كان يُوصـف لهم فى كتابهم من أمـره. فلما قاموا عنه اعتـرضهم أبوجهل بن هشام فى نفر من قـريش، فقالوا لهم: خيَّبكم الله من ركب!، إن بعثكم مَن وراءكم مِنْ أهل دينكم ترْتادون لهم لتأتوهم بخبـر الرجل، فلم تطمئن مجالسُكم عنده، حـتى فارقتم دينكم وصدّقـتموه بما قـال، ما نعلم ركـبا أحمق مـنكم. فقالوا لـهم: سلام عليكم، لا نجـاهلكم، لنا مـا نحن عليه، ولـكم ما أنتم عليـه، لم نألُ أنفسنا خيرا. ويقال إن النَّفر من النَّصارى من أهل نَجْران. ويُقال ، فيهم نزلت هذه الآيات:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥]

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٩١ .

ملحوظات:

التقديم والشرح المتعلقان بهذا الاقتباس يثيران الملحوظات التالية:

أ) لو أن إسلام النصارى العشرين موضوع هذا الاقتباس ليس مجرد بناء أقيم على الآيات المقتبسة لكان بلاشك حدثا من أهم أحداث الفترة المكية، ليس فقط نظرا لضخامة عدد هؤلاء المسلمين الجدد - وهو أكثر من ثلث عدد المشركين الذين أسلموا، فيما يقول النص، خلال ثلاث السنوات الأولى من دعوة رسول الله ﷺ - بل أيضا لأن هؤلاء الرجال كانوا من أهل الكتاب الذين حدّثهم كتابهم عن الأنبياء السابقين. لذلك فإن حديث هذه الواقعة التي ليس لها نظير خلال الفترة المكية بأكملها، كان المفروض أن يكون أطول أحاديث هذه الفترة. ومع هذا فإن الحيز المخصص لإسلام هؤلاء النصارى العشرين في النص لا يزيد على واحد وعشرين سطرا بما في ذلك الآيات القرآنية.

ب) النص لم يذكر اسم أى من هؤلاء المسلمين الجدد.

جـ) رغم أن النص يذكر حرفيا كلام جعفر بن أبى طالب فى الاجتماعين اللذين عقدا فى بلاط النجاشى، فإن الحوار الذى تم بين الرسول ﷺ والنصارى العشرين، والذى انتهى بإسلامهم، ذُكر هنا ملخصا فى بضع كلمات ليس منها كلام على لسان الرسول ﷺ.

د) من الغريب:

- أننا لا نعرف، فيما يتعلق بهذا الإسلام الجماعى، ما إذا كان هؤلاء النصارى العشرون أحباشا أو من أهل نجران.

- أن الاستعلام عن محمد ﷺ اقتضى إرسال وفد الى مكة قوامه عشرون رجلا.

- أن أحـدا من هؤلاء العشـرين لم يبـد رفضـا أو ترددا فى اعـتناق الإسلام.

- أن النصارى، لاسـيما الأحبـاش، الذين لا يعرفون العـربية، هـم وحدهم الذين يبكـون عند سماع القـرآن. وهذه المناسبة تذكـرنا بدموع النجاشى وبطارقته الأحباش حين تلا عليهم جعفر آيات من القرآن.

- أن رسـول الله ﷺ لم يفكر فى إرسـال أحد أصـحـابه مع هؤلاء الأشخاص، كما فعل فى وقت لاحق حين أرسل مُصْعَبًا مع من أسلموا من أهل المدينة، للتعريـف بالإسـلام، كما أنه ﷺ لم يفكر فى الإشارة عليهم بالاتصال بجعفر وبالمسلمين الذين كانوا فى الحبشة.

- أن النص لا يشير بكلمة إلى مـا حدث بعد إسلام هؤلاء النصارى العشرين: هل بقوا مع الرسول ﷺ فى مكة؟ هل هاجروا إلى بلد آخر؟ هل عـادوا إلى بلدهم لهداية قـومـهم إلى الإسلام؟ مـاذا كان رد فـعل قومهم على هذه المحـاولة؟ هل لامهم قومهم أو حبسـوهم أو اتهموهم بالخيانة العظمى وحكموا عليهم بالإعدام، أم تركوهم يدعون للإسلام؟

هـ) فى القرآن آيات كثيرة لا يختلف معناها، فى جوهرها، عن معنى آيات الاقتباس، وهذه أمثلة لهذه الآيات:

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) ﴾ [العنكبوت: ٤٧]

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾ [الرعد: ٣٦]

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) ﴾ [الأنعام: ١١٤]

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (199) ﴾ [آل عمران: ١٩٩]

و) الاقتباس، فيما يبدو لى، يتحدث عن ظاهرة عامة. والقول بأن فيه إشارة محددة إلى النفر العشرين الذين أسلموا قول يُحَمِّلُ الكلمات أكثر مما تحتمل.

ز) القرآن، بصفة عامة، حين يريد أن يتحدث عن النصارى، يسميهم بهذا الاسم، وحين يريد أن يتحدث عن اليهود والنصارى، يستخدم تعبير «أهل الكتاب». وفى الحالة التى نحن بصددها استخدم القرآن هذا التعبير الأخير، وليس فى السياق ما يدل على أن المقصود هم النصارى بالذات. بل إن من الممكن القول إن القرآن حين يستخدم عبارة «أهل الكتاب» ويقصد بها إحدى الفئتين، فاليهود هم الذين ينصرف إليهم الذهن أولا، وذلك لأنهم كانوا فى الجزيرة العربية أكثر عددا من النصارى، ثم لأن المرات التى ورد فيها فى القرآن ذكر موسى عليه السلام واليهود أكبر عددا بكثير من تلك التى ذكر فيها المسيح عيسى بن مريم والنصارى. يضاف إلى ذلك أن الاتصال بيهود الجزيرة العربية لم يكن يثير مشكلات لغوية كتلك التى كان يثيرها الاتصال بنصارى الحبشة.

الاقتباس رقم ٣٣ (*)

النص :

كان رسول الله ﷺ إذا جلس فى المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خبَّـاب ، وعَمَّار، وأبو فكيهة يسار مولى صَـفْوَان بن أُمَيَّة بن محرِّث، وصُـهَيْب وأشباههـم من المسلمين، هَزِئت بهم قـريش، وقال بعضُـهم لبعض: هؤلاء أصحـابه كما ترون، أهؤلاء مَنَّ الله عـليهم من بَيْننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محـمد خيرا ما سَبَقَنا هؤلاء إليه، وما خصهم اللهُ به دُوننا، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) ﴾

[الأنعام: ٥٢ – ٥٤]

ملحوظتان :

أ) الآية رقم ٥٢ المقـتبسـة تتضـمن نهيا لـلرسول ﷺ يتـعلق، على الأرجح، بواقـعة محـددة، والآية ٥٤ تكمل هذه الآية. أمـا الآية ٥٣، فهى تشير إلى كلام يقوله الكفار عادة عن أولئك الذين يستجيبون لدعوة رسول مـن الرسل. والنص لا يقـول شيـئا عن الظـروف التى أدت إلى

(*) المرجع السابق ، ص ٣٩٢ . .

نزول الآية ٥٢ وهو يكتفى بتفسير جملة من الآية ٥٣ ويحولها إلى مادة تاريخية سابقة.

ب) مما يستحق الذكر أن المنظر الذى يصفه تقديم هذا الاقتباس هو الوحيد الذى نرى فيه رسول الله ﷺ جالسا فى المسجد بصحبة جماعة من المسلمين.

الاقتباس رقم ٣٤ (*)

النص:

كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يجلس عند المَرْوَة إلى مَبْيَعة غلام نصرانى، يقال له جَبْرٌ، عَبْدٌ لبنى الحَضْرمىّ، فكانوا يقولون: والله ما يعلّم محمدا كثيرا مما يأتى به إلا جَبْرٌ النصرانى، غلام بنى الحَضْرمىّ. فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل: ١٠٣]

ملحوظة:

يستعير النص واقعة ذكرتها الآية المقتبسة ويلصق بها اسما، هو اسم غلام نصرانى. ومن الغريب أن ممثلى النصرانية الوحيدين فى مكة وفى الطائف، طبقا للنص، من العبيد: جَبْرٌ فى مكة وعَدَّاس فى الطائف، كما سنرى فى الفصل التالى. وأنا شخصيا لا أستبعد أن تكون جالية يهودية وجالية نصرانية قد عاشتا فى مكة فى عهد رسول الله ﷺ. وكان

(*) المرجع السابق، ص ٣٩٣..

من الطبيعى جدا، فى بلدة مثل مكة يعتمد اقتصادها إلى حد كبير على التجارة الخارجية مع بلدان كالشام والعراق واليمن تتحدث لغات مختلفة، أن يكون بين أهلها أجانب يمارسون أنشطة باعتبارهم وكلاء تجاريين أو ماليين لشركات أو تجار مركزهم الرئيسى فى الخارج، كما كان من الطبيعى أن يكون فى البلدان المذكورة وكلاء من العرب يمثلون التجار أو الشركات المكية. كذلك فليس هناك ما يمنع أن يتكون جزء من الجالية اليهودية - المسيحية من كتاب ومحاسبين وصُنَّاع يدويين وأطباء وحائكين وفنانين وقوم يشتغلون بالإضحاك والتَسْلية، وأن يكون من بين هؤلاء كذلك بعض رجال الدين.

وكما كان عليه الصلاة والسلام رسولا لدين يعترف باليهودية والنصرانية، فمن المحتمل جدا أن يكون هو والمسلمون قد اتصلوا بأفراد هاتين الجاليتين وبرجال الدين منهما لتبادل العلاقات الودية أو ليدعوهم - هم أيضا - إلى الإسلام. ولابد أن نقاط الاتفاق والخلاف بين الإسلام وهاتين الديانتين الابراهيميتين، وكذلك اعتراضات اليهود والنصارى على دين محمد، ظهرت فى المناقشات المستمرة التى كانت تدور فى مكة حول الإسلام. ويؤيد هذا الافتراض حقيقة أن جزءا من التنزيل القرآنى فى الفترة المكية يحتوى على ردود أو على تقريرات تحدد موقف الإسلام بشأن الملحوظات التى أبداها أهل الكتاب أو نقاط الخلاف بين الإسلام وبين دينهم. وإذا كان النص لم يتحدث عن هاتين الجاليتين فقد يكون مرجع ذلك أنهما كانتا قد اختفيتا تماما، منذ وقت طويل، فى الوقت الذى كتب فيه. ومن المحتمل إذن أن تتعلق الإشارة الواردة فى الآية المذكورة بأحد أفراد الجالية اليهودية النصرانية المقيمين بمكة لا، بالضرورة، بعبد نصرانى اسمه جَبْر.

الاقتباس رقم ٣٥ (١)

النص:

كان العاص بن وائل السَّهْـمِيّ إذا ذكر رسول الله ﷺ، قال: دعوه، فإنما هو رجل أبتـر لا عَقِبَ له، لو مات لانقطع ذِكْره واسـترحتم منه. فأنزل الله فى ذلك:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣)﴾ [الكوثر]

ملحوظة:

نزلت هذه السورة فى الفترة المـكية الأولى. وهى تثبت أن النزاع بين قريش ومحمد ﷺ كان قد بدأ قبل الفترة الثالثة. وواضح أن النص ألّف مادة تاريخية بالاستناد إلى تفسير للاقتباس، وأضاف اسما لشخص.

الاقتباس رقم ٣٦ (٢)

النص:

دعا رسولُ الله ﷺ قومَه إلى الإسلام وكلّمـهم فأبلغ إليهم، فقال له زَمَعَة بن الأسـود، والنَّضْر بن الحارث، والأسود بن عَـبْد يَغُوث، وأُبَىّ ابن خَلَف، والعـاص بن وائل: لو جُعل معـك يا محمد مَـلَكٌ يحدّث عنك الناسَ ويُرَى معك! فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا

---

(١)، (٢) السيرة، القسم الأول، ص ٣٩٣، ٣٩٥.

يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨ و٩]

ملحوظات:

أ) زَمَعَة بن الأسود هو ابن الأسود بن المطلب الوارد ذكره فى الاقتباس رقم ٢٩، وقد قُتل فى بدر وكان الذى قَتَلَه هو ثابت بن الجِذْع، أحد الخزرج الذين حضروا بيعة العقبة الثانية (التى سيرد ذكرها فى الفصل الخامس) أو هما، طبقا لبعض المصادر، على وحمزة.

ب) الأسود بن عبد يَغُوث كان أحد سادة قريش وقد مات، فيما يقول النص، بإشارة من رسول الله ﷺ، بمرض فى بطنه.

جـ) التحدى الذى يشير إليه الاقتباس وجّه إلى النبى ﷺ فى عدة مناسبات وهذا ما يتضح من الآيتين التاليتين:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود: ١٢]

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧]

وهاتان الآيتان سابقتان على الآية التى اقتبسها النص. وواضح أن النص، انطلاقا من مجرد تفسير للاقتباس، بنى هنا مادة تاريخية سابقة أضاف إليها أسماء عدة أشخاص.

الاقتباس رقم ٣٧ (*)

النص:

مرّ رسولُ الله ﷺ بالوليد بن المغيرة، وأُميَّة بن خَلَف، وأبى جهل بن هشام، واستهزءوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله عليه فى ذلك من أمرهم:

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾ [الأنعام: ١٠]

ملحوظة:

الآيات التى تتعلق بأولئك الذين كانوا يستهزئون بالنبى ﷺ أو بالرسل عموما فى القرآن كثيرة نذكر منها:

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) ﴾ [الحجر: ١٠ و ١١]

وقوله تعالى:

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) ﴾ [يس: ٣٠]

وقوله تعالى:

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) ﴾ [الزخرف: ٦ و ٧]

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

وقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) ﴾ [الأنبياء: ٤١]

وكل هذه الآيات جزء من سور سابقة على تلك التى وردت فيها الآية المقتبسة. وواضح أن كل ما فعله النص هو أن فسر الاقتباس ثم حوّله، مع إضافة بضعة أسماء، إلى مادة تاريخية سابقة.

الاقتباس رقم ٣٨ (*)

النص:

أقام رسول الله ﷺ على أمر الله تعالى صابرا محتسبا، مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزئين خمسة نَفَر من قومهم، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم:

- الأسْود بن المطَّلب.
- الأسود بن عبد يغوث.
- الوليد بن المُغِيرة.
- العاص بن وائل.
- الحارث بن الطُّلاطِلة

فلما تمادوا فى الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى عليه:

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾

[الحجر: ٩٤ – ٩٦]

ملحوظتان :

تقديم هذا الاقتباس يثير الملحوظات الآتية:

أ) ليس هناك صلة بين التقديم والآيات المقتبسة. أولا: لأن الاقتباس يقول: «إنا كفيناك المستهزئين»، ولا يقول: «سَنُمَكِّنَكَ من الانتقام من المستهزئين أو من معاقبتهم». وثانيا: لأنه كان هناك، فيما يقول تقديم الاقتباس، أشخاص آخرون استهزءوا برسول الله ﷺ غير أولئك الذين ذكر النص أسماءهم.

ب) الآيات موضوع هذا الاقتباس سبق أن قال النص فى شأنها إنها كانت النقطة التى بدأت عندها الفترة الثانية التى بادى رسول الله ﷺ عندها قومه بدعوته بعد فترة الاستخفاء. وهذا الاقتباس، الذى يستفاد منه أن كثيرين من قريش كانوا يَسْتهزئون برسول الله ﷺ، يكذب إذن ما يقوله النص من أن قومه لم يبعدوا عنه ولم يردوا عليه خلال هذه الفترة.

الاقتباس رقم ٣٩ (*)

النص :

لما حضرت الوليد بن المغيرة الوفاةُ دعا بَنِيه وكانوا ثلاثة: هشام بن الوليد، والوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد، وأوصاهم بثلاث، منها ألا

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤١٠، ٤١١.

يدعوا رباه فى ثقيف حتى يأخذوه. ولما أسلم أهل الطائف كلم خالد بن الوليد رسول الله ﷺ فى ربَا أبيه فنزلت الآيات التالية من تحريم ما بقى من الربا بأيدى الناس:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) ﴾ [البقرة: ٢٧٨]

ملحوظات:

أ) أول ما نزل عن الربَا فى القرآن هو آية ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم: ٣٩]

وسورة الروم التى نزلت فيها هذه الآية سورة مكية، ولاشك أن هذا النهى عن الربا أضاف سببا جديدا إلى الأسباب التى أوغرت صدور أصحاب المال والتجارة فى مكة على الاسلام ونبيه ﷺ .

ب) السورة التى تضمنت الآية المقتبسة نزلت فى بداية الفترة المدنية، قبل إسلام ثقيف بوقت طويل.

جـ) كون الآية المقتبسة نزلت فى المدينة يستفاد منه أن النهى عن الربا كان يتجه أولا إلى أهل هذه البلدة الذين كانوا يتعاملون بالربا والذين دخلوا فى الإسلام، لا إلى ربا الوليد بن المُغِيرة.

د) الوليد بن المغيرة لم يكن رجل المال المكى الوحيد الذى يمارس الربا. وقد أعلن رسول الله ﷺ فى خطبته فى حجة الوداع أن كل ربا موضوع، وخص بالذكر ربا العباس فى قوله: «وأن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله».

هـ) واضح أن النص قد بنى هنا مادة تاريخية سابقة على تفسير خاطىء للاقتباس [1].

الاقتباس رقم ٤٠ [2]

النص :

وأنزل الله تعالى فى الأشراف الذين مشوا إلى أبى طالب فى مرضه الأخير ليأخذ لهم على ابن أخيه وليعطه منهم، وهم عُتْبة بن رَبيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأُمَيَّة بن خَلَف ، وأبو سفيان بن حرب، فى رجال من أشرافهم، والذين قال لهم رسول الله ﷺ ما قال وردوا عليه ما ردوا:

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾

يعنون النصارى لقولهم: «إنَّ الله ثالثُ ثلاثة»

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)﴾

[ص: ١ - ٧]

ملحوظات :

أ) السورة التى ورد فيها هذا الاقتباس تقع فى منتصف المسافة تقريبا بين بداية الفترة المكية ونهايتها، أى قبل موت أبى طالب بزهاء ثلاث

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ٦٠٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٨ .

سنوات. لذلك فإن هذه الآيات ما كان يمكن أن تكون قد نزلت فى الظروف التى يصفها التقديم.

ب) الموضوعات التى طرقتها الآيات المقتبسة، أى إنكار وحدانية الله وعجب الكفار لإرسال مُنْذِر منهم، ووصفهم محمدا ﷺ بأنه ساحر كذاب، ونصحهم لقومهم بالتمسك بآلهتهم، كما أوضحت فى الفصل الثانى من هذه الدراسة، موضوعات تناولها القرآن منذ بداية المبعث وكررها فى أشكال مختلفة فى معظم السور اللاحقة.

حـ) نحن هنا فى الواقع بصدد تفسير خاطىء للآيات جعل منه النص خبرا تاريخيا سابقا.

باء- النتيجة

أكثر ما يستلفت النظر فى اختيار الاقتباسات القرآنية المتعلقة بهذه الفترة الثالثة:

- أن من بين الاقتباسات الأربعين التى أوردها النص - وهى اقتباسات تعطى، للوهلة الأولى، لضخامة عددها، انطباعا بأن النص يخصص مكانا كافيا للكتاب الذى تستند إليه الرسالة المحمدية كلها- ستة وثلاثون اقتباسا «أى ٩٠٪» تتعلق بكلام قاله قرشيون، إما إلى الرسول ﷺ، أو بشأنه، أو بشأن القرآن.

- أن ثلاثة من الاقتباسات الأربعة التى تتعلق لا بكلام قيل وإنما بوقائع، أى الاقتباس رقم ٢: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ والاقتباس رقم ١٤ الخاص بآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠﴾ والاقتباس رقم ٣١ : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ لا تتعلق إلا بوقائع ثانوية فى حياة رسول الله

ﷺ في مكة. أما رابع هذه الاقتباسات، أى الاقتباس رقم ٣٢ بشأن النصارى العشرين، فإن الشرح المتعلق به لا يشغل، رغم أهمية الموضوع، سوى بضعة سطور ، وهو يثير شكوكا جدية.

- فى جميع الحالات تقريبا، يقتصر العنصر «التاريخى» على تقديم لا ينطوى إلا على شرح للظروف التى نزل فيها الاقتباس أو لذكر أسماء لأشخاص. أما الأثر الذى أحدثه نزول الآيات موضوع الاقتباس على الأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم أو على العرب فى مجموعهم - المفروض أنه التكملة الطبيعية للحديث - فإن النص لا يتحدث عنه إطلاقا.

وهذه الاقتباسات تثير فى الواقع سؤالين أساسيين:

أ) هل كان لدى مؤلف النص ابن إسحاق، أو لدى الأشخاص الذين يشكلون سلسلة الرواة الذين استخدمهم كمصدر لمعلوماته، مادة حقيقية تتعلق بالظروف التى نزلت فيها الفقرات المقتبسة، أم أنهم اعتمدوا، دون أن يعترفوا بذلك، على مادة مستمدة من القرآن كسوها بعناصر مصطنعة من عندياتهم عملوا على إخفائها؟

ب) حين يذكر المؤلف أسماء فى صدد تنزيل قرآنى، هل استند فى ذلك إلى معلومات صحيحة بروح موضوعية، أم أنه استخدم آيات هذا التنزيل كوسيلة للانتقام الشخصى أو - مثلا - لتصوير آباء وأجداد الأشخاص الذين كانوا، وقت كتابة السيرة ، أعداء لمؤلفها أو لمسلمى المدينة أو للخلفاء العباسيين الحاكمين بصورة يظهرون فيها كأعداء لرسول الله ﷺ وللإسلام؟

سأحاول، بتجميع نتائج تحليل الاقتباسات الأربعين المذكورة، الإجابة عن هذين السؤالين. على أن فى إمكانى من الآن أن أقرر:

١- أنه من الصعب تصور أن يستطيع أحد، بعد مرور أكثر من قرن من الزمان، ودون نص مكتوب، أن يعرف وأن يسجل بأمانة الظروف التى قال فيها هذا السيد أو ذاك من سادة قريش هذا القول أو ذاك عن الرسول، أو عن القرآن.

٢- إذا كانت الذاكرة الجماعية قد قصرت عن تزويد مؤلفى النص - ابن إسحاق وابن هشام وسلسلة الرواة- بقدر أوفى من المعلومات عن الأحداث الكبرى التى وقعت خلال الفترة المكية - أى الضجة التى أحدثتها دعوة الرسول ﷺ فى المجتمع المكى، والمحادثات، واضطهاد المسلمين، والمقاطعة، والهجرة (أو النفى) إلى الحبشة وغيرها، إلخ - فإن الاحتمال ضعيف فى أن يكون فى مقدور هذه الذاكرة أن تقدم مادة محددة بشأن مسائل تفصيلية كالشروح التى أدلى بها النص فى تقديم الاقتباسات المذكورة.

٣- مشاعر الانحياز التى كانت سائدة وقت كتابة «السيرة» - أى الانحياز لقبيلة الخليفة العباسى، ولمسلمى مكة (الأنصار)، والانحياز ضد «مغتصبى» الخلافة، لا سيما قبيلة الخلفاء الأمويين والقبائل التى تعاون أفرادها معها - لابد أنها كانت من القوة بحيث أثرت على نفوس أولئك الذين استُمدت منهم المادة التى استخدمت فى كتابة النص.

جيم- التجميع

دراسة ما ورد فى النص من تقديم وشروح بشأن الاقتباسات القرآنية الأربعين التى علقت عليها آنفا تثير الملحوظات العامة التالية:

أ) حقيقة أن تسعة من هذه الاقتباسات هى الاقتباسات: الأول، والثانى، والحادى عشر، والثالث عشر، والسادس عشر، والسابع عشر،

والثامن عشر، والواحد والثلاثون، والخامس والثلاثون، التى تصور موقفا عدائيا من جانب الشخصيات التى ذكرها التقديم حيال الرسول أو القرآن، نزلت فى الفترة المكية الأولى، تنقض من أساسها دعوى النص القائلة بأن ثلاث السنوات الأولى، من بعثة الرسول ﷺ كانت سنوات استخفاء خلت من كل نزاع بينه وبين خصوم دعوته، وبأن فترة أخرى تلتها اتسمت بتسامح من جانب قريش حيال رسول الله ﷺ .

ب) الشروح الواردة فى تقديم الاقتباسات لا تضيف فى مجملها شيئا، أو - إن أضافت - فإنما تضيف شيئا قليلا للغاية، إلى معنى هذه الاقتباسات الظاهر. وهى فى حالات كثيرة لا تعدو أن تكون نقلا كليا أو جزئيا للآيات. ومن الصعب فى بعض الحالات، من جهة أخرى، الربط بين التقديم وبين الاقتباس المتعلق به. والتقديم ، فى الأغلب، لا يعدو سطرا أو اثنين. وكل هذه دلالات تترك لدى القارىء شعورا بأن الأخبار التى يسوقها النص لا تستند إلى معرفة تاريخية حقيقية، وأنها ليست إلا تفسيرا، يجانبه الصواب أحيانا، يخفيه النص بكسوته ببعض التفاصيل المنتحلة وفقا للظروف.

جـ) فى سبع وعشرين حالة، تتضمن الشروح أسماء شخص أو أشخاص من المشركين كلهم، مع استثناءات قليلة، من قريش، وهذه الأسماء هى أسماء ثمانية عشر شخصا ذُكر كثير منهم بصدد أكثر من اقتباس. وغنى عن البيان أن الحقيقة فيما يتعلق بهؤلاء الأشخاص تتوقف على قدر المصداقية الذى يجب إيلاؤه للأخبار التى ذكرت أسماؤهم فيها. وبعبارة أخرى فإن هذه الأخبار إن كانت تاريخا حقيقيا لكان للأسماء التى وردت فيها قيمة، وإلا لكانت هذه الأسماء مجرد حيل مصطنعة استخدمها النص لتمويه الأخبار المختلقة التى يرويها حتى تبدو صحيحة.

ولكن، ألا تحتوى هذه الأسمـاء ذاتها على دلائل تسمح بالحكم على صحة الأخـبار المذكورة؟ قد يكون من المفيـد، للإجابة عن هذا السؤال، أن نعرف كم من المرات ترددت هذه الأسماء فى شرح الاقتباسات، وأن تكون لدينا صورة شـاملة للأسمـاء التى ذكرت فى التقـديم والشروح. وفيما يلى قائمة تضم هذين البيانين.

الاسم	عدد المرات	المصيـــــــــر
الوليد بن المُغيرة بن عبدالله ابن عمرو بن مَخْزُوم	٨	أحد المستهزئين. مات من جرح قديم بأسفل كعب رجله انتقض به بعد أن أشار الرسول ﷺ إليه وهو يطوف بالكعبة. وهو أبو خالد ابن الوليد.
أبوجهل بن هشام ابن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم	٧	خال عمر، من قبيلة مَخْزُوم، وابن أخ الوليد ابن المغيرة، قُتل فى بدر بيد أحد المهاجرين، وقيل إن الذى قتله اثنان من الخزرج.
العاص بن وائل	٥	أحد المستهزئين. أشار الرسول ﷺ إلى أخمص رجله وهو يطوف بالكعبة فدخلت فى أخمص رجله شوكة فقتلته، وهو أبو عمرو بن العاص.
النَّضْر بن الحارث	٤	قُتل من جرح أصابه به على بن أبى طالب فى بدر.
أُمَيَّة بن خَلَف	٤	قتله واحد أو ثلاثة من الأنصار فى بدر.
أُبَىّ بن خَلَف	٣	مات بجرح أصابه به الرسول ﷺ فى أحد.
عُتْبَة بن رَبِيعة	٢	قتله أحد المهاجرين وحده أو مع حمزة وعلى فى بدر. ينتمى إلى بنى عبد شمس قبيلة بنى أمية.
عُقْبَة بن أبى مُعَيط	٢	قُتل فى بدر بيد واحد من الأوس أو بيد علي.
الأسود بن المطَّلب	٢	أحد المستهزئين. مر بالرسول ﷺ وهو يطوف بالكعبة . فرمى الرسول فى وجهه بورقة خضراء فعمى.

تابع : الاقتباسات القرآنية

الاسم	عدد المرات	المصيـــــــر
الأسود بن عبْد يَغُوث	٢	أحـد المستـهزئـين. مرّ بالرسـول ﷺ وهو يطوف بالبيت فأشار إلى بطنه فـاستسقى بطنه فمات منه حبنا.
عبدالله بن أبى أمية	١	ابن عمـة الرسول ﷺ . أسلـم ومات فى الطائف عندما حاصرها الرسول ﷺ.
عبدالله بن الزِّبَعْرى	١	شاعر. أسلم بعد فتح مكة.
الأخنس بن شَرِيق	١	ليس من قريش، بل من سادة ثقيف.
زَمْعَة بن الأسود	١	ابن الأسود بن المطَّلب. قُتل فى بدر بيد أحد الأنصار وحده أو بيدى على وحمزة.
الحارث بن الطُّلاطِلة	١	أحـد المستـهزئـين. مرّ بالرسـول ﷺ وهو يطوف بالكعبة فأشار الى رأسه فامتخض قيحا فقتله.
شيبه بن ربيعة	١	قـتله حـمزة فى بدر. ينـتمى إلى بنـى عبـد شمس قبيلة بنى أميَّة.
أبوسفيان بن حرب	١	أبو معـاوية مؤسس الخـلافة الأمـوية. أسلم عند فتح مكة.
أبولهب		عم الرسـول ﷺ. نزلت فـيـه وفى امـرأته سورة المسد التى تعدهما بنار ذات لهب.

- ويتضح من هذه القائمة ما يأتى:

١- أن الشخص الذى ورد اسمه فى أكبر عدد من الاقتباسات باعتباره عدوا للرسول ﷺ ، والذى تسببت أقواله أو مواقفه فى نزول أكبر عدد من الآيات القرآنية، والذى مات إثر إشارة أشارها الرسول ﷺ إلى قدمه، هو الوليد بن المُغيرة، أبو خالد بن الوليد الذى أسر جد مؤلف السيرة وتسبب فى بيعه كرقيق فى المدينة.

٢- اسم أبى لهب، الشخص الوحيد الذى حكم عليه القرآن بالنار، لا يظهر إلا فى تقديم اقتباس واحد، والتقديم يخفف من وقر جريمته إلى أقصى حد.

٣- ما من رجل آخر (أو امرأة) من بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم ، قبيلة النبى ﷺ يظهر اسمه فى هذه القائمة.

٢- عبدالله بن أبى أمية ، ابن عمة الرسول ﷺ ، لا يظهر إلا فى حالة واحدة. وهو كذلك واحد من ثلاثة أشخاص، بين الثمانية عشرة الذين وردت أسماؤهم فى تقديم الاقتباسات، لم يُقْتلوا فى حرب مكة ضد الرسول ﷺ ، وأسلموا فى مرحلة لاحقة.

٥- من بين الرجال السبعة الذين قتلوا، واحد مات بجرح أصابه به الرسول ﷺ فى أُحد. أما الستة الباقون فقد قتل أكثرهم إما بيد على، أو بيد حمزة، أو بيد الأنصار.

٦- القرشى الذى يحتل المكان الثالث فى ترتيب الأسماء فى القائمة والذى مات - شأنه فى ذلك شأن الوليد بن المغيرة - نتيجة لإشارة من يد الرسول ﷺ ، هو العاص بن وائل، أبو عمرو بن العاص الذى كان من أهم أعوان معاوية والذى كان بهذه الصفة موضع كراهية العباسيين وأصدقائهم.

٧- إذا فرضنا جدلا أن من الممكن إنشاء علاقة بين قول إلـهى وكلام قاله شخص معين وأن من الممكن، بعـد مرور أكثر من قرن من الزمان، القول بأن شخصا ما أو مجموعة من الأشخاص قالوا كلاما معينا، فمن المؤكد أن الكفار فى مكة، الذين لابد قد تسببوا بكلامهم أو بمواقفهم فى نزول فقرات من القـرآن، كانوا يُحْصَون بالعشـرات إن لم يكن بالمئات، وأنهم لم يكونوا ينتمون إلى الطبقة الحـاكمة وحدها بل كانوا ينتمون إلى طبقات المجـتمع المكى الأخرى. والأشخـاص الثمانية عشـر الذين ذكر النص أسماءهم لم يكـونوا يمثلون من ثم إلا نسبة ضئـيلة من معارضى محمد ﷺ الذين نزلت فى حقهم آيات من القرآن.

٨- ثمـانيـة من الأشـخاص الذيـن ذكرت أسـمـاؤهم بصـدد هذه الاقتباسات لقوا حتفهم فى بدر، إما بيد على، أو بيد حمزة، أو بيد نفر من الأنصار، واثنان منهم فقط قتلهم مهاجرون (مع بعض التحفظات فى النص). لذلك كـان من السهل جـدا استخدامـهم وعرضهـم فى شرح الاقتباسات على أنهم أعداء للرسول ﷺ .

٩- الوليد بـن المغيرة، الذى يتـصدر القائمـة، يبدو كعدو شـخصى لمؤلف السيرة. والنص، الذى سبق أن مَرَّغَه فى التراب بإظهار أنه مات بإشارة من يد الـرسول ﷺ فى حضور جبـريل، وبقصص ثأره المعـيبة، يصوره فى أحد الاقتباسات بصورة المرابى.

١٠- أبوجهل، الذى يحتل المرتبة الثانية فى القائمة هو، فيما يستفاد من اسمـه، ابن أخ الوليـد بن المُغيـرة. وهو يُصَور على أنـه واحد من أعدى أعداء الرسول ﷺ .

١١- العاص بن وائل، الذى يأتى فى المرتبة الثـالثة فى القائمة كان، كما ذكرنا، أبـا عمرو بن العاص، من كبار أعـوان الأمويين. وقد حطّ

النص فى اقتباساته من قدره بالصورة ذاتها التى حط بها من قدر الوليد ابن المغيرة فى قصة موته.

ومن الصعب ، إزاء كل هذه الشواهد، الاطمئنان إلى صدق الأخبار التى وردت فى تقديم الاقتباسات المذكورة. ويعنّ للمرء هنا سؤال: هل استحق رجال آخرون ممن وردت أسماؤهم فى القائمة أن يُشهَّر بهم وتُسَوَّد صحيفتهم لأن أبناءهم أو أحفادهم كانوا من أعوان بنى أمية، وأعداء للعباسيين أو لمسلمى المدينة، بذكر أسمائهم فى معرض شرح أسباب نزول بعض آيات القرآن التى تدين الكفار؟ هذه مسألة تستحق التمحيص، لكن حلها يحتاج إلى بحوث فى الفترة الأموية تتجاوز إطار الدراسة الراهنة.

ويلاحظ أخيرا أن جميع الأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم فى تقديم الاقتباسات الأربعين تضمنها حديث الفترة الثالثة، وهذا دليل على أن اختيارهم خضع للاعتبارات ذاتها وسيطرت عليه المؤثرات ذاتها التى هيمنت على توجهات حديث الفترة. ولا يملك المرء، فى نهاية المطاف، إلا أن يستنتج أن آيات القرآن المتعلقة بهذه الفترة - شأنها شأن الشعر - كانت موضع تلاعب، وأن القرآن سُخِّر لخدمة الدعاوى التى أيدها النص والمواقف التى اتخذها.

القرآن الذى لم يقتبس

قد لا يخلو من الفائدة، فى ختام هذا الفصل المخصص للفترتين الثانية والثالثة، قول كلمة عن القرآن الذى أنزل خلالهما وأن نقارن الصورة التى يعكسها بتلك التى تستخلص من مجموع العناصر - السرد، والشعر ، وتقديم الاقتباسات القرآنية - التى تشكل الجزء المقابل من النص.

أولا :

إن السور من ٥٠ إلى ٧٧ فى ترتيب بلاشير تغطى تقريبا هاتين الفترتين، وهذه السور هى على الترتيب سور: الذاريات، والقمر، والقلم، والصافات، ونوح، والدخان، وق، وطه، والشعراء، والحجر، ومريم، وصاد، ويس، والزخرف، والجن، والملك ، والمؤمنون، والأنبياء، والفرقان، والنمل، والكهف، والسجدة، وفصلت، والجاثية، والإسراء، والنحل، والروم، وهود. ومن استعراض مادة هذه السور يتضح أنها تعالج جميع الموضوعات التى سبق أن عالجتها سور الفترة الأولى ولكن مع تعميقها وإثرائها وإلقاء أضواء جديدة عليها. على أن بعض هذه الموضوعات حظى بزيادات أكثر من غيرها. ومن هذه الموضوعات ثلاثة تستحق الوقوف عندها هى:

ألف - أصل الإنسان والدين

- خلق الله الإنسان، وسجد الملائكة بأمره لآدم إلا أبليس أَبَى، وقال الله إن إبليس عدو لآدم ولزوجه، وعهد الله إلى آدم، ووسوس الشيطان لآدم، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْك لا يَبْلَى؛ وأكل آدم وزوجه من الشجرة فبدت لهما سوءاتهما. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، لكنه قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم منى هدى فَمَن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وأرسل الله أنبياءه لذرية آدم هدى ورحمة. وقصص الأنبياء التى وردت فى القرآن بشيء من التفصيل هى قصص نوح، وإبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، وهود، وشعيبْ، وصالح ، وعيسى بن مريم.

١- نوح :

قال نوح لقومه إنــه لهم نذير مبين، ونصحهم بأن يعــبدوا الله ويتقوه ويطيعوه، فكذبوه وقالوا افتراه، وإنه رجل به جنه، وتحدوه أن يأتيهم بما يعدهم ،وهدده قومه برجمه . ودعا نوح ربه إنى مغلوب فانتصر. وفتح الله أبواب السـماء بماء مـنهمـر وفجـر الأرض عيونـا وحمل نوحـا فى الفُلْك. وطغى الماء فغرق قوم نوح وابنه.

٢- إبراهيم :

قال لقومه «أَتَعْبُدُون ما تَنْـحِتُون، واللهُ خَلَقَكُـم وما تَعْملُون؟» وهَدَّده أبوه برجمه. وكان قوم إبراهيم يعبـدون أصناما يَظَلُّون لها عَاكِفين، ولما سألهم إبراهيم عن ذلك قالوا إنهم وجـدوا آباءهم كذلك يفعلون. وبعد أن أدار قومه له ظهـورهم جعل إبراهيم أصنامهم جُذاذًا. قـالوا احرقوه وانصـروا آلهتكـم، لكن الله قال للـنار يا نار كُونـى بردا وسلامـا على إبراهيم، ووهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب.

٣- لوط :

كان قوم لوط يأتون الذُّكران ويَذَرُون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم. هَمَّ قومـه بإخراجه. وجـاءت رسل الله لوطا وقالوا له أن يسـرى بأهله بقطع من الليل. وراوده قومـه عن ضيفه فطمس الله أعينـهم، فأخذتهم الصـيحة فـأرسل الله علـيهم حـاصبا ثـم دمرهم، ونَجَّى لـوطا وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين.

٤- موسى :

رأى نارا على جبل فى سيناء، فلـما أتاها نودى يا موسى إنِّى أنا الله لا إلــه إلا أنا فأعـبدنى وأقم الصلاة لذكرى. وأرسـل الله موسى وأخاه

هارون إلى فرعون فقالا له إنهما رسولا ربه إليه وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل وألا يعذبهم. وذكَّرَ فرعون موسى بأنه رباه وليدا، واتهمه بالجحود. وأراه موسى آيات ربه فكذبه واتهمه بالسحر وجاء بسحرته. وألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وخيل لموسى أنها من سحرهم تسعى. وأوحى له ربه فنزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين. وألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون. وخر السحرة سجدا قالوا آمنًا برب هارون وموسى. وأخبرهم فرعون بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأنه سيصلبهم فى جذوع النخل، وهدد بسجن موسى إذا اختار إلها غيره. وأوحى الله إلى موسى أن يسرى ببنى إسرائيل، وأن يضرب لهم طريقا فى البحر يبسا، وألا يخاف أن يدركوه. واتبعهم فرعون وجنوده إلى الشرق. وأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فضربه فانفلق البحر فكان كل فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم. وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ثم أغرق الآخرين.

٥- داود وسليمان :

سخر الله الجبال مع داود والطير محشورة كُلٌّ له أوَّاب. ووهب لداود سليمان. وسخر الله له الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى بارك الله فيها. ومن الشياطين من يغوصون لسليمان ويعملون عملا دون ذلك. وعلم الله سليمان منطق الطير، وآتاه من كل شىء، وحشر له جنوده من الجن والإنس والطير. وأخبر الهدهد سليمان أن سبأ تملكهم امرأة، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله. وجىء لسليمان بناء على طلبه بعرش الملكة. وجاءت هذه لسليمان، ولما رأت عرشها أمامها أسلمت مع سليمان لرب العالمين.

٦- هُود :

قال هذا النبى لقومه عاد أن اعبدوا الله فقالوا له ما نحن بتاركى آلهتنا واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وكذبوه فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، ونَجَّى هودا والذين آمنوا معه.

٧- شُعَيْب :

قال هذا النبى لأهل مَدْيَنٍ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. وأوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم. قالوا يا شُعَيْب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء. وقالوا له إنه من المسحرين وأنهم يظنونه من الكذابين. ولما جاء أمر الله نَجَّى الله شُعَيْبا والذين آمنوا معه وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

٨- صالح :

قال هذا النبى لثمود أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، فقالوا ساحر وكذاب أشر، وطلبوا منه أن يأتيهم بآية إن كان من الصادقين. قال هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى الأرض ولا تمسوها بسوء فعقروها. فلما جاء أمر الله نَجَّى صالحا والذين آمنوا معه وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

٩- المسيح عيسى بن مريم :

أرسل الله روحه إلى مريم العذراء فتمثل لها بشرا سويا وقال إنه رسول ربها ليهب لها غلاما زكيا. فحملته فانتبذت بها مكانا قصيا. فأجاءها المخاض قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا. وقال لها ابنها حين ولدته إنِّى عبدالله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا.

باء - الأوامر والنواهى

١ - الأوامر:

قال تعالى:

﴿وقَضَى ربُّك ألا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ وبالـوالِدَيْن إحسانا﴾، ﴿إنَّ الله يأمُرُ بالعدل والإحسان﴾، ﴿وآتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابن السَّبيل﴾.

٢ - النواهى:

قال تعالى:

﴿وينهى عن الفحـشاء والمُنْكَرِ والبغى﴾، ﴿لا تقتلوا أولادكـم خَشْيَة إمْلاقٍ﴾، ﴿ولا تَـقْرَبُوا الزِّنـا﴾، ﴿ولا تقتلـوا النَّفْسَ التى حَـرَّمَ اللهُ إلا بالحق﴾، وتحريم الربا، ﴿ولا تَـقْرَبُوا مالَ اليتيم إلا بـالتى هى أحسن﴾، ﴿ولا تَمْش فى الأرض مَرَحا﴾، ﴿ولا تنقضوا الأيْمَانَ بعد تَوْكيدها﴾.

جيم - الكفار وأغنياؤهم

يسجل الـقرآن فى الفتـرة الثالثة، أكـثر بكثيـر مما سجله فى الفـترة الأولى، اعتراضات الكفار على رسالة مـحمد ﷺ ويرد عليها. وتنصبُّ هذه الاعتراضـات أساسا على وحدانيـة الله وعلى القيامة، كـما تنصب على نبوة رسول الله ﷺ ، وعلى القرآن.

وقد جاءت فى قرآن الفترة هذه الآية:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨]

كما جاء فيه، فيما يتعلق بالأغنياء:

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف: ٢٣]

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء: ١٦]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) ﴾ [سبأ: ٣٤]

ثانيا :

هذا الاستعراض لآيات القرآن يطلعنا على جوهر الرسالة التى حملها محمد ﷺ خلال الفترة الثالثة. وهو فى الوقت ذاته يعطينا، فى خطوط عريضة، صورة لما كانت عليه حياة الرسول ﷺ والمجتمع المكى والعربى الذى كان يدعو فيه إلى دينه. وهو يسمح أخيرا بمقارنة هذه الصورة بتلك التى تستخلص من نص ابن إسحاق. وفيما يلى بعض النقاط التى تتضح من هذه المقارنة:

١- كل الاهتمام يتركز، فى جزء النص المتعلق بالفترة الثالثة، فى المسألة التى أراد المؤلف أن يستخدمها كحجة أساسية، أو ما يسمونه فى الغرب بفرس المعركة، لإثبات مشروعية استيلاء العباسيين على السلطة، أى التكافل القبلى لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم وراء رسول الله ﷺ. وقد سبق أن تعرضتُ للأسباب التى تحمل على الشك فى صحة هذه الحماية من الناحية التاريخية. وسنرى، من جهة أخرى، فيما بعد، أن القرآن لا يتحدث عن هذه الحماية، وأن محمدا ﷺ لم يكن محتاجا إليها، بل وأنه كان محظورا عليه أن يلجأ إليها. والشىء الذى تعنينى

إضافته هنا هو أن القرآن الذى نـزل خلال هذه الفتـرة قد واصل دأبه، الذى بدأ مع بداية البعـثة المحمدية ، فى تحطيم حواجز القـبيلة التى كان العرب يعيشون منغلقين فى داخلها، والاستعاضة عن أخوة القبلية بمبدأ الأخوة فـى الدين. والآيات العـديدة المتعلـقة بالله والإنسـان والكون، وتلك التـى تتعلق بـأصل الإنسان والدين، كـانت ترمى أولا وقـبل كل شىء إلى انتزاع الرجل من قبيلته وإلحاقه بخالقه وبالعالم السماوى وبعهد الله إلى آدم وبسلسلة الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إلى بنى آدم، أى إليه هو، الشخص المقـيم فى مكة أو فى مكان آخر من الجزيـرة ، لهدايته، وإلى إبلاغه بالأوامر والنواهى الربانية. ومتى دخل المرء فى هذا العالـم، فإنـه كان يولى ظهـره لعالـم القبـيلة، وهذا هو مـا حدث لمحـمدﷺ وللمـسلمـين، وهذا هو العـامل الذى جـعل السلطـة المكية تـناصبـهم وتناصب رسولهم العداء.

٢- المنظور القـبلى الذى رسم المؤلف الفـترة منه جرّه إلـى أن تقديم الشخصيات الأساسية للفتـرة على أنهم، من جهة ، بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، ومن جهة أخـرى سادة قبائل قريش الذين كانوا يطـالبون بتسليم محمد ﷺ إليهم. أمـا فى القرآن فالشخصيات الأسـاسـية كانت الأنبياء الذين أرسـلهم الله للنـاس، وخاتمهم رسـول الله ﷺ والمؤمنـين، من جهة، والكفار من جهة أخرى.

٣- الشخصيـة المهيمنة للفترة، فى الـنص، أى أبوطالب، لم يرد لها ذكر فى القـرآن. وهذا الكتاب ، كمـا هو طبيعى، لا يتـحدث إلا عن رسول الله ﷺ ، وعمن سـبقه من الأنبياء، وعن مـوسى وبنى إسرائيل وقصتهم مع فرعون بصفة خاصة.

٤- لأن محمدا ﷺ ، فى النص، محمى من قبيلته، فقبيلته تستحوذ

عليه استحواذا كاملا. إنه فى النص أشبه برهينة فى أيدى بنى هاشم. أما فى القرآن فإن محمدا ﷺ ليس رهينة لأحد. إنه واحد من الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لهداية قومه والجنس البشرى إلى الصراط المستقيم. وصِلاته المتميزة هى الصلات التى كانت تربطه بأولئك الذين اتَّبعُوه سواء انتموا أو لم ينتموا إلى قبيلته. ومن المناسب أن نذكِّر هنا بآية وردت فى سورة متأخرة من سور الفترة المدنية تلخص خير تلخيص فلسفة القرآن فيما يتعلق بانتماء المسلمين، وهى الآية التى يقول الله تعالى فيها:

﴿قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة: ٢٤]

لا غرابة إذن فى أن يكون صحابة رسول الله ﷺ أقرب إلى قلبه من أفراد قبيلته الذين لم يتبعوا دينه.

٥- شعر الفترة يكيل الثناء لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم وبنى عبد مناف. والحاصل أن كل هؤلاء، باستثناء من آمنوا منهم فيما بعد، يدخلهم القرآن فى عداد الكفار الذين يتوعدهم الله بعقابه.

٦- على الرغم من أن قرآن الفترة لم يرد فيه إلا إشارات قليلة إلى الاضطهاد الذى كان المسلمون يتلقونه بأيدى قريش، وهو الاضطهاد الذى لم يخصص النص لوصفه سوى سطور معدودة، إلا أن من المسموح به أن يرى المرء فى كثرة ترديد القرآن لقصة موسى وبنى إسرائيل إشارة غير مباشرة إلى هذا الاضطهاد. والتوازى بين موسى ومحمد عليهما السلام فى هذا الصدد أمر له مغزى. ذلك أنه إذا كان

جميع الأنبيـاء السابقين الذين ذُكروا فى القرآن قد دعـوا إلى عبادة إلـه واحد، وإذا كـانوا قـد جاءوا أحـيانا، إلى جـانب ذلك، بأوامـر ونواه مختلفة، فإن موسى كان الوحيد بينهم الذى كان لرسالته هدف إضافى، هو تحرير شعب مستعبد. وإذا كـان تجبر فرعون، ورفضه الإيمان بآيات الله التى جاءه بهـا موسى، وشجاعـة سحرته الذين آمـنوا برب موسى، وسوء العذاب الذى كان يسومه فرعون لبنى إسرائيل، قد وردت عشرات المرات فى القرآن ، فمن البديهى أن هذه كـانت إنذارا مُوجَّها إلى أعداء محمد ﷺ والمسلمين، وشدا لأزر نبيه ومن اتبعه، ووعدا غير مباشر بأن الله سينصـرهم آخر الأمر على عدوهم كـما نصر موسى عـلى فرعون وقومه.

الفصل الخامس
الفترتان الرابعة والخامسة

سأتناول فى هذا الفصل الفترة الرابعة، التى تمتد من موت أبى طالب إلى اللقاء الأول لـرسول الله ﷺ فى العقبـة مع أول مجمـوعة من أهل المدينة، والفترة الخامسة، التى تمتد من هذا اللقاء إلى آخر الفترة المكية

الفرع الأول ـ الفترة الرابعة

ألف ـ النص

لما هلك أبـوطالب نالت قـريش من رسول الله ﷺ من الأذى مـا لـم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا أزالته إحدى بناته ﷺ وهى تبكى.

وخرج الرسول ﷺ إلى الطائف يلتمس الـنُّصرة من ثقيف والمَنَعة بهم من قومـه، ورجاء أن يقبلوا منه مـا جاءهم به من الله عز وجـل، وعمد إلى إخوة ثلاثة: عَبْد يـالَيْل بن عمرو بن عُمير، ومسـعود، وحبيب ابنا عمرو ابن عُمير، وهم يومئذ سـادة ثقيف وأشرافهم، وعند أحدهم امرأة من قريش. لكنه لم يلق منهم سوى الازدراء والـسخرية، فقام رسول الله ﷺ من عندهم يائسا. على أنه خشى إن علم قومه بخروجه إلى الطائف أن يثيرهم ذلك عليه فطلب منهم أن يكتموا لقاءه بهم. لكنهم، بدلا من احترام رغبته، أغْرَوا به سفهاءهم وعـبيدهم، يَسُبُّونَه ويصيحون به. حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعُتبة بن ربيعَة وشَيْبَة بن رَبيعَة.

ولما رآه هذان الرجـلان ، وهما قُرشـيان من بنى عـبد مناف، قبـيلة الرسول ﷺ ، تحركت له رَحِمُهما، فأمـرا غُلاما لهما نصرانيا، يقال له

عدَّاس، بأن يـأخذ عنقودا مـن العنب فيـذهب به إليه. وقـبل أن يأكل الرسـول من العنب قـال بسم الله. وانـدهش الغلام لأن هـذا الكلام لا يقوله أهل تلك البلاد، وقال ذلك للرسـول ﷺ، كما أخبره، إجابة عن سؤال وجَّهـه إليه، أنه نصرانى من أهل نِينوى، فـقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجـل الصالح يُونس بن متى؟ وسـأله عَدَّاس عما يعـرفه عن يُونُس فـأجابه مـحمد ﷺ: «ذاك أخـى، كان نبـيا وأنا نبى»، فـأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وانصرف الرسـول من الطائف راجعـا إلى مكة فتوقف بـنخلة (على مسافة يوم سفر من مكة). وفى جوف الليل استمع إليه نفر من جن أهل نَصيبـين، قاعدة ديار ربيعة، وهو يصـلى. فاستمعوا له. فـلما فرغ من صلاته ولَّـواْ إلى قومهم مـنذرين وأخبـروهم أنهم آمنوا وأجابـوا إلى ما سمعوا، وفيهم نزلت الآيات فى قوله تعالى:

﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾

[الأحقاف: ٣٠ - ٣١]

والآيات فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا

كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١ - ١٥] (*)

ثم قدم رسولُ الله ﷺ مكة، وقـومُه أشد ما كانوا عليـه من خلافة وفراق دينه، إلا قليلا مُسْتَضْعَـفين، ممن آمن به، فكان يَعْرِض نفسه على قبائل العرب التى تفد إلى مكـة فى مواسم الحج، ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف، إلا تصدى له. وكان يقدم نفسه للقبائل على أنه رسول الله إليهـم، يأمرهم أن يعبدوا الله لا يشركون بـه شيئا، ويتركون ما يعبدون من دونه، ويـدعوهم إلى الإيمان به وأن يُصدِّقُوا به ويَمنعوه. وكـان يتبعه رجـل أحول وضىء حسن الهندام، هو عـمه أبو لهب، كان يـقول للقبـائل إن محمـدا صابىء لا ينبـغى الاستمـاع إليه ويدعوهم ألا يسلـخوا اللات والعزى من أعناقهم، وحـلفاءهم من الجن من بنى مالك ابن أُقَيْش. وكانت القبـائل التى عرض الرسول ﷺ عليها نفسه هُمْ: كنْـدة، وبنو كَلْب، وبنو حَنيفة، وبنو عامـر، ولم تقبل هذه القبائل منه ما عرض عليهم، بل إن القبائل الثلاث الأولى ردت عليه ردا قبيحا.

(*) لم يجرؤ الرسول ﷺ على دخول مكة إلا بعد أن أجاره المُطْعِم بن عديّ بقوة السلاح (انظر السيرة، القسم الأول ، ص ٣٨١).

وقدم سُويد بن صامت، من قبيلة بنى عمرو بن عَوْف المدينة فَتَصَدَّى له رسول الله ﷺ . وكان سُويد إنما يسميه قومه فيهم : الكامل، لجَلَده وشعره وشرفه ونسبه. وعرض سُويد على الرسول ﷺ حكمة لقمان التى كانت معه.

وقال الرسول: إن هذا لكلام حسن، والذى معى أفضلُ من هذا، وتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام. ولم يَبْعُد سويد منه ،واعترف بأن ما سمعه قول حسن. ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه، لكن الخَزْرَج قتلته. وقال رجال من قومه إنه قُتل وهو مُسْلم. وكان قَتْلُه قبل يوم بُعاث، وهى موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

وقدم أبو الحَيْسر مكة ومعه فِتْيَة من بنى عَبْد الأشْهل (من الأوس) فيهم إياس بن مُعاذ، يلتمسون الحلْف من قريش على قومهم من الخزرج. وسَمِعَ بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم وذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ، وكان غلاما حَدَثا: أى قوم، هذا والله خير مما جئتم له. وغضب أبو الحَيْسر لهذا القول، فأخذ حَفْنة من تراب، فضرب بها وجه إياس بن مُعاذ وأنَّبه. وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة. وكانت وقعة بُعاث بين الأوْس والخَزْرَج. ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. وقال من حَضَره من قومه عند موته إنهم لم يزالوا يسمعونه يُهَلِّل الله تعالى ويُكَبِّره ويحمده ويُسَبِّحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما. (*)

باء - التحليل

هذه الفترة الرابعة مدتها سنة، هى السنة التى تفصل وفاة أبى طالب، التى حدثت، وفقا للنص،قبل الهجرة بثلاث سنوات، وأول لقاء تم بين

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٨ .

الرسول ﷺ ومجموعة من الخزرج المدنيين. وقد تم هذا اللقاء قبل سنتين من بيعة العقبة الثانية التى سبقت الهجرة إلى المدينة بقليل.

وفى الإمكان إبداء الملحوظات الآتية على حديث هذه الفترة:

١- تلخيص الأحداث الهامة التى وقعت خلال هذه السنة برجل ينثر ترابا على رأس الرسول ﷺ ، وزيارة بلا طائل إلى ثقيف، وحوار مع غلام نصرانى، ولقاءات غير مجدية، بالقرب من مكة، مع أربع قبائل، ولقاء بواحد من أهل المدينة، ولقاء آخر مع جماعة من أهل المدينة، يبدو كالعبث. ذلك أن تلك السنة، أى السنة الحادية عشرة من البعثة، كان المفروض، فى منطق النص ذاته، أن تكون سنة حاسمة.

ولما كانت فلسفة الفترة الثالثة بأكملها هى أن سلامة محمد ﷺ وقدرته على الدعوة إلى دينه كانتا رهنا بالحماية التى حباه بها عمه أبو طالب، فلابد أن موت هذا العم كان حدثا جوهريا بالنسبة لابن أخيه، ولبنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى الوقت ذاته. وسواء كان أبو طالب رئيسا لهاتين القبيلتين أو لبنى عبدالمطلب وحدهم فالمفروض أن يكون رئيسٌ جديد قد عين فى اليوم التالى لوفاته، كى يحل محله. وهذا الرئيس الجديد أو رئيس القبيلة - إذا لم يكن أبوطالب فى حياته هو الرئيس - كان المفروض أن يتفق مع أعيان القبيلتين على تحديد الموقف الذى كان الأمر يقتضى اتخاذه حيال محمد ﷺ . هل كان الواجب يقتضى تأييده وحمايته، كما كان الأمر فى حياة عمه المتوفى، أم كان الأفضل أن يترك لمصيره. لكن ترك محمد لمصيره كان يعنى العدول عن الموقف الذى تصوره أبيات أبى طالب التى يقول فيها:

كَذَبْتُمْ وبيتِ الله نُبْزَى محمدا ... ولما نُطاعن دونَه ونناضل
ونُسلمه حتى نصرّع حولَه ... ونذْهَل عن أبنائِنا والحَلائل (*) .

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٢٧٥ .

ويقول:

فلسنا وربّ البيت نُسلم أحمدًا　　لعزَّاءَ من عضّ الزمان ولا كَرْب (*)

وكان يعنى أيضا أن القبيلتين تقبلان، فى آخر الأمر، تسليم محمد لقريش لتقتله. ولابد أن هذا الموضوع، إن صح، قد أثار جدلا شديدا اتضح من خلاله من كان يحبذ بقاء محمد على قيد الحياة، ومن كان يرى أن موته أفضل. وواقع الأمر أن النص لا يشير إلى حدوث جدل من هذا القبيل، وأن اختفاء الشخص الذى جعل منه النص الشخصية المهيمنة فى الفترتين الأولى والثالثة لم يترتب عليه، فيما يبدو، أقل أثر على ما تلا ذلك من أحداث.

٢- كون الرسول ﷺ اتصل بثقيف وبأربع قبائل أخرى يلتمس المنعة بهم من قومه لا يعنى إلا شيئا واحدا هو أن الحماية التى كان يشمله بها بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، وفقا للنص، نزعت منه بوفاة أبى طالب. يؤيد هذا أن أحدا من هؤلاء لم يقل لقريش، سواء خلال مقابلاتهم معهم أو بالشعر: «لن نسلم محمدا أبدا»، وأنهم سينافحون عنه حتى الموت. وهذا تطور هام. أولا ، لأن حماية هاتين القبيلتين، وراء أبى طالب، للرسول ﷺ عرضت، فى حديث الفترة الثالثة، على أنها أهم سمات هذه الفترة. ثم لأن شمول الرسول ﷺ بحماية مسلمى المدينة، حتى بالحرب، سيكون، كما سنرى فى الفترة المكية الخامسة، فيما يقول النص، الغرض الوحيد من بيعة العقبة الثانية والظرف الحاسم فى الهجرة إلى المدينة.

(*) السيرة ، القسم الأول ص ٣٥٣.

٣- المثل الذى ضربه النص للتدليل على الآثار التى نجمت عن موت أبى طالب بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام، أى أن سفيها من سفهاء قريش نثر على رأسه ترابا، مَثَلٌ عبثى إذا فكر المرء فى خطورة الاتهامات التى كانت قريش توجهها إليه ﷺ وألوان الاضطهاد التى كانت توقعها ببعض أصحابه. وعلاوة على ذلك فإن هذه الإهانة لم تكن أشد من بعض ما تعرض له الرسول ﷺ فى حياة عمه، ككون أحد المشركين قد بصق على وجهه. وأخيرا فإن هذا المثل يصور الرسول كرجل عاجز عن الدفاع عن نفسه ضد الاعتداء الجسدى، مع أن النص يخبرنا، فى حديث الفترة الثالثة، أن الرسول ﷺ صارع رُكَانة المطَّلبى، أشد رجال قريش، «فأضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئا» (*).

٤- لو افترضنا جدلا أن قصة نشر التراب على رأس الرسول ﷺ صحيحة، وأنه لا عمر ولا حمزة ولا جماعة المسلمين استطاعوا منع وقوعها أو الاقتصاص للرسول، فإنها لم تكن من الجسامة بحيث تضطر الرسول إلى التماس الحماية من القبائل غير المكية.

٥- بعد أن مات أبو طالب ونزع بنو عبدالمطلب وبنو هاشم حمايتهم لمحمد، لابد أن قريشا أصبحت فى حلّ من اضطهاد محمد كما كانت تضطهد أصحابه، سواء بالتعذيب الجسدى أو النفسى. بل إنه كان لها أن تقتله. لكن النص لا يذكر أن قريشا اضطهدت الرسول ﷺ بأى صورة من الصور المذكورة.

كما أنها لم تطلب قط من قبيلته تسليمه لها، ولم تحدث أية محاولة من جانبها للاعتداء على حياته. إنها غائبة تماما عن مسرح الأحداث فى

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٩١ .

الفترة الرابعة. ولم يذكره أحد شعـرائها بسوء فى بيت واحد من الشعر، ولم يقل أى من سادتها أو أى مجموعـة من أشرافها عنه أو عن القرآن، كما فى الفترة الثالثة، كلاما أنزلت بشأنه آيات من القرآن.

وعلى الرغم من أن النص يذكـر أن قوم الرسـول (أى قريشـا) لدى عودته من الطائف، كانـوا« أشد ما كانوا عليه من خـلافه وفراق دينه»، إلا أن الوصف الذى يعطيـه عن هذه الفـترة يدل على أنهـا فـترة هادئة حاول الرسول ﷺ خلالها أن يمد نطاق دعوته إلى الخارج باطمئنان تام، لا يزعجه إلا عمه أبو لهب.

٦- من الملاحظ، فى حديث الفترة الرابعة، أن هناك تغيرا فى النظرة إلى أبى لهب. وعلى الرغم مـن أن النص كان لا يألوا جـهدا، خـلال الفـترة الثـالثة، فى إثبـات أنه لم يكن أسوأ الرجـال، وأنه لم يخلُ من النواحى الإيجابيـة، وأنه كان من بينْ القـرشيين من كـانوا أعتى منه فى محاربة الرسول ودينه، أى، باختـصار، إن الإدانة القرآنية الصادرة ضده فى سورة المسد كانت قاسيـة إلى حد ما ، نراه يظهر فى هذه الفترة وهو يلعب، وحده، الدور الذى كـان يلعبـه فى الفترة الثـالثة عمـلاء قريش المكلفون بذم محمد لدى الحجاج وتحذيرهـم منه.

كيـف يمكن تفسـير هذا الاخـتلاف فى النظرة إلى أبى لهب مـا بين الفترتين الثالثة والرابعة؟

من المحـتمل أن يكون النص قـد أراد أن يوحى بأن أبا لهب، رعـاية لأخيه أبى طالب، قد اكتفى بالعداء السـلبى، وأن هذا العداء اتخذ شكلا إيجابيـا بعد موته. وهنـاك احتمـال آخر هو أن يكون النص قد عـمد، لتبرير الخبر الذى مؤداه أن محمدا ﷺ اتصل بالقبائل «الأجنبية» ليلتمس

منها المنعة التى كانت تحبوه بها قبيلته برعاية أبى طالب، ولكى لا يشرك قبيلة الخليفة العباسى كلها فى عملية التخلى عن الرسول، اكتفى بالـ«تضحية» بأبى لهب.

٧- ثم ماذا عن مسلمى مكة؟ إن كل ما يقوله النص بشأنهم هو أنهم كانوا «قليلا مُسْتَضْعَفين». كلمتان فقط فى سبع الصفحات التى خصصها النص لهذه الفترة، علما بأن قصة سُوَيد بن صامت، وهو من أهل المدينة، تشغل أكثر من صفحة ،وأن قصة النفر من أهل المدينة الذين كان من بينهم إياس بن معاذ تشغل ستة عشر سطرا. كم كان عددهم، هؤلاء «القليل المستضعفون»؟ من كانوا؟ وإلى أى العشائر والقبائل كانوا ينتمون؟ كم كان عدد حالات اعتناق الإسلام الجديدة، وحالات الاضطهاد الجديدة، والمسلمين الذين هاجروا (قبل الهجرة إلى المدينة)؟ لاشيء فى النص عن هذا.

لكن لفظتى «قليلا مستضعفين» تعنيان الكثير، فى الواقع. إنهما تعنيان ببساطة أن مكة كانت أرضا عقيمة للإسلام، وأن أكثر من عشر سنوات من الدعوة وأكثر من ثلاثة آلاف وستمائة آية من آيات القرآن التى أنزلت من بداية البعثة، لم تنجح، فى نهاية المطاف، إلا فى هداية نفر قليلين إلى الإسلام.

لقد سبق إبداء الرأى فيما يتعلق بعدد المسلمين فى إطار الفترة الثالثة، لكن بوسعنا أن نقول هنا إن معلومة «قليلا مستضعفين» تناقضها معلومتان سابقتان فى النص. ذلك أن النص:

أ) يذكر فى قصة الإسراء: «وقد فشا الإسلام بمكة فى قريش، وفى القبائل كلها».

ب) فى قصة لقاء سادة قريش الأخير بأبى طالب، قالت قريش بعضها لبعض. . «وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها».

٨- يستفاد من النص أن لقاءات الرسول ﷺ مع القبائل غير المكية بدأت فى هذه الفترة، أى بعد أحد عشر عاما من البعثة، فهل يمكن تصديق هذه الدعوى؟ هى دعوى لا يمكن تصديقها، والنص لا يشرح السبب الذى جعل الرسول ﷺ والمسلمين لا يستغلون الفرصة التى كانت تتيحها لهم مواسم الحج والعمرة لنشر دينهم بين مئات القبائل العربية التى كان أعضاؤها يفدون إلى مكة كل عام ويمكثون فيها أحيانا عدة أسابيع.

والنص لا يشرح كذلك ما الذى منع مسلمى مكة من نشر كلمة الإسلام بين عملائهم من التجار، وأقاربهم ومعارفهم وأصدقائهم المقيمين فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة التى كانوا يشدون الركاب إليها للتجارة أو الزيارة.

وعلى الرغم من أن النص أعطى فى قصتى إسلام عمر والطُّفَيْل بن عمرو الدَّوْسى مثالين لشخصين هداهما الله إلى الإسلام لمجرد سماع آيات من القرآن يتلوها الرسول ﷺ ، فالنص، فيما يبدو، يتجاهل حقيقة أن فقرات أطول من القرآن الكريم كانت ولاشك قد أذيعت خارج مكة عن طريق عرب غير مكيين استظهروها خلال إقامتهم فى مكة، وعن طريق نفر من مسلمى مكة، وأن هذه الفقرات أحدثت فى نفوس من استمعوا إليها من الأثر مثل الأثر الذى وصفه النص فى حالتى عمر والطفيل.

والنص يتجاهل أيضا ، فيما يبدو، أن اضطهاد قريش قد دفع كثيرا من مسلمى مكة إلى الهجرة وإلى البحث عن ملاذ لدى أقاربهم

وأصدقـائهم وإخوانهم فى الـدين الذين يعيـشون فى أقاليـم أخرى من الجزيرة العربية.

وكـما أوضـحت فى تحليل حـديث الفتـرتين الأولى والثـالثة، فـإن الإسلام - وليس فقط ما كان يذيعه عملاء قريش من عيب فى الإسلام - لابد أنه انتشـر فى شتى بقاع الجـزيرة، وأن المسلمين من غـير أهل مكة كانوا، أغلب الظن، أكـثر عددا من مسلمى مكة فى الفـترة الرابعة التى نحن بصددها.

٩- حديث رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف يسـتدعى لدىَّ ما يلى من أفكار:

أ) شعور الرسـول ﷺ بالخطر المحدق به، هذا الشعور الذى كـان يجعله يلتمس من القبائل التى كان يدعـوها إلى الإسـلام أن تمنعه أى أن تحميه، يجعل من المسـتغرب أن يكون قـد رحل إلى الطائف بمفرده، وألا يكون قد اصطـحب معه مـجمـوعة من أصـحابه القادريـن على حمايتـه عند الضرورة. وقد سبق أن لاحظت أن النص يقدم لنا الرسول ﷺ ، طوال فترة بعثه فى مكة ، وحيدا فى أغلب الأحيان.

ونحن، فى الواقع، لا نراه بين أصحـابه إلا فى إحدى روايتى إسلام عمر، وفى تقديم الاقـتباس القرآنى رقم ٣٣ وفى موقف كـان فيه فى المسجد بصحبة أبى بكر. ورحلة الطائف هذه إذن حالة إضافية يقيم فيها النص عامدا ما يشبـه الحاجز بين الرسول ﷺ ومسلمى مكة. والنص لا يذكر أن الرسول، لكى يذهب إلى الطائف، وهى بلدة تـقع على مسافة عدة أيام من مكة سيرا على الأقدام، قد استعان بجَمَّال.

ب) من المسـتغـرب كذلك أن يكـون أبناء عمـرو بن عُمَيْر الثَّقَفيـون الثلاثة قد بلغوا من سـوء الضيافة أن يغروا سفهاءهم وعـبيدهم بالرسول

ﷺ يسبونه ويصيحون فى وجهه. لقد كان مثل هذا السلوك متصورا من عُتْبة وشَيْبة، ابنى ربيعة من رَهْط ابن شمس، اللذين ذهبا أكثر من مرة إلى أبى طالب ضمن من ذهبوا للشكوى من محمد، لا من جانب سادة ثقيف وأشرافهم الذين لم يفعل الرسول أكثر من أن تلا عليهم القرآن وعرض عليهم الإسلام وجنّاته.

جـ) لنقف لحظة عند حالة عَدّاس، الغلام النصرانى الذى كَفَتْه علامة واحدة، هى كون محمد ﷺ يعرف أن يُونُس من نِينوى، لكى يقتنع بنبوته. إن فى هذه القصة من السذاجة ما يجعلنا نشك فى صحتها.

لقد كانت قصة يُونُس معروفة لليهود وللنصارى ولمن يخالطونهم ومن لديهم علم بالتوراة. لكن قصة عَدّاس إحدى القصص التى تتحدث عن هداية نفر من النصارى إلى الإسلام والتى يولع بها النص. والدلائل كلها تشير إلى أنها اخترعت لتجسيد رحلة الرسول إلى الطائف.

١٠- أما ما يرويه النص عن اتصالات الرسول ﷺ بالقبائل، فإنه يثير ملحوظتين:

أ) من الأمور التى تدعو إلى الدهشة أن الرسول ﷺ لم يلتق إلا برجال أربعة فقط من مئات القبائل التى كانت تفد إلى مكة للحج.

ب) إذا كان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام على القبائل الوافدة من خارج مكة، فمما يثير الدهشة أن يطلب إليهم صراحة أن يُمَنِّعُوه من قومه. ليس فقط لأن مثل هذا الطلب لا محل له، إذ أن إسلام كل مسلم صادق الإيمان يجعله يحب الرسول حبا يحمله على قبوله أية تضحية من أجل حمايته، بل أيضا لأن حجاج أية عشيرة أو قبيلة لم تكن لهم بوجه عام صفة تخولهم أهلية ترتيب ارتباطات جماعية على عشيرتهم أو قبيلتهم.

ثم إنه، على فرض أن هؤلاء الحجاج أسلموا كلهم، فإن شيئا لم يكن يسمح لهم بتصور إن إسلام قبيلتهم كلها سيكون شيئا ميسورا، إذا راعينا الصعوبات التى كان الرسول ذاته يعانيها فى نشر الإسلام بمكة بل بين أفراد قبيلته ذاتها.

وفضلا عن ذلك فإن طبيعة المنعة التى كان الرسول ﷺ يطلبها من القبائل ليست محددة. هل كان المطلوب أن يحموا محمدا فى مكة ذاتها من قريش؟ أم أن يصحبوه إلى بلدهم ويحموه وهو بين ظهرانيهم؟ أما الفرض الأول فيجب استبعاده، فإن كِنْدَة كلهم، وبنى كَلْب كلهم، وبنى حَنِيفة كلهم، وبنى عامر كلهم لو أسلموا، لما كان بمقدورهم أن يحموا محمدا فى مكة من قريش.

بقى فرض اصطحاب محمد إلى ديارهم واعتباره واحدا منهم. إن هذا الفرض مقبول من الناحية النظرية، وفى السيرة أمثلة لأشخاص غيروا قبيلتهم. لكن، إذا كان هذا هو الحال، ما الخطر الذى كان النبى ﷺ يطلب الحماية لمواجهته؟

إن إحدى الإجابات الممكنة عن هذا السؤال واردة فى القصة التالية:

رجل اسمه بَيْحَرَة بن فِراس، من بنى عامر بن صَعْصَعة، هتف، بعد أن سمع عرض الرسول على قبيلته: «والله، لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلتُ به العربَ»، ثم قال للرسول: أرأيتَ إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال الرسول ﷺ : الأمرُ إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال له بَيْحَرَة: أفتُهْدَف نحورُنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فلما صدر الناسُ رجعتْ بنو عامر إلى شيخ لهم،

قد كانت أدركَتْه السن، فحدَّثوه عن «فتى من قريش، ثم أَحَدُ بنى عبدالمطَّلب، يزعم أنه نبىّ ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقومَ معه، ونخرج به إلى بلادنا» (*). وهذا يعنى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان ينوى الرحيل مع بنى عامر إلى بلدهم.

لكن هذه الإجابة الواردة فى النص ليست إجابة، ويظل السؤال قائما: ما هو الخطر الذى كان الرسول يطلب من مخاطبيه أن يحموه منه إذا قبلوا أن يخرجوا به إلى بلادهم؟ وحين تحدث بَيْحَرة عن احتمال أن يظهر الله محمدا ﷺ على من خالفه، ما الذى كان يقصده بالضبط؟ هذا السؤال بدوره يظل معلقا، وليس فى النص ما يسمح بالإجابة عنه.

١١- قصة إسلام سُويد بن صامت، أخى بنى عمرو بن عوف تستدعى الملحوظات الآتية:

أ) النص يخصص لها صفحة كاملة، وهو حيز لم يخصص لإسلام أحد من أهل مكة، باستثناء عمر.

ب) سُوَيد يقدِّم لنا كخيرة أهل المدينة: رجل بلغ من جَلَدِه وشِعْره وشرفه ونسبه حتى أسماه قومه بالكامل. وقد بلغ من أهمية شخصيته أن وافى النص القارىء بالحقائق التالية المتعلقة به:

كاهنة من كُهَّان العرب قضتْ على رجل من بنى سُلَيم فى خلاف كان له مع سويد بمائة ناقة. وبعد صدور هذا الحكم انصرف الخَصْمان معا. فلما فَرَّقت بينهما الطريقُ قال سُوَيْد: مالى، يا أخا بنى سُلَيم. قال: أبعثُ إليك به، قال : فمن لى بذلك إذا فُتَّنى به؟ قال: أنا، قال: كلا، والذى نفس سُوَيد بيده، لا تفارقَنِّى حتى أوتى بمالى، فتشاجرا

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

فضـرب سويد بخصـمه الأرض، ثم أوثقه رباطا، ثـم انطلق به إلى دار بنى عمرو بن عوف، فلم يزل عنده حتى بعثتْ إليه سُلَيم بالذى له. فما أهمية هذه القصة فى سيرة الرسول؟

جـ) لا يقول النص شيئا عن حكمة لقمان التى كان سُوَيد بن صامت حائزها الوحيد، كما لا يشرح العلاقة بين محتواها والآيات القرآنية التى نزلت عن لقمان.

د) أخيرا فإن الـنص لا يفسر السبب الذى من أجله قـتل رجل فى مثل أهمية سُوَيْد من الخزرج فى المدينة، كما لا يقول كلمة عن ملابسات قتله.

جيم - المحصلة

الانطباع الـذى يخلص إليه المرء من قـراءة حديث هذه الفـترة هو أن صمت النص عن ذكـر النتائج التى ترتبت على مـوت أبى طالب يسوغ كل الشكوك فيما يتعلق بمجموع البيانات التى يقدمها عن الفترات الثلاث الأولى. ذلك أن النص، الذى جعل من أبى طالب:

١- الشخصية المهيمنة فى مكة، التى كان أعظم سادة قريش وأشرافها يسعون إليها باحترام حين يكون لديهم مشكل مع محمد.

٢- أكبر شخصيات بنى عبدالمطلب وبنى هاشم نفوذا، بدليل أن كلمة منه كانت كافية كى تشكل القبيلتان جبهة تحمى محمدا، فى الوقت الذى عجز فيه أبولهب عن ضم أى عضو من أعضائهما إليه.

٣- شخصية عظمى، أعظم من مـحمد عليه الصلاة والسلام، إذ أنه كان الحامى وكان محمد المحمى.

٤- رجل كان الإسلام مدينا له، كأمر واقع، بوجوده إذ لولاه لقتلت قريش محمدا أو لألزمته الصمت.

أقول إن النص الذى جعل من أبى طالب كل هذا يـفاجئنا بعد موته، كأنما بسحر ساحر، باختفاء:

أ) النزاع بين قريش من جـهة وبنى عبدالمطلب وبنـى هاشم من جهة أخرى، وهو النـزاع الذى جعل منه النص الموضـوع الرئيسى فى الفـترة الثالثة.

ب) الأحداث: الهداية إلى الإسلام والاضطهـاد والهجرة التى تتعلق بالمسلمين.

حـ) المخاطر التى كان يتعرض لها الرسول عليه الصلاة والسلام.

والنقطة الأخيرة فى غاية الأهمية، إذ أن النص يقدم لنا الرسول عليه الصلاة والسلام، طوال الـسنة التى تتكون منها هذه الفتـرة الرابعة، وهو يخرج وحده بلا رفـيق ولا حارس، إلى الطائف وإلى الحجـاج القادمين إلى مكة، كما أن النص لا يتحدث عن أية مؤامرة دبرت ضده أو اعتداء وقع عليه.(*)

(*) الا يمكن القول إن إجارة المُطْعَم بن عدىّ للرسول دليل على أنه ﷺ كان يخشى على نفـسه؟ لا. إن قصة هذه الإجـارة هى فى الواقع واحدة من الحكايـات العديدة غير المعـقولة التى نجدها فى النـص. واحتمال صدقـها أقل حتى من احتـمال صدق مقولة حمـاية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسـول، إذ أن المُطْعَم لم تكن تربطه أية صلة قربـى بالرسول، ولم يكن له مـصلحة فى حمـايته، ولم يكن فى مـقدوره أن يقارع بالسـلاح قريشا بالإضافة إلى قبيلة الرسـول. ويلاحظ أن هذا السـيد من سادة ثقيف، الـذى كان يعيش بمكة، كـان خَصْمـا للرسول هجاه أبـو طالب بالاسم فى قصيدتيه الأولى والثالثة، كذلك فإن هذا الجوار إن صح لكان حدثا فى غاية الأهمية ولخصـص المؤلف له مكانا كـبيرا فـى نصه. والحاصـل أن النص لا يشيـر الى هذا الموضوع إلا فى تقـديم قصيدة من ثمانـية أبيات يدعى أنها لحـسان بن ثابت، يزجى فيها ثناء عاطر للمُطْعَم لدوره فى نقض المقاطعة المزعومة، لا فى سياق الفترة الرابعة التى يحاول النص فيها أن يثبت أن الرسول ﷺ كان لا يتمتع بأية حماية (ولولا ذلك لما التمس منعة القبائل العربية التى تفد إلى مكة للحج).

وفى هذا دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ كان فى غنى عن حماية قبيلته. وفيه أيضا دلالة على أن هذه الحماية لم توجد قط فى الواقع. وإذا كانت هذه الحماية، التى أسس النص عليها عرضه للفترات السابقة جميعا، لم توجد قط، فإن النزاع الذى نشأ عنها بين قريش وقبيلتى الرسول لم يكن له بدوره وجود.

إذن فإن حديث الفترة الرابعة يهدر دعوى حماية الهاشميين للرسول. وهو يسمح للمرء فى الوقت ذاته بأن يعتبر أن الصراع الحقيقى خلال الفترة المكية كان ذلك الذى واجهت فيه قريش (بمن فيها بنو عبدالمطلب وبنوهاشم) الرسول ﷺ والمسلمين؛ وهو يؤيد أخيرا الفكرة التى مؤداها أن الدعوى المذكورة قد اخترعت لخدمة مصالح الخلافة العباسية التى حاولت أن تسوغ استيلاءها على السلطة بانتمائها الى القبيلة التى يفهم من نص ابن إسحاق أن الإسلام مدين لها بوجوده.

لكن من الممكن، بغض النظر عن الاعتبارات السابقة، أن نقول إن الطريقة التى عولجت بها هذه الفترة الرابعة فى النص تثير عدة تساؤلات، مثل:

١- لماذا أسدل النص الستار على كل الأحداث (من اضطهاد وهجرة، إلخ) التى لابد أن مكة اهتزت لها خلال السنة موضع البحث؟ لماذا، بعبارة أخرى، توقف تاريخ مكة والإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام فلم يسجل النص منه سوى زيارة قام بها الرسول للطائف، واتصال بأربع قبائل من الحجاج غير المكيين وحالتى «شبه إسلام» شخصين من أهل المدينة؟

٢- لماذا أغفل النص تماما ذكر جميع سور القرآن التى نزلت خلال هذه الفترة؟

٣- لماذا يعرض علينا محمدا ﷺ وهو نهبة للشعور بالخطر المحدق به والحاجة إلى الحماية، مع أن الذى أرسله للناس هو الله ذو القوة وأن القرآن، كما رأينا، ينهاه عن اتخاذ عاصم أو ولى من البشر.

٤- لماذا تحدث بَيْحَرَة بن فِراس عن إهداف نحور رجال قبيلته للعرب دون محمد، مع أن هجرة الرسول إلى ديار بنى عامر لم تكن تمس مصالح أحد أو تشكل عملا عدائيا قد يؤدى إلى قيام حرب، لاسيما مع قريش التى كان لديها من الأسباب ما يجعلها ترحب بهذه الهجرة؟

٥- لماذا بَعُدَ القريشيون عن الصورة التى يرسمها النص للفترة، ولماذا كان اثنان من القرشيين الثلاثة الذين يظهرون فيها فى الطائف؟

٦- لماذا غاب المسلمون، بدورهم، غيابا تاما عن هذه الصورة، ولماذا يصفهم النص بالقليل المستضعفين، مع أنهم كانوا فى الفترة السابقة عديدين، وأن إسلام حمزة وعمر جعلاهم قوة يحسب حسابها؟

٧- ما السر فى كون حالتى «شبه» إسلام شخصين على يد الرسول خلال العام كله تتعلقان باثنين من أهل المدينة؟

٨- لماذا كان العرب الوحيدون الذين نصادفهم خلال هذه الفترة، باستثناء أبى لهب وابنى ربيعة، من غير المكيين؟

عبثا يبحث المرء عن عناصر تسمح بالإجابة عن هذه التساؤلات فى حديث هذه الفترة. والواقع أن كل شىء فى هذا الحديث يوحى بأن المؤلف لم يكن يهتم حقيقة بحياة الرسول ﷺ أو بتاريخ الإسلام وإنما كان يرمى إلى تعبيد الأرض لحدث جديد فى كتابه.

وتشبه الفترة الرابعة، منظورا إليها من هذه الزاوية، الفترتين الأولى والثانية اللتين كانت وظيفتهما الأساسية هى تعبيد الأرض للفترة الثالثة،

أى لتصوير أبى طالب على أنه الشـخصية المركزية فيها، ولجـعل حمايته للرسول عليه الصلاة والسلام تبدو وكأنها الغرض والعامل الذى تتقرر به جميع الأحداث. وكما أن تحليل حديث الفترة الرابعة قد سمح باستكناه تطورات الفترة الثالثة، فقد يســمح تحليل حديث الفترة الخامسـة، بدوره، بالعثور على مفتاح للتساؤلات التى أثارها حديث الفترة الرابعة.

الفرع الثانى. الفترة الخامسة

تمتد هذه الفترة من أول لقاء للرســول ﷺ بستة من حجاج المدينة فى العقبة، إلى الهجرة. وسنقف فيها عند المراحل الثلاث الآتية:

- إسلام بعض أهل المدينة.

- عقد بيعة العقبة الثانية، المسماة ببيعة الحرب.

- هجرة المسلمـين والرسول ﷺ إلى المدينة، التى تنـتهى بها الفـترة المكية.

§ ١ـ إسلام بعض أهل المدينة

ألف . النص

لما أراد الله عز وجل إظهــار دينه، وإعزاز نبـيه ﷺ ، وإنجاز مـوعده له، خرج رسول الله ﷺ فى المـوسم الذى لقيه فيه النـفر من الأنصار، فعرض نفســه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل مـوسم. فبينما هو عند العقبـة لقى رهطا من الخزرج من موالى يهود يتكون من خـمسة رجال وامرأة. وكــان اليهود كلما اختلفـوا مع حلفائهم فى شىء، قالوا لهم: إن نبيا مبـعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم مـعه قتل عاد وإرم. وعرض الرســول ﷺ الإسلام على الحـجاج الســتة وتلا عليـهم القرآن. وبعد أن استمعوا إليــه قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلّموا والله

إنه للنبى الذى توعَّدكم به يهود فلا يسبقُـنَّكم إليه. فأجابوا الرسول فيما دعاهم إلـيهم، بأن صدّقـوه وقبلوا منه مـا عرض عليهـم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركـنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشـر ما بينهم، فعـسى أن يجمـعهم الله بك، فـسنقدم عليـهم، فندعوهـم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشـا فيهم، فلم يبق دارٌ من دُور الأنصار إلا وفـيها ذِكْرٌ من رسول الله ﷺ .

حتى إذا كان العـام المقبل وافى المَوْسِمَ من الأنصار اثنا عـشر رجلا، فلقُوه بالعـقبة، وهى العقبـة الأولى، فبايعوا رسولَ الله ﷺ عـلى بَيْعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض عليهم الحرب. وكانت بيعتهم «على أن لا نُشرك بـالله شيئا، ولا نَـسْرق، ولا نَزْنى، ولا نقـتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نَفْتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعْصيَه فى معروف»، وقال لهم الرسول ﷺ : فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئا فأمرُكم إلى الله عـز وجل إن شاء عـذّب وإن شاء غَـفَر. وفى روايـة أخرى أن الرسول قال لـهم: «فإن وفَيتم فلكم الجـنة، وإن غَشِيتم من ذلك شـيئا فأخذتم بحده فى الدنيا، فهو كفَّارة له». (*)

ولما انصرف عنه القومُ، بعث رسول الله ﷺ معـهم مُصعب بن عُمير وأمره أن يُقْرئهم القـرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويفقِّهـهم فى الدين. وقد جمعـت أول صلاة جمعة أقـيمت فى المدينة أربعـين رجلا. وذات يوم خرج أسْعد بن زُرارة بمُصعب بن عُمير يريد به دارَ بنى عَبْد الأشهل ودار

(*) السيرة، القسم الأول ، ص٤٣٤.

بنى ظَفَر. ودخلا بستانا من بساتين بنى ظَفَر، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن مُعاذ، وأُسَيْد بن حُضَير، يومئذ، سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه.

وقال سعد بن معاذ لأُسَيْد بن حُضَير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَينا ليسفِّها ضُعفاءنا، فازجُرهُما وانهَهُما عن أن يأتيا دارَيْنا. وأخذ أسيد بن حضير حَرْبته ثم أقبل إلى أسعد بن زرارة ومُصعب بن عمير. فلما رآه أسعدُ بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدُق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلِّمه.

فوقف أسيد بن حُضَير عليهما مُتشتِّما، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضُعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلسُ فتسمع، فإن رضيتَ أمرا قبلتَه، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنْصَفْتَ، ثم ركز حَرْبتَه وجلس إليهما، فكلَّمه مُصْعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم فى إشراقه وتَسَهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلامَ وأجْمَله! كيف تصنعون إن أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى. فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه، وسأُرسله إليكما الآن، سعدَ بن معاذ، ثم أخذ حَرْبته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقْبلا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدُ بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم؟ فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخفروك (*). فقام سعد مُغْضَبًا مبادرا، تخوّفا للذي ذُكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا، ثم خرج إليهما. فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتِّما، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت هذا مني، أتَغْشانا في دارينا بما نكره - وقد قال أسعدُ بن زرارة لمصعب بن عُمير: أي مُصْعب، جاءك والله سيِّد مَنْ وراءَه من قومه، إن يتبعك لا يتخلَّف عنك منهم اثنان. فقال له مُصْعَب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا ورَغبت فيه قَبلْته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنْصَفْت، ثم ركز الحربةَ وجلس، فعرض عليه الإسلامَ، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم، لإشراقه وتسهُّله؟ ثم قال لهما: كيف تَصْنعُون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطَّهر وتُطَهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطَهَّرَ ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حَرْبته، فأقبل عامدا إلى نادي قومه ومعه أُسَيد بن حُضَير.

فلما رآه قومه مُقبلا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا

(*) الإخفار : نقض العهد والغدر.

وأيمننا نقيبة؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمْسى فى دار بنى عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة. وبقى مصعب فى المدينة، يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية ابن زيد، وخطْمه ووائل وواقف، وتلك أوس الله. وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وكان شاعرا لهم،قائدا، يستمعون منه ويُطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام.

وفى العام التالى (أى بعد سنتين من لقاء الرسول ﷺ بالخزرج الستة) خرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموْسِم مع حُجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسولَ الله ﷺ وسلم العقبة، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيِّه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله. وخرج معهم البَراءُ بن مَعْرور، سيدهم وكبيرهم. وقال لهم البَراء منذ البداية إنه سيصلى إلى الكعبة، وذلك على الرغم من اعتراض الحجاج المسلمين الذين قالوا إنهم لا يريدون أن يخالفوا نبيهم ﷺ الذى كان يصلى إلى الشام. وما أن وصلوا مكة حتى أعلن البَراء عزمه على لقاء الرسول ليسأله عن القبلة، وصحب معه الشاعر كعب بن مالك أحد الحجاج المسلمين فخرجا يسألان عنه فلقيهما رجل من أهل مكة فسألاه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقالا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب عَمَّه؟ قالا: نعم (وكانا يعرفان العباس الذى كان يقدم عليهم فى يثرب تاجرا). قال فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. فدخلا المجلس فإذا العباس جالس، ورسول الله ﷺ جالس معه . وعرض

البراء مسألته على الرسول ﷺ فأخبره الرسول بأن يصلى إلى الشام. وانتهز مسلمو المدينة الفرصة وطلبوا من الرسول ﷺ أن يلقى أعضاء وفدهم جميعا وكانوا خمسة وسبعين منهم امرأتان. وواعدوا الرسول بالعقبة قرب مكة. ولما فرغوا من الحج نجحوا فى إقناع عبدالله بن عمرو بن حَرَام، الذى كان سيدا من ساداتهم وشريفا من أشرافهم بالدخول فى الإسلام ودعوه إلى شهود اجتماعهم مع الرسول ﷺ.

باء - التحليل

سأُقسِّم تحليل ما تقدم من رواية إلى ثلاثة أجزاء: دعوى النص، والملحوظات التى تثيرها، وعرض للوقائع يبدو لى أقرب إلى التصديق، ثم أقفِّى على ذلك بالمحصلة.

١- دعوى النص:

أ) المدينة ، على خلاف مكة، كانت للإسلام أرضا خصبة للغاية، فلئن كانت إحدى عشرة سنة من الدعوة إلى هذا الدين فى مكة لم تجتذب إلا «قليلا مُستَضْعَفين»، كما أن لقاءات الرسول ﷺ بالقبائل غير المكية كانت غير مثمرة، فإن نجاح الإسلام فى المدينة كان نجاحا غير عادى. ولم يكن هذا النجاح راجعا إلى جهود الرسول أو صحابته، بل إلى جهود أهل المدينة الستة الذين قابلوه ﷺ فى العقبة فى السنة السابقة. وكون مُصْعَب بن عُمير، من صحابة رسول الله، قد أسهم فى إحراز هذه النتيجة لا يمنع أن إحرازها ما كان يمكن أن يتحقق لولا استعداد أهل المدينة الاستثنائى لتَقَبُّل دين الإسلام.

ب) ما من شخص من أهل المدينة يظهر فى النص، خلال هذه الفترة، كعدو للإسلام، على غرار أبى جهل، والوليد بن المغيرة،

والعاص بن وائـل، وأبى سفيـان بن حرب، وغـيرهم من سـادة قريش وأشرافهـا الذين رفضوا فى مكة دين محمـد، وقالوا عن رسوله ﷺ إنه كاذب، وضليل، وسـاحر، وشاعـر؛ وادعوا أنه يردد كلامـا تعلمه من غيـره أو يَنْسب إلى الله كلاما من إنشائـه هو. هؤلاء القوم الذين أعلنوا على الرسول ﷺ وعلى دينه حـربا من التجنى، وتشكوا منه إلى عـمه، والذين طالبوا بتسليمهم محمدا كى يقتلوه، والذين قاطعوا قبيلته بسببه، والذين اضطهدوا المسلمين وحاولوا بكل الوسائل أن يردوهم عن دينهم.

جـ) كان الإسـلام، خلال الفتـرة الخامسـة، يكـسب باستمـرار أرضا جديدة فى المدينة ولم يكن يـصادف فيهـا أدنى مقاومة. ومـا من مـسلم أوذى فى هذه البلدة بسـبب دينه. وترك رؤساء الأوس ورؤسـاء الخزرج لأعضـاء قبيلتـهمـا مطلق الحرية فى اعتناق ديـن الإسلام، وقد اعـتنقه بالفـعل عدد كبـير منهـم، وكان عدد من هـؤلاء ضمن الحجـاج الذين عقدوا مع الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية.

د) أما اليهود، الذين كانوا يعلمون أن محمدا هو الرسول الذى كانوا ينتظرون بعـثـه والذين كـانوا يهددون الأوس والخـزرج باتبـاعه قـبلهم وبالتنكيل بهم بعد اتبـاعه، فإن أحدا منهم لم يسلم ، لكنـهم لم يقفوا فى وجه دينه، بل تركـوا الموجـة الإسـلامية تغمـر المدينة دون أن يقولوا لحلفائهم من الأوس والخـزرج عن دين محمد مثل الـذى سبق أن قالوه لقريش حين استشارتهم فى شأنه، أى أن دين قريش خير من دينه، ولم يشعـروا بالخطر الذى كان يمثله الإسـلام بالنسبة لهم، ولم يتـخذوا أى إجراء لتوقّيه، كما أنهم لم يبذلوا أى جهد لمعارضة دين محمد بالاستناد إلى ما جاء فى كـتبهم، ولم يقولوا، مـثلا، بصدد مقـارنة بعض فقرات القرآن بنظيـرتها فى نصوصـهم المقدسة، إن كل مـا فعله محـمد هو أن «سرق» بعض هذه النصوص، ولم يحاولوا ، مثلا، أن يقولوا إن محمدا

ﷺ ليس المسيح الـذى كانوا ينتظرونه، كمـا أنهم لم يشرحـوا لحلفائهم الأسباب التى جعلتهم لا يتبعوه بعد أن أعلنوا عن مجيئه.

هـ) قدّم النص، فى مـعرض حديثه عن حالات الـهداية إلى الإسلام فى المدينة، سبع شـخصيـات: سُوَيْد بن صامت، وإياس بن مـعاذ (فى الفتـرة الرابعة). وأسْعد بن زُرارة، وسعـد بن مُعاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، والبَرَاء بن مَعْرور، وابن حَرام أبو جابر، وهم جميعا سادة أو شخصيات فذَّة.

أما سُوَيْد بن صامت فكان شاعرا، وكان ذا شرف ونسب وجلد. وقد أثبتت قصته مع رجل بنى سُلَيم أنه رجل ذو حزم وذو قوة جسدية، وأنه الوحيد الذى يحوز حكمة لقمان، وأنه، باختصار الرجل «الكامل» بكل معنى هذه الكلمة.

كذلك فإن إياس بن معاذ، الذى كان لايزال غلاما، فهم على الفور، حين استـمع إلى الرسول ﷺ، أن دينه خير مما جـاء قومه له من حلف قريـش ضد الخـزرج، وأوتى من الشجـاعة مـا جعله يجـاهر برأيه هذا ويتعرض لحفنة من تراب البطحاء ضُرب بها وجهه.

وأسعـد بن زُرارة السيد الذى استـضاف مُصْعب بن عُميـر، صاحب رسول الله ﷺ الـذى كلفه بتـعليم الإسلام والقـرآن لأهل المدينة، سنة بأكملها، والذى كان أول مَن جـمع المسلمين من الأوس والخزرج لصلاة الجمعة.

وأُسَيْد بن حُضَير وسـعد بن معـاذ، هذا الـسيدان الشـريفان من أهل المدينة، اللذان كانت جلسة واحدة مع مُصعب بن عُمير كـافية لهدايتهما إلى الإسلام، واللذان نجح ثانيهما، بتهديد أعضاء قبيلته بمقاطعتهم حتى

يؤمنوا بالله وبرسوله، فى جعلهم، عن بكرة أبيهم، يدخلون فى الإسلام، فى اليوم ذاته.

والبَرَاء بن مَعْرور، «سيدنا وكبيرنا»، الذى أصرَّ، بالرغم مما قاله الرسول ﷺ ، على الاتجاه فى صلاته إلى الكعبة لا إلى بيت المقدس، والذى أيده فى ذلك قرآن لاحق.

وعبدالله بن عمرو بن حرام، وهو بدوره، «سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا» نجح مسلمو المدينة فى هدايته إلى الإسلام قبل اجتماعهم مع الرسول بوقت قصير، هذا الاجتماع الذى تمخض عن بيعة العقبة الثانية.

إنهم إذن جميعا رؤساء ورجال عظام. ولو نظرنا إليهم فى جملتهم لوجدنا أنهم أفضل من أفضل مسلمى مكة: فليس من بينهم بكّاءٌ فرّار مثل أبى بكر، وليس من بينهم من كان يعذب المسلمين ويعاقر الخمر ويريد أن يقتل الرسول قبل إسلامه، مثل عمر، أو شخص نكرة، مثل عثمان، بل كلهم رجال لا تشوبهم شائبة.

٢ ـ الملحوظات:

تثير رواية النص ودعواه ما يلى من ملحوظات:

أ) مسلمو المدينة يسمون فى عنوان هذه الفترة، الذى هو «بدء إسلام الأنصار»، وفى مواضع عديدة من السياق، بالأنصار، وهى تسمية غير سليمة، كما أنها تنطوى على تجاوز. تسمية غير سليمة لأن كلمة «الأنصار» مقصورة فى القرآن على فئة من المسلمين محددة بدقة. وليس فى النص أية إشارة تسمح، بصورة يقينية، بمعرفة الوقت الذى استخدمت فيه للمرة الأولى، على أننا نجد فى القرآن الكريم عدة آيات استخدم فيها هذا اللفظ بصيغة الفعل، مثل:

قوله تعالى:

﴿ ... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

وقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) ﴾

[الأنفال: ٧٤]

وفي القرآن الكريم كذلك آيات استخدام فيها هذا اللفظ بصيغة الاسم، مثل:

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف: ١٤]

وقوله تعالى:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ [التوبة: ١٠٠]

وقوله تعالى:

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي

ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ [التوبة : ١١٧]

والحاصل أن المجموعتين الأولى والثانية من أهل المدينة اللتين لقيتا الرسول ﷺ فى العقبة لاينطبق عليهما وصف الأنصار الوارد فى الآيات المذكورة .

وهى تسمية تنطوى على تجاوز، لأن وصف الأنصار فى الآيتين الأولى والثانية هو بمثابة لقب أُنعم به على فئة من المسلمين رضى الله عنهم بعبارة صريحة. ولكى يستحق المسلم هذا اللقب كان لابد أن يستوفى شرطين: أن يكون قد نصر المهاجرين، وأن يكون قد اتبع الرسول ﷺ فى ساعة العُسْرة، ولم يكن هذان الشرطان متوافرين لدى جميع أهل المدينة ممن أسلموا فى الفترة المدنية. وقد كان من هؤلاء منافقون كانت نسبتهم من الارتفاع بحيث تحدث القرآن عنهم فى الآية التالية:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾ [التوبة : ١٠١]

وكان هؤلاء المنافقون، يمثلون فضلا عن ذلك، فى حديث غزوة أحد، ثلث جيش المسلمين، وكان انخذالهم فيما يبدو السبب الرئيسى للهزيمة التى منى بها المسلمون في هذه الموقعة. ولم يكن هذان الشرطان أيضا متوافرين لدى المسلمين الذين يشير إليهم النص فى هذه الفترة، سواء فى ذلك من كانوا بالمدينة أو الحجاج الستة أو الاثنا عشر أو الثلاثة والسبعون الذين التقوا بالرسول ﷺ ، إذ أن هذه اللقاءات تمت قبل الهجرة.

ب) الجملة الأولى فى رواية هذه الفترة الخامسة، التى تقول: «فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار. .» صريحة فى أن لقاء الرسول بالخزرج الستة نقطة تحول فى تاريخ الرسول والإسلام: النقطة التى تغير فيها كل شيء من النقيض إلى النقيض، فإن الدين الجديد لم يعرف، قبل هذا اللقاء، سوى الهزيمة. أما بعده، فكان النصر. قبل هذا اللقاء، كان الرسول مهانا، أما بعده ، فقد عزّ. معنى ذلك أن هذا اللقاء كان النقطة الفاصلة التى انتهى عندها ماضى الإسلام الصعب والتى بدأت فيها مرحلة الانطلاق التى أدت إلى نصره النهائى. ويثير هذا التأكيد الملحوظات الآتية:

١- هو يتفق مع الرأى الذى عبر عنه النص بشأن الفترة السابقة والذى مؤداه أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يهدوا إلى الإسلام إلا نفرا «قليلا مُستضعفين» من أهل مكة، علاوة على عشرين من النصارى ورجلا واحدا، هو الطُّفيل بن عمرو الدَّوْسى، من عرب الجزيرة.

٢- تخلّى النص عن الحيدة الظاهرة التى أخذ نفسه بها حتى الآن بالامتناع عن التعبير عن رأى المؤلف بصورة مباشرة وبترك الكلمة لشهود العيان، والمتحدثين عن أنفسهم، والأخبار القصيرة، والشعر والاقتباسات القرآنية، فهو هنا يعبر ، مباشرة وبقوة، عن رأى مؤلفة الأصلى.

٣- تجاوز النص المرحلة التى كان يربط فيها بين ما قاله هذا الشخص أو ذاك، وهذه الفقرة أو تلك من القرآن، وادعى العلم بإرادة الله سبحانه وتعالى اعتمادا، لا على قول للرسول، ولا على شيء فى القرآن، بل على إلهام المؤلف. ومن الواضح، مع ذلك، أن دور الإلهام فى هذه المعلومة معدوم، وأنها ليست سوى انعكاس لرأى المؤلف الشخصى فى

فضل أهل المدينة فى المراحل التالية من حياة الرسول ﷺ ، ومن انتشار الإسلام بينهم.

جـ) الفترة المكية الخامسة لم تكن إذن ، فى واقع الأمر، إلا فترة مدنية، إذ أنها تتعلق بإسلام أهل المدينة وبعملهم. وما يمكن تسميته بالتدخل المدنى فى الفترة المكية، الذى رأيناه، فى الفترة الثالثة، يتخذ شكل قصائد نظمها شعراء مدنيون كحسان بن ثابت، وأبوقَيْس بن الأسْلَت، ورأيناه فى الفترة الرابعة، فى قصة إسلام سُوَيْد بن صامت، ثم إسلام إياس بن معاذ، اتسع فى الفترة الخامسة حتى شمل الحيِّز المكى كله.

د) من الصعب التوفيق بين القول الذى مؤداه أن أول اتصال لأهل المدينة بالإسلام كان لقاء الخزرج الستة بالرسول ﷺ وبين معلومة أخرى وردت فى النص، سابقة على إسلام حمزة، يقول فيها النص: «فلما انتشر أمرُ رسول الله ﷺ ، فى العرب، وبَلَغَ البلدان، ذُكر بالمدينة، ولم يكن حيٌّ من العرب أعلمَ بأمر رسولِ الله ﷺ ، حين ذكر وقبل أن يُذكر، من هذا الحيّ من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود، وكانوا لهم حلفاء، ومعهم فى بلادهم . . .» (*). ولو كان هذا صحيحا لكان أهل المدينة بين من سبقوا وقتها إلى لقاء الرسول ﷺ واعتناق الإسلام.

هـ) معلومة أن مسلمى مكة كانوا «قليلا مُسْتَضْعَفين» تناقضها معلومتان أخريان وردتا فى النص هما:

١) معلومة سابقة عليها بثمانى سنوات جاء فيها، بعد نهاية فترة الاستخفاء وإسلام الرعيل الأول من مسلمى مكة البالغ عددهم ثلاثة

(*) السيرة، القسم الأول ، ص٢٨٢.

وخمسون: «ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحدّث به» [1].

٢) المعلومة الناتجة عن ضرب عدد مهاجرى الحبشة، الذين كان عددهم ٨٣[2] ،فى عشرة، والتى كان من مقتضاها فى رأينا، أن مسلمى مكة، فى منتصف الفترة المكية، كانوا ٨٣٠ وأن عددهم، فى آخر هذه الفترة، كان يبلغ ضعف هذا الرقم على أقل تقدير.

و) شرح العملية التى أسفرت عن دخول مئات الأشخاص من أهل المدينة فى الإسلام، وهو الحدث الذى يشكل أهم الجوانب فى حياة أى رسول وأى دين، وفى حياة نبى الإسلام، يقتصر فى النص على ثلاث جُمل وعلى رواية تتحدث عن هداية شخصين إلى الإسلام، وعلى فقرة صغيرة تتعلق بإسلام إحدى العشائر، وعلى ثلاث قوائم بأسماء. والجمل الثلاث هى تلك التى يقول فيها النص ، فى آخر حديث السنة الأولى: «فلم يبق دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ من رسول الله ﷺ[3]». وتلك التى يقول فيها، فى نهاية السنة الثانية: «حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون». وتلك التى ذكرت فيها أسماء العشائر الثلاث التى رفضت الإسلام تحت تأثير الشاعر أبوقَيْس بن الأسْلت. والفقرة الصغيرة هى تلك التى تتعلق بدخول بنى عبد الأشْهل فى الإسلام تحت ضغط رئيسهم سعد بن معاذ. أما القوائم، فهى تلك التى وردت فيها أسماء الخزرج الستة الأوائل، ثم «الأنصار» الاثنا عشر الذين اشتركوا فى بيعة العقبة الأولى، والثلاثة

---

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ٢٦٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٣٠.

والسبعون الذين اشتركوا فى بيعة العقبة الثانية. وتتضمن هذه القائمة الأخيرة بيانا عن كل شخص من الأشخاص الذين اشتركوا فى البيعة والمعارك التى شهدها أو التى استُشْهد فيها. والفراغ فى وصف مراحل وظروف هذه الظاهرة الكبرى، أى ظاهرة الدخول فى الإسلام، أكبر حتى من ذلك الذى شاهدناه فى مكة، نظرا إلى أن عدد من أسلموا فى مكة أقل بكثير ، فيما يقول النص، من عدد من أسلموا فى المدينة.

ز) تصوير نجاح الإسلام فى المدينة بأنه كان نجاحا ساحقا وسريعا تصوير غير واقعى، والنص ، على عادته، يقدم للقارىء هنا معلومات ودعوى لا أساس لها من الصحة ولا يزوده بالحد الأدنى من الشرح الذى يسمح له بفهمها. وإحدى هذه المعلومات تتعلق بالخزرج الستة الذين كانوا، بعد إحدى عشرة سنة من بدء الدعوة، على عجلة للدخول فى الإسلام مخافة أن يسبقهم إليه يهود المدينة. وهذه المعلومة غير مفهومة للأسباب الآتية:

- اليهود كانوا حلفاء الخزرج ولم يكنْ لديهم، لهذا، ما يخشونه من جانبهم.

- لابد أن هؤلاء الخزرج كانوا على علم بأن اليهود كانوا يدرون بدين محمد منذ مدّة، لأن قريشا طلبت مشورتهم بشأنه؛ ولو أن اليهود كانوا يريدون أن يدخلوا فى الإسلام لفعلوا ذلك منذ وقت طويل.

- حقيقة أن اليهود سيسبقون الخزرج إلى الإسلام لم تكن تخوّلهم امتيازا خاصا.

- إذا افترضنا جدلا أن اليهود أسلموا قبلهم ، فقد كان أمام الخزرج، لمواجهة الخطر الذى كان يهددهم به اليهود، وسيلة عملية هى أن يسلموا بدورهم ويصبحوا إخوانهم فى الدين.

كذلك لم يفسر النص الأسباب التى أدت الى نجاح الإسلام فى المدينة. صحيح أنه ذكر، فى جملة، الأمل الذى عبر عنه الخزرج الستة الأوائل فى أن ينهى الإسلام، الذى كان فى نيتهم أن يدعوا أهل بلدتهم إليه، ما كان بين قبيلتيهما من عداوة وشر، لكن النص لم يشر، لا فى السنة الأولى ولا فى السنة الثانية، إلى محاولة ما بذلها المسلمون للتقريب بين القبيلتين.

ح) من الصعب أن يتصور المرء أن أولى حالات اعتناق الإسلام فى المدينة لم تحدث إلا بعد إحدى عشرة سنة من البعثة، وأن الناس دخلوا فى الإسلام بالجملة فى فترة سنتين.

ط) من الصعب أن يعقل المرء أن أحدا من مشركى المدينة، الذين كانوا على دين مكة الوثنى، ممن كانوا يؤمّون هذه البلدة كل عام للحج، وكان بعضهم مرتبطا بأهلها بمصالح تجارية أو بصلة قربى، لم يرفع صوته فى المدينة مرددا الإشاعات المغرضة والمناقشات والاتهامات التى كانت توجهها مكة إلى محمد ودينه.

ى) من الصعب أن يظن المرء أن اليهود، الذين قالوا قبلها لقريش إن دينهم خير من دين محمد، لم يحسّوا بأن تقدم الإسلام فى مكة وفى المدينة ينطوى على خطر لدينهم ولمصالحهم، وأنهم لم يعبروا عن معارضتهم لمحمد عليه الصلاة والسلام ولا أقدموا على عمل من أى نوع لمحاربة دينه.

ك) لم يذكر النص، من كل عشائر المدينة وقبائلها التى عُرض عليها الإسلام، سوى عشيرة واحدة هى بنو عبد الأشْهل، عشيرة سعد بن مُعاذ وهى عشيرة لا يبدو، على العموم ، أن إسلامها كان حالة يقاس عليها، إذ أنه لم يحدث نتيجة اقتناع شخصى من جانب أعضائها، وإنما تحت ضغط سيدها وشريفها. ولم يذكر النص عدد بنى عبد الأشْهل الذين أسلموا على هذا النحو، لكن قائمة الأنصار الذين شهدوا غزوة بدر، التى تبين عدد محاربيهم فى هذه الغزوة، تفيد أن أربعة فقط من بنى عبد الأشْهل، منهم سعد بن مُعاذ ذاته، اشتركوا فيها.

ل) قصة إسلام أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن مُعاذ ، الشخصين الوحيدين من أهل المدينة اللذين شرح النص قصة إسلامهما، من بين المئات الذين أسلموا خلال الفترة الخامسة، تثير الملحوظات الآتية:

١) هى قصة حُكِيَتْ بقدر كبير من التفصيل شأن روايتى إسلام عمر. وهناك ، فضلا على ذلك ، شىء من الشبه بين «سيناريو» أولى هاتين الروايتين، و«سيناريو» إسلام عمر : فكرة أولى سيئة عن الإسلام، ورجال غاضبون، فى أيدى كل منهم حَرْبة ونيَّة شر، وتلاوة للقرآن، وتغيير مفاجىء فى الهيئة، واعتناق للإسلام، واغتسال للتطهر، وركعات.

٢) تطابق شبه كامل فى الخطوات والحركات والعبارات بين قصتى إسلام أُسَيْد بن حُضَير وسعد بن مُعاذ.

٣) إذا كان فى استطاعة عمر أن يغتسل ويتطهر لأنه كان، عند إسلامه، فى بيت أخته، فإن النص لم يذكر أين استطاع أُسيد وسعد أن يغتسلا ويتطهرا، علما بأن لقاءهما بمصعب بن عُمير تم فى بستان، وبحضور نفر كثير.

٤) كان يبدو على أُسَيْد وسعد، فى القصة، أنهما يجهلان كل شىء عن الإسلام والقرآن مع أن عشرات من الأوس والخزرج كانوا قد دخلوا الإسلام، طبقا للنص، خلال السنة الأولى من الفترة الخامسة، وأنه، كما يقول النص فى بداية الفترة المكية الثالثة: «لم يكن حى من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ . . من هذا الحى من الأوس والخزرج».

م) من الغريب أن النص لم يشر بكلمة إلى أبى سَلَمة ، هذا الصحابى الذى هاجر إلى الحبشة والذى يذكر النص إنه، بعد أن عاد إلى مكة فى السنة الحادية عشرة من البعثة، هاجر مرة ثانية إلى المدينة. وإذا كانت قصة إسلام النجاشى التى حضرها أبو سلمة صحيحة فلابد أن أبا سلمة حكاها لأهل المدينة وأنها خلبت ألباب المستمعين وجعلت بعضهم يسلمون.

ن) عبارات بيعة العقبة الأولى هى ذاتها عبارات الآية ١٢ من سورة الممتحنة التى نصها:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الممتحنة : ١٢]

كل ما فى الأمر هو أن هذه الآية تتحدث عن النساء وحدهن.

س) المعلومة التى فحواها أن الرسول ﷺ أضاف فى بيعة النساء، : «فإن وفَيتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئا فأُخذتم بحدّه فى الدنيا، فهو كفّارة له»، معلومة خاطئة تماما لأن الحدود لم تُفرض إلا فى الفترة المدنية.

٣- نظرة أكثر واقعية:

إذا جردنا صورة الإسلام فى المدينة مما علق بها فى النص من مبالغات وتحيز فإن فى الإمكان عرضها على النحو الآتى:

لابد أن أمر محمد ﷺ وأنباء القرآن والإسلام قد بلغت المدينة منذ بداية البعثة. لا لأن اليهود تنبأوا بمقدمه وأخبروا بذلك حلفاءهم من الأوس والخزرج، بل لأن الاتصالات بين مكة والمدينة كانت مستمرة. فقد كان كفار المدينة يفدون كل موسم إلى مكة للحج وللعمرة، كما أن من أهل المدينة من كان يؤم مكة للزيارات أو للتجارة. وكان بعض أهل مكة بدورهم يترددون على المدينة للتجارة، أو لزيارة أقاربهم.

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن فى النص عدة إشارات تفيد أنه كانت هناك بين أهل هاتين البلدتين علاقات متصلة فى مجالات عدة. فنحن نعرف من النص مثلا أن العباس وجُبَيْر بن مُطْعم والحارث بن حرب كانوا كثيرا ما يذهبون إلى المدينة فى تجارتهم. ورأينا، من جهة أخرى، أن وفدا من الأوس ذهب إلى مكة ينشد حلف قريش ضد الخزرج. وكان لشاعر المدينة قَيْس بن الأسْلت زوجة قرشية، وكان يتردد على مكة ويقيم فيها فترات طويلة. وليس هناك، ولو أن النص لم يذكر ذلك، ما يمنع من تصور أن الرسول ﷺ ذاته ،الذى صحبته أمه إلى المدينة وهو صغير لزيارة بنى عدى بن النجار، عشيرة أم عبدالمطلب، قد زار المدينة عدة مرات بعد أن أرسله الله بالإسلام. وكل الناس، من أهل المدينة أو من غيرهم، الذين اتيحت لهم الفرصة لزيارة مكة أو للسفر من مكة إلى المدينة، بما فى ذلك العرب غير المكيين، كانوا، ولاشك، يذيعون فى المدينة أنباء الضجة التى أحدثها دين محمد فى مكة وفى غيرها من أنحاء الجزيرة. ولابد أنهم كانوا يذكرون أيضا أن قريشا كانت

منقسمة على نفسها بشأن محمد، وأن من القرشيين، لاسيما بين الفقراء، من آمنوا بهذا النبى، بينما كان آخرون يدّعون أنه مجنون أو شاعر أو كذاب.

ولابد أن يهود المدينة أو الجهات الدينية التى كانوا يتبعونها قد ترددوا طويلا فى تحديد الموقف الذى كان عليهم أن يتخذوه من محمد ﷺ فى الخلاف الذى كان قائما بينه وبين قومه وبينه وبين كفار المدينة. ولابد أن بعضهم اقترح الوقوف على الحياد. ولابد أن بعض حكمائهم، من جهة أخرى، قالوا إن دين محمد، وهو دين توحيد، وإن لم يكن صادرا عن إلهام ربانى، وعلى الرغم من كونه يختلف عن اليهودية فى عدة أمور، إلا أنه دين فرصته كبيرة فى الفوز فى الجزيرة العربية، لأن الأسس التى قام عليها أقوى بكثير من أسس الوثنية والشرك.

ولابد أن من اليهود من استرعى النظر كذلك، فى المراحل اللاحقة من الرسالة، إلى أن محمدا كان يقول إنه ينتمى إلى ملة إبراهيم، ويعترف باليهودية، ويوقر أنبياء اليهود، ومن قال أنه لهذا السبب يستحق أن يسانده اليهود ضد خصومه وأعدائه. ولكن لا أنصار الحياد ولا دعاة مساندة محمد كانت لهم الكلمة الأخيرة بين اليهود.

لقد كانت مصالح اليهود فى الجزيرة العربية منذ قرون متشابكة مع النظام الاجتماعى والاقتصادى، بل والنظام الدينى، لمكة والمدينة، وكان هذا التشابك قويا لدرجة كان يستحيل معها على اليهود الوقوف على الحياد أو السماح بانهيار النظام القائم تحت ضربات المسلمين.

ولذلك انتصر منطق المصلحة السياسية العاجلة، فى القرار اليهودى، على الاعتبارات الإيديولوجية والنظرة الطويلة الأمد. ومن ثم قال يهود

المدينة لقريش، حين التمست مشورتهم، إن وثنيتهم أفضل من دين محمد، ولابد أنهم قالوا الشيء نفسه لمشركي المدينة.

ولأن اليهود انحازوا إلى صف خصوم محمد، ما كان يسعهم إلا أن يعارضوا الإسلام في المدينة. ولما كانت حالات الدخول في الإسلام بينهم قليلة - والنص في حديثه عن الفترة المدنية يذكر بعضها - فإن معارضتهم لم تتخذ على الأرجح شكل الاضطهاد. لكن شعراءهم لابد أن يكونوا قد شاركوا في حملات الدعاية ضد الإسلام، شأنهم في ذلك شأن شعراء المشركين. كذلك فلابد أن أحبارهم كانوا، من جانبهم، يصدرون تصريحات تشكك في صحة الرسالة المحمدية والقرآن. ولابد أن أجزاء من كتاباتهم الدينية أذيعت للتدليل على أن محمدا نقل منها. ولابد أن هذه العناصر قد أبلغت أيضا إلى قريش في مكة كي يستخدمها عملاؤهم وشعراؤهم في حملات الدعاية التي كانوا يشنونها على الإسلام.

هذه هي العراقيل التي واجهت دين محمد ﷺ في المدينة. وكانت المدينة، على الأرجح، هي الجبهة الثانية التي كان على المسلمين أن يجاهدوا فيها لنشر دينهم. ولابد أن جبهات أخرى ظهرت في الجزيرة، لكن النص لا يقول عنها شيئا. وقد أدى تدفق الحجاج المستمر على مكة والاتصال التجاري والعائلي بأهلها إلى إذاعة الإسلام في المدينة وفي غيرها في الوقت ذاته، وإلى ظهور مشكلات من نوع مشكلات مكة في المجتمعات العربية، وبالنسبة للمسلمين الذين كانوا يقطنون فيها.

ومن هنا يمكن أن يقال إن الإسلام، في اللحظة التي حدث فيها لقاء الرسول ﷺ بالخزرج الستة، كان موجودا بالمدينة منذ عدة سنوات، وأنه اتسع فيها بالرغم من كونه لقي فيها أحيانا معارضة لاتقل في ضراوتها

عن معارضة قريش له فى مكة. وكانت هذه المعارضة، من بعض النواحى، أعتى إيديولوجيا من تلك التى صادفها المسلمون فى أنحاء الجزيرة الأخرى، لأن خصومهم فى المدينة كان من بينهم أمة موحدة بالله، لها كتاب، وتاريخ طويل، ودين قديم، وسلالة طويلة من الأنبياء. أمة كانت نسبة من يعرفون القراءة والكتابة فيها، أغلب الظن، أعلى نسبة فى شبه الجزيرة، ولم تكن مجادلتها فى الدين أمرا سهلا.

على أن المسلمين لم يكونوا يتمتعون فى المدينة، من ناحية المشركين كذلك، بجميع التسهيلات التى كانت متاحة لهم فى مكة. فإن المدينة لم يكن يتوافر فيها جو التسامح الذى كانت تتسم به مكة بوصفها عاصمة العرب الروحية والتجارية والتى كان يقدم إليها العرب من كل مكان ليمارسوا شعائر عباداتهم المختلفة.

ومن جهة أخرى لم يكن المسلمون يستفيدون فى المدينة من حرية الكلمة والاجتماع التى كانت تكفلها لهم الأشهر الحرم الأربعة ومواسم الحج فى مكة.

وأخيرا، وعلى الرغم من أن النص لا يقدم أية معلومات عن سكان هاتين المدينتين، فإن أهل المدينة كانوا، على الأرجح، أقل تنوعا بكثير من أهل مكة، كما أنهم كانوا، فيما يبدو، أقل عددا من أهل مكة، وكان هذا يسهل عملية الرقابة على أعضاء قبيلتى المدينة الكبريين.

كيف أتيح للإسلام، فى هذه الظروف الصعبة، أن يحرز فى المدينة، فى غير حضور الرسول، نجاحا لا محل للتشكيك فيه؟

لقد كانت مبادىء هذا الدين، وكتابه، فى المدينة وفى غيرها ولاشك، هى العوامل الرئيسية ولابد أن الإسلام، على الرغم من

المعارضة، ورغم مقاومة الرؤساء المحافظين، قد خلب ألباب جماهير الناس فى المدينة بصورة لا تقاوم، بحديثه عن البعث، وعن الجنة والنار، وبقواعد سلوكه الأخلاقية، وبحديثه عن حساب الأعمال، والمسئولية الشخصية، والأخوة فى الدين، وحقوق الفقراء وحملته على الأغنياء. وكانت هناك، ولابد، عوامل أخرى هيأت ظروفا مواتية لنجاح الإسلام فى المدينة يمكننا أن نذكر من بينها: مَثَل مكة، وكون بعض التجار المكيين، الذين أصابهم الضرر نتيجة للمقاطعة التى طبقتها قريش ضدهم، ذهبوا إلى المدينة برؤوس أموالهم وأقاموا فيها؛ وكون مسلمين آخرين، مثل أبى سلمة، قد هاجروا إليها؛ وكون دعاة مثل مُصعب بن عُمير، قد أوفدوا إليها من قبل الرسول ﷺ لتعريف أهلها بالإسلام ولقراءة القرآن عليهم.

ومن غير المستبعد أن يكون الاضطهاد الذى تعرض له المسلمون والضحايا الذين أوذوا فى سبيله، من هذه العوامل أيضا. وهناك أخيرا عامل من الممكن أن يكون قد لعب دورا كبيرا فى إقبال أهل المدينة على الإسلام، هو رغبتهم، التى لم تكن بالضرورة رغبة واعية، فى التغلب على شعورهم بالدنيّة حيال اليهود.

ولم يكن موقف المدينة، فى هذا المجال، مشابها لموقف مكة، فإن مكة، عاصمة الشرك، ومدينة الكعبة، ومقصد الحجاج العرب من جميع أنحاء الجزيرة منذ غياهب التاريخ، لم تكن لديها شكوك فيما يتعلق بتفوقها على المستوى الدينى، وكان اتصال المكيين باليهود والنصارى، من اتباع دين إبراهيم، فى الشام والعراق واليمن، وبالجالية اليهودية النصرانية التى من المحتمل أنها كانت موجودة فى مكة ذاتها، اتصالا عارضا وسطحيا، ولم يكن من القوة بحيث يخلخل أسس شركهم.

أما فى المدينة فإن اتصال أهلها الكفار باليهود كان دائما، ولابد أن تفوق أهل الكتاب هؤلاء من النواحى الروحية والمعنوية، فضلا على تفوقهم المادى، كان يثير حسدهم وغيرتهم. لدرجة أن بعضهم اعتنقوا اليهودية وأن عشائر مثل بنى عوف وبنى ساعدة وبنى الحارث وبنى جَشَم وبنى النجار كان بعض أفرادها من اليهود (*). لذلك فمن المحتمل جدا أن تكون جماعات متزايدة العدد من أهل المدينة قد انجذبت إلى الإسلام، الذى أهداهم نبيا، كأنبياء اليهود ، وكتابا ككتبهم ، أنزل بلغتهم، وقواعد سلوك أخلاقية هى القواعد ذاتها التى ألزم بها اليهود، ودينا يعترف بالأنبياء السابقين، ويعترف فى الوقت ذاته بقداسة الكعبة وبشعائر الحج التى تمثل مركز عبادتهم، ومن ثم كان باستطاعة أهل المدينة أن يصبحوا بالإسلام أندادا لليهود وأن يؤكدوا هويتهم بالنسبة لهم.

أما الدعاية المناهضة للإسلام التى لابد أنها استمرت منذ بداية البعثة على يد كفار المدينة ويهودها، فالأرجح أنها ضعفت وفقدت من فعاليتها بمرور الوقت، وذلك للأسباب الآتية:

أ) نقد الكفار وافتراءاتهم ضد محمد ودينه والقرآن كانت، على الأرجح، هى ذاتها التى كانت ترددها قريش فى مكة، ولم يكن فيها جديد. وقد تكفل القرآن الكريم بالرد عليها تفصيلا، وبالتنديد بمن كانوا يروجونها. كذلك فإن أهل المدينة، مثلهم فى ذلك مثل أهل مكة، لم يكن فيهم من قَبِل التحدى الذى وجهه القرآن إلى الكفار، الذين كانوا يدّعون أن هذا الكتاب من صنع محمد، أو أن محمدا كان يتعلمه من غيره، بأن يأتوا ولو بسورة واحدة مثله.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

ب) أما أوجه النقـد والافتراءات التى كان يروجها اليـهود، فلابد أن المسلمين قد ردّوا عليها بطريقتين:

١) بإخزاء مخاطبيهم من اليهود بحجج مثل:

- كيف تسمحون لأنفسكم بانتـقاد نبينا وديننا مع أننا، مثلكم، نؤمن بإلـه واحد، وأنـنا نعترف بجمـيع أنبيائكم، وأننا، علـى الرغم مما بيننا وبينكم من خلاف، نتبنى مبادىء دينكم؟

- أتظنون أن الله الذى تعبدونه سيغتـفر لكم هجومكم على دين يأمر بعبادته ويعمل على تحطيم دعائم الشرك والوثنية والكفر وعلى إعلاء ملة إبراهيم ،ملة الإله الواحد الأحد؟

- أتظنون أن أنبياءكم - وموسى بوجه خاص - كانوا يقرّون تحالفكم مع المشركين وعـبدة الأصنام والكفار ضد ديننـا الذى لا يكف قرآنه عن ذكر نضال موسى ضد فرعون مصر وعن مواساتنا فيما نلقاه من آلام من جانب الكفار بتذكيرنا بالآلام التى كان اليهود يكابدونها على يد فرعون؟

٢) بتلاوة فقرات القرآن التى ينعى الله تعالى فيها على اليهود خيانتهم لميثاقهم معـه سبحانه وتعالى وتنكرهم لتعاليم أنبيـائهم، وبعقد المقارنات المتوازية بين أخطائهم الماضية وموقفهم حيال المسلمين.

٣) بدعـوتهم، باسـم وحدانيـة الله تعـالى وأخـوة تابعى إبـراهيم، بمراجعة موقفهم والانضمام إليهم فى الكفاح ضد أعداء الله.

٤ - النتيجة:

يمكن تلخيص النتائج التى تستخلص من التحليل السابق فيما يأتى:

أ) يتضـمن النص بوادر واضـحة الدلالة علـى تحيزه الصـارخ لأهل المدينـة: (١) فأهـل المدينة هـم وحدهم الـذين يظهـرون علـى مسـرح

الأحداث فى الـفترة المكيـة الخامـسة؛ (٢) منح النص لقـب «الأنصار» لجميع أهل المدينة، حتى قبل إسلامهم ؛ (٣) أختار الله تعالى «الأنصار» (أى أهل المدينة) لنصـرة نبيه والإسلام؛ (٤) أول لقـاء بين الرسول ﷺ مع أهل المدينة هو نقطة التحـول بين هزيمة الإسلام ونصره (٥) إسـلام أهل المدينة تم بـسرعة فـائقة ؛ (٦) لم يلق الإسـلام أدنى معـارضة فى المدينة ؛ (٧) من نراهـم من مسلمى المدينة أشخاص لا تشوبهم شائبة.

ب) هذه الصورة المضيئة للإسلام المدنى خلال الفترة الخامسة معروضة على خلفـية سـوداء يشكلها أداء الإسـلام السيىء عنـد قريش والقـبائل الأخرى فى شبه الجزيرة.

جـ) الادعاء بأن الإسلام المكى كان فـاشلا، حتى من خلال الوصف المشوّه الوارد فـى النص، هو رأى متحـيز، وحقيـقة أن المسلمـين كانوا مضطـهدين وأن ذويهم قـد اضطروهم إلى الهجـرة إن صورت شيـئا لا تصور الهزيمة بالضرورة. بل إن للمرء أن يرى فيها، على النقيض، دلالة على النجاح، إذ أن اضطهـاد المسلمين كان ناجما عن شـعور قريش بأن الإسلام يشكل خطرا حقـيقيا على ديانة المجتمع المـكى ومؤسساته، وأن كل الجهود والتـدابير التى اتخذتها الهـيئة الحاكمة لم تنـجح فى القضاء عليه أو فى كبح جماحه.

والنص ذاته يذكر، فى رواية آخر حديث بين سادة قريش مع الرسول ﷺ عند أبى طالب، أن الإسلام قد فشا فى مكة، وقريش تبدو فيه على استعداد لتقديم تنازلات، فى حين يبـدو ﷺ متمسكا بموقفه على الرغم من أنه كان يعلم أن عـمه وحاميه موشك على الموت. وإذا كـان محمد ﷺ لم يدبر انقـلابا للنظام القائم فى مـكـة ولم يستول علـى السلطة، فـلا يجب أن يفسـر ذلك على أنه دليل على الهزيمة ، فـإن الاستيلاء

على زمام الأمور فى مكة لم يكن الهدف الذى أرسل هذا الرسول من أجله.

لقد كان محمد ﷺ ، قبل كل شيء، فى وصف القرآن له، بشيرا ونذيرا، وكانت رسالته تتحصل أساسا فى تبليغ القرآن الكريم للناس ودعوتهم إلى الإيمان به واتباعه.

ولما كانت ديانة الرسول تهاجم ديانة قريش المتأصلة ونظامها الاجتماعى ذا الجذور العميقة، فقد حاربتها بلدة الرسول ﷺ . وكان هذا شيئا طبيعيا. ولكن، لأن دين محمد كان أرقى من عبادات البلد الذى أرسل فيه، ولأنه ﷺ كان يملك الصفات اللازمة للنهوض بالرسالة، فقد اتبعه فريق من الناس وتعرضوا فى سبيل ذلك لشتى صنوف المخاطر.

ولو أن هؤلاء التابعين كانوا، بعد أحد عشر عاما من بدء الدعوة، «قليلا مستضعفين»، كما يقول حديث الفترة الرابعة، لجاز التحدث عن الهزيمة. لكن عدد المسلمين فى مكة كان لابد يفوق بكثير ما يستفاد من هاتين الكلمتين ولابد أن كثرتهم هذه كانت مسئولة عن مجموعة التدابير التى اتخذتها قريش لمحاربة المسلمين.

د) ومن صور التشويه الأخرى للحقيقة ادعاء أن الرسول ﷺ انتظر حتى يموت عمه أبوطالب كى يتصل بقبائل شبه الجزيرة، وأن واحدة من هذه القبائل لم تؤمن بدينه خلال الفترة المكية بأكملها.

هـ) كرر مؤلف النص، بإغفاله سور القرآن التى نزلت خلال السنوات الثلاث المكية الأخيرة، الخطأ الذى ارتكبه فى وصفه للفترات السابقة، وهو إغفال الجوهر. وسأعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

و) من المستغرب أن أيا من شعراء المدينة المسلمين، كبارهم وصغارهم، الذين كثرت أشعارهم خلال الفترة المدنية، لا سيما تلك التى تتعلق بالغزوات، لا تظهر له فى النص خلال عملية إسلام أهل المدينة بأكملها قصيدة واحدة تعبر عن المشاعر والآراء المستلهمة من اعتناق الإسلام كدين، أو من القرآن، أو من محبة الرسول أو من المصير المفجع الذى لقيه إخوانهم فى الدين المضطهدون.

ومن الأمور الملفتة للنظر أن حديث هذه الفترة غفلٌ من أى شعر لحسان بن ثابت، مع أننا رأينا قصائد لحسان فى شعر الفترة الثالثة. وهذا الإغفال يذكرنا بإغفال مماثل لكل شعر قاله مسلمون من شعراء مكة عن دينهم. وهذه الظاهرة المزدوجة تؤكد الفكرة التى عرضتها وهى أن كل ما لا يتعلق بالحرب - بما فى ذلك الهداية إلى الدين والتقدم السلمى للإسلام - ليست له أهمية حقيقية عند مؤلف النص.

ز) هنا، كما فى الفترة الرابعة، يلاحظ فى النص فراغات كثيرة وصمت كبير:

١) بشأن النزاع بين قريش والمسلمين، والنص يصور لنا الأمور هنا وكأن تاريخ هذا النزاع قد توقف بموت أبى طالب، فنحن نجهل:

- ماذا كان موقف بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من محمد، وما إذا كانت هاتان القبيلتان ظلتا تحميانه، وما إذا كانتا قد وقفتا صفا واحدا وراء أبى لهب وقبائل قريش الأخرى ضد محمد أو أن بعض أفرادها فضلوا الدخول فى الإسلام.

- هل كانت قبائل قريش المختلفة - بما فى ذلك بنو عبدالمطلب وبنوهاشم - استمرت فى اضطهاد المسلمين، وما إذا كان هذا الاضطهاد

قد أثار حركات هجرة أخرى الى الحبشة أو إلى غيرها: وما أسماء المسلمين الذين اشتركوا فى هذه الهجرات، وأى استقبال قوبلوا به فى بلاد المهجر، وماذا كانت أشكال الأذى والاعتداءات التى دبرت ثم نفذت ضد الرسول من جانب قريش أو من جانب قبيلته ذاتها بعد اختفاء حاميه.

- هل كانت ينابيع الشعر المكى قد نضبت بموت أبى طالب، وما إذا كان شعراء آخرون، لم تُسجَّل أشعارهم، قد استمروا فى التغنى بمفاخر بنى هاشم، وفى هجاء قبائل قريش الأخرى، وفى إعلان أنهم لن يسلموا محمدا أبدا.

- ما إذا كان سادة قريش، وفقا لعادتهم القديمة، قد استمروا أو قد كفّوا عن توجيه أسئلة محرجة إلى الرسول فى المسجد الحرام، هل كان كلامهم قد تسبب فى نزول آيات جديدة من القرآن.

٢) بشأن تطور الإسلام فى مكة، لم يشرح النص هل كانت قاعدة الإسلام قد اتسعت خلال الفترة الخامسة، أو هل كانت قد انكمشت، وهل كان الرسول ﷺ قد استطاع، بعد حالات الإخفاق التى تحدث عنها النص فى الفترة الرابعة، أن يستميل إلى الإسلام بعضا من ألوف حجاج القبائل غير المكية، وهل كان أبوبكر، الذى أدخل فى الإسلام ستة من أصحابه فى الفترة الأولى ، لم يتمكن من إدخال غيرهم فيه خلال الفترة الخامسة،وهل كان عمر وعثمان وباقى صحابة الرسول ﷺ، الذين لم تحسب لهم - بخلاف إخوانهم المسلمين من أهل المدينة - أية حالة من حالات الهداية إلى الإسلام ، أكثر توفيقا مع مواطنيهم من أهل مكة ومع القبائل العربية الأخرى التى استطاعوا الاتصال بها خلال مواسم الحج، أو خلال رحلاتهم. ونحن لا نعرف هل كان

المسلمون قد عذبوا من قبل ذويهم، وهل كان بعضهم قد ارتد عن دينه أو فضل النفى.

وفيما يتعلق بحياة الرسول ﷺ ذاته، نحن نجهل كل شىء باستثناء لقاءاته الثلاثة مع ستة، ثم اثنى عشر، ثم ثلاثة وسبعين من «الأنصار»، وهى لقاءات لم تستغرق سوى ساعات قليلة من السنتين اللتين تتكون منهما الفترة الخامسة.

٣) بشأن مسيرة الإسلام فى المدينة، على الرغم من أن النص جعل منها موضوع هذه الفترة الوحيد.

ح) قصة هذه المسيرة تتحصل فى الواقع فى حديث الرسول ﷺ مع المجموعة الأولى، وفى نص بيعة العقبة الأولى، وفى فقرة من أحد عشر سطرا عن أول صلاة جمعة تقام فى المدينة، وفى صفحة ونصف تحكى إسلام أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن معاذ، وفى فقرة من سبعة أسطر عن إسلام بنى عبد الأشْهل، وفى قصيدة من ستة أبيات لأبى قَيْس بن الأسلت، ومن جملتين قيل فيهما إنه «لم تبق دار من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ من رسول الله ﷺ »، ثم «لم تبق دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون». يضاف إلى ذلك، أخيرا، ثلاث قوائم بأسماء «أنصار» المجموعات الثلاث الذين لقوا الرسول ﷺ .

وإذا حذفنا من هذا الحديث الصفحات التى خصصت لهذه القوائم الثلاث والقصة المتعلقة بإسلام أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن مُعاذ، فإن ما يتبقى ، فى نهاية الأمر، هو فقرة من أربعة أسطر عن لقاء الرسول بمجموعة الستة الأولى، ونص بيعة العقبة الأولى الذى ورد فى اثنى عشر سطرا، وفقرة من سبعة سطور عن إسلام بنى عبد الأشْهل والجملتان اللتان تسجلان مرحلتى دخول أهل المدينة فى الإسلام. أى

مالايزيد مجموعه على صفحتين. هذا تقريبا، هو كل الحيز الذى يخصصه النص لما يمكن أن يعتبر الحدث الأكبر الذى شهدته المدينة خلال الفترة الخامسة.

ومن الطريف فى هذا الصدد أن يلاحظ أن قائمة أسماء أنصار بيعة العقبة الثانية تتضمن أسماء ثلاثة أشخاص هم ذَكْوان بن عبد قَيْس، والعباس بن عُبّادة، وعُقْبة بن وهب، سبق أن هاجروا إلى رسول الله ﷺ من المدينة فكان يقال لكل منهم: مهاجرى أنصارى.

هل هاجر هؤلاء الثلاثة إلى مكة فرارا من الاضطهاد، أم لمجرد أن يكونوا بالقرب من الرسول؟

النص لا يجيب عن هذا السؤال، ولا يقدم أية معلومات عن حالة هؤلاء المهاجرين الأنصاريين الثلاثة على الرغم من أنها كانت تستحق التوضيح.

ط) العرض الذى يقدمه النص غير مقنع فى نقطتين: المدة، وعدم المعارضة. ذلك أن حالات الدخول فى الإسلام لابد أن تكون قد حدثت قبل سنوات من العام الثانى عشر للبعثة، وأن معارضة ضارية لابد أن تكون قد حدثت من جانب المشركين المحافظين من قبيلتى المدينة الكبريين، ومن جانب اليهود. ولابد أن تكون هذه المعارضة قد اتخذت، لاسيما عند المشركين، شكل الاضطهاد والإخراج وعند المسلمين شكل الهجرة.

ى) مؤلف النص، كعادته التى سجلناها لدى تحليل حديث الفترات السابقة، يترك دون تفسير معظم التأكيدات غير المعقولة وغير المفهومة التى يسوقها، فهو مثلا لا يفسر: لماذا انتظر أهل المدينة اثنتى عشرة سنة كى يبدأوا الدخول فى الإسلام على الرغم من أنهم كانوا، قبل كل

قبائل العرب الأخرى، يعلمون أن نبيا سيرسل؟ كيف لم يقابل حجاجهم وتجارهم وزوارهم، الذين كانوا يفدون إلى مكة منذ بداية البعثة، محمدا ﷺ ولا أحدا من أصحابه؟ كيف لم يسمع أُسَيد بن حُضَيْر وسعد بن مُعاذ، بعد اثنى عشر عاما من البعثة، قط، عن الإسلام، وكيف لم تصل إلى علمهم بعض فقرات القرآن؟ لماذا عجز مُصْعب بن عُمير، الذى استطاع فى سنة واحدة أن يستميل إلى الإسلام مئات من أهل المدينة، عن استمالة مكى واحد إليه؟ ما الذى جعل اليهود، الذين كانوا يعلمون أن نبيا سيبعث وكانوا يهددون باتباعه وبقتل حلفائهم من الأوس والخزرج، لا يتبعون محمدا ويرفضون دعوته ﷺ إلى الإسلام، وكيف لم يعارضوا هذا الدين حين انتشر فى المدينة وهدد مصالحهم الحيوية؟ ما الذى جعل أهل المدينة ورؤساءهم، الذين كانت مصالحهم الدينية والتجارية ترتبط بالنظام القائم فى مكة ارتباطا وثيقا، ينضمون إلى الإسلام بهذه السهولة؟ ماذا كانت ردود الفعل أو الجزاءات التى ترتبت على إسلام أعداد كبيرة من أهل المدينة لدى حلفائهم اليهود ولدى شركائهم وأصدقائهم المكيين؟

ك) من المرجح أن مؤلف النص اصطنع دعوى إسلام المدينة السريع لغاية واحدة هى تفضيل أهل المدينة على أهل مكة. ومن المؤكد أنه لم يتنبه إلى أن دعواه تضر، فى التحليل الأخير، بالقضية التى يترافع فيها.

لقد كان الفضل الحقيقى للمسلمين يتمثل، فى الواقع، فى كونهم عرفوا كيف ينشرون دينهم فى مناخ مُعادٍ، فى الغالب، كمناخ مكة، بإقناع مواطنيهم بمحاسن الإسلام وبأنهم متى أسلموا استطاعوا، كميزة إضافية، أن يكونوا أندادا لليهود. ولابد أنهم دفعوا ثمنا غاليا للتوصل إلى هذه النتيجة. لكن روح التحيز التى كتب بها النص، والرغبة فى

قصر التكريم على «الأنصار» دون غيرهم، كانتا من القوة بحيث جعلته يفضل التضحية بفضل مسلمى المدينة الحقيقى ليظهر هذه البلدة، بالمقارنة بمكة، بمظهر الأرض التى يكفى أن تبذر فيها كلمات قليلة عن الإسلام وآيات قليلة من القرآن كى يكون محصول الهداية فيها محصولا وفيرا.

ل) فى المقدور تشبيه منحى النص هنا، الذى يبدو وكأنه يقول: «معارضو محمد والإسلام، ومضطهدو المسلمين، ليسوا هم أهل المدينة، ليسوا هم على الإطلاق، بل هم الآخرون، قريش!»، بمنحاه وهو يبرىء بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من كل شبهة. ومن المحتمل جدا أن أسماء وقصص العديد من أبطال الإسلام وشهدائه فى المدينة أخفيت على هذا النحو، كما أخفيت أسماء وقصص من اضطهدهم بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، وغيرهم من أهل مكة.

م) النص، حين استبعد عرب شبه الجزيرة من نطاق الفترة الرابعة، حصر الإسلام كله فى محور مكة/ المدينة. وكان الغرض من عملية الاستقطاب هذه، فيما يبدو، هو التمهيد لتنفيذ المخطط، المستوحى من اعتبارات سياسية، الذى توخاه مؤلف النص ابتداء من هذه الفترة المكية الخامسة، أى مخطط الانتقام وتصفية الحسابات الذى كانت «أسلمة» المدينة السريعة، على خلفية من رفض قريش للإسلام، خطوته الأولى.

ن) من الممكن أن نجد فى التحليل والملحوظات السابقة إجابة عن بعض الأسئلة التى أثارتها الطريقة التى عالج بها النص الفترة المكية الرابعة. ففى الإمكان أن يقال:

- إجابة عن السؤال (١)، إن السبب الذى جعل المؤلف يسدل الستار على الأحداث (إسلام من أسلم، والاضطهاد، والهجرة، إلخ) التى لابد أن مكة شهدتها فى السنة الحادية عشرة من البعثة، ولم يسجل إلا زيارة

النبى ﷺ للطائف ولقاءاته بأربع مجموعات من الحجاج غيرالمكيين، هو أن المؤلف لم يكن يهتم، فيما يتعلق بالفترة الرابعة، بوقائع الأحداث وتاريخها، بل كان الذى يهمه هو تعبيد الأرض للتدليل، فى حديث الفترة الخامسة، على أن أهل المدينة كانوا، من بين كل القبائل غير المكية، الوحيدين الذين فتحوا أذرعتهم للإسلام.

– إجابة عن السؤال (٦)، إن السبب فى غياب مسلمى مكة كلية عن الصورة التى رسمها النص للفترة الرابعة، وفى وصفهم بالقلة المستضعفين هو، هنا أيضا، الرغبة فى تعبيد الأرض للتدليل، فى حديث الفترة الخامسة، على أن مسلمى المدينة كانوا، بعد سنتين من اتصالهم بالرسول ﷺ ، أكثر منهم عددا بكثير، على الرغم من أن هؤلاء المدنيين لم يفيدوا، كإخوانهم المكيين، من وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ولم يكونوا يتلقون مثلهم، بصورة مباشرة، ما ينزل من القرآن أولا بأول. ومن الواضح أن هذا كان، فى نظر مؤلف النص، خير دليل على أن المدينة – بعكس مكة – كانت الأرض التى أنتجت للإسلام خير محصول.

– إجابة عن السؤال (٧)، إن السر فى كون الشخصين الوحيدين اللذين أسلما على يد الرسول ﷺ فى الفترة الرابعة كانا من أهل المدينة هو أن مؤلف النص كان يعتبر أن صفحة الإسلام فى مكة قد طويت بوفاة أبى طالب، وأن صفحة جديدة، هى صفحة قبائل الجزيرة العربية من غير أهل مكة، قد فتحت ، وهى صفحة يستفاد من النص أنها كانت قاتمة كالصفحة المكية. على أنه كان من المفيد لإبراز رفض هذه القبائل للإسلام خلال هذه الفترة التمهيدية لدخول أهل المدينة على مسرح الأحداث، وإبرازه بصورة أفضل، أن تعتنق الإسلام شخصية أو

شخصيتان مدنيـتان. وهذا هو الدور الذى قام به «الرجل الكامل» سُوَيْد ابن صامت والغلام الحدث إياس بن مُعاذ (الأخ الأصغر لسعد بن مُعاذ)، اللذان لم يعلنا إسلامهما على الملأ بعد لقائهما بالرسول ﷺ ، (ربما لعدم تقليل الأثر القـوى الذى أريد أن يحدثه لقاء الرسول ﷺ بـالستة، وهو اللقاء الذى قصد المؤلف أن يفتـتح به عصرا جديدا فى تاريخ الإسلام)، لكن أسرتيهما اعتبرتاهما مسلمين حكما ساعة موتهما.

- إجابة عن الـسؤال (٨)، بشأن السـبب الذى من أجله كان جـميع العرب الذين يـصادفهم المرء خلال الفـترة ، باستثنـاء أبى لهب وأخوى ربيعة (اللذين كانا فى الطائف)، من غير المكيين هو أنه كان من اللازم، لإظهار دعوى أن أهل المدينة انفردوا بنصـرة الإسلام فى الجزيرة العربية، أن تستبعد القبائل غير المكية من أرض الإسلام.

س) الحديث الـذى يحكى قصـة لقائى الرسـول مع حجـاج المدينة، وبيعة العقبة الأولى، وحالات دخول الناس فى الإسلام التى حدثت فى المدينة بين اللقـاء الأول واللقاء الثالث بين حجـاج المدينة والرسول ﷺ حتى إسـلام عبدالله بن عـمرو، وكذلك قـائمة أسـماء الحجاج الـثلاثة والسبعـين، تحتل ١٨ صفحـة من النص (الذى خصص أكثر مـن نصفه لذكر الأسماء). وتمثل هذه المساحة مـن حيث عدد الصفحات، أقل من عشر المسـاحة التى خصصها الـنص لحديث غزوة بدر (*) ، وهذا دلـيل على أن مـا أصابه الإسلام من نجـاح على مسـتوى الهـداية إلى الدين، سواء فى المدينة أو فى مكة، أمر لا يحفل به المؤلف إلا قليلا. وفى هذا ما يـحمل علـى الظن بأن المؤلف (الـذى عاش فى آخـر فتـرة الفتـوح الإسلامية الكبـرى فى آسيا وأفريقيا)، حين ذكر إظـهار الدين فى عبارة

(*) اعتمدت فى حساب هذه الصفحات على طبعة أخرى للسيرة ليس فيها حواش.

«فلما أراد الله عـز وجل إظـهار دينه»، التى استهل بـها النص أول لقاء بين الرسول ﷺ ومجموعة الخزرج الستة، فى بداية الفترة الخامسة، لم يكن يولى مسيرة الإسلام فى المدينة إلا جانبا صغيرا من اهتمامه، وأن ما كان ماثلا أمامه هو حروب الـرسول ﷺ . أى أنه، بعبارة أخرى ، كان يرى أن النصر الحقيقى للإسلام إنما هو النصر العسكرى.

ع) وملحوظتى الأخيـرة تنصرف إلى بيعة العقـبة الأولى. إن مؤلف النص، حين اسـتخدم عبـارات التوجيه الإلهى العـام، الذى أنزل على الرسول ﷺ فى وقت متـأخر جدا من الفترة المدنية، التى شـرعت فيها أسس الإيمان وقـواعد السلوك التى يجب علـى جميع النســاء المسلمات مراعـاتها، كـمادة لاصـطناع بيعـة خاصـة مزعـومة بين الـرسول ﷺ ومجموعـة من اثنى عشر رجلا من أهل المدينة، فى مكة، قـبل الهجرة بسنة، لم يـرتكب سرقـة فحسب ، بل تـلاعب فى مناسبـة نزول آيات القرآن الكريم.

§ ٢ - بيعة الحرب

ألف ـ النص

فى الموعد المتـفق عليه للقـاء بين الرسول ﷺ ومسلمى المـدينة، بعد الفراغ من الحج، نام الحجاج المسلمون مع قومهم من الحجاج المشركين، حتـى إذا مضى ثلثُ اللـيل خرجوا مـن رحالهم يتـسللون تسلُّـلَ القَطا مُسْتخفـين حتى اجتمعوا فى الشِّعْب عند العـقبة. وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس، وهو يومئذ على دين قومه. وكان أول مُتكلِّم العباس ابن عبدالمطـلب، فقال للأنصار: إن محـمدا منَّا حيث قد علـمتم، وقد منَّعْناه من قـومنا، ممن هو على مـثل رأينا فيه، فـهو فى عزٍّ من قـومه ومَنَعَة فـى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحـيازَ إليكم، واللحـوقَ بكم، فإن

كنتم تَرَوْن أنكم وافُون لـه بما دعوتموه إليه، وما نِعُوه ممن خـالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم تَرَوْن أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فـمن الآن فَدَعـوه، فإنه في عزّ ومَـنَعَة من قومـه وبلده [1].

ودعى الرسول ﷺ إلى الكلام، فتـلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسـلام، ثم قال: أبايـعكم على أن تمـنعوني مما تمنعـون منه نسـاءكم وأبناءكم. فـأخذ البَراء بـن مَعْرور بيـده، ثم قال: نعم، والذي بـعثك بالحق نبيا، لنمنعنَّك مما نمنع منـه أُزُرنا (أي نساءنا) فَبَايِعْنا يا رسولَ الله، فنحن والله أبناء الحـروب، وأهل الحَلْقة (أي السلاح) ورثنـاها كابرا عن كابر. فـاعترض الـقول، والبراءُ يُكلِّـم رسول الله ﷺ ، أبوالهيـثم بن التَّيِّهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها - يعني اليـهود - فهـل عسيتَ إن نـحن فَعَلْنا ذلك ثـم أظهرك الله أن ترجع إلى قـومك وتدعنا؟ فـتبـسم رسولُ الله ﷺ ، ثم قـال: بل الدم الدم، والهَدْم الهَدْم، أنا منكم وأنتم مـني، أُحارب مَنْ حاربتم، وأُسالم من سالمتم. [2]

وقال رسول الله ﷺ : أخرجوا إليّ منكم اثنى عشـر نقيبا، فأخرجوا منهم اثـنى عشر نـقيبـا، تسعـة من الخزرج، وثلاثة مـن الأوس. وقال رسول الله ﷺ لـلنقبـاء: أنتم على قـومكم بما فـيهم كُـفَلاء، ككفـالة الحَوارِيِّـن لعيسـى بن مريم، وأنا كـفيل على قـومي - يعني المسلـمين قالوا: نـعم. وهنا قال العـباس بن عُـبادة: يا معـشر الخـزرج (وكانت العرب إنما يسمُّـون هذا الحيَّ من الأنصار: الخزرج، خزرجـها وأوسها) هل تدرُون عَلام تُبايعون هذا الرجل؟. قالوا «نعم». قال: إنكم تُبايعونه

(1) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(2) المرجع السابق ، ص ٤٤٢ .

على حَرْب الأحمر والأسود مــن الناس، فإن كنتم تَرَوْن أنكم إذا نُهكت أموالكم مُصــيبة، وأشرافُكم قــتلا أسْلَمتموه، فــمن الآن، فهو والله إن فعلتم خــزْى الدنيا والآخرة، وإن كنتم تَرَوْن أنكم وافُــون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال (أى نقصها)، وقَتْل الأشراف، فخذوه، فهو والله خيــرُ الدنيا والآخرة. قــالوا: فإنا نأخــذه على مُصــيبة الأمــوال، وقَتْل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا : ابسُط يدَك، فَبَسط يده فبايعوه[1] وبهذا تمت البيعة.

وفى اللحظة ذاتها صرخ الشيطان من رأس العَقَبة بأنفذ صوت سمعه الناس: يا أهل المنازل (أى منازل منى)- هل لــكم فى مُذَمَّم (أى المذموم جدا) والصُّبأة مــعه، قد اجتمعوا على حَــرْبكم. فقال رسول الله ﷺ : هذا أزبّ العقبة، هذا ابن أُزَيب ثم قال: أتسمع، أى عدو الله، أما والله لأفرغنّ لك[2].

ثم قال رسول الله ﷺ : ارفــضُّوا إلى رِحالِكم، فقال لــه العباس بن عُبــادة: والله الذى بعثك بــالحق: إن شئت لنمــيلنّ على أهل مِنَى غدا بأسْيــافنا؟. فقال رســولُ الله ﷺ : لم نُؤْمر بذلك، ولكن ارجــعُوا إلى رحالكم.

فلما أصبحوا غدت عليــهم جِلَّة قريش، حتى جاءوهم فى منازلهم، فقالوا: يا معــشر الخزرج، إنه قد بَلَغنا أنكم قد جِئْتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتُبايعونه على حَرْبنا، وإنه والله ما من حيّ من العرب أبْغَضُ إليــنا، أن تَنشَب الحربُ بيننا وبينهم، منكــم؛ فانبعث مَنْ هناك مِنْ مُــشْركى قَوْمهم يَــحْلفون بالله ما كــان من هذا شىء، وما عَلِمُوه، وقد صدَقوا، لم يَعْلَموه [3].

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٤٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٧.

(٣) المرجع السابق نفسه ص ٤٤٨.

وبعد رحيل الحجاج من منى تأكد لقريش صحة الإشاعة التى بلغتهم فخرجوا فى طلب القوم. فأدركوا سعد بن عُبادة، والمُنْذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبا. فأما المُنْذر فأعجز القومَ، وأما سَعد فأخذوه، فربطوا يَدَيْه الى عُنقه ثم أقْبلوا به حتى أدْخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمَّته (مجتمع شعر رأسه)، وكان ذا شعر كثير. وإنه لفى أيديهم يسحبونه إذ رقّ له رجل ممن كان معهم، فقال: ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عَهْد ؟ قال: بلى، والله، لقد كنت أُجِير لجُبَير بن مُطْعِم بن عدى تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظُلْمَهُم ببلادى، وللحارث بن أُميَّة. قال: ويحك! فاهتِف باسم الرَّجُلين، واذكر ما بينك وبينهما. ففعل، وخرج ذلك الرجلُ إليهما، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يُضْرَب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا، وذكر لهما اسمه فجاءا فخلَّصا سعدا من أيديهم فانطلق. (١)

وكانت بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله ﷺ فى القتال، شروطا سوى شَرْطه عليهم فى العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ فى الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسولُ الله ﷺ فى العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربِّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة. وقد بايعوا رسول الله ﷺ كما قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فى عُسْرِنا ويُسْرنا ومُنشَطِنا ومُكرَهنا، وأثَرَةٍ علينا، وألا ننازع الأمرَ أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم. (٢)

---

(١) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .

وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يُؤْذن له فى الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونَفَوهم من بلادهم، فهم من بين مَفْتُون فى دينه، ومن بين معذّب فى أيديهم، وبين هارب فى البلاد فرارا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفى كل وجه، فلما عَتَتْ قريش على الله عزّ وجل، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه ﷺ وعذّبوا ونَفَوْا من عَبَدَه وَوَحَّدَه وصدَّق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم(*)، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم، قوله الله تبارك وتعالى:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ .

[الحج: ٣٩ – ٤١]

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ (١٩٣) ﴾ [البقرة: ١٩٣]

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٦٧ .

باء ـ التحليل

سأتناول بالتحليل، بادىء ذى بدء، آيات القرآن الكريم التى أوردها النص، ثم أنتقل إلى تحليل ما قاله المتحدثون فى الاجتماع الذى أفْضَى إلى عقد بيعة الحرب، ثم بعد ذلك أختم بحثى بتحليل المعطيات الأخرى التى تضمنها حديث هذه البيعة.

١ ـ الاستشهادات القرآنية :

يؤخذ من النص أن الآيات ٣٩ و٤٠ و٤١ من سورة الحج، وكذا الآية ١٩٣ من سورة البقرة، وهى الآيات التى تشكل الأساس الذى ترتكز عليه بيعة الحرب كلها، قد نزلت فى مكة. والحاصل:

أ) أن سورة الحج سورة مدنية. وقد وردت فى ترتيب بلاشير لسور القرآن تحت رقم ١٠٩ . وهى عند بلاشير سابقة على سورة الفتح التى وردت عنده تحت رقم ١١٠ والتى نزلت بعد صلح الحديبية (*). ولما كان هذا الصلح قد عقد، وفقا للنص، فى نهاية السنة السادسة من الهجرة، فمن المحتمل أن آيات سورة الحج المذكورة نزلت فى حوالى السنة الخامسة من الهجرة (٦٢٦ م)، لا ، كما يدعى النص، فى مكة قبل الهجرة.

ب) تأويل هذه الفقرة على أنها «تفويض على بياض» للرسول ﷺ يحلل الله تعالى له بمقتضاه دماء أولئك الذين بغوا بالتعذيب والنفى على المسلمين واضطهدوهم، تأويل يشوِّه معناها. والكلمة الثالثة فى الآية

(*) السور المدنية، عند بلاشير، تبدأ بسورة البقرة، وترتيبها هو الـ ٩٣. وسورة الحج فى المصحف مدنية وترتيبها ١٠٣ وهى ـ كما عند بلاشير ـ سابقة على سورة الفتح وترتيبها فى المصحف ١١١ .

الأولى، وهى كلمة «يقاتَلون» فعل مبنى للمجهول يفيد - خلافا لترجمة بلاشير للكلمة ذاتها ولكن مع كسر التاء - أن المسلمين شُنَّت عليهم الحرب ولم يكونوا هم الذين شنوها. والسياق هنا ليس سياق الرد على البغى وتعذيب المسلمين ونفيهم عن طريق الحرب، بل هو، صراحة، سياق حمل السلاح لدفع من حملوا السلاح ضد المسلمين، بعد أن أخرجوهم من ديارهم بسبب دينهم ، وهذا وضع لم يحدث أبدا فى مكة، إذ أن التعذيب والإخراج كانا يتمَّان بفعل القبائل ذاتها ضد مسلميها.

حـ) سورة البقرة التى تندرج فيها الآية موضوع الاقتباس الثانى هى أولى سور الفترة المدنية. ومعنى هذا أن آيتها رقم ١٩٣ أنزلت، خلافا لما يقوله النص، قبل آيتى سورة الحج المشار إليهما، لا بعدهما. وفى هذه الآية فعلا إذن بالقتال، إذ أنها تبدأ بكلمة «وقاتلوهم»، لكنها أخرجت فى النص من السياق الذى وردت فيه وهو:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ [البقرة: ١٩٠ - ١٩٤]

ومعنى ذلك أن هذا الإذن بالقتال ليس مطلقا بل يخضع لشروط.

والحرب، وفقا لهذه الآيات، لابد لجوازها من توافر عدة شروط:

- فلابد أن تكون دفاعا عن قضية عادلة: «فى سبيل الله»، «وأخْرِجُوهم من حيث أخْرَجُوكم»، «حتى لا تكون فِتْنَةٌ».

- ولابد أن تكون دفاعية: «قاتلوا. . . الذين يُقَاتِلُونَكُم»، «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»،

- ويجب ألا يكون فيها اعتداء: «ولا تعتدوا».

- ويجب تحاشى القتال عند المسجد الحرام: «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام».

- ويتعين وقف القتال إذا أوقفه العدو: «فإن انْتَهوا فلا عدوان إلا على الظالمين».

د) ابن إسحاق ،حين اقتبس الآية ١٩٣ خارج سياقها، لم يتجاهل فحسب القيود التى أخضع لها الإذن بالقتال، بل تجاهل أيضا حقيقة أن هذه الشروط فرضت فى إطار لم يكن يمكن أن يكون الإطار المكى عندما عقدت بيعة الحرب: إطارا من العدوان الموجَّه ضد المسلمين يفترض وجود حالة حرب.

هـ- ليست هناك، علاوة على ما تقدم، غرابة فى أن تكون الآيات المذكورة مدنية. بالعكس، بل يكون من الغريب أن يتحدث القرآن الكريم عن حرب أو عن إجراء يشبه الحرب، ولو من بعيد، فى مكة، فى ذلك الوقت، سواء من جانب قريش، أو من جانب الرسول عليه الصلاة والسلام: من جانب قريش، لأن صور التنكيل التى سلطتها على مسلمى مكة، كما لاحظنا، كانت إجراءات فردية اتخذتها كل قبيلة حيال أفرادها أو اتخذها السادة ضد عبيدهم. والعمل الجماعى الوحيد الذى يذكره النص كان فى المقاطعة التى فرضت على قبيلتى بنى

عبدالمطلب وبنى هاشم، وكانت هذه الحالة استثنائية ندمت عليها القبائل التى فرضت هذه المقاطعة فأنهتها بعد سنتين أو ثلاث سنوات. ومن جانب الرسول عليه الصلاة والسلام، لأن فكرة حمل السلاح ضد مخالفيه ما كان من الممكن أن تخطر على باله، ليس فقط لأنه لم يكن يملك الوسيلة لحمله ولا - كما يقول النص - لأنه لم يؤذن له فيها، بل أيضا لأن القرآن لم يزوده بأمثلة لأنبياء حاربوا أقوامهم دفاعا عن أنفسهم.

و) وفى الإمكان أن نضيف إلى الاعتبارات السابقة أن عدم وجود شيء فى النص يفهم منه أن محمدا ﷺ كان له باع فى استخدام السلاح، أو أنه كان يوصى المسلمين بالتمرس فيه وبالاستعداد لثورة مسلحة، أو أنه كان من المعجبين بالغزاة الفاتحين ، يرجح لدى المرء أن احتمال القيام بعمل عسكرى فى المستقبل ضد قومه لم يرد على ذهنه ﷺ.

ز- ومع الاكتفاء بما ذكرته حتى الآن عن هذه النقطة التى سأعود إليها فيما بعد، فإن للمرء أن يتساءل عما إذا كان فى النص إجابات عن الأسئلة التالية التى يثيرها التأكيد الأساسى الذى فحواه أن آيات القتال نزلت فى مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، وعن القدر الذى وردت به هذه الإجابات:

- كم من الوقت انقضى، بالأيام أو الأسابيع أو الشهور، بين اللحظة التى نزلت فيها الآيات المذكورة فى مكة، واللحظة التى عقدت فيها بيعة الحرب؟

- ما الذى حدث خلال هذه الفترة؟ هل أعلن الرسول ﷺ هذه الآيات أم أخفاها؟

- إذا كان قد أخفاها فما الذى حمله على ذلك؟

- إذا كان قد أعلنها، ماذا كان رد فعل مسلمى مكة أمام مثل هذا التكليف الإلهى الذى يأمرهم بشن الحرب على إخوتهم وأبناء أعمامهم وأفراد عشائرهم؟

- هل كان منهم من أطاع هذا الأمر؟ من كانوا، وكم كان عددهم؟

- ما الذى فعلوه لقتال قريش؟ من أين وكيف استطاعوا أن يحصلوا على السلاح؟ كم قتلوا من الرجال؟ ما أسماء من قتلوهم من قريش وكيف قتلوهم؟

إن سكوت النص عن هذه النقاط البدائية يعنى أنه لم يكن هناك قتال من جانب المسلمين وأن الإذن الذى أعطاه الله تعالى للمسلمين بالقتال لم يوضع موضع التنفيذ. لكن ، فى هذه الحالة:

- ماذا كانت اعتراضات المسلمين الذين تلا عليهم الرسول ﷺ الآيات المذكورة، ومن الذى أثارها؟

- هل كان من المسلمين من ارتد إزاء مثل هذا التكليف المبهظ؟

النص، هنا أيضا، لا يرد.

ومن جانب قريش:

- ماذا كانت ردود فعل القبائل، بدورها، حين علمت بنزول آيات من القرآن تأذن بإعلان الحرب عليها ؟ هل سخرت من الرسول ﷺ ومن المسلمين، أم حملت الأمر، على النقيض، على محمل الجد واتخذت منه ذريعة إضافية للتنكيل بهم؟

- إذا كان المسلمون قد قاتلوهم، فكم من المسلمين قتلوا؟

هنا أيضا، لا إجابة فى النص.

إن النتيجة التى تستخلص مما تقدم هى إذن أن آيات القتال، خلافا لما يقوله النص، لايمكن أن تكون قد نزلت فى مكة.

٢- أقوال المتحدثين فى الاجتماع

أ) العباس بن عبدالمطلب

الذى يقرأ بعناية أقوال العباس بن عبدالمطلب، فيما يمكن وصفه بمحضر الاجتماع، يكتشف أن هذا الاجتماع سبقه لقاء بين الرسول ﷺ وحجاج المدينة تم فيه اتفاق مبدئى على خروج الرسول إلى المدينة، وأن الاجتماع الذى حضره العباس لم يكن له موضوع سوى استيضاح بعض النقاط، ثم إعطاء الاتفاق شكلا رسميا و«التوقيع» عليه، فإن عمّ الرسول ﷺ يشير بكلمات «ما دعوتموه إليه» إلى ارتباط التزموا به حيال محمد، ويسأل الحجاج عما إذا كانوا ينتوون الوفاء بهذا الارتباط لاسيما فيما يتعلق «بمنعه ممن خالفه»، وهو شرط لابد، منطقيا، أن يكون الاتفاق المبدئى قد نص عليه.

ومن جهة أخرى فإن العباس يتحدث عن عزم محمد الأكيد على الانحياز إليهم واللحوق بهم، وهو عزم يستحيل تصوره لو أن محمدا ﷺ كانت لديه شكوك فيما يتعلق بوفاء مسلمى المدينة بالتزامهم. ومقالة العباس تفترض أن محمدا قد فاتحه فى أمر الاتفاق الذى أبرمه مع هؤلاء المسلمين، وأن عشيرة الرسول ﷺ حاولت أن تثنيه عن عزمه لكن دون جدوى. وواقع الأمر أن النص ليست فيه أية إشارة إلى مثل هذا الاتفاق، وأن اللقاء الوحيد الذى سبق الاجتماع بين الرسول وبين مسلمى المدينة فى ذلك الموسم كان اللقاء الذى تم بينه وبين البراء

بن مَعْرور مع مجـموعة من حجاج المدينة وسأل فيه الـبراء عما إذا كان عليه أن يتجه فى صلاته إلى الكعبة أو إلى الشام. ونقطة أخرى تسترعى الانتباه فى كلمة العباس بن عبـدالمطلب هى قوله «وقد منعناه من قومنا» وأن الرسول ﷺ «فى عز من قومه ومنعـة فى بلده»، وهو تأكيد تناقضه عدة معطيات - أو معطيات غائبة - فى النص. هو تأكيد يناقضه:

- خبر تكرر، فى العبارة نفسـها تقريبا، تحت عنوان «وفاة أبى طالب وخديجة» وتحت عـنوان «سعى الرسول إلى ثقيف يطلـب النصرة» مؤداه أن قريشا نالت من رسـول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به (أو : تنال منه) فى حياة عمه أبى طالب.

- عدم وجـود أية معلومـة فى النص يفهم منـها أن بنى عبـدالمطلب وبنى هاشم قرروا الاسـتمرار فى التأييـد والحماية اللتين كـانوا يشملون بهما محمدا ﷺ فى حياة عمه.

- عدم وجود أى خبر فى النص عن مـسعى قام به سادة قريش لدى رئيس القبيلتين الجديـد (لو أن أبا طالب كان الرئيس السابق) أو لدى أية شخصية من شخصيـات بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم، من نوع المساعى التى قاموا بـها لدى أبى طالب وطلبوا فيـها تسليم محمـد ﷺ إليهم أو كفه عن مهاجمة دينهم أو عرضوا حلا وسطا معه.

- كون محمد ﷺ كان يلتمس من جميع القبائل غير المكية التى كان يعرض عليها الإسلام «النصرة والمنعة بهم من قومه».

- كون الشخصية الوحيدة من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم التى قدمها النص فـى مكة، خـلال السنوات التى انـقضت بـين موت أبـى طالب ووصول حجـاج المدينة الثلاثة والسبـعين، هى شخصيـة أبى لهب عدو الرسول ﷺ.

ب) الرسول صلى الله عليه وسلم:

- من الغريب أن الرسول ﷺ لم يشر أدنى إشـارة لدى اجتماعه مع الحجاج الثلاثة والسبعين إلى آيات الـقرآن التى أذن له فيها بالقتال. وإذا كانت هذه الآيات قد نزلت بالفعل قبـل هذا الاجتماع لما فاته أن يذكرها صراحة.

- تعهُّـد الرسول ﷺ فى قوله «أحـارب من حاربتم» لمسـلمى المدينة كان يعنى عدوله عدولا تاما ،فى مسألـة حيوية كمسألة الحرب والسلم، عن دوره كرسول ،لصـالح أشخاص لم يعرفـوا الإسلام إلا منذ عام أو عامين، وهذا شىء مـا كان ﷺ يسمح به لنفسه، فضـلا عن كون مثل هذا التعهد يتنافى ومضمون آيات القتال التى أوردها النص.

- من الغريب جـدا أن يشير الرسول ﷺ إلى السيـد المسيح فى إطار اجتماع مع مسلمى المدينة يدور حول الحرب، مع أن القرآن لم ينسب إلى المسيح عليه السلام أى عمل حربى.

جـ) البَراءُ بن مَعْرُور :

لا يذكر النص الأسـباب التى حدت بالبَرَاء بن مَـعْرُور إلى أن يذكِّر، فى اجتماع الثـلاثة والسبعين مع الرسول ﷺ بشأن حمـايته عليه الصلاة والسلام، بأن قومه «أبناء الحروب، وأهل الحلقة» ورثوها كابرا عن كابر.

د) أبو الهَيْثم بن التيِّهان :

مقالة أبى الهيثم لا توضح:

- السـبب الذى يرتب على عـقد بيـعة عسكـرية مع محـمد ﷺ ، بالضرورة ، نقض الحلف الذى كان بين مـسلمى المدينة واليهود، ما دام

النص لم يشر، فى الصفحات التى خصصها للحديث عن إسلام أهل المدينة، إلى معارضة من قبلهم للإسلام.

- باسم من كان يتحدث أبوالهيثم: باسم مسلمى المدينة؟ باسم قبيلته، أى الأوس؟ باسم الأوس والخزرج معا؟ إن الدمج بين هذه الاحتمالات الثلاثة مستحيل. وأبوالهيثم - الذى لم يكن حتى نقيبا من نقباء البيعة الاثنى عشر - لم تكن له صفة للتحدث باسم مسلمى المدينة. كذلك لم تكن له صفة للتحدث باسم قبيلته ذاتها، بمن فيها من مسلمين ومشركين، لأنه لم يكن سيد الأوس. وأخيرا فإنه، من باب أولى، لم يكن يملك التحدث باسم جميع الأوس وجميع الخزرج، ولا حتى باسم حجاج المدينة المشركين، الذين كانوا نائمين ملء أجفانهم فى مكة بينما كان هو يتحدث، والذين كانوا يجهلون كل شىء عما يجرى فى العقبة.

- بيعة الحرب كانت موجهة ضد قريش؛ وحيث أن النص ليس فيه أية معلومة تشير إلى تحالف بين اليهود وبين أهل مكة ضد الرسول، فما هو السبب الذى يرتب على عقد هذه البيعة نقض مسلمى المدينة أو قبائلهم حلفهم مع اليهود؟

- لما كان حديث الإسلام فى المدينة لا يفهم منه أن الأوس والخزرج - أو غالبيتهم - قد أسلموا ، فقد كان المفروض أن يعلم أبوالهيثم أن مشركى هاتين القبيلتين - على فرض أنهم لم يعارضوا الإسلام - لم تكن لهم أية مصلحة فى حماية محمد ضد مكة أو للدخول فى حرب ضد مكة لحمايته ﷺ. ولهذا فلم يكن من المنتظر أن يوافق هؤلاء المشركون على بيعة عسكرية تضر بمصالحهم فضلا عن كونهم لم يشتركوا فى عقدها. كذلك لم تكن لهم مصلحة فى نقض تحالفهم مع اليهود.

- من الغريب أن أيا من الحجاج الذين حضروا الاجتماع لم يذكّر أبا الهيثم أنه عليه، منذ اللحظة التى دخل فيها الإسلام، أن يترك للرسول ﷺ تقرير ما يقتضى عمله أو تركه فى التوجهات السياسية الكبرى المتعلقة بالأمة، وأن الرسول هو الذى كان له أن يقرر ما إذا كان من الواجب نقض الأحلاف القائمة مع اليهود أو عدم نقضها.

هـ- العباس بن عُبَادة:

لا يفسر النص كذلك الحكمة فى أن العباس بن عُبادة لفت انتباه الحجاج إلى أن مبايعتهم للرسول ﷺ ترتب عليهم التزاما بحرب الأحمر والأسود من الناس وقبول نهكة الأموال وقتل الأشراف، فإن شيئا فى حديث الفترة الرابعة أو الفترة الخامسة لم يكن يسمح لأى شخص بتصور أن مكة لن ترضى عن رحيل محمد أو أنها ستفكر، فى حالة رحيله، فى محاربة القبائل أو القوم الذين يؤوونه. ولو افترضنا جدلا أنه، بالرغم من فشل الإسلام فى مكة، الثابت من مقولة أن المسلمين لم يكونوا إلا «قليلا مستضعفين»، وأن جميع القبائل غير المكية التى اتصل بها الرسول أدارت له ظهورها، وأن قريشا كانت تخشى أن تضار من نجاح الإسلام فى المدينة أو غيرها، وأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، من الجهة الأخرى، استمروا فى شمول محمد صلى ﷺ بالحماية التى كان يتمتع بها فى حياة أبى طالب، لقد كان أمام قريش حل أيسر وأقل تكلفة هو قتل محمد محليا فى مكة بدلا من الدخول، فى وقت لاحق، فى مغامرة عسكرية لاسترداده وقتله. ولم يكن بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، الذين لم يكن قد أسلم من بينهم سوى ثلاثة أفراد، والذين كانوا على دين قريش، من كثرة العدد أو من قوة السلاح بحيث يتصدوا،

عسكريا، لمجموع قبائل قريش، وكانوا سيقبلون الدية التى كانت قريش ستدفعها لهم عن قتله عن طواعية.

وأخيرا، إذا ترك محمد مكة، كانت لدى قريش وسيلة أسهل جدا من الحرب للتخلص منه: كان بوسعها أن تدبر مؤامرة لاغتياله بيد أحد مشركى مكة أو بيد أحد الأرقّاء، مقابل مكافأة.

أما سؤال العباس بن عبادة للرسول، وحجاج المدينة يتأهبون للرحيل بعد الاجتماع، عما إذا لم يكن يريد أن يميلوا على أهل منى بأسيافهم فى الغد فهو سؤال مضحك بقدر ما هو غير معقول:

- فابن عبادة كان يعلم ولاشك أن الإسلام يحرم القتال فى الأشهر الحرم.

- ولأن الاعتداء الدموى على الحجاج، ولو كانوا مشركين ، كانت ستترتب عليه نتائج وخيمة بالنسبة للرسول ﷺ وللإسلام.

- ولأن حجاج المدينة لم يكونوا من كثرة العدد بحيث يقوموا بعمل حربى بمثل هذه الضخامة، وإن هم أقدموا عليه لكان فى مقدور حجاج منى، الذين كانوا يحصون بالآلاف، أن يقضوا عليهم فى لمح البصر.

- أن الأمر إذا كان يقتضى الميل على أهل منى بالأسياف لكلف الرسول به مسلمى مكة.

- إذا كان لابد لمسلمى المدينة من فرصة لإعمال أحكام بيعة حربهم مع الرسول ﷺ ، فقد كان من اليسير عليهم أن يميلوا بأسيافهم على مواطنيهم المشركين الذين كانوا لا يزالون يَغُطُّون فى نومهم حين عاد المسلمون إلى مضاجعهم، ولم يكونوا بالتالى يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

- لأن المفروض أن بيعة الحرب كانت سرية ومثل هذا العمل كان سيذيعها على الملأ.

- لأن شروط البيعة لم تكن تنص على القيام بعمل عسكرى هجومى ضد مكة، بل كانت تنص على عمل دفاعى لحماية الرسول ﷺ.

- لأن الرسول ﷺ لم يكن يضمن أن يقرّ مسلمو المدينة - الذين كان يمثلهم الحجاج- مثل هذا العمل.

- لأن الرسول ﷺ إذا كان يفكر فى تكليف حجاج المدينة بالميل بأسيافهم على الحجاج المشركين، سواء كانوا مكيين أو غير مكيين، لتناول هذا الموضوع فى الاجتماع، ولما انتظر أن يطرحه عليه العباس بن عبادة فجأة بعد الاجتماع.

٣- ملحوظات أخرى:

أ) من الغريب ألا يجد البَرَاء من يدله على محمد إلا نفرا من حجاج المدينة لم يقابله منهم أحد مع أن عشرة من مجموعة الثلاثة والسبعين سبق لهم لقاء رسول الله ﷺ ومصافحته فى اجتماعى العقبة السابقين.

ب) لا يفسر النص لماذا حدد موعد لقاء الرسول مع الحجاج الثلاثة والسبعين فى ساعة متأخرة من الليل فى العقبة مع عدم وجود أية إشارة سابقة على الاجتماع تنبىء بأن موضوع هذا اللقاء سيكون عقد بيعة حرب.

حـ) حقيقة أن ثلاثة وسبعين حاجا مسلما استطاعوا، بعد أن قضوا ثلث الليل رقودا بين مواطنيهم المشركين، أن ينهضوا، ويتسللوا، ويخرجوا من الخيام ومن المعسكر، ويذهبوا إلى العقبة ويحضروا الاجتماع مع الرسول ﷺ ويعودوا بعد ثلاث أو أربع ساعات،

ويتظاهروا بأنهم ناموا طوال الليل، دون أن يستيقظ أى من أولئك الحجاج ودون أن يثيروا أى شك، شيء يمكن تصوره لو أن الحجاج المشركين كانوا تحت تأثير منوِّم قوى، وإلا فإن هذه حكاية من العسير تصديقها.

د) من الغريب أن الرسول ﷺ لم يختر لاصطحابه إلى الاجتماع السرى الذى كان سيلتقى فيه بمسلمى المدينة أبا بكر، ولا عمر، ولا ابنه بالتبنى زيد بن ثابت، ولا ابن عمه على بن أبى طالب، ولا عمه حمزة، وكلهم مسلمون من أصحابه المقربين، وأنه اصطحب عَمَّه الوثنى، العباس. ولا يقل عن ذلك غرابة أن هذا الشريف القرشى، الذى كانت تربطه علاقات وثيقة بالسلطة القائمة، والذى فضل أن يبقى بمكة حتى سقوط هذه المدينة بعد بيعة العقبة الثانية بعشر سنوات، قبل على نفسه شبهة الاشتراك فى عملية خطيرة كبيعة حرب ضد مدينته.

هـ) هناك مشكلة تتعلق بالصفة التمثيلية لنقباء بيعة الحرب الاثنى عشر، المفروض أنهم أخْرِجوا إلى الرسول ﷺ «ليكونوا على قومهم بما فيهم». إن هؤلاء النقباء، الذين انتخبهم الحجاج الثلاثة والسبعون، لم يكونوا يمثلون فى الواقع سوى من قاموا بانتخابهم، وليس فى النص شيء يشير إلى أن هؤلاء الاثنى عشر، أو حتى الثلاثة والسبعين الذين انتخبوهم، خُوِّلت لهم السلطة فى ترتيب ارتباطات على عشائرهم وقبائلهم فى عقد اتفاق أيا كانت طبيعته أو فى عقد بيعة حربية تفرض على هذه العشائر والقبائل التزاما بالقتال ويتحمل ضياع أموالهم وقتل أشرافهم.

و) حجاج المدينة المسلمون الثلاثة والسبعون الذين شهدوا العقبة - وفقا للقائمة التى تخصهم - كانوا ينتمون لما يزيد على ثمانى عشرة

عشيرة من عشائر المدينة، ولم يكونوا يملكون من ثم ترتيب ارتباطات على عشائر جميع مسلمى المدينة (التى أرسل أربعون منها مقاتلين إلى بدر بعد ذلك بعام ونصف عام). وما كانت مثل هذه المسألة تفوت على رجل ذى فطنة كرسول الله ﷺ.

ز) لو أن الرسول ﷺ كان قد فكر فى الهجرة إلى المدينة، وفى احتمال أن تطالب قريش مسلمى المدينة برأسه، وأن يقول هؤلاء «لن نسلمه لكم أبدا وسنمتشق السلاح إذا اقتضى الأمر دفاعا عنه»، وأن تقوم حرب بين مكة والمدينة بسببه، لذهب بنفسه إلى المدينة ليبحث الموضوع من جميع نواحيه مع مسئولى الأمة الإسلامية فيها: هل كانوا من حيث العتاد والعدة قادرين على مواجهة جيش تحشده مكة عاصمة الجزيرة؟ هل كانوا على ثقة من أن كفار المدينة ويهودها لن ينضموا إلى مكة ضدهم؟ أما من وسيلة لتلافى مجابهة عسكرية غير مضمونة النتائج مع مكة بأن يقال لقريش مثلا: «الآن وقد أصبح محمد واحدا منا، ليس هناك ما تخشونه من جهته؟ إنه سيدعو لدينه بيننا ونحن نعدكم بأنه لن يطأ أرض مكة بعد الآن!»؟ وإذا اقتنع الرسول ﷺ ، بعد زيارته إلى المدينة، بأن الفرصة سانحة لعقد بيعة حربية مع هؤلاء المسلمين، فإنه كان يعقدها فى السر مع رؤساء الأمة الإسلامية من ذوى الصفة، باسم جميع أعضاء قبيلتى الأوس والخزرج الذين اتخذوا الإسلام دينا لهم.

ح) حماية المسلم للرسول حمايته لامرأته وأبنائه واجب أولىّ، فإن الذى يحمى الرسول إنما يحمى الدين. لذلك، وعلى فرض أن الرسول قد تلقى الآيات التى تأذن له بالقتال فى مكة، فإنه ﷺ لم يكن بحاجة إلى عقد بيعة خاصة مع هذه الفئة أو تلك من فئات المسلمين كى تتولى حمايته. وقد اضطلع مسلمو مكة بهذه المهمة، بعد الهجرة، على الرغم

من كونهم لم يعقدوا بيعة مع الرسول، ولقى بعضهم مصرعهم فى الغزوات التى اقتضت الظروف أن يخوضها.

ط) اكتشاف مكة أن بيعة عسكرية موجهة ضدها قد عقدت بين واحد من مواطنيها ومدينة أخرى لم يكن خبرا عاديا بل كان حدثا ذا أهمية كبرى. والنص يتحدث عن مطاردة قامت بها مكة ضد المتآمرين من أهل المدينة وأنها قبضت على اثنين منهم، لكنه لا يقول شيئا عن النتائج الأخرى التى تترتب عادة على مثل هذا الاكتشاف. فليس فى النص مثلا أية إشارة:

- إلى إجراء من أى نوع اتخذته مكة ضد محمد، مع أن العمل الذى ارتكبه كان يعتبر فى نظرها ولاشك، حتى فى مجتمع ذلك الوقت، أخطر جريمة يمكن لأحد أن يرتكبها ضد بلدة ـ دولة كمكة. كذلك ليست هناك أية إشارة إلى اتخاذ مكة إجراء من أى نوع ضد عمه الذى أصبح، بحضوره الاجتماع والقيام فيه بدور إيجابى، شريكا فى الجريمة التى ارتكبت ضد بلده.[٤]

- إلى الأسباب التى منعت قريشا من القبض على محمد ﷺ ومحاكمته وإدانته هو وعمه بتهمة الخيانة العظمى والتآمر ضد أمن مكة، وقد كانت هذه بالنسبة لقريش فرصة ذهبية للتخلص من محمد بصورة قانونية لا شائبة فيها، والحكم عليه بالإعدام.

- إلى إرسال مكة مبعوثين للمدينة للاحتجاج على التصرف العدائى من بعض حجاجها، وجواسيس لجمع معلومات عن النوايا الحقيقية لمسلمى هذه المدينة حيالها وعن قوتهم العسكرية.

- إلى أزمة خطيرة فى العلاقات بين المدينتين أو إلى مناقشات فى مجلس حكومة مكة بشأن ما إذا كان الأمر يقضى قطع العلاقات التجارية

وغيرها مع المدينة وفرض قيود على وصول حجاجها، أو إخضاع هؤلاء لرقابة مشددة.

- إلى اتخاذ مكة تدابير لحماية مصالحها الحيوية، لاسيما قوافلها، من هجوم مسلمى المدينة، وذلك مثلا بتغيير خط سيرها وتقوية الفرق المسلحة المكلفة بحمايتها أو الأحلاف مع القبائل التى تعبر هذه القوافل أراضيها.

- إلى إجراءات اتخذتها مكة استعدادا للحرب، كاستيراد أسلحة إضافية أو شراء عبيد - جنود... إلخ.

- إلى اقتراحات مقدمة فى مجلس الحكومة لشن هجوم على المدينة أو لعقد أحلاف ضدها مع قبائل عربية أخرى.

- إلى إجراء من جانب مسلمى المدينة، أو فكرة اتخاذ إجراء فى الاتجاه الذى أعلن عنه أبوالهيثم بن التيهان فى اجتماع العقبة، يرمى إلى قطع العلاقات مع حلفائهم اليهود.

ى) من المستغرب أن قُريشا، التى ألقت القبض على سعد بن عُبادة، أطلقت سراحه نتيجة لتدخل اثنين من أهل مكة، وكان المفروض أن تجرى معه استجوابا دقيقا للحصول منه على أكبر قدر من المعلومات عن البيعة وأطرافها وموضوعها، ليحاكم على أساسها محمد والعباس (أو لتحاكمهما على أساسها قبيلتهما)، وكذا للاحتجاج لدى مسئولى قبيلتى الأوس والخزرج لأن حجاجها الذين وفدوا إلى مكة لعبادة الكعبة وأصنامهم تآمروا على سلامة مكة بالاشتراك فى عقد بيعة حربٍ ضدها. وقد ارتكب سعد بن عبادة باشتراكه فى هذه المؤامرة جريمة بالغة الخطورة ضد مكة وكان الواجب، إن صحت هذه الواقعة، أن يحاكم عليها وأن يعاقب وفقا لقانون هذه البلدة.

جيم ـ النتيجة

إن ثبوت كون الآيات القرآنية التى أسس النص عليها دعوى بيعة العقبة الثانية كلها آيات مدنية لا مكية يكفى فى حد ذاته لنزع كل مصداقية عن حديث النص المتعلق بهذه البيعة. وهو كاف - بعبارة أخرى - للقول بأنه لم تكن، وما كان يمكن أن تكون، هناك بيعة حرب بين الرسول ﷺ ومسلمى المدينة. لكن مجموع النقاط التى أبديتها فى تحليل هذا الحديث وبعض أجزاء هذا الحديث تؤكد أيضا هذه الحقيقة. كذلك فإن هذه النقاط تسمح باستخلاص بعض النتائج الهامة الأخرى عن حبكة هذه الخدعة وبواعثها وبإضاءة بعض جوانبها.

أ) فمن الطريف أن نلاحظ، أولا، أن الاجتماع الذى عقدت فيه بيعة العقبة المزعومة كان النقطة التى التقى عندها المؤثران الكبيران اللذان طبعا بطابعهما هذه الفترة بل أيضا - إلى حد كبير - كل السيرة، وهما: المؤثر العباسى، والمؤثر المدنى، فى الموضوع الذى يستخدمانه محورا لهما وهو موضوع حماية الرسول ﷺ .

فإن الرسول قد انتقل فى هذا الاجتماع، وكأنه طفل رضيع، من أيدى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الحامية إلى أيدى أهل المدينة الحامية، فالعباس يقول ، باسم بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى حجاج المدينة ما معناه: «لقد حميناه حتى الآن، وقد جاء دوركم فى حمايته».

ولكى يقوم مؤلف النص بهذه النقلة، كان عليه أن يخرج من الظلام فردا من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. وكان المفروض ان يكون هذا الفرد رئيس إحدى القبيلتين أو أحد أفرادها الذين أسلموا: حمزة مثلا. ولكن، لا. الشخص الذى اختير لهذه المهمة لم يكن رئيس هاتين القبيلتين ولا رئيس إحداهما، ولا أحد المسلمين، بل كان العباس.

وتشاء الصدف أن يكون العباس مع الرسول فى المسجد فى اليوم الذى ذهب البَـرَاءُ بن مَعْرُور ليبحث عن الرسول ليطرح عليه السؤال الذى كان يؤرقه. والعباس، هو أيضا - الذى لم يكن رئيس بنى عبدالمطلب، ولو كان هو الرئيس لذكر النص ذلك - الذى حضر اجتماع العقبة. العباس، سلف الرجل الذى أسقط الخلافة الأموية وأسس مكانها الخلافة التى قدر لها أن تحمل اسم هذا الرجل، عم الرسول ﷺ.

ب) لتفادى أن يتصور أحد، مدى لحظة، أن مسلمى مكة لعبوا أقل دور فى حماية رسولهم، ولإثبات أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم تحملوا وحدهم هذه المسئولية، حرص النص على عدم حضور أحد من مسلمى مكة هذا الاجتماع. لا أبوبكر ولا عمر، ولا عثمان، ولا حمزة، الذى كان هو أيضا عَمّاً للرسول ﷺ، ولا علىّ ابن عمه، ولا حتى مُصْعَب ابن عُمَير، الصحابى الذى أوفده الرسول مع المدنيين الاثنى عشر الذين حضروا بيعة العقبة الأولى، والذى يرجع له الفضل فى إسلام اثنين من رؤساء بنى عبد الأشهل وعدد كبير من أهل المدينة.

جـ) هذا الغض من قدر مسلمى مكة يقابله فى النص جهد ملحوظ لرفع شأن مسلمى المدينة. إنه يجعل الرسول يقول للثلاثة والسبعين: «أنا منكم، وأنتم منى» ، وهو قول لم يقل مثله لصحابته المكيين. والنص لا يكتفى بذلك بل يُشَبِّه نقباء الثلاثة والسبعين الاثنى عشر بحواريى المسيح عيسى بن مريم. وقد أكسبهم وصف «حواريى عيسى بن مريم» هذا، علاوة على ذلك، بصورة ضمنية، لقبا فخريا آخر هو لقب «أنصار الله» بموجب الآية التالية، التى سبق ذكرها، فى قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف: ١٤]

د) حرص النص على إعطاء اسم عسكرى لبيعة العقبة الثانية، وتفريقه الواضح بين طبيعة هذه البيعة والبيعة الأولى، التى أسماها بيعة النساء لكونها لا تتعلق بالحرب، ولغة الحرب التى جعل البَرَاء بن مَعْرُور وأبا الهيثم بن التَّيهان والعباس بن عُبادة يتحدثون بها، وجعله الحرب موضوع البيعة الوحيد، دلائل تشير إلى أن النص يريد أن يقول إن مسلمى المدينة كانوا، مثل بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى شعر أبى طالب، على استعداد للتضحية بأرواحهم وأموالهم وأشرافهم فى سبيل حماية الرسول ﷺ . لكنه كان يريد أيضا، طبقا للشواهد، أن يقرر أن البيعة كانت نقطة الانطلاق فى سلسلة الفتوحات التى بدأت فى الفترة المدنية والتى استمرت بعد وفاة الرسول ﷺ لأكثر من قرن، وأن يعزو إلى أهل المدينة الفضل فى أنهم كانوا أول من بدأ به تاريخ الإسلام المجيد.

هـ) من الواضح أن كل هيكل اجتماع بيعة العقبة الثانية يرتكز لا على أحداث تاريخية حقيقية وإنما على استغلال أحداث تاريخية لاحقة.

و) الطريقة نفسها، أى طريقة استغلال التاريخ اللاحق لكتابة التاريخ السابق، استخدمها النص فى صياغة السؤال الذى أراد به أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان معرفة ما إذا كان فى عزم الرسول ﷺ أن يرجع إلى قومه ويدعهم إذا أظهره الله، وصياغة جواب الرسول عن هذا السؤال بالنفى.

ز) تحليل المعلومات المتعلقة ببيعة العقبة الثانية يزودنا بالإجابة عن اثنين من الأسئلة التى ثارت بشأن الفترة المكية الرابعة، فإن فى الإمكان أن نقول:

- إجابة عن السؤال (٣): لماذا يصف النص محمدا ﷺ وهو نهبة للشعور بالخطر المحدق به والحاجة إلى الحماية،. بأن النص يريد أن يجعل من رفض القبائل غير المكية حماية الرسول، الخلفية التى كان ينوى أن يرسم فى إطارها، فى الفترة الخامسة ، عرض الحماية المقدم للرسول ﷺ من مسلمى المدينة.

- إجابة عن السؤال (٤) : أن السبب الذى جعل بَيْحَرَة بن فِرَاس يتحدث عن إهداف نحور رجال قبيلته دون محمد، أن النص أراد أن يثبت أولا أن مسلمى المدينة لم يكونوا وحدهم الذين كانوا يعتقدون أن مكة قد تقوم بعمل عسكرى ضد القبيلة التى تؤوى محمدا، وأنه أراد كذلك أن يبرز حقيقة أن مسلمى المدينة قبلوا ما سبق أن رفضه بَيْحَرَة.

ح) من الطريف أن نلاحظ أن الفقرة التى يذكر فيها النص، تحت عنوان «نزول الأمر لرسولَ الله ﷺ فى القتال»، الظروف التى نزلت فيها الآيات التى تأذن للرسول بالقتال، تتضمن للمرة الأولى اعترافا:

- بأن قريشا كانت تنفى المسلمين من مكة.

- أنه كان هناك، بخلاف مسلمى مكة الذين هاجروا إلى الحبشة أو إلى المدينة، مسلمون هاجروا إلى جهات أخرى أو ، كما يقول النص، «فى كل وجه».

- أن النص، الذى كان يطلق اسم «الأنصار» على كل مسلمى المدينة، لكى يكون منطقيا مع نفسه، أطلق اسم «المهاجرين» على كل مسلمى مكة.

وكما أن الاستعمال غير السليم لكلمة «الأنصار» جعله يطلقها على الخزرج الستة الذين لقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى العقبة قبل إسلامهم، فإن الاستعمال غير السليم لكلمة «المهاجرين» جعله هنا يطلقها على المسلمين المكيين الذين لم يعودوا مسلمين لأنهم فتنوا عن دينهم، أو الذين لم يهاجروا لأن قريشا كانت تعذبهم.

- أن مسلمى مكة كانوا ينقسمون إلى أربع فئات:

١- من فتنوا عن دينهم.

٢- من كانوا يعذبون.

٣- من نفوا من بلادهم.

٤- من هربوا فى البلاد فرارا، منهم من بأرض الحبشة ومنهم من بالمدينة، وفى كل وجه.

وهذا التقسيم يستدعى ملحوظات ثلاث:

- أن صياغة الجملة التى تتحدث عنه تدل على أنه تقسيم جامع مانع، فهى لا تترك مكانا لفئة خامسة تضم الأشخاص الذين لا يدخلون فى هذه أو تلك من الفئات المذكورة.

- أنه يسير فى الاتجاه ذاته الذى يسير فيه وصف «قليلا مستضعفين» الذى استعمله النص لوصف المسلمين فى حديث الفترة الرابعة.

- ليس من الواضح ما إذا كان المسلمون الذين فروا إلى المدينة هم أولئك الذين ذهبوا للإقامة فيها قبل عقد بيعة الحرب أو بعد هذه البيعة.

فإذا كان المقصود هنا هم مسلمو مكة الذين كانوا فى المدينة قبل بيعة العقبة، فإن هؤلاء الصحابة لابد أنهم اشتركوا فى حركة «الأسلمة» التى حدثت فى المدينة قبل لقاء الرسول ﷺ بالخزرج الستة وبعد هذا اللقاء.

والحاصل أن حديث دخول أهل المدينة فى الإسـلام لا يشير أية إشارة إلى وجـود مثل هؤلاء المسلمـين فى المدينة. وإذا كـان المقصـود، على العكس، هم مسلمو المدينة الذين هاجروا بعد عقـد البيعة، فإن هجرتهم لايمكن منطقـيا أن تكون مـن بين الأسبـاب التى أدت إلى نزول الآيات القرآنية التى تأذن بالالتجاء إلى الحرب.

ط) هناك ، فى الفقرة ذاتها، جملة يمكن أن تضاف إلى الأمور التى تكشف عن تحـيز مـدنى ضد قـريش، ونعنى بذلك الجملة التى تـقول: «فلمـا عتت قـريش على الله عـز وجل، وردوا عليه مـا أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه ﷺ ، وعذبوا ونفوا مَنْ عَبَدَهُ وَوَحَّدَه وصَدَّق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسـوله ﷺ فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم». والتحيز ضد قريش فى مثل هذه الجملة ذو دلالة لا تنكر. إنه إدانة لقريش جميـعها. وهو أيضا تفسير للقـرآن تتحكم فيه الاعتبـارات السياسية، كـما أن فيه ما يـشبه المحاولة لجعل الله سـبحانه وتعالى ينضم إلى المؤلف فى موقفه.

ى- مـن غير المستبعد أن يكـون أحـد البواعث التى أوحـت للمؤلف بفكرة اختلاق بيعة الحرب رغبته فى إعطاء مواطنيه بيعة كبيعة الرضوان، هذه البيعة التى شرفها القرآن فى هذه الآيات من سورة الفتح:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ ..... ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ..... ۝٤ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ

ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) ﴾ ..... ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) ﴾ ..... ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا .....(١٩) ﴾ [الفتح]

وتقول السيرة إن هذه الآيات المدنية نزلت فى السياق الآتى (*) :

فى آخر سنة ست من الهجرة (٦٢٨م)، أعلن الرسول ﷺ عن عزمه الخروج إلى مكة معتمرا واستنفر العرب من المدينة ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه. وأبطأ عليه كثير من الأعراب خشية أن يتخذ رد فعل قريش شكل عمل عسكرى. وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب (٧٠٠ أو ١٤٠٠) وأحرم بالعمرة وساق معه الهدى. ولما سمعت قريش بمسيرة هذا «الجيش» إلى مكة أبلغوا الرسول ﷺ أنهم لا يسمحون لهم بدخول بلدتهم. وأرسل الرسول إليهم عثمان ليخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته.

(*) السيرة، القسم الثانى ، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

وتأخرت عـودة عثمان وبلغ رسـول الله ﷺ أنه قتل فقـرر أن يناجز القوم، ووقف تحت شجـرة ودعا أولئك الذين لديهم استعـداد للقتال أن يبايعـوه. وبايعه الناس، لـم يتخلف عنه أحـد، وكانت هذه هى بيـعة الرضوان.

وبعد قلـيل، اتضح أن عثمـان لم يقتل وتم صلح بـين الرسول ﷺ وقـريش على وضع الحرب عن الناس عـشـر سنين. وقبل الرسـول أن يعدل عن العمرة ذلك العام مقـابل وعد من قريش بالسماح له بالحج فى العام القابل بـأصحابه والإقامة بهـا ثلاثة أيام. واتضح بعد ذلك أن هذا الصلح، الذى كان موضوع سورة الفتح الرئيسى، كان نصرا «دبلوماسيا» من الدرجة الأولى.

وليس فى النص أى بيـان عن عدد أهل المـدينة الذين بايعوا الرسـول ﷺ تحت الشجرة فى الحديبيـة. على أنه من الجائز أن المهاجرين، الذين قطعت العلاقات بينهم وبين بلدتهم وذويهم منذ أكثر من ست سنوات ، كانوا أكثر تحمسا للخروج مع الرسول إلى العمرة من الأنصار.

ومما هو جديد بالذكـر فى هذا المقام أن الحديبية، رغـم الأهمية التى يضفيها عليها القرآن لم ترد فى قائمة أسـماء من اشتركوا فى بيعة العقبة الثانـية ضمن المشـاهد الكبرى مـثل بدر وأحد والخنـدق، وأن أحدا ممن اشتركـوا فى بيعة الحرب الثـلاثة والسبعين لم يذكر فى هـذه القائمة أنه شهدها مع الرسول ﷺ.

ك) لإثبـات أن الرسـول ﷺ ، لولا أهل المدينة، لأصـبح فى حـالة عجز عن المضى فى الدعـوة، وأن الإسلام كان مصيره الفـشل،استخدم النص حيلتـين سبق له استخـدامهما ليـثبت، فى الفترات المكيـة الثلاث الأولى، أن الرسـول ﷺ إذا كان لم يقـتل، وأن الإسلام إذا كـانت لم

تقض عليه هجمات قريش، فالفضل فى ذلك إنما يرجع لحماية أبى طالب وقبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. وهاتان الحيلتان هما:

- حيلة اختلاق اللقاءات: هناك لقاءات بين سادة قريش وأبى طالب أو بين قريش ومحمد، وهنا لقاء بين حجاج المدينة الثلاثة والسبعين ومحمد ﷺ ، مع فارق هو أن محمدا ﷺ لم يطلب أبدا من عمه أو من قبيلته أن يحمياه وأنه طلب ذلك من الثلاثة والسبعين.

- الحيلة التى تتمثل فى عرض الرسول منفردا، منقطعا عن صحابته المكيين.

على أن النص قد استحدث هنا حيلتين أخريين أولاهما هى التلاعب بالقرآن.

إن الطريقة التى يستعمل بها النص الآيات القرآنية التى يسوقها هنا تختلف عن تلك التى كان يستعملها بها فى الفترة الثالثة، فقد كانت الآيات القرآنية الخاصة بالفترة الثالثة تساق، فى معظم الحالات، لتصوير عداء قريش للإسلام أو لتعيين خصوم الرسول ﷺ بالاسم. وكانت تصور أوضاعا كانت موجودة بالفعل، طبقا لما يقوله القرآن الكريم، ولو أن الشبهات واضحة فى التقديم أو التعقيب اللذين كانت تقترن بهما فى النص، لأن هذا التقديم أو التعقيب كان يهدف إلى الغض من قدر أعداء المؤلف أو أعداء الخليفة العباسى.

أما فى الحالة الراهنة، فالتلاعب أعمق بكثير. إن النص يستخدم آيات القرآن كمادة لاختلاق حدث، هو بيعة العقبة، ويقدم لهذه الآيات بجمل تشوّه الحقيقة فى ثلاث نقط أساسية: مناسبة نزولها، بجعلها آيات مكية مع أنها مدنية، وأهمية أمة الإسلام العددية فى مكة، بجعلها تنحصر -

بعد الهجـرة - فيمن فتنوا عن دينهم، ومن عـذّبوا أو من لاذوا بالفرار؟ والإدانة «العنصرية» القاطعة الموجهة ضد قريش التى من المحتمل جدا أن نسبة غير قليلة منهم قد اعتنقت الإسلام.

والحيلة الجديدة الثانـية التى استخدمها النص فى الحـالة الراهنة تتمثل فى كونه، بصورة ما، «صادر» الرسـول ﷺ لصالح من أسلموا من أهل المدينة قبل الهجرة بسنة أو سنتين بجعله ﷺ يقول لهم: «أنا منكم وأنتم منـى، أحارب مـن حـاربتم، وأسـالم مـن سـالمتم». أمـا صـحـابتـه المكيـون، أولئك الذين آمنوا بـه منذ بداية بعـثته والذيـن عذب بعضـهم واضطهـدوا أو نفوا من بـلادهم، فإنهـم لم يحظوا منه بـشىء من هذه الكلمـات التى تطرب لهـا القلوب والأسماع. وفـى الاتجاه نفسـه، فإن النص يعـقد توازيا فى كـلام الرسول ﷺ بين نقـباء المدينة الاثنى عـشر وبين حواريى السيد المسيح الاثنى عـشر كى يسبغ على أهل المدينة شرفا إضافيا.

بقى لاستكمـال هذه «التركيبـة» الذكية أن يعلن أحـد على العالم أن الرسول وأهـل المدينة ينـوون الحـرب. وقد أسند النـص هذا الدور إلى شيطان، هو شيطان العقبة المحلى، الذى كان اسمه، فيما يبدو، أزبّ بن أزيب، وادعى أن الرسول ﷺ عرفه وهدده.

ل) رغبـة المؤلف فى تبـييض صفـحة مشـركى المدينة الذيـن كانوا، ولابد، شأنهم فى ذلك شأن إخوانهم فى مكة، أعداء للإسلام، واضحة فى النص. ذلك أنه:

- لا أبو الهَيْثَم بن الـتَّيِّهَان، الذى تحدث عن احتمـال قطع العلاقات مع اليهود كنتيـجة لعقد البيعة، ولا غيره من الثلاثـة والسبعين أشار أية إشارة إلى أدنى معارضة من قبل مشركى المدينة للإسلام.

- فى الـوقت الذى كـان كـفار مـكة يضطـهـدون فيـه المسـلمـين ويخرجونهم من كـنفهم، كان كفار المدينة يخـرجون للحج إلى مكة مع مواطنيهـم المسلمين ويشاركونهم خيامهم أو معسكرهـم ثم يقفلون راجعين إلى المدينة بصحبتهم فى سلام ووئام.

م) من الممكن جدا أن يكون قد تم بالفعل لقاء بين الرسول ﷺ وبين حجاج المدينة الثلاثة والسبعين فى الفترة التى يذكرها النص، لكنه كان، ولابد، لقاء من هـذه اللقاءات التى كان يجـريها الحجاج المـسلمون من مختلف القـبائل العربية التى أسلم كل أو بعـض أفرادها، مع رسولهم، والتى كانوا يعبرون فـيها لنبيهم عن سعادتهم برؤيتـه ويجددون تعهدهم باحترام أوامر دينهم ونواهيه، ويعربون عن عرفانهم بكل الخير الذى عاد عليهم مـن رسالته، ويطرحون أسـئلة عملية عن بـعض المشكلات التى تصادفهم، ويلتمسون منه المشورة أو الدعوات.

وقد استخدم النص هذا اللقاء - عـن طريق التلاعب بالقرآن، ونسبة أقوال إلى الرسـول لم يقلها وبوسائل أخـرى - لتزييف الحقيـقة وابتداع صورة منـحازة ترفع أهل المدينة، فـى مجمـوعهم، إلى السمـاء وتضع القريشيين فى مجموعهم ، فـى سلبيات الإسلام. والصورة التى يعطيها لنا النص هنا هى صورة تظـهر فيها الحرب من منظور مـختلف تماما عن ذلك الذى يستخلص من الآيات القرآنية التى يسوقها النص بخصوصها.

٣ - الهجرة إلى المدينة

ألف - النص

يقدم النص تحت عنوان «ذكر المهاجرين إلى المدينة» معلومات مختلفة عن هذه الهجرة، ويخـصص صفحة ونصف لهجـرة أبى سلمة من بنى سلمة وزوجه اللـذين يقول إنهما أول من هاجر إلى المـدينة من أصحاب

رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش. وكان قد سبق لهذا الصحابى أن هاجر وزوجته إلى الحبشة، ثم قدم على رسول الله ﷺ مكة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا، وذلك قبل بيعة الحرب بسنة.

ويذكر النص بعد ذلك أسماء مهاجرين آخرين وصلوا إلى المدينة بعد هذه البيعة كان من أولهم عبدالله بن جحش. ويأتى بعد ذلك حديث يستغرق صفحتين عن عمر الذى خرج مع عَيَّاش بن ربيعة وهشام بن العاص. وقد وقع عياش وهشام فى كمين وفتنا فافتتنا. لكنهما استردا إيمانهما بعد فترة.

ويذكر النص أخيرا أسماء مهاجرين آخرين وكذا أسماء من نزلوا عندهم من مسلمى المدينة. ويبلغ مجموع من وردت أسماؤهم تحت عنوان «ذكر المهاجرين إلى المدينة» أربعة وسبعين شخصا. على أن هذه القائمة ليست كاملة، فإن النص يضيف، بالنسبة لعمر «ومن لحق به من أهله وقومه»، كما يضيف بالنسبة لمجموعة أخرى، هم بنو البُكَيْر، عبارة «وحلفاؤهم من بنى سعد بن ليث». وبعد اسم عبدالرحمن بن عَوْف، يضيف النص: «فى رجال من المهاجرين». وهو يقول فى نهاية القائمة: «نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خَيْثمة»(*).

وتحت عنوان «هجرة الرسول ﷺ»، يقول النص فى مستهل حديثه: «وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن، إلا علىّ بن أبى طالب، وأبوبكر بن أبى قُحافة الصدِّيق رضى الله عنهما».

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٦٨ ـ ٤٨٠.

ولما رأت قريش أنه قد أجمع لحربهم، اجتمعوا يتشاورون فيما يصنعون في أمر محمد ﷺ الذي صارت له شيعة وأصحاب بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين من مكة إلى المدينة ووجدوا فيها دارا ومنعة. واعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل وطلب أن يحضر الاجتماع وأُذن له بذلك.

وفي هذا الاجتماع قُدم اقتراح أول قال صاحبه: «أحبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيرا والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم» فقال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم». ثم قال قائل منهم: «نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا عنه، فأصلحنا أمرنا وأُلْفَتَنا كما كانت». فقال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم». فقال أبوجهل بن هشام: «أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل أي بالدية فعقلناه

لهم». فقال الشيخ النجـدى: «القول ما قال الرجل، هذا الرأى الذى لا أرى غيره». فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له [1].

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال: «لا تبت هذه الليلة على فـراشك الذى كنت تبـيت عليه»، فلـما كانت عـتمـة من الليل، اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قـال لعلىّ بن أبى طالب: «نم على فراشـى وتسجّ ببردى هذا الأخضر فنـم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تـكرهه منهم». وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب فى يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فـلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: [2]

﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ [يس: ١ - ٩]

ثم انصـرف إلى حيث أراد أن يـذهب. فأتاهم آت ممـن لم يكن معـهم فقال: «ماذا تنتظرون ها هنا»؟ قالوا: «مـحمدا»، قال: «خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، مـا ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟». فوضع كل رجل منهم بيده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش مُتسجِّيًا بُبْرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائما، عليه

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨٢، ٤٨٤ .

برده». فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ رضى الله عنه عن الفراش فقالوا: «والله لقد صدقنا الذى حدثنا». وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقول الله عز وجل:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ [الطور: ٣٠و٣١]

وابتاع أبوبكر، الذى كان كلما استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة، قال له الرسول «لا تعجل»، راحلتين ودفعهما إلى رجل استأجره ليكون دليلا لهما فى رحلتهما إلى مكة. وفى يوم من الأيام، أتى رسول الله ﷺ أبا بكر فى بيته بالهاجرة وقال له إن الله قد أذن له فى الخروج والهجرة. فقال أبوبكر: «الصحبة يا رسول الله» قال: «الصحبة»، وبكى أبوبكر من الفرح. ولم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد، حين خرج، إلا عليّ بن أبى طالب، وأبوبكر الصديق، وآل أبى بكر. أما عليّ، فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة، حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم عن صدقه وأمانته.

فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبابكر، فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عَمِد إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبوبكر ابنه أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من خبر، وأمر مولاه أن يرعى

غنمه نهـاره، ثم يريحها عليهمـا، يأتيهما إذا أمسى فـى الغار. وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

فأقام رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثا ومعه أبوبكر، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مـئة ناقة لمن يرده عليهم. حتـى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما وبعير له، وانطلق الرسول وأبوبكر ومولاه والدليل (*).

ولما خرج الرسول وأبوبكر أتى دار أبى بكـر نفر من قريش وسأل عن الرسول فقـالت لهم أسماء بنت أبى بكـرلا أدرى، لكن رجلا من الجن جاء من أسـفل مكة، يتغنى بأبيـات من شعر غناء الـعرب، وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه.

وهو يقول:

جـزَى الله ربُّ الناس خـيرَ جَـزائه	رفـيقَـين حلاَّ خَـيْـمَتَىْ أم مَـعْبَـدِ
هُـمـا نَـزَلا بـالبَـر ثـم تَرَوَّحـا	فـأفلح من أمـسى رفـيقَ مـحمـد
ليـهنِ بنـى كَعْـب مكانُ فـتـاتهم	ومـقـعـدها للـمـؤمنيـن بمرصـد

وفهم الناس من قوله أن الرسول ﷺ متجه إلى المدينة.

وأراد سراقة بن مالك أن يفوز بالناقات المئة التى جعلتها قريش لمن رد رسول الله ﷺ عليهم، ولبس لأمَتَه، أى درعـه وسلاحه، وأمر بفرسه. وعلى الرغم من أنه، حين اسـتقسم بقداحه مرتـين، خرج السهم الذى يكره «لا يضرّه»، فـإنه أبى إلا أن يتبع الرسـول ﷺ ، فركب فى أثره. فلما بدا له القوم ورآهم، عثر به فرسه مرتين، فذهبت يداه فى الأرض،

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٨٤ ـ ٤٩٠.

وسقط هو عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما فى المرة الثانية دخان كالإعصار، فعرف سراقه حين رأى ذلك أن الرسول ﷺ قد منع منه[1].

ويذكر النص خط السير الذى اتبعه الدليل بالرسول وصحبه إلى أن بلغوا قباء. ويبقى الرسول ﷺ فى قُباء ثلاثة أيام قبل أن يتجه إلى المدينة. وينهى النص حديث هجرة الرسول بالملحوظة الآتية: «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس» [2].

هذا وقد وردت بيانات أخرى عن الهجرة فى سرد الأحداث التى تلت وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، قيل فيها إن أهل دور مُسمِّين أوعبوا بأهليهم وأموالهم إلى المدينة وإن دورهم غُلِّقَت بمكة هجرة ليس فيها ساكن، وكان من هذه الدور دار بنى جحش بن رئاب، حلفاء بنى أمية، وقد عدا عليها أبوسفيان بن حرب.[3]

باء- التحليل

سأتناول فى هذا التحليل أربعة موضوعات: مسألة ما إذا كان الرسول ﷺ قد هاجر أم أنه أُخرج من المدينة، وهجرة المسلمين، والقرآن والهجرة، وأخيرا، القرآن وإخراج المسلمين.

١- هجرة أم إخراج للرسول؟

هناك، فيما يقول النص، علاقة سببية بين بيعة العقبة الثانية، أى بيعة الحرب، وهجرة الرسول ﷺ . وتتضح هذه العلاقة من كل جملة، بل

---

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٨٤ - ٩٨٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩٠ - ٤٩٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٩٩ .

وتكاد تتضح من كل كلمة جاءت على لسان كل شخص من الأشخاص الذين تحدثوا فى اجتماع الرسول مع حجاج المدينة الثلاثة والسبعين:

أ) فإن العباس، عم الرسول ﷺ، شدّد على أن الرسول، على الرغم من كونه فى عزّ من قومه ومنعة فى بلده، أبى إلا الانحياز إلى مسلمى المدينة واللحوق بهم. فما من شك إذن من أن قرار الرسول ﷺ بترك مكة إلى المدينة كان قرارا اتخذه بمحض إرادته، وأن عداء قريش له لم يكن له أى دور فى اتخاذه ، ما دام ذووه قد منعوه من قومه.

ب) حين سأل الرسول ﷺ حجاج المدينة هل يمنعونه، فإنه كان، ولاشك، يتحدث عن المستقبل، بعد أن يهاجر إليهم.

جـ) حين تحدث البَرَاء بن مَعْرور عن الحروب والحلقة، وحين تحدث أبو الهيثم بن التَّيِّهان عن قطع حبالهم مع اليهود، وحين لفت العباس بن عُبادة انتباه مواطنيه إلى النتائج التى ستترتب على مبايعتهم للرسول، فإن ثلاثتهم كانوا يردون - عن علم - على سؤال الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان من الطُّبيعى أن الرسول ﷺ ، لو لم يتلق ردا إيجابيا ممن كان يخاطبهم، لما عَقَد البيعة ولَفَضَّلَ البقاء فى مكة التى كان فيها، على حد قول عمه، «فى عزّ من قومه ومنعة فى بلده». والسؤال الذى لا مفر من طرحه فى بداية هذا التحليل هو: هل تظل علاقة السببية التى أشرنا إليها بين بيعة الحرب وهجرة الرسول قائمة إذا ثبت أن هذه البيعة لم يكن لها وجود؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لايمكن أن تكون إلا بالنفى.

لكن هناك ما هو أكثر من هذا: إن مؤلف النص، الذى جعل من هجرة الرسول الطوعية النقطة المركزية التى بنيت حولها بيعة الحرب،

غاب عن فطنته أن بعض آيات القرآن الكريم تعطى عن خروج الرسول ﷺ من مكة صورة تختلف عن تلك التى صوره بها. وهذه الآيات هى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ⑬ ﴾ [محمد: ١٣]

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑬ ﴾

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ⑳ ﴾ [التوبة: ١٣ و٤٠]

إن هذه الآيات تتحدث بلغة واضحة لا تحتمل اللبس عن إخراج لا عن هجرة. ويلاحظ فى هذا الصدد كذلك أنه ما من آية من آيات القرآن الكريم استعملت كلمة «الهجرة» فيما يتعلق بالرسول ﷺ.

ولما كان الفرق بين الهجرة والإخراج، كما هو بديهى، هو أن الهجرة عمل إرادى حتى إذا كان الشخص قد أقدم عليه تحت ضغط الظروف، وأن الإخراج عمل ليس لإرادة الشخص الذى يجرى إخراجه فيه دخل، فإن مؤدى صياغة القرآن هو أن الرسول ﷺ ، خلافا لما قاله العباس بن عبدالمطلب فى النص، لم يكن قط يريد أن يترك مكة، وأنه لو خيِّر لاختار أن يبقى فيها، وأنه إذا كان قد تركها فإنما كان ذلك لأنه أجبر على تركها إجبارا.

وإذا كان الأمر كذلك:

- فمن بين الخيارات الثلاثة (الاعتقال أو القتل أو الطرد) الواردة فى آية:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [الأنفال: ٣٠]

التى أشار إليها النص، اختارت قريش الأمر الثالث أى الإخراج، لا الأمر الثانى، أى القتل. لا، ربما، لأن الرغبة فى قتل الرسول ﷺ كانت تعوزهم، وإنما لأنهم، بعد أن فكروا فى قتله، عدلوا عن هذه الفكرة، أو لأنهم، بعد أن حاولوا قتله، فشلت محاولاتهم.

د) الآية ٣٠ من سورة التوبة لا تشير، كما يدعى النص، إلى الاجتماع الذى ذكره، بل تشير، على الأرجح، إلى سلسلة من الاجتماعات كانت قريش تناقش خلالها، منذ بداية البعثة، المشكلة التى تسبب فيها محمد ودينه بمكة، وخير الوسائل لحلها.

هـ- المشهد الذى نرى فيه مجموعة من فتية قريش ينتمون إلى كل قبائلها وبيد كل منهم سيف صارم وهم يحيطون ببيت الرسول ﷺ فى انتظار أن ينام ليقتلوه تنفيذا للقرار الذى اتخذته قريش فى اجتماعها، لم يحدث فى الحقيقة، للأسباب التى سبق ذكرها.

و) آية سورة يس: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ التى يذكر النص إن الرسول ﷺ تلاها حين خرج من بيته دون أن يراه أحد، نزلت قبل اللحظة التى يذكرها النص بمدة طويلة، وهذه الآية، على أى حال تتحدث عن مشاهد للقيامة لا تمت بصلة للظروف التى يتحدث عنها النص.

ز) قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ من سورة الطور نزلت فى الفترة المكية الأولى، وهذا شىء طبيعى، ومضمونها وارد فى كثير من آيات القرآن.

ح) من غير المعقول أن تكون قريش، بعد أن أخرجت الرسول ﷺ ، قد وعدت بتقديم مئة ناقة لمن يقبض عليه ويعيده إلى مكة. وقصّة سراقة الذى يخرج بمفرده لمطاردة محمد وأصحابه الثلاثة، الذين من المفروض أنهم كانوا بدورهم مسلحين، هى أيضا محض خرافة. على أن هذا لا يعنى أن قريشا، بعد أن أخرجت الرسول ﷺ من مكة، لم تفكر فى قتله وأنه ﷺ ، الذى لم يغب عنه الخطر الذى كان يتعرض له متى عبر حدود هذه المدينة، لم يأخذ لنفسه الحيطة ويختفى، كما يقول القرآن، مع صاحبه فى الغار.

ط) ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، لو كانوا حريصين حقا على سلامة الرسول ﷺ ، لعارضوا فى إخراجه لأن إخراجه كان من شأنه أن يبتعد به عن نطاق حمايتهم؛ وإذا كانوا، مع ذلك، قد قبلوا هذا الإخراج نزولا على ضغط قبائل قريش الأخرى ، فقد كان من واجبهم أن يحموه بعد إخراجه من مكة إلى أن يصل إلى مقصده. كذلك فإن كون الرسول ﷺ قد اختار أبا بكر رفيقا له فى رحلته ولم يختر العباس أو أيا من أفراد قبيلته هو فى الواقع قرينة على أنه لم يكن يثق فيهم، وهو ما يقوى فكرة أن هاتين القبيلتين كانتا من بين القبائل التى قررت إخراجه.

٢- هجرة المسلمين

تثير هذه الهجرة المسائل الآتية:

- هل هناك علاقة بين بيعة الحرب وهجرة المسلمين إلى مكة؟

- هل هاجر كل مسلمى مكة إلى المدينة؟

- هل أُخرج بعض مسلمى مكة؟

أ- البيعة والهجرة

«فلما أذن الله تعالى له ﷺ فى الحرب، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها. فخرجوا أرسالا». (*)

هذه الفقرة، التى وردت فى النص فى بداية حديث الهجرة إلى المدينة، توضح بجلاء أنه كان هناك «أمر» من الرسول ﷺ إلى مسلمى مكة بالهجرة إلى المدينة وأن هذا الأمر صدر، من جهة، بموجب الإذن الإلهى الذى تلقاه بالحرب، ومن جهة أخرى، بناء على تعهد «الأنصار» بنصرة المهاجرين وإيوائهم. وواقع الأمر:

١) أنه لم يكن من عادة الرسول ﷺ أن يصدر أوامر، بل كان فى جميع المناسبات يترك لكل امرىء حرية التصرف، بمقتضى آية «لا إكراه فى الدين»؛ والنص ليس فيه أبدا ما يدل على أن الرسول فرض على أحد من المسلمين تضحية أو سلوكا. ومن أمثلة ذلك أن الهجرة إلى الحبشة لم يؤمر بها، فيما يقول النص، بل نُصح بها.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٦٨.

٢) موضوع هجـرة مسلمى مكة لم يطرح إطلاقا على بـساط البحث فى اجتماع الرسول ﷺ بالحجاج الثلاثة والسبعين فى العقبة. ولم يتعهد مسلمو المدينة، فضلا عن ذلك، بشىء فيما يتعلق بهم، والشىء الوحيد الذى كان موضع بحث فى هذا الاجتـماع، من أوله لآخره، كان سلامة الرسول الشخصية.

٣) نظرا إلى أن الآيات التى تـأذن بالحرب كانت مدنـية، وإلى أنه لم تكن هناك بالتالى بيعة حرب بين النـبى ﷺ والحجاج الثلاثة والسبعين، فإن دعوى النص غير مقبولة.

على أن من المحتمـل جدا، إذا كان قد عقد مثل هـذا الاجتماع، أن يكون الرسول ﷺ، لفرط المشاق التى كان يعـانيها أصحابه المكيون فى مواجـهة الاضطهاد والمقـاطعة، قد سـأل هؤلاء الحجاج، وربما غـيرهم قبلهم، مـا إذا لم يكن بوسعهم أن يؤووا عددا من أصـحابه، وأن يكون قد بين لهم المزايا الـتى يمكن أن تتحقق لهم من وجـودهم بينهم، سواء من الناحيـة الدينية، أو من الناحيـة الاقتصادية، إذ أن هؤلاء المـهاجرين المكيين كانوا ذوى خبرة تجارية كـبيرة، وكانت لدى بعضهم رءوس أموال قد تـعود عليـهم بالخـير، وأن بعـضهم الآخـر يمثل يـدا عاملة قـليلة التكاليف.

ومن الممكن جدا أن يكون حجاج المدينة قد وعدوا، أو حتى تعهدوا، بإيواء إخوانهم المكيين وبتقديم جميـع التيسيرات الممكنة لهم للإقامة فى المدينة. وبهذا تـكون بيعة العقـبة الثانية، فى نـهاية الأمر، اتفاقـا يتعلق بهجرة بعض مسلمى مكة، لا بيعة للحرب.

ب) هل هاجر إلى المدينة كل مسلمى مكة؟

رأينا فى حديث البيعة أن مسلمى مكة كانوا «من بين مفتون فى دينه، ومن بين معذب فى أيديهم، وبين هارب فى البلاد فرارا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفى كل وجه»، ولاحظنا أن النص لم يتحدث عن فئة إضافية تتضمن مسلمى مكة الذين لم يفتنوا فى دينهم، ولم يعذبوا، ولم يفرّوا.

وقد جاء فى حديث الهجرة، من الجهة الأخرى:

- قبل هجرة الرسول إلى المدينة: «وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن، إلا على بن أبى طالب، وأبوبكر: أبى قحافة الصديق رضى الله عنهما»؟

- بعد هجرة الرسول ﷺ: «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس».

وإذا راعينا أن لفظة «المهاجرين»، فى لغة النص، لا تعنى - كما رأينا - مسلمى مكة الذين هاجروا بصفة فعلية، وإنما مسلمى مكة عموما، فإن هذين الخبرين يضيفان إلى الخبر الأول، الذى يتحدث عن فئات ثلاث هى من فتنوا، ومن عذبوا، ومن فروا، فئة من حبسوا. والخبر الأخير يختلف عن الخبر الثانى فى أنه يتحدث عن وصول المهاجرين إلى المدينة بعد وصول الرسول ﷺ، بينما يفيدنا الخبر الثانى أن الرسول، مع على وأبى بكر، كانوا آخر من تركوا مكة. لكن الخبرين الثانى والثالث يشبهان الخبر الأول فى أن الفئات التى تضمناها ذكرت على سبيل الحصر. وإذا أخذنا فى الاعتبار كل ما جاء فى الأخبار الثلاثة، لخرجنا بالملحوظة الآتية: فيما عدا الأشخاص الذين عذبوا، وحبسوا، وفروا إلى

الحبشة أو إلى المدينة أو فى كل جهة، أو الذين فتنوا، لم يبق بمكة أحد من المسلمين بعد رحيل الرسول ﷺ بوقت قصير.

وللحكم على مدى صدق هذه المعلومة الهامة، يتعين أولا معرفة عدد المهاجرين ثم، بعد ذلك، معرفة ما إذا كانت بعض عناصر السرد تؤيدها.

١) عدد المهاجرين:

المعلومات المتعلقة بمهاجرى المدينة أقل دقة بكثير من تلك التى تتعلق بمهاجرى الحبشة، الذين ذكرت أسماؤهم، بما فى ذلك أسماء النساء والأطفال، وأعدادهم بالتفصيل مع ذكر عشائرهم وقبائلهم. فقد رأينا، فيما يتعلق بمهاجرى المدينة، أن النص ذكر أسماء ٧٤ مهاجرا تحت عنوان «ذكر المهاجرين إلى المدينة»، وأن هذا الرقم لا يشمل من لحق بعمر من أهله وقومه، ولا بنى سعد بن ليث حلفاء بنى البُكَيْر، وأنه كان هناك عدد آخر من المهاجرين لم تذكر أسماؤهم. كم كان عدد المهاجرين الذين تضمهم هذه المجموعات الثلاث؟ لا أحد يدرى. على أن من المسموح به القول بأنهم لم يكونوا كثيرين وأنهم، على أى حال، كانوا أقل عددا من المهاجرين الـ ٧٤ الذين ذكرت أسماؤهم. وعلى فرض أن عددهم كان مثل عدد هؤلاء المهاجرين فإن المجموع يناهز المائة والخمسين.

٢) عناصر أخرى:

فئات المسلمين المكيين الأخرى التى لم تهاجر إلى المدينة بعد البيعة هى: من فتنوا، ومن عذبوا، والمحبوسون، والفارّون. والحاصل:

- أن النص لا يعطى أية معلومات عمن فتنوا. وهو لم يذكر سوى حالتين: حالة عَيَّاش بن أبى ربيعة، وحالة هشام بن العاص، اللذين عاد

بهما أبو جهل إلى المدينة بعد هجرتهما، بخدعة، ثم فتنا وحبسا لكنهما استطاعا أن يكسرا أغلالهما وينضما إلى إخوانهما فى المدينة. وهم على أى حال ضمن من يشملهم رقم الـ ٧٤. لكن إذا كانت هناك حالات لأشخاص فتنوا نهائيا عن دينهم، فلا يجب ، منطقيا، أن يدخلوا فى عداد المسلمين.

- ليست هناك أية معلومات عن المسلمين الذين كانوا تحت التعذيب.

- أما المسلمون الذين حبستهم قريش، فنحن لا نعرف منهم سوى ثلاثة أو أربعة، وكلهم ممن سبقت لهم الهجرة إلى الحبشة، ومنهم عياش ابن أبى ربيعة وهشام بن العاص ذاتهما.

على أن جزء النص الذى يتعلق بالفترة المدنية يخبرنا أن أبا بصير عُتْبة ابن أَسِيْد بن جارية وسبعين رجلا غيره كانوا احتبسوا بمكة استطاعوا الإفلات من الأماكن التى كانوا محتبسين فيها بعد صلح الحديبية وخرجوا إلى العيص وضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأل إلا آواهم فى المدينة (*). وهذا الخبر فى رأينا ترد عليه تحفظات مهمة (وذلك جزئيا لأنه، مثل أخبار أخرى فى الفترة المدنية، يظهر مسلمى مكة بمظهر القادرين على العنف وعلى ارتكاب أعمال مستهجنة).

- أما المسلمون الذين فروا من الحبشة (ومنهم ٢١ عادوا إلى مكة ثم هاجروا مع الرسول ﷺ)، والمسلمون الذين سبق أن فروا إلى المدينة (والذين يتجاهل النص وجودهم، باستثناء أبى سلمة وزوجه)، والمسلمون الذين فروا «فى كل وجه» (الذين يتجاهل النص كذلك

(*) السيرة، القسم الثانى ، ص ٣٢٤.

وجودهم)، فإنـهم لا يدخلون فى الحساب، إذ أنهم كـانوا خارج أرض مكة.

فإذا اعتبرنا أن المحتبسـين كان عددهم ٧٠، وإذا أضفنا إليهم - وهو تقدير واسـع جدا، إذ أن النص لم يقل عنهـم شيئا - من عـذبوا (على فرض أنهم غـير داخلين فى رقم المحتـبسين)، وقدّرنا عـددهم بثلاثين، فإن عدد المسلـمين الذين بقوا فى المدينة بعـد الهجرة اللاحقة عـلى بيعة الحرب المزعومة يكون ١٠٠ لا أكثر.

والسـؤال الآن هو : هل كان ذلك ممـكنا؟ هل من المعـقول، بعـبارة أخرى، أن الرسول ﷺ لم يتمكن، هو وأصـحابه، ومعهم القرآن الذى نزلت ثلاثة أرباعه فى مكة، فى ثلاث عشرة سنة من الدعوة، أن يقنعوا بالإسلام سوى ٢٥٠ شخصا على أقصى تقدير؟

والإجابة عن هذا الـسؤال، فى نظرى، هى أن هذا شيء غـير ممكن على الإطلاق. ذلك:

أ- أن النص هنا ، كما فى قائمة المسلمين التى أوردها فى نهاية الفترة المكية الأولى، لا يأخذ فى حسبانه المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام سرا، خشية العقـوبات التى كان يتعرض لها المسلمون عـلى يد قبائلهم أو من جانب قريش.

ب- أن حملات الدعاية ضد الرسول والإسلام، واضطهاد المسلمين، وسياسة القمع التى كانت تطبقها القبائل لمعاقبة من أسلموا ولإرهاب من يفكرون فى اعتناق الإسـلام إذا كانت قد أثنت بعضهـم عن ذلك فإنها، بما أدت إليه من حالات الاستشهـاد والبطولات، قد حفزت آخرين على الدخول فى الإسلام.

جـ- أنه فى القبائل التى أسلم عدد كبير من أفرادها، لابد أن الرؤساء كانوا يترددون فى اضطهاد أفرادها المسلمين أو نفيهم، لأن الاضطهاد والنفى كان يضعفان مركز القبيلة إزاء القبائل الأخرى الأقوى أو الأكثر عددا؛ كذلك فإن من المحتمل أن إسلام بعض سادة العشائر وأشرافها ترتبت عليه سلسلة من حالات اعتناق الإسلام فى عشائرهم.

د- بدراسة قائمة الـ ٧٤ من مسلمى مكة الذين هاجروا، يتضح الآتى:

- أن خمسة رجال فقط صحبوا معهم زوجاتهم.

- أنه كان بين الرجال الستين، الذين لم تكن معهم زوجات، رجال متزوجون مثل عثمان وجعفر اللذين هاجرا إلى الحبشة مع زوجتيهما. ولم يكن أولئك الذين لم يهاجروا إلى الحبشة، ممن لم يورد النص أية بيانات بشأنهم، عزابا كلهم. ولابد أنهم تركوا وراءهم فى مكة زوجات وأولادا. والرسول ذاته، ﷺ ، كذلك أبوبكر، تركا وراءهما بنات. وباختصار فإن جانبا من الرجال والنساء، متزوجين كانوا أم غير متزوجين، الذين رحلوا إلى المدينة قبل الرسول ﷺ أو بعده مباشرة، كانت لهم فى مكة أسر كان بعض أفرادها على الأقل مسلمين. ومن المحتمل أن عدد هؤلاء كان أكبر من عدد من هاجروا. والذى حدث هو أن إحصائية النص أسقطتهم من حسابها.

هـ- أن مسلمى المدينة، الذين كانوا لا يمثلون كل المدينة أو أغلبها، لم يكونوا يملكون الوسائل المادية التى تسمح لهم بإيواء واستضافة جميع مسلمى مكة بصفة مستمرة.

و- أن وجود عدد كبير من الرجال والنساء دون عمل فى المدينة كان من شأنه أن يثير مشكلات اجتماعية تسىء إلى الإسلام.

ز- أن الالتزامات العائليـة، والارتباط بالدار والأسرة، أو الخوف من المجهـول، كانت عوامـل لابد أنها جعـلت بعض المسلمـين فى مكة لا يتحمس لفكرة ترك مدينتهم.

ح- أن بعض المسـلمين كـانوا كذلك يرون أنـهم يخدمـون الإسلام بالبقاء فى مكة بدلا من الهجرة إلى المدينة.

٣- القرآن والهجرة :

فيما يلى بعض الآيات التى يتحدث فيها القرآن عن الهجرة:

- ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾..... ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل: ٤١ و١١٠]

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة: ٢١٨]

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾..... ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾

[الأنفال: ٧٢ و٧٤ و٧٥]

- ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحج: ٥٨]

- ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠ - ١٠١]

من مجموع هذه الآيات والآيات من ٩٧ إلى ١٠٠ فى سورة النساء يمكن استخلاص المعلومات الآتية بشأن الهجرة عموما، وبشأن هجرة مسلمى مكة بوجه خاص:

أ) دعوة القرآن المسلمين إلى الهجرة ترجع إلى الفترة المكية الثالثة (آيتا سورة النحل، وهى مكية، وترتيبها عند بلاشير ٧٥، علما بأن ترتيب سورة البقرة وهى أولى السور المدنية عنده هو ٩٣).

ب) تلبية لهذه الدعوة وبتشجيع من الرسول ﷺ، لابد أن عديدا من حالات الهجرة الفردية أو الجماعية تمت، انطلاقا من مكة ومن غيرها من مناطق الجزيرة التى كان المسلمون مضطهدين فيها، إلى المدينة، أو إلى مناطق أخرى لم يكن المسلمون يتعرضون فيها للاضطهاد.

جـ) إذا كان النص لم يتحدث عن هذه الهجرات، فمن المحتمل أن يكون باعثه لذلك هو رغبته فى إظهار يثرب بمظهر المدينة الوحيدة فى الجزيرة العربية بأكملها، التى آوت الرسول ﷺ ومسلمى مكة، ولادعاء أن لقب «الأنصار» حق خالص لأهل المدينة دون غيرهم.

د) موقف النص فى هذا الخصوص قريب الشبه بموقفه فيما يتعلق

بإسلام بعض قبائل عرب الجزيرة، فقد ضرب عنه صفحا كي يبرز ما يدعيه من تقبل أهل المدينة الذى لا يبارى للإسلام.

هـ) لو أن جميع مسلمى مكة - ومسلمى مكة وحدهم، لأنه لم يكن فى الجزيرة، طبقا للنص، مسلمين غيرهم، سوى مسلمي المدينة - هاجروا إلى المدينة مع الرسول ﷺ ، لما كانت هناك هجرات جديدة. لكن آيات القرآن التى أوردناها من سورة البقرة وسورة الأنفال وسورة النساء وسورة التوبة، التي تحث المسلمين على الهجرة تنسحب على الجزء الأكبر من الفترة المدنية، فإن سورة البقرة هى أولى السور المدنية، وسورة التوبة هى السورة قبل الأخيرة من القرآن الكريم، فى ترتيب بلاشير. وهذا دليل على أنه كان فى مكة مسلمون عندما فتحها الرسول ﷺ سنة ثمان من الهجرة (٦٣٠ م). إذن فإن المسلمين من أهل مكة، عند الهجرة، كانوا أكثر عددا بكثير من المائة الذين يستخلصون من بيانات النص.

و) المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، والذين أسقط عنهم التزام الهجرة، كانوا، على الأرجح، يحصون بالمئات.

ز) بعد أن شجع القرآن الهجرة، فى بداية الأمر، بالثناء على المهاجرين فى سبيل الله، ووعدهم بالمكافأة على هجرتهم فى الدنيا وفى الآخرة، حتى إذا قتلوا أو ماتوا فى الطريق، إذا به يجعل من الهجرة واجبا ويهدد بجهنم من نكصوا عنها بذريعة أنهم كانوا «مستضعفين فى الأرض»، وفى هذا دليل على أن مكة لم تخل تماما من مسلميها بالهجرة الناتجة عن البيعة المزعومة.

ح) وهناك دليل آخر على هذا هو أن القرآن الكريم فرض على المسلمين الذين هاجروا، وعلى من آووهم، أن ينصروا من يستنصرونهم فى الدين ممن آمنوا ولم يهاجروا.

ط) ما من شىء فى الآيات التى سقناها يسمح بالقول بأن حديث الهجرة فى القرآن وقف على مسلمى مكة، ولا بأن مسلمى المدينة وحدهم هم الذين آووا المهاجرين ونصروهم.

ى) حين تحدث القرآن الكريم فى سورة التوبة عن أهل المدينة الذين مردوا على النفاق، والذين سيعذبون مرتين ثم يردون إلى عذاب أليم، كان ذلك فى سياق الحديث عن الهجرة، ويتضح من هذه الآية أن القرآن لا يضفى جميع الفضائل على أهل المدينة قاطبة.

٤- القرآن وإخراج المسلمين:

رأينا فيما سبق أن المقدمة التى تشرح الظروف التى نزلت فيها الآيات التى تأذن للرسول ﷺ باللجوء إلى الحرب اعترفت بأن قريشا نفت بعض المسلمين عن مكة. وقد تحدث النص فى هذه الفقرة بعبارات عامة ولم يعط فيها أو فى أى موضع آخر أى مثال لأشخاص نُفُوا أو أخرجوا من هذه البلدة بسبب دينهم.

أما القرآن، فقد أولى هذه المسألة اهتماما كبيرا تشهد به آيات مثل:

- ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)** ﴾

[البقرة: ٢١٧]

- ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]

- ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

[الحشر: ٨]

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ ..... ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ١و٨و٩]

- ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

[التوبة: ١٣]

ومن جملة هذه الآيات ومما جاء فى النص، يمكن استخلاص المعطيات الآتية، فيما يتعلق بإخراج المسلمين:

أ) هذه الظاهرة، التى خصص لها النص أقل من سطر، كانت من الأهمية بحيث أشار إليها القرآن الكريم فى عدة سور تشمل الجانب

الأكبر من الفترة المدنية، إذ أن أولاها هى أولى السور المدنية، وأخراها هى سورة القرآن قبل الأخيرة.

ب) إحدى الآيات تتحدث عن «المسجد الحرام وإخراج أهله منه» وهؤلاء «الأهل» لايمكن أن يكونوا سوى الرسول ﷺ وللمسلمين. والحاصل أن النص لا يتحدث أبدا عن هذا الإخراج، بل إنه، على العكس، جعل من المسجد الحرام المكان الذى ظهر فيه الرسول أكبر عدد من المرات. أما المسلمون فإن قصة إسلام عمر يفهم منها أنه كان محظورا عليهم الصلاة فى المسجد، لا أن يدخلوه، لكنهم، على أى حال، استطاعوا أن يصلُّوا فيه، دون عائق، بعد إسلام عمر.

جـ) سبب اخراج الرسول والمسلمين، كما يذكره القرآن، هو مجرد كونهم آمنوا بالله ربهم.

د) تدابير الإخراج الفردية ضد المسلمين اتخذت شكلين: الإخراج من الديار والإخراج من الأموال، أى المصادرة.

هـ)-لابد أن حالات الإخراج كانت مفجعة لدرجة أنها اعتبرت، كوسيلة من وسائل الاضطهاد، أكبر من القتل.

و) ليس فى القرآن ما يفهم منه أن قريشا كانوا وحدهم هم الذين يخرجون مسلميهم.

ز- تتحدث الآية ١٣ من سورة التوبة عن أيمان نكث بها الكفار فَهَمُّوا بإخراج الرسول ﷺ . والنص لا يعطى أى تفسير لهذه النقطة الهامة.

ح) إخراج الرسول ﷺ ، والهجوم المتكرر على المسلمين، تعتبر فى الآية ذاتها حالة تبرر حرب المشركين (الذين تقول عنهم سورة البقرة إنهم لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم).

ط) الآيتان ٨ و٩ من سورة الممتحنة تقرران مبدأ أن من غير المحظور على المسلمين أن يبروا من لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم، وأن يقسطوا إليهم، وأن المحظور فقط هو تولّى من قاتلوهم فى الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم. وهذا الحكم، على الرغم من تأخر نزوله، وكذلك ما تنص عليه الآية ٧٢ من سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ (*) فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ يختلفان فى روحهما عن الإدانة الجماعية التى يوجهها النص ضد قريش فى شرح الظروف المؤدية إلى نزول الآيات التى أذن لمحمد ﷺ فيها بالقتال.

جيم. النتيجة

فى حديث الهجرة إلى المدينة ثلاث من السمات التى سجلتها فى حديث الفترات السابقة، هى : التلاعب بالقرآن، والتزييف والاختلاق، وأخيرا الإغفال. وسأتعرض فيما يلى لكل سمة من هذه السمات.

١- التلاعب بالقرآن:

الاستشهادات القرآنية التى وردت فى حديث الهجرة قليلة، وتتحصل فيما يأتى:

- الآيات من ١ إلى ٨ من سورة يس، وفيها قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ التى تلاها الرسول ﷺ وهو يخرج من بيته ليلا دون أن يراه الفتية القريشيون الذين كانوا يحاصرون بيته لقتله.

(*) المقصود بهم الذين آمنوا ولم يهاجروا.

- الآية ٣٠ من سورة الأنفـال. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ التى يقـول النص إنهـا نزلت بمناسبة خطة قتل الرسول ﷺ.

- الآية ٣٠ مـن سورة الـطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾.

وقد سبق أن أوضحت أن هذه الآيات نزلت فى مناسبات تختلف عن تلك التى ذكرها النص، وأن آخر قرار اتخذته قريش حيال الرسول ﷺ، على أية حال، لم يكن قتل الرســول بل إخراجه. هذه إذن حالات ثبت فيها التلاعب.

لكن الأخـطر من هذا هو عـدم الإشـارة فى النص إلى الآيـات التى ذكرتهـا، التى تتصل بالمادة قـيد البحث، أى إخـراج الرسول ﷺ، من جهة، وهجرة المسـلمين وإخراجهم، من جهة أخـرى. وإغفال ذكر هذه الآيات على الرغـم من عددها وأهمـيتهـا لايمكن أن يكون قـد حدث مصـادفة أو دون قصـد، بل هو إغفـال متعـمد، وهذا أيضـا شكل من أشكال التلاعب بالقرآن لا يقل خطورة عما رأينـاه فى حالتى بيعة العقبة الأولى والثانية.

وكما سبق أن لاحظت، فإن التلاعب بـالقرآن خلال هذه الفترة المكية الخامسـة - التى جعل منها النص، من النـاحية العملية، أولـى الفترات المدنيـة- أوضح مـن ذلك الذى لاحظـته فـى حديث الـفتـرة الثـالثـة باقتباسـاتها القرآنية الأربعين. وفى الإمكـان إرجاع هذا التلاعب، الذى يمكن تسميته بالتلاعب السلبى، إلى الأسباب الآتية:

أ) القرآن الـكريم لا يتحـيز لأهل المدينة تحـيز مـؤلف النص. إنه لا يطلـق اسم «الأنصـار» إلا على الأنصـار ولا يزكى إلا من نصـروا الله

ورسوله ﷺ والمهاجرين؛ وهو لا يصور مسلمى المدينة، فى مجموعهم، باللون الأبيض، ولا قريشا، فى مجموعهم ، باللون الأسود، بل إنه ينسب إلى المدينة وجود نسبة من المنافقين بين أهلها المسلمين لم يشر إلى مثلها فى مكة، على الرغم من كل السوء الذى يذكره النص عن أهلها.

ب) القرآن يزكى المهاجرين ويعدهم بالجزاء الأوفى، وهو يقول إن هؤلاء المهاجرين «يرجون رحمة الله»، وأن الله تعالى سيرزقهم رزقا حسنا، وأنه تعالى يبوئهم فى الدنيا حسنة وبأجر أكبر فى الآخرة، وأن الله يغفر لهم ويرحمهم. وعلى الرغم من أن الأنصار - الحقيقيين - حظوا بدورهم بجزء من التزكية فى قوله تعالى: ﴿والسَّابِقُون الأوَّلُون من المهاجرين والأنصار. . رَضِى الله عنهم﴾، فلابد أن هذا الجزء بدا لمؤلف النص متواضعا جدا بالنسبة لرجال كانوا، فى زعمه، الفيصل بين هزيمة الإسلام ونصره وأصحاب الفضل الوحيدين فى خلق الظروف التى هيأت سبل هذا النصر.

ج) القرآن الكريم يخصص عدة آيات لمسلمى مكة الذين أخرجوا من ديارهم ومن أموالهم، وهو يعتبر اضطهادهم أشد من القتل، لكن النص عَمَّى على عملهم، وذلك لأن بطولتهم، وتفانيهم لدينهم ومصيرهم المفجع قد تقلل من شأن نفر من الشخصيات المدنية التى قدمها. ولم يخصص النص لهؤلاء المسلمين غير جملتين قصيرتين لا يجاوز طولهما سطرا واحدا فى فقرة تهاجم القرشيين هجوما ضاريا.

د) القرآن الكريم، حين تحدث عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، تحدث فى عبارات عامة ولم يقل إن الجناة كانوا من قريش وحدها، الأمر الذى يسمح بتصور أن بعض حالات الإخراج حدثت أيضا فى المدينة، وهو احتمال طبيعى للغاية حرص النص حرصا شديدا

على استبعاده بتقديم دعوى انــتشار الإسلام فى هذه البلدة بصورة ناعمة وعامة وسريعة، وهى دعوى غير معقولة.

هـ) القرآن الكريم يصور رحيل الرسول ﷺ عن مكة تصويرا يختلف تماما عن ذلك الذى يقـدمه النص. فهو، أولا، لا يتحدث، بـالنسبة له ﷺ ، عن هجرة وإنما عن إخراج. ثم إنه لا يـنشىء أية علاقة بين هذا الرحيل وبيعة الحرب التى اختلقها مؤلف النص اختلاقا. وهو أخيرا خَالٍ من أى ذكر لقصص المعجزات التى أوردها النص تأييدا لبنائه المصطنع.

و) القــرآن الكريم لا يقيــم كذلك أية عــلاقة بين البــيعــة - التى لم يذكرها بكلمة - وبين هجرة مسلمى مكة.

ز) القــرآن الكريم، بالآيات التــى تحث المسلميــن على الهجــرة، بل وتفرضهــا كواجب، يهدر دعوى الــنص التى مؤداها أن جميــع مسلمى مكة قد هاجروا مع الرسول ﷺ ، كما يهدر الدعوى الأخرى التى تقول إن هؤلاء المسلمين كانوا «قليلا مستضعفين».

ح) القــرآن الكريم، لأنه لم يــقل إن مكة هى المدينــة الوحيــدة التى هاجر منــها المسلمون، وأن يثــرب هى المدينة الوحــيدة التى هاجر إليــها المسلمون، ترك الباب مفتوحا لاحتمــال وجود محاور أخرى للهجرة غير محور مــكـة / المدينة، الذى يحصــر النص فيه تاريخ الإســلام كله فى الفــترة المكيــة والذى سعــى عن طريقه إلــى إثبات أن لأهل المــدينة حق الأولوية على منجزات هذا الدين.

ط) فالقرآن، فى كلمة، يحطم كل البناء الذى جهد النص فى تشييده بصدد هجرة الــرسول ﷺ والمسلمين، تمجيــدا لأهل المدينة، وكذلك - عن طريق إقحام العباس فى قصة البيعة - تمجيدا لبنى العباس.

٢- التزييف والاختلاق :

حقيقة أن بيعة الحرب بين الرسول ﷺ وحجاج المدينة الثلاثة والسبعين، التي يقدمها النص على أنها العامل الذى يكمن وراء هجرة الرسول وهجرة مسلمى مكة، لم يكن لها وجود قط، تلغى الصلة التى أراد النص أن ينشئها بين هذه البيعة والهجرة. ويترتب على ذلك أن عرض النص للظروف التى أدت إلى حدوث هاتين الهجرتين لا يعكس الحقيقة التاريخية، ويدل على الاختلاق والتزييف. اختلاق وتزييف يؤكدهما، فيما يتعلق بهجرة الرسول ﷺ ، أن القرآن حين يتحدث عن إخراج الرسول يعرض الأمور عرضا مختلفا يوحى بأن الرسول ﷺ كان يريد البقاء فى مكة، البلد الذى بنى إبراهيم فيه الكعبة، مع ابنه إسماعيل، إجلالا لله تعالى، ولكى تظل، إلى آخر الزمن، مركزا للحج يقدم الناس فيه الأضحية ويتنسكون لله تعالى. ويفهم من عرض القرآن أيضا أن قريشا، الذين أعجزهم أن يقتلوا الرسول ﷺ ، أو الذين لم يريدوا أن يقتلوه، اختاروا أن يحلوا مشكلتهم معه بحظر إقامته على أرض مكة.

ما الذى جعلهم يتخذون هذا القرار؟

ربما ليتفادوا حدوث ثورة دامية فى مكة من جانب المسلمين لو أن نبيهم قتل؛ وربما لكى يتفادوا تعريض مصالح مكة، أرض السلام، والحج والتجارة، للخطر بقتل أعظم رجالها.

وربما لأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، رغم عدائهم لدين محمد وخشيتهم من أبى لهب، عارضوا فى قتل محمد ﷺ .

ومن المحتمل ، أخيرا، أن يكون الذى أوحى لقريش بهذا الحل هو نجاح سياسة إخراج المسلمين التى اتبعتها القبائل المختلفة. فالاحتمالات عديدة.

ومهما يكن من أمر، ففى الإمكان أن نقول إن قرار الإخراج هذا كان قرارا حكيما فى الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت. والأمثلة على مثل هذا الحل بالنسبة للزعماء الروحيين، والرؤساء الوطنيين أو السياسيين أو المفكرين، أو المصلحين كثيرة فى تاريخ جميع البلاد.

والظاهر أن آيات القرآن التى تتحدث عن إخراج الرسول كانت تعوق رغبة المؤلف فى استغلال عملية انتقاله ﷺ من مكة إلى المدينة لمنح مسلمى المدينة فضلا لم يستحقوه. وهذا هو ، فيما يبدو، السبب الذى جعل المؤلف يتجاهل هذه الآيات ويبتدع مكانها دعواه والأحداث التى تتصل بها. وقد لجأ لتأييد هذه الدعوى الى حيلتين:

أ) سوق آيات قرآنية غير تلك التى تتعلق بالهجرة والإخراج على وجه التحديد.

ب- الالتجاء إلى عنصر ما وراء الطبيعة، هذا العنصر الذى سبق له استخدامه ليرسم صورة لعبد المطلب لا تمت إلى الواقع بصلة، ثم فى عدة مناسبات، خلال الفترة الثالثة، حين أعمى الله عنه بصر أم جميل زوجة أبى لهب، التى أرادت أن تلقى عليه فهرا من حجارة؛ وعندما منع أبوجهل من تحطيم رأس الرسول ﷺ فى المسجد بظهور جمل مخيف؛ وعندما وجد أبوجهل نفسه، حين فتح باب بيته للرسول ﷺ ، الذى ذهب إليه بصحبة رجل يريد أن يقتضى دَيْنَه، وجها لوجه مع جمل مرعب؛ وحين تسبب الرسول ﷺ ، وجبريل الى جواره، فى مصرع أربعة من خصومه القريشيين بمجرد إشارة من يده؛ وأخيرا، بعد عقد بيعة العقبة، عندما صرخ أزبّ بن أُزَيْب، شيطان العقبة، ليبلغ حجاج مكة أن الرسول ﷺ قد عقد العزم على حربهم.

وفى رواية هجرة الرسول ﷺ ، استخـدم المؤلف هذا العنصر بصورة مكثفـة، فالنص يتحدث أولا عن اشـتراك إبليس شخصـيا فى مداولات قريش بشأن محـمد ويجعل له الكلمة الأخيرة فى الخـيارات المعروضة؛ وهو يجعل جبـريل عليه السلام يتدخل فى العـملية فيشير علـى محمد ﷺ بألا يقضى الليل فى فراشه المعتاد؛ وهو يخرج الرسول ﷺ من بيته دون أن يراه فتية قـريش الذين كانوا ينتظرون أن ينام لكى ينقـضُّوا عليه ويقتلوه، بجـعلهم فى حالـة تنويم ،وينثر بـعض التراب على رأس كل منهم؛ وهو يجعل رجلا غير مـرئى من الجن يسير فى شوارع مكة، بعد ثلاثة أيـام من خروج الرسـول وهو ينـشد ثلاثة أبـيات يفـهم منهـا أن الرسول متجه نحو المدينة؛ وهو أخيرا، فى قصة تستغرق صفحة كاملة، يروى حكاية سُراقة بن جَشْعَم الـذى اقتفى أثر الرسول وأبى بكر ومولاه والدليل، ليـفوز بجـائزة الناقات المـائة التى جعلـتها قـريش لمن يأتيـها بمحمد، لكن سعـيه خاب لمعجزة منعته من الوصـول إليهم. وحشد كل هذه الأعاجيـب التى لا يؤيدها القرآن فى المساحـة الصغيرة التى تحـتلها قصة الهجرة نموذج من نماذج الاختلاق.

أما فى قصة هـجرة مسلمى مكة، فإن التزييـف يمس أمرين سبق أن تعرضت لهما هما:

- الصلة الكاذبة التى ربط بها النص بين الهجرة والبيعة.

- دعوى أن جـميع مسـلمى مكة هاجروا مـع الرسول عليـه الصلاة والسلام.

٣- الإغفال والفراغات:

هذا الإغـفال وهذه الفـراغات تـشوب مـسألتى الإخـراج والهـجرة كلتيهما.

أ) الإخراج :

من فصل الإخراج الكبير الذى فتحه القرآن الكريم، لا يحتوى النص إلا على جزء من جملة تقول إن قريشا «نفوهم من بلادهم» وإنهم «عذبوا ونفوا مَنْ عَبَدَه وَوَحَّدَه وصدَّق نبيَّه واعتصم بدينه». والفراغات فى هذا الفصل تتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام، وبمسلمى مكة، وبمسلمى المدينة، وأخيرا، بسكان الجزيرة الآخرين.

١) الرسول :

النص، وقد تحدث عن سفر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة باعتباره هجرة طوعية ، لا يقول شيئا، كما هو منطقى، عن العملية التى انتهت بإخراج الرسول، ولا عن ظروف هذا الإخراج. وكم كان بودنا أن نعرف من الذى قرر إخراجه ﷺ : قبيلته، أو مجلس «حكومة» قريش؟ ومن الذى كان يؤيد هذا القرار، ومن الذى كان يعارضه؛ وما إذا كان الرسول ﷺ قد تلقى تكليفا بمغادرة أرض مكة فورا بأمر من السلطة، أى مجموع القبائل، أو أن الخيار ترك له بين العدول عن دعوته وبين النفى، وماذا كانت ردود الفعل التى أثارها قرار الإخراج عند بنى عبدالمطلب وبنى هاشم (إذا لم يكونوا هم الذين أصدروه)، وعند أهل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أى بناته وابنه بالتبنى زيد بن حارثة (الذين خلا منهم حديث النص عن بيت النبى ولم يذكر سوى علىّ)، وماذا كانت ردود فعل قرار الإخراج عند الصحابة؟ وهل كان منهم من ثار لهذا الإجراء ومن اقترح مقاومة إخراج الرسول بالسلاح، أم أنهم قبلوا الأمر الواقع؟ وماذا كان بالذات رد فعل عمر وحمزة إزاء هذا القرار؟ وهل ترك الرسول ﷺ أصحابه يخرجون قبله، كما تقول إحدى روايتى النص، على ما فى ذلك من تعرض لخطر قريش، أم أنه سبقهم إلى الهجرة، وهل لم يكن من بينهم من عرض اصطحابه

لحمايته؟ وماذا كانت ردود فعل أعدائه ، أشراف قريش الذين كانوا يسخرون منه فى المسجد وغيرهم؟، إلخ، إلخ.

٢) مسلمو مكة:

من الغريب أن النص انتظر حتى نهاية الفترة الخامسة ليتحدث عن ظاهرة فى أهمية ظاهرة إخراج المسلمين. وكما قلت بصدد الهجرة إلى الحبشة، التى يمكن تسميتها أيضا بالإخراج، أو الإبعاد، كان هذا الإخراج أقصى عقوبة يمكن إنزالها بأى شخص فى إطار النظام القبلى، فإن القبيلة التى كانت تقطع علاقتها بأحد أعضائها وتخرجه من كنفها ومن أرضها (وهو ما كان يعرف عند العرب بالخلع) كانت فى الواقع تجعله طريدا وتسلمه، بيدين وقدمين مغلولتين، لكل مخاطر الحياة.

وقد أسلفت أيضا أن فى تحدث القرآن عن إخراج المسلمين دلالة على أنه كان ظاهرة متفشية. والفراغ الذى يلاحظ فى النص بشأن هذه الظاهرة يشبه ذلك الذى لاحظته فيما يتعلق باضطهاد المسلمين وتعذيبهم فى مكة، اللذين لم يذكرهما النص إلا فى سطرين واللذين لم يصورهما إلا بمثلين أو ثلاثة أمثلة مر عليها النص مرورا سريعا: مَثَل بلال بن رباح، الذى كان عبدا رقيقا، ومثل ثلاثة أفراد من أسرة ياسر كانوا حلفاء، لا أفرادا، لإحدى عشائر قريش.

لقد كان مصير مسلمى مكة الذين أخرجوا، لاسيما فى السنوات الأولى من الدعوة ، قبل أن تتكون جماعات مسلمة صغيرة فى مناطق أخرى من الجزيرة بوسعها أن تؤويهم، ولاشك ، مصيرا مفجعا، بل ربما كان أسوأ من مصير من اضطهدوا وعذبوا، فإن الاضطهاد والتعذيب الجسدى عمليتان مؤقتتان فى معظم الحالات. أما الإخراج فهو عادة طويل الأمد. وإذا كان التعذيب قد أسفر، كما فى حالة أم ياسر، عن

موت من تعرض له، فإن هذا الاحتمال قائم أيضا بالنسبة لمن تطبق عليهم عقوبة الإخراج. كم كان عدد المسلمين الذين أخرجتهم قريش، بما فى ذلك، على الأرجح، قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم؟ ماذا كانت أسماؤهم؟ فى أى ظروف أخرجوا؟ ما الذى حدث لأزواجهم وأبنائهم؟ ماذا كان مصيرهم هم؟ هل وصلت بعض أخبارهم أم أنهم اختفوا كلية؟ هل أُسر بعضهم وبيعوا كرقيق؟ هل وقع بعضهم فى أيدى أعداء لدينهم فعذبوا أو قتلوا؟ هل وجد بعضهم ملاذا لدى قبائل غير مكية أو لدى أفراد مسلمين من قبائلهم ؟ هل استطاعوا أن يبقوا على اتصال بالرسول ﷺ أو ببعض أصحابهم أو بأفراد من أسرهم؟

النص لا يقول شيئا عن هذه الأمور. بل إنه لا يذكر مثلين أو ثلاثا لمسلمين أخرجتهم قبائلهم كمثلى بلال وأسرة ياسر لحالات التعذيب، ثم إنه حوّل إلى هجرة - وأستطيع أن أقول هذا الآن بمزيد من الاطمئنان - عملية إبعاد ٨٣ من المسلمين إلى الحبشة دون أن يخشى أن يقلل الأحباش - الذين لم يسلم منهم أحد سوى النجاشى - بأية صورة من الصور ،من فضل أهل المدينة فيما يتعلق بإسلامهم ولا بالنصرة والحماية التى قدموها للمسلمين.

وصَمْتُ النص عن حالات الإخراج من التمام، وإشارته إلى الإخراج كظاهرة من الاقتضاب بحيث يظن المرء أن مؤلف النص لم يتحدث عنه إلا ليذم قريشا. وإذا قارنا الحيز الذى خصصه له النص ١٢ كلمة تغطى فى حقيقة الأمر عشرات أو ربما مئات من حالات إخراج المسلمين المأساوية - بالعشرين سطرا التى تغطى حالة وهمية هى قبض قريش على سعد بن عبادة ثم إطلاق سراحه، بعد عقد بيعة العقبة الثانية، لتبينت لنا علامة، يؤكدها العديد من العلامات الأخرى، على الاستراتيجية التى اتبعها مؤلف النص للغض من شأن مسلمى مكة ورفع

شأن مسلمى المدينة. ويمكن تلخيص هذه الاستراتيجية فى النقاط الآتية:

- إدانة قريش كلها فى عبارات عامة.

- بذل كل جهد ممكن لإخفاء شهدائهم وأبطالهم من المسلمين ومن كانوا منهم ضحية للاضطهاد.

- إذا مس القريشيون مدنيا بأذى ، تضخيم العملية إلى أقصى حد وتحديد هوية من مسّه الأذى.

- إذا لم يكن هناك من حدث له ذلك، اختلاق حادثة.

- لا يجب أن يكون هناك عظماء بين مسلمى قريش، إلا فى قبيلة الخليفة العباسى.

- جعل أهل المدينة يظهرون بمظهر الكمال وتحديد ساداتهم وأشرافهم بالاسم.

- إسباغ أبعاد تفخيمية على هؤلاء السادة.

- إذا اقتضى الأمر، جعل الرسول ﷺ يقول كلاما لم يقله، ولسان حالهم يقول: «سيغتفر لنا ذلك، لأننا نحن حزبه لا الآخرون. كذلك فإن كل ما نسعى إليه إنما هو إظهار الحقيقة التى زيفها معاوية وأعوانه من قريش، وقد فعل ذلك أعداؤنا، أى أعداء الإسلام، وفعلوه بمغالاة شديدة».

٣) مسلمو المدينة :

رأينا أن الدعوى المثالية التى يصور بها النص تقدم الإسلام فى المدينة لا تقف على قدميها. ورأينا كذلك أن موقف مشركى المدينة حيال الإسلام والمسلمين لم يكن، غالبا، فى التحليل الأخير، مختلفا عن

موقف مشركى مكة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن المعاملة التى عاملوا بها من اعتنقوا الإسلام من أفراد عشائرهم لم تكن، على الأرجح، تختلف كثيرا عن معاملة قريش لمسلميها. ولابد لذلك أن مسلمى المدينة تعرضوا على مدى سنوات عديدة لما تعرض له مسلمو مكة من ألوان الكذب والاضطهاد والتعذيب.

وحين تحدث القرآن عن إخراج المؤمنين، فإن ذلك كان ينسحب أيضا على مسلمى المدينة. ولابد أن من أخرجوا من المدينة كانوا بدورهم يحصون بالعشرات أو بالمئات. لقد كان تغير الديانة أو الإيديولوجية أو النظم أو المبادىء الكبرى فى المجتمعات البشرية يقترن دائما بالاضطهاد والتنكيل. والمقدسات لا يجب أن تمس ومن يمسونها يدفعون دائما ثمنا باهظا لقاء هرطقتهم. والحاصل، أن النص لم يسق سببا واحدا معقولا لكون المدينة قد خرجت على هذه القاعدة.

وقد يتساءل المرء عن السبب الذى جعل مؤلف النص لا يحاول استغلال اضطهاد مسلمى المدينة وإخراجهم على يد مشركى هذه البلدة لإبرار كفاحهم من أجل إعلاء كلمة الإسلام. لماذا لم يحاول أن يثبت أنهم عانوا فى سبيل دينهم مثل ما عانى، أو أكثر مما عانى، إخوانهم المكيون، وأن أبطالهم فى مواجهة المشركين كانوا أعظم وأكبر عددا من أبطال مكة؟

فى الإمكان الإجابة عن هذه الأسئلة، أولا، بأن ذلك كان يقتضى الحديث عن شهداء القرشيين وأبطالهم، الأمر الذى كان يتعين تفاديه مهما كان الثمن. كذلك فإن هذا الاختلاف فى الدرجة لم يكن يكفى مؤلف النص وكان لا يحقق الفكرة التى كان يريد أن يعطيها عن أهل المدينة وعن قريش فى كتابه : فكرة أن أهل المدينة كانوا يمثلون اللون

الأبيض، وأن القرشيين كانوا يمثلون اللون الأسود، أن أهل المدينة يمثلون الخير وأن قريشا يمثلون الشر، أن أهل المدينة ملائكة وقريشا شياطين؛ ولابد أنه كان يخشى أن يكون فى اعترافه بوجود حالات من الإخراج عند أهل المدينة ما ينقض دعوى أن الإسلام عرف فيها نجاحا لم يعرفه فى أى مكان آخر، وأن هذا ، فضلا على بيعة الحرب التى أظهروا فيها استعدادهم للتضحية بأموالهم ورؤسائهم من أجل الرسول ﷺ ، كان يخولهم الحق، كل الحق، فى دعوى نصرة الرسول ونصرة دينهم. وموقف المؤلف فى هذا الصدد هو موقفه ذاته حيال الأبطال العظماء الثلاثة: على وجعفر وحمزة، من بنى عبدالمطلب. لقد أغفل النص أسباب عظمتهم الحقيقية، أى قدرتهم على تحدى قبيلتهم والمعاناة التى لابد أنهم عانوها فى هذا السبيل خلال أعوام، لئلا يقلل من بهاء الصورة التى أراد أن يصور بها بنى عبدالمطلب وبنى هاشم باعتبارهم حماة ومدافعين عن الرسول ﷺ ، وعن الإسلام بالتالى.

٤) سائر المسلمين :

ليس هناك، عند النص، مسلمون غير مسلمى مكة والمدينة. وهذا هو التأكيد الذى يتضح من حديثه عن الفترة الرابعة. وما دامت كل القبائل قد رفضت الإسلام، فإن مسألة اضطهادها للمسلمين وإخراجهم لم تكن واردة عنده بالنسبة لهم.

وهذه الدعوى، كما أوضحت فيما سبق، لايمكن قبولها. ولابد أن عربا آخرين قد اعتنقوا الإسلام ،كما حدث فى مكة وفى المدينة. والحج السنوى والعمرة، والاتصالات التجارية والأسرية وغيرها بين القبائل ومكة، وكذلك الاتصالات فيما بين القبائل، لابد أنها ساعدت، منذ بداية البعثة المحمدية، على انتشار ما نزل من القرآن ومبادىء الإسلام

على نطاق واسع. ولما كان مجموع أفراد هذه القبائل أكبر عدديا بكثير من سكان مكة والمدينة، فإن من الراجح أن عدد مسلميها كان أكبر بكثير من عدد مسلمى هاتين المدينتين.

وفى الإمكان، تأييدا لهذا الاحتمال، أن نذكر بيانين يقدمهما النص عن التطورات العسكرية التى حدثت فى الفترة المدنية:

- بيان يخص غزوة الخندق، التى حدثت سنة خمس من الهجرة (٦٢٧م)، يتضح منه أن مكة تحالفت مع اليهود والقبائل العربية المناهضة للإسلام ضد الرسول ﷺ والمسلمين الذين كانوا معه فى المدينة. وطبقا لهذا البيان فإن قريشا لم تستطع أن تتحالف فى هذه الغزوة إلا مع قبيلة واحدة غير يهودية هى غطفان(*). وهذا يسمح بالقول بأن القبائل العربية الأخرى رفضت الاشتراك مع مكة، ذات الحول والطول، فى حربها ضد محمد، هذه الحرب التى كانت بشائرها تدل على أنها ستحرز فيها نصرا مؤزرا فى لحظة بدا فيها المسلمون، الذين هزمتهم قبلها بعامين فى غزوة أحد، فى حالة شديدة من الضعف العسكرى. ومن المحتمل جدا أن هذا الرفض كان يرجع إلى أن هذه القبائل كانت قد أسلمت إلى حد كبير أو أنها كانت ، على الأقل، قريبة من الإسلام.

- بيان يتعلق بفتح مكة يتضح منه أن جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف من مهاجرى قريش ومن مسلمى المدينة ومن قبائل العرب المختلفة، أى أكثر من ثلاثة أمثال عدد المهاجرين والأنصار الذين اشتركوا فى غزوة الخندق والذين كان عددهم ثلاثة آلاف.

وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعى أن تكون ظاهرة الاضطهاد

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٢١٥.

والتعذيب والإخـراج التى حدثت فى مكة والمدينة قد حـدثت أيضا لدى بعض، أو ربما غـالبية، هذه القـبائل فى الفـترة المكية، عـلى أساس أن الأسباب نفسها تؤدى إلى النتائج نفسها.

وخلاصة القول هى أن النص لم يقل شـيئا عن إخراج الرسول ﷺ. لكن أهم مـن ذلك أن المؤلف، وقد أعـمتـه حزازاته، لم يصـف مدى الآلام الجسـدية والمعنـوية الناتجة عـن تدابير الاضـطهاد والإخـراج التى فرضها الكفار ضد مسلمى مكة والمدينة وأقاليم الجزيرة الأخرى.

ب) الهجرة:

لم يكن هناك، من وجهة نظر النص، سوى هجرتين: هجرة ٨٣ من مسلمـى مكة إلى الحبشـة، وهجرة جزء من هؤلاء، بعـد أن عادوا إلى مكة، وسائر مـسلمى هذه البلدة، إلى المدينة. وما كـان يمكن أن يكون الأمر غـير ذلـك إذ أن محـمدا ﷺ لم يكـن له ، عند مـؤلف النص، تابعـون خارج مـكة فيـما عـدا من اتبـعوه فـى المدينة خـلال السنتـين الأخيرتين من الفـترة المكية. وقد رأينا أن الأمر لم يكـن كذلك عنـدما حدثت الهجرة الكبرى إلى المدينة. وفـى الوسع أن نقول إن جميع قبائل العرب لم ترفض الإسلام، وأنه كان من بينها من استجاب لدعوته، وأن من عرب البادية الذين أتيحت لهم الفرصة، أثناء مواسم الحج والعمرة، والزيارات التى كانوا يقومون بها لمكة للتـجارة أو لأسباب خاصة، للقاء الرسول أو أحد أصحابه، من أسلموا وأنهم، بعد أن عادوا إلى بلادهم، أدخلوا فى دينهم أشخاصا أو عشرات الأشـخاص من أفراد قبائلهم على نحو ما فعل الطُّفَيْل بن عـمرو الدَّوْسى الذى يتحدث عنه النص. ولابد أن اجتمـاعات عقدت بين الرسـول ﷺ وحجاج المسلمـين الوافدين من جهات متعاطفة مع الإسلام، طلب منهم فيها أن يؤووا نفرا من المسلمين الذين اضطهدتهم قبائلهم أو التى كـانت قبائلهم توشك على إخراجهم،

وحصل على موافقتهم فى هذا الشأن. كذلك فليس هناك ما يمنع أن نتصور أن الرسول ﷺ قام بالمسعى ذاته لإيواء مسلمين تعرضوا للاضطهاد أو للإخراج خارج مكة. ومن الجائز أن بعض القبائل التى أسلمت، أو التى كانت متعاطفة مع الإسلام، كانت ملاذا للمسلمين من المكيين ومن غيرهم، الذين كانوا يفدون إليها أحيانا مع أسرهم، ومعهم رءوس أموال من نقد أو مواشى، أو بلا أموال.

ومن الجائز أن هذه الهجرات تم تمويلها من بعض التجار المسلمين الذين تمكنوا من مقاومة المقاطعة التى قررتها قريش ضدهم، أو من تبرعات قدمها مسلمون آخرون. ومن الممكن أن تكون شبكة من مراكز استقبال المهاجرين قد أنشئت على هذا النحو فى مناطق مختلفة من الجزيرة، وأن تكون الأخوّة الإسلامية قد أشركت فى تنظيم جهد تضامنى على مستوى الجزيرة العربية أو أجزاء متفرقة منها.

ولابد أن مصير هؤلاء المهاجرين كان من الشواغل الدائمة للرسول ﷺ ولصحابته فى مكة وللمسلمين فى كل مكان. ولابد أن المسلمين، أينما وجدوا، كانوا يدعون إلى إغاثة من يقول الله تعالى فى حقهم:

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾..... ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل ٤١ و١١٠]

ولابد أن الرسول ﷺ شرح لمسلمى القبائل كلها أن المساعدة التى يقدمونها لهؤلاء المهاجرين، والاستقبال الحسن الذى يستقبلونهم به تُعدُّ عند الله من أعمال الخير التى سيجزون عنها فى الآخرة أفضل الجزاء.

وإلى جانب هذه الهجرة المنظمة التى تتناول أشخاصا عديدين، لابد أنه كانت هناك أيضا هجرة فردية لجأ فيها المسلمون الهاربون من الاضطهاد إلى أقاربهم بالدم، أو إلى أصهارهم، أو إلى أصدقاء فى غير قبائلهم.

ولابد أنه كان هناك أيضا مسلمون استقبلتهم قبائل عربية لصفاتهم الشخصية أو لمهاراتهم أو لعلاقات كانت تلك القبائل - التى لم تكن بالضرورة مسلمة - تستفيد منها.

وإذا سلمنا بأن الإسلام قد امتد إلى مناطق عديدة فى الجزيرة خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى من ظهوره، وأن بعض القبائل التى كانت تعيش فى هذه المناطق كانت تعاديه وتضطهد المسلمين وتخرجهم أو تضطرهم إلى الهجرة، وأن بعضها الآخر قبل رسالته ووفر الملجأ والمساعدة لمن أخرجوا ومن هاجروا - واستحق بهذه الصفة لقب «الأنصار» شأنهم فى ذلك شأن إخوانهم فى المدينة - فإن الهجرات التى يرجح أنها حدثت والتى تركها النص مع ذلك فى منطقة الظل، كانت:

- هجرة مسلمى مكة إلى المدينة خلال السنوات الإحدى عشرة الأولى من الدعوة.

- هجرة بعض مسلمى المدينة الذين هاجروا، شأن المهاجرين - الأنصاريين الثلاثة الذين وردت أسماؤهم فى قائمة حجاج البيعة الثانية، إلى مكة أو إلى مناطق أخرى من الجزيرة.

- هجرة المسلمين الذين لم يكونوا مكيين ولا مدنيين إلى مكة أو إلى المدينة أو إلى بعض القبائل الأخرى.

-هجرة المسلمين إلى بلاد نصرانية تتحدث العربية كنجران كان المهاجرون يألفونها أكثر مما يألفون بلاد الحبشة.

ولابد أن هجرة هذه المئات من المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة قد نشأت عنهـا مشكلة جديدة تماما. ولابد أنها كـانت من العوامل التى استـحثت انتشـار الإسلام فى ربوع هذه البلـدان وخلقت ظروفا مـواتية لتكوين كيان فـوقى، أعلى من كيان القبيلة، هو كيـان الأمة الإسلامية، الذى قـدر له، حين اخـتار رسـوله الرفـيق الأعلى، بعـد ذلك بعـشر سنوات، أن يضم الجزء الأكبر من شبه الجزيرة.

ملحوظات ختامية

١- السمة الأولى فى حديث الفترة المكية الخامسة فى النص هى تحيز مؤلفه لأهل المدينـة. ونظرا - من جهة - إلى أن جميع عناصـر التحليل والاستنتـاجات المذكورة أعلاه مـشبّعة بشـواهد هذا التحيز، ومـن جهة أخرى- كما سبق القول- إلى أن الفتـرة الخامسة، بمكوناتها الثلاثة - أى اعتناق الإسلام وبيعة الحرب والهجرة - مـعروضة فى النص وكأنها فترة مدنية، فإننى لم أر من المناسب أن أفرد عنوانـا خاصا للتحدث عن تحيز المؤلف لأهل المدينة.

٢- كما أن الفـترتين الأولى والثانية كانتـا بمثابة إعداد للفتـرة الثالثة، فإن فى الإمكـان اعتبار أن الـفترة الرابعـة كانت تُعِدُّ للـفترة الخامـسة. والواقع أن الطريقة التى عولجت بهـا هذه الفترة توضح بجلاء أن المؤلف أنهى الصـفحة القـرشية مـن تاريخه على وفـاة أبى طالب بعـد أن قفل حساباتها وأعد عنها ميزانية خاسرة إلى حد كبير، وأنه انتوى أن يُعدّ عن الفترة الرابعة حسـابات خاسرة بالقدر نفسه فيما يتعلـق بالقبائل العربية. وهذا هو السبب الذى جعل القرشيين الوحيدين الذين نصادفهم فى هذه الفترة لا يـظهرون فى مكة وإنما فى الطائف. وفى هـذا رد على السؤال (٥) الذى طرحته فى استنتاجات الفترة الرابعة.

الفصل السادس

الفترتان الرابعة والخامسة (تابع)

الشعر والقرآن

سأحاول فى هذا الفصل، كما سبق بالنسبة للفترات السابقة، النظر فيما أورده النص من شعر، وفى الآيات القرآنية التى استشهد بها المؤلف فى حديثه عن الفترتين الرابعة والخامسة وذلك، بصفة خاصة، لمعرفة ما إذا كان هذا الشعر وتقديم هذه الاستشهادات القرآنية يعطيان فكرة صادقة عن الإطار التاريخى الذى تندرج فيه. وسأحاول بعد ذلك أن أقف على محصلة القرآن الذى أنزل خلال الفترتين ولم يشر إليه النص، لمعرفة ما إذا كانت الصورة التى تستخلص منه تطابق تلك التى تتضح من مكونات النص المختلفة.

ونظرا إلى أن الموضوع المتعلق بحماية الرسول ﷺ يحتل مكان الصدارة فى النص فيما يتعلق بالتطورات التى حدثت خلال الفترة المكية بأكملها، فقد رأيت من المناسب أن أخصص له بضع صفحات أجمّع فيها المعطيات القرآنية التى سبق ذكرها، بالإضافة إلى معطيات أخرى توجد فى سور الفترتين الرابعة والخامسة.

أخيرا يحين هنا إبداء الرأى، باختصار، فى مسألة ما إذا كان الرسول ﷺ قد تلقى، بصورة مباشرة، أو غير مباشرة، إذنا بالقتال فيما نزل من القرآن فى هاتين الفترتين الأخيرتين.

١ - الشعر

ألف - ما قيل من الشعر:

يتكون الشعر الذى أورده النص فى حديث الفترتين الرابعة والخامسة

١- قصيدة من خمسة أبيات لسُوَيْد بن صامت يهجو فيها الأصدقاء الذين يقولون مقالة كالشهد لكنهم يذمونك وراء ظهرك[١].

٢- ثلاثة أبيات للشاعر ذاته يتحدث فيها عن شجار نشب بينه وبين رجل من سُلَيم صرعه فيه. ويخبر سُوَيْد خصمه فى هذه الأبيات بأنه لن يستطيع خداعه كما خدع آخرين قبله [٢].

٣- قصيدة من ستة أبيات لأبى قيس بن الأسْلَت نظمها بعد الهجرة وبعد مضى بدر وأحد والخندق وبعد إسلامه، يقول فيها:

فلولا ربُّنا كنَّا يَهُودًا ولولا ربُّنا كنَّا نَصَارَى

ويحمد الله على أنهم ، أى هو قومه، من دين حنيف، وأنهم يسوقون الهَدْى [٣].

٤- بيت لعَوْن بن أيوب الأنصارى (من المدينة) يفخر فيه بأن أول من صلى فى اتجاه الكعبة رجل من قومه؛ ويقول النص إن الشاعر كان يشير فى هذا البيت إلى البَراء بن مَعْرور[٤].

٥- قصيدة من أربعة أبيات لشاعر المدينة الكبير كعب بن مالك يقول فيها لأُبَىّ بن خَلَفَ إن الله الذى يرى ويسمع كل شىء يأبى ما منَّته به نفسه. وهو يقول ، موجها الكلام إلى أبى سفيان، إنه قد بدا للأنصار بأحمد نورٌ من هُدَى الله ساطع ،وإن أبا سفيان مهما حشد وألَّب وجمَّع

(١) ، (٢) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٢٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٣٨.
(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٤٤٠.

الناس، فإن الرهط (ويذكر أسماء لنقباء فى بيعة العقبة الثانية) لن يَنْقُضُوا عَهْدَهم [1].

٦- بيتـان لشاعر قريش ضِرار بن الخطـاب كانا، فيمـا يقول النص، أول شعر قيل فى الهجرة، وهما يتعلـقان بواقعة قبض قريش على سعد بن عُبادة، أحـد النُّقَباء فى بيعـة العقبة الـثانية، بعد عـقد هذه البيـعة، ويأسف الشاعر فى هذين الـبيتين لأن الذى قبض على سـعد لم يقبض أيضا على المنذر بن عمرو (الذى كان بصحبته)[2].

٧- قصيـدة من ثمانية أبيات يرد فيـها شاعر المدينة الكبيـر حسان بن ثابت على ضِرَار بن الخطَّاب، وهو يهاجمه هجوما عنيفا لأنه جزؤ على قول شعر ضد «الأنصار» [3].

٨- قصيدة من خمســة أبيات لعَمرو بن الجَمُوح، الذى كان سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرافهـم، يذم فيها صنما من خشب كان يتخـذه إلها يُعظمه ويُطهره، ويحـمد الله الذى أنقذه من الهلاك بـأحمد المهـدى النبى المُرْتهن [4]. ويشرح النص الظروف التى نظمت فـيها هذه القصيدة فيقول: كان ابن الشاعر وقـوم من قبيلته أسلموا وشهدوا العقبة وبايعوا الرسول بهـا، وكانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو فـيحملونه فيَطْرحونه فى بعض حُفَر بنى سَلِمة ، وفـيها عِذَر الناس - أى فضلاتهم - مُنكَّسا على رأسه، فإذا أصبح عمرو غدا يَلْتمسه حتى إذا وجده غسله وطَهَّرَه وطَيَّبه. وتكرر هذا عـدة مرات. وذات يوم، ضـاق عمـرو ذرعا

---

(١) السيرة، القسم الأول ص ٤٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٤٥١.

(٤) المرجع السابق نفسه، ٤٥٢.

بالصنم، فجاء بسيفه فَعَلَّقَه عليه ثم قال: «إني والله، ما أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك». فلما أمسى ونام عمرو، عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة، فيها عِذَر من عِذَر الناس، ثم غدا عمرو بن الجَمُوح فلم يجده فى مكانه الذى كان به، فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر مقرونا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلّمه من أسلم من رجال قومه أسلم برحمة الله، وحَسُنَ إسلامه، فقال القصيدة حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة.

٩- أربعة أبيات لأبى أحمد بن جحش بن رئاب يقول فيها إن قومه كانوا بمكة «حتى عاد غثّا سمينها»، وأنهم تركوا مكة ومعهم غنمهم حين أصبح دين رسول الله بالحق دينها؛ ويذكر النص أن هذه الأبيات تشير إلى هجرة بنى أسد بن خُزَيْمَة وإيعابهم فى ذلك[1].

١٠- قصيدة من خمسة عشر بيتا للشاعر ذاته[2] يقول فيها إنه، خلافا لرأى امرأته، قرر الذهاب إلى يثرب، متجها إلى الله والرسول، تاركا وراءه الأصدقاء والحميمين، وأنه أجاب داعى الله كما فعل غيره من قبل. ويقول:

وكنّا وأصحابا لنا فارقوا الهُدَى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجْلَبوا

وأنهم طغوا وتمنوا كذبة على الرغم من صلة الرحم التى كانت تربطهم بهم. ويختتم قصيدته بقوله إنهم ورعوا إلى قول النبى محمد

(١) ، (٢) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٧٣.

وأنه سيأتي اليوم الذى يعلم الآخرون فيه أيهم كان أصوب للحق.

١١- ثلاثة أبيات قالها رجل من الجن عبّر مكة من أسفلها إلى أعلاها، يقول فيها: جزَى الله ربُّ الناس رفيقَيْن حلاَّ خَيْمتَىْ أم مَعبَد، وأفلح من أمسى رفيق محمد، وأن بنى كعب يجب أن يهنأوا لأن لهم قريبة يقف عندها المؤمنون. ويشير النص إلى أن أسماء بنت أبى بكر عرفت من هذه الأبيات أن الرسول ﷺ متجه إلى المدينة [1].

١٢- قصيدة من أربعة أبيات لعبدالله بن جحش تنحى باللائمة على أبى سفيان لفعل فعله. ويشرح النص أن هذه القصيدة تشير إلى الواقعة الآتية: حين خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم إلى المدينة، عدا عليها أبوسفيان بن حرب فاشتراها من شخص لم يكن صاحبها، وأن عبدالله بن جحش قالها بعد فتح مكة[2].

باء- ملحوظات

هذا الشعر يثير الملحوظات الآتية:

١- ليس فيه أية إشارة إلى نزول مالا يقل عن ١٢٢٠ آية جديدة من آيات القرآن الكريم أو إلى الأثر الذى أحدثه نزول هذه الآيات فى حياة المجتمع والأفراد فى مكة وفى الجزيرة العربية.

٢- شعر هاتين الفترتين، كشعر الفترة الثالثة، لا يتضمن ما قيل فعلا عن شعر الشعراء الكفار فى سياق حملة الهجوم الذى شنه الكفار فى مكة وفى غيرها ضد الرسول ﷺ وضد الدين الذى جاء به، ومن شعر الشعراء المسلمين الذى قالوه تعبيرا عن المشاعر التى أوحت لهم بها هدايتهم إلى الإسلام، أو تعليقا على الأحداث (الدخول فى الإسلام

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠٠.

والاضطهاد والهجرة والمقاطعة . . إلخ) التى شهدها مجتمعهم، أو للرد على الشعراء الكفار. وإذا كان مفهوما أن ابن إسحاق أو ابن هشام فَضَّلا إغفال ذكر الشعر المناهض للإسلام حرصا على عدم جرح مشاعر المسلمين، فمن الصعب إدراك السبب الذى جعل ابن إسحاق يغفل شعر شعراء المسلمين.

٣- قلة هذا الشعر تولد انطباعا بأن ينابيع الشعر فى مكة نضبت بموت أبى طالب؛ ذلك أن الشعر المكى عن هذه الثلاث سنوات الأخيرة من الفترة المكية لا يجاوز خمسة وعشرين بيتا قالها ثلاثة شعراء فقط. وكل ما سجله النص من شعر عن هذه الفترة لا يعدو السبعين بيتا. فإذا طرحنا القصائد ١ و٣ و٤ التى قيلت بعد الهجرة انخفض عدد الأبيات إلى ستين بيتا، أى مالا يزيد على خُمُس ما قيل من شعر خلال الفترة الثالثة، وهو لا يمثل سوى ٣٦٪ من شعر أبى طالب وحده، وسوى ٧٠٪ مما قيل من شعر فى رثاء عبدالمطلب.

٤- اذا استثنينا ثلاثة الأبيات التى قالها رجل الجن، فإن شعر الفترة كله من نظم شعراء مكيينَ أو مدنيين. ولم تنسب أية قصيدة لأى شاعر ينتمى إلى أية منطقة أخرى فى شبه الجزيرة. نحن إذن، فى هذا الشعر، لانزال أمام محور مكة / المدينة.

٥- سواء تعلق الأمر بعدد الأبيات أو بعدد الشعراء، فإن الشعر المدنى (اثنان وأربعون بيتا قالها ستة شعراء) يفوق الشعر المكى (خمسة وعشرون بيتا قالها ثلاثة شعراء).

٦- شعر الفترتين الرابعة والخامسة، على غرار العناصر التى وردت فى حديث الفترتين المذكورتين، ينحو الى مدح أهل المدنية وإلى الغض من قدر أهل مكة. فالقصيدتان ١ و٢ ، كما رأينا فى تحليل الفترة

الرابعة، ترميان إلى إظهار الشاعر بمظهر الرجل الكامل؛ والبيت الوارد تحت رقم ٤ يفخر بالبَرَاء بن مَعْرُور الذى رجح القرآن - فيما يقول النص - رأيه على رأى النبى ﷺ فى موضوع القبلة؛ والقصيدة رقم ٥ تسمى وتمدح نقباء بيعة العقبة الثانية الاثنى عشر؛ والقصيدة رقم ٦ تتعلق بالقبض على سعد بن عبادة، أحد النقباء فى هذه البيعة؛ وفى القصيدة ٧ يهجو حسان بن ثابت، بأقذع عبارة، الشاعر المكى الذى سوّلت له نفسه الإعراب عن أسفه لعدم القبض على نقيب آخر من نقباء البيعة المذكورة؛ والقصيدة رقم ٨، التى تحتل مع شرحها صفحة بأكملها، تحكى قصة إسلام وثنىّ من أهل المدينة؛ والقصيدة رقم ١٠ تتعلق بهجرة عشيرة مكية إلى المدينة وتذم أهل مكة.

٧- أشارت قصيدتان، هما القصيدة رقم ٥ والقصيدة رقم ١٢، إلى أبى سفيان، والد معاوية مؤسس الخلافة الأموية؛ وفى هذه القصيدة الأخيرة، التى تحتل مع شرحها نصف صفحة، يبدو أبوسفيان بمظهر المغتصب.

٨- من الأمور الغريبة أن يقول أبوقيس بن الأسلت ، الذى منع ثلاث عشائر مدنية من اعتناق الإسلام، فى القصيدة رقم ٣، إنه لولا هداية الله، لكان يهوديا أو نصرانيا، فقد كان وثنيا راسخ الأقدام فى الوثنية، ومن ثم فإن الاختيار بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية لم يكن واردا بالنسبة له.

٩- فى القصيدة رقم ١٠ ، يقول أبوأحمد بن جحش إن أصحابهم الذين فارقوا الهُدى أعانوا عليهم بالسلاح وأجلبوا. وحاصل الأمر أن تاريخ الفترة ليس فيه ما يدل على أن أحدا أعان على المسلمين بالسلاح.

ويمكن باختصار أن يقال :

- إن شعرا لم يُقَل فى مكة أو فى المدينة أو فى الجزيرة العربية، وفقا للنص، خلال السنة التى تشكل الفترة الرابعة، لصالح الإسلام أو ضده، إذ أن الشعر الوحيد الذى يسجله النص عن هذه الفترة هما القصيدتان ١ و٢ ، أى ما مجموعه ٨ أبيات قالها شاعر اعتنق الإسلام فيما يبدو وكان يوصف بالكامل.

- ما من قصيدة شعر قيلت عن المرحلة الأولى من الفترة الخامسة التى تتعلق بإسلام بعض أهل المدينة، هذه الظاهرة التى تشكل غاية الإسلام الرئيسية، قبل عقد بيعة العقبة الثانية، إذ أن القصيدة الوحيدة التى نجدها فى النص، وهى قصيدة عمرو بن الجَمُوح، لم تقل إلا بعد عودة ابن الشاعر إلى بلده.

- أما المرحلة الثانية من الفترة الخامسة، التى تبدأ بسفر الحجاج المسلمين مع حجاج غير مسلمين إلى مكة وتنتهى بعودة هؤلاء الحجاج إلى المدينة بعد عقد البيعة التى يقدمها النص على أنها كانت النقطة التى انتقلت فيها مسئولية حماية الرسول عليه الصلاة والسلام من بنى هاشم إلى الأنصار والتى أدرك شيطان العقبة أهميتها لمستقبل الإسلام فأعلن عنها بصيحة تردد صداها فى كل مشاهد الحج، فقد قيلت فيها أربع قصائد، هى القصائد أرقام ٤ و٥ و٦ ومجموع أبياتها سبعة عشر بيتا، علاوة على القصيدة رقم ٧ التى تتكون من ثمانية أبيات، التى يرد فيها حسان بن ثابت ردا لاذعا على ضِرار بن الخَطَّاب؛ لكن أيا من هذه الأشعار لم يشر إلى هذه البيعة، والإشارات الوحيدة التى تربط بين البيعة وهذه الأشعار هى تلك التى وردت فى النص.

- وأما المرحلة الثالثة من الفترة الخامسة، أى تلك التى تتعلق بهجرة المسلمين، فقد قيلت فيها قصيدتان لا أكثر كان مجموع أبياتهما تسعة

عشـر ، وكان الذى قالهـما شاعـر واحد، لكن كلمة «الهـجرة» لم ترد فيهما.

– وأما هجرة الرسول عليه الصـلاة والسلام، هذا الحدث الذى اقترن فى النص بسلسلة طويلة من المعجزات والذى تشهد بأهميته حقيقة أن به تُختتم الفترة المكية وتُفتتح الفترة المدنية لبعثة الرسول ﷺ ، فلم يُقل فيها سوى ثلاثة أبيات، والذى قال هذه الأبيـات لم يكن مسلما من مسلمى مكة أو المدينة ولا كافـرا من كفار إحـدى البلدتين، إنما جن، أى كائن من كائنات ما وراء الطبيعة.

ما الذى جعل هذا الشعر، الذى يتعلق بسلسلة من الأحداث تشكل، حـسب تصـوير النص، نقـطة تحـول فى تاريخ رسـول الله ﷺ وتاريخ الإسلام، على هذا القدر من الهزال؟ ولماذا لا يمثل سوى ١٨ فى المائة فقط مما قيل عن غـزوة بدر وحدها من الشعر (التى خصص لهـا حسان ابن ثابت أكثر من مائة بيت، أى أكثر بكثير من كل شعر الفترتين الرابعة والخامسة المكيتين)؟

الشىء الذى يبـدو مؤكدا هو أن هاتـين الفترتيـن الأخيرتين، اللـتين دخل فيهما النزاع بين الكفـار والمسلمين، فى مكة وفى غيرها من أنحاء الجزيرة، فى أكثر مراحله حسما، كان إنتاج الشـعر فيهما أكبر بكثير من القصـائد الاثنتى عشرة التى يقـدمها لنا النـص. والسبب الذى من أجله لزم النص الصمـت بشأنها هو، على الأرجح، السـبب ذاته الذى رأيناه بالنسبة لشـعر الفترة الثالثة، ألا وهو أن النص لا يورد الشـعر الذى قيل حقـيقـة ، لأن هذا الشـعر يعطى عن الفـترة التى نُظم خـلالهـا صورة تختلف كلية عن تلك التى يصـورها بها النص. وكان المفروض فى هذا الشعر أن يثبت أن الفترة المكية الخامسة كانت مكية بالفعل لا مدنية، وأن

الفتـرة الرابعة بدورها كانت مكيـة حقا لا- كـما يستـفاد من النص - مجـرد تمهيـد لظهور أهل المدينة على مـسرح الأحداث فى مكـة لتولى مسئوليـة حماية الرسول ﷺ. وكان المفروض فى شعـر الفترتين الرابعة والخامسـة أن يصور مختلف نواحى النزاع القائم بـين الرسول والمسلمين وبين قبائلهم بل وقـريش برمتها، وهو نزاع لابد أنه تفاقم، بعـد عشر سنوات من بدء البعـثة، إلى حد كبـير. ولابد أن مسلمى مكة تعـرضوا لمحن وواجهوا مـواقف جاء وصفها فـيما قيل من شـعر. لذلك حرص النص على إخفاء هذا الشعر وشعر الشعراء غير المكيين، كما أخفى شعر الفترة الثالثة الحقيقى.

على أن تصوير الفترتين المكيتين الأخيرتين كفترتى جدب شعرى كان يخدم غرضـا آخر هو السماح بتصوير الفـترة المدنية كفترة إنتـاج شعرى غزير وفترة مجد شعرى. وأى شعر كان يفوق فى العظمة، عند المؤلف، ذلك الذى يتحدث عن حـروب النبى ﷺ ، هذه الحروب التى أدت إلى نصر الإسلام الوحـيد الجدير بهذا الاسم: النصر الذى بدأ، فـيما يقول النص، فى اليوم الذى لقى الرسـول فيه مـجموعة الخـزرج الست قبل عامين من بيعة العقبة الثانية.

٢- الاقتباسات القرآنية

ألف- النص

١ – انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من خَيْر ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم – فيما ذكر للمؤلف – سبعة من جن أهل نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه ﷺ . قال الله عز وجل: (*)

أ) ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾

[الأحقاف: ٢٩ – ٣١]

وقال تبارك وتعالى:

ب) ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ

(*) السيرة، القسم الأول ، ص٤٢٢.

ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١ - ١٥]

٢- خرج عمر بن الخطاب، وعيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة. وخرج أبوجهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، ونجحا في إقناع عياش بالعودة معهما إلى مكة. حتى إذا كانوا ببعض الطريق عدَوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن، وكان المسلمون يقولون: ما الله بقابل ممن افتتن صرْفا ولا عَدْلا ولا توبة، فلما قدم رسول الله ﷺ ، أنزل الله تعالى(*):

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥]

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٧٥.

باء ـ ملحوظات

هذان الاستشهادان يستدعيان الملحوظات الآتية:

١- خلافا لمعظم استشهادات الفترة الثالثة، لا تتعلق الآيات تحت رقم «١» أعلاه بأقوال قالها سادة قريش أو كفار مكة، بل تتعلق بواقعة. على أن هذه الواقعة تمت إلى عالم ما وراء الطبيعة الذى لا يدركه البشر؛ لذلك فهى لا تصلح عادة فى كتاب من كتب التاريخ.

٢- أيا كان الأمر، فإن كل ما فعله النص، فى التقديم لهذا الاستشهاد، هو أن نقل محتوى الآيات المذكورة، أما العناصر الوحيدة الإضافية، أى المكان «نخلة»، واسم وعدد نفر من الجن الذين استمعوا إلى الرسول، وكونهم من جن أهل نَصيبين، فغنى عن البيان أنها محض اختراع.

٣- هذه الآيات، المفروض أنها تتعلق بلحظة معينة فى الفترة الرابعة، مستقاة من سورتين نزلتا قبل وبعد الفترة الرابعة، تفصل إحداهما عن الأخرى سنوات، سورة الجن (وترتيبها عند بلاشير ٦٤) التى نزلت فى الفترة الثالثة، وسورة الزمر (وترتيبها عند بلاشير ٩٠) التى نزلت فى الفترة الخامسة.

٤- شرح الظروف التى نزلت فيها الآيات المذكورة تحت رقم «٢» أعلاه كان من الممكن أن يُصَدَّق لو أن عَيَّاشا كان أول من فتن وافتتن. لكن الحاصل هو أنه كان هناك بين المسلمين عدة حالات من الافتتان قبل حالته منذ بدء الرسالة المحمدية، والنص ذاته يعترف بذلك فى قوله، فى حديث الهجرة، أن من فتنوا ومن حبسوا من مسلمى قريش كانوا يشكلون الفئتين الوحيدتين اللتين لم تهاجرا إلى المدينة.

٥- الآية التى يستشهد بها النص فى حالة عَيَّاش، ذات طابع عام. وهى لا تشير بالضرورة إلى حالة أشخاص أجبروا على الارتداد عن دينهم. وقد ذكرت حالة هؤلاء الأشخاص صراحة فى الآية ١٠٦ من سورة النحل التى يقول الله تعالى فيها:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾

[النحل: ١٠٦]

٦- الاقتباسان ١ و٢ يتعلقان بموقفين يقول النص إنهما حدثا خارج مكة، وكأن سادة قريش وأشرافها، الذين صورهم النص طوال الفترة الثالثة، فى اجتماعاتهم بالمسجد وهم يتفوهون بكلام يتردد صداه فيما ينزل من آيات القرآن، قد كفوا عن الاهتمام بالإسلام. وكأن القرآن قد كف فجأة، لأسباب مجهولة، عن النزول فى بلد الكعبة.

٧- فيما عدا الآيات التى يدعى النص أنها نزلت فى نخلة، فى طريق عودة الرسول ﷺ من الطائف، ليس فى النص أية آية يستشهد بها على الأخبار التى أوردها عن الفترة الرابعة.

٣- القرآن المنزّل

ألف- تلخيص

القرآن الذى نزل خلال الفترتين الرابعة والخامسة المكيتين، أى منذ وفاة أبى طالب حتى الهجرة، فى السور من ٧٨ إلى ٩٢ حسب ترتيب بلاشير، ولم يشر إليه النص، يحتوى على العناصر الآتية:

١- تذكير بمبادىء الإسلام الأساسية وبالأوامر والنواهى التى أبلغت خلال الفترات السابقة.

٢- عودة إلى الاعتراضات التى أثارها الكفار ضد الإسلام وضد رسوله ﷺ، وهى الاعتراضات ذاتها التى أثيرت فى الفترات السابقة. وإجابات القرآن عن هذه الاعتراضات هى الإجابات ذاتها، وإن كانت قد صيغت بطرق مختلفة. والقرآن يقول إن الرسول ﷺ، لم يكن بدعا من الرسل وأنه بُعث ليصدق رسالات الأنبياء السابقين وليفصِّل الكتاب. وهو فى الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة سبأ ينبه الناس إلى أن طاعتهم للمتكبرين لن تعتبر عذرا عن عدم الإيمان، فى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣]

وهى دعوة صريحة إلى التمرد لابد أنها أمدّت قريشا ورؤساء قبائلها بأسباب إضافية لمحاربة الرسول ﷺ واستخدام الشدة مع تابعيه. لكن القرآن الكريم لم يعدم وسائل لتشجيع الناس على الإيمان، فقد ذكر، فى مقابل غضب الذين استكبروا، أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله.. يستغفرون للذين آمنوا ويدعون الله أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله (سورة غافر: ٧). كذلك فإن القرآن يعد المحسنين بمكافأة قدرها عشرة أمثال ما قدموه، وعلى مستوى آخر، يواصل القرآن هجومه على الأغنياء ويشجب صلفهم وكبرياءهم، ويذكر فى هذا الصدد قصة

قارون الذى أتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحة لتنوء بالعصبة أولى القوة، والذى خسف الله به وبداره الأرض، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون: «وَيْكَأنه لا يُفْلِحُ الكافرون».

٣- نزول عدة أيات عن القرآن ذاته، لا سيما:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾ [العنكبوت: ٥٠]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس: ٣٨]

لقد كانت كل آية من آيات القرآن الكريم، كما قلت فيما سبق، تمثل حدث الأحداث فى مكة وفى الجزيرة العربية كلها منذ بداية البعثة المحمدية. ولابد أن نزول هذه الآية الأخيرة كان حدثا مهما من هذه الأحداث فى الفترة الخامسة. وسواء بين الكفار أو بين المسلمين أو فى اللقاءات التى كانت تتم بين هؤلاء وهؤلاء، لابد أن هذه الآية أحدثت ضجة كبرى. ولابد أن مجلس «الحكومة» فى مكة رأى فيها دليلا قاطعا على فشل جميع الجهود التى بذلها شعراؤهم وبلغاؤهم ومتعلموهم الذين كلفوهم، خلال الفترة الثالثة، بقبول التحدى السابق، الوارد بالآية ١٣ من سورة هود التى تدعوهم الى الإتيان بعشر سور مفتريات مثل سور القرآن، وإلى الاستعانة بمن استطاعوا لهذا الغرض. ولابد أن حكومة قريش كالت اللوم للمسئولين عن هذا الفشل، وأنها قدمت جوائز جديدة لكل من يأتى بسورة مثل سور القرآن.

كان الرهان رهانا ضخما، ولابد أن سورا عديدة تقلّد سور القرآن قدمت أمام جمهور متحفز. ولابد أن المسلمين ابتهجوا بنزول هذه الآية التى وجدوا فيها تأكيدا لكون القرآن - كما أعلنت ذلك الآيتان ٤٥

و ٥٠ من سورة العنكبوت - هو آية الآيات، أى المعجزة التى أرسل بها محمد ﷺ التى كان الكفار يطالبون بها منذ سنوات. والقوة المتزايدة التى زود بها الإسلامَ عجزُ الكفار عن مقابلة التحدى الذى واجهتهم به الآية ٣٨ من سورة يونس لابد أنها اقنعت نفرا من الناس بالإسلام، وأنها جرّت على المسلمين مزيدا من صنوف الاضطهاد.

٤- عناصر جديدة فى قصص الأنبياء السابقين. فقد فصلت العلاقة بين إبراهيم، من جهة وجزيرة العرب والكعبة ومحمد ﷺ، من جهة أخرى، للمرة الأولى، فى الآيات التالية:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ .... ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ .... ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾

[إبراهيم: ٣٥، ٣٧، ٣٩]

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) ﴾ [الأنعام: ١٦١]

ومن الملاحظ ، بهذه المناسبة أن هذه العلاقة بين إبراهيم والكعبة ذكرت فى القرآن، للمرة الأولى، فى الفترة الخامسة. وحيث أن أيا من الكتب السماوية الأخرى لم يشر إليها، فالمؤكد أن عبدالمطلب كان يستحيل عليه معرفتها. لذلك فإن إجابته فى قصة أبرهة التى قال فيها إن الكعبة بيت إبراهيم ، محض اختراع. وهذا يصدق كذلك على ما جاء فى قصيدة أبى طالب الطويلة عن سيدنا إبراهيم.

وقرآن هذه الفترة يخبرنا أيضـا أن فرعون كان يذبح أبناء من آمنوا مع موسى، وكـان يستحيى نسـاءهم، وأن الله تعالى أرسل عليـهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والـدم كآيات مفصلات، وأن الله أراد أن يمنّ على الذين اسـتضعفوا فى الأرض ويـجعلهم أئمة ويجـعلهم الوارثين.

ويقرن القرآن الكريم بين موسى ومـحمد فى الآيتين ٤٨ و٤٩ من سورة القصص فى قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) ﴾ [القصص: ٤٨ – ٤٩]

وأخيـرا فإن القـرآن يقص قصة يـوسف بالكامل؛ وسنعـود إلى هذه القصة فيما بعد.

٥- آيات تتـحـدث عن أهل الـكتاب تـوضح حـالة عـلاقاتـهم مع المسلمين:

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾ [العنكبوت: ٤٦ – ٤٩]

والتوجيه العام الذى ورد فى هذه الآيات هو تجنب مجادلة أهل الكتاب والتركيز، فى لقاءات المسلمين معهم، على نقاط الاتفاق «إلهنا وإلهكم واحد» لا على نقاط الخلاف. وعبارتا «إلا الذين ظلموا»، «وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون» تشيران إلى معارضة بعضهم للإسلام (1).

ولأن الآية ٤٨ تلى آيتين تتحدثان عن أهل الكتاب، فالظاهر أنها ترد على حجة صدرت منهم مؤداها أن القرآن نسخة معدلة من كتاباتهم.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾ [الأنعام: ٩١]

وهذه الآية بدورها تشير إلى معارضة من جانب اليهود لرسالة محمد ﷺ (2).

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ... (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾ [الأنعام: ١٤٦ - ١٤٧]

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ... (٣٦) ﴾ [الرعد: ٣٦]

---

(1) يؤكد بلاشير، فى حاشيته عن الآية ٤٦ أن عبارة «ما يجحد بآياتنا إلا الكافرون» هى إضافة لاحقة على القطيعة مع يهود المدينة. وفى رأيى أن الممكن جدا أن تكون هذه العبارة قد نزلت بمكة، إذ أن اليهود والنصارى لابد قد أبدوا من تلقاء أنفسهم أو بناء على طلب قريش رأيهم فى الإسلام منذ بداية البعثة.

(2) فى رأيى - خلافا لبلاشير الذى يرى أنها إضافة لاحقة للهجرة - أن هذه الآية نزلت فى مكة ، ودلك للأسباب التى ذكرتها فى الحاشية السابقة.

ودلالة هذه الآيات هى أن أهل الكتاب لم يرفضوا الإسلام كلهم وأن منهم من آمنوا به. لكن الآيات تفيد كذلك أن من أهل الكتاب من كانوا يعارضون الإسلام. وقد كانت مثل هذه المعارضة شيئا طبيعيا ، كما شرحت فى تعليقاتى عن الفترة الثالثة، إذ أن محمدا لم يكن المسيح فى نظر اليهود، كما أن مصالح اليهود الاجتماعية والاقتصادية العاجلة كانت تلزمهم بالانضمام إلى مواقف الوثنيين المحافظة، وأنه لم يكن يعترف بالثالوث المقدس الذى يؤمن به النصارى.

٦- هجوم متكرر على من يزيفون القرآن ومن يمنعون الاستماع إليه ويصدّون عنه.

باء- حماية الرسول

الموضوع المركزى فى الفترة المكية بأكملها هو موضوع حماية النبى ﷺ؛ وفى الإمكان القول، دون خيانة لروح النص، إنه يفيد:

- أن أهم لحظة فى الفترة الأولى هى تلك التى وعد فيها أبو طالب بحماية ابن أخيه.

- أن هذه الحماية كانت معلقة خلال الفترة الثانية، إذ أن الرسول ﷺ لم يذكر آلهة قريش ولم يعبها كما لم يذكرهم هم وآباءهم بسوء.

- أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم حموا الرسول خلال الفترة الثالثة، بناء على دعوة أبى طالب، فى وجه قريش كلها، الأمر الذى جعل قريشا تقاطعهم.

- أن الرسول ﷺ سعى خلال الفترة الأخيرة ، ولكن بلا طائل ، إلى الحصول على حماية ثقيف والقبائل غير المكية التى لقى حجاجها فى مكة بعد أن شعر بأن رهطه نزعوا عنه حمايتهم بعد موت أبى طالب.

- أن الرسول ﷺ طلب وعدا رسميا غير مشروط بالحماية، فى الفترة الخامسة، من مسلمى المدينة، وحصل على هذا الوعد من الحجاج الثلاثة والسبعين الذين عقدوا معه بيعة العقبة الثانية.

وتحليل مكونات النص المختلفة فى كل هذه الدراسة يسمح، كما رأينا، بأكبر الشكوك فيما يتعلق بموضوعية هذا العرض.

على أن هذا البحث سيظل ناقصا، فيما يبدو لى، ما لم نتساءل، فى مسألة بهذه الأهمية فى النص، عما إذا لم يكن فى القرآن المنزل خلال الفترة المكية أو بعدها إشارات مباشرة أو غير مباشرة للحماية التى يقول النص إنها منحت لمحمد ﷺ من قبيلته ثم من مسلمى المدينة. وللإجابة عن هذا السؤال، يقتضى ملاحظة ما يأتى:

١- ليس فى أى موضع من القرآن أى حديث عن حماية منحت للرسول ﷺ من قبيلته. ومما يذكر فى هذا الصدد أن سورة هود تقول فى الآيتين ٩١ و٩٢ بشأن شعيب:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) ﴾

[هود: ٩١ - ٩٢]

ولو أن مثل هذا الموقف حدث بالنسبة لمحمد ﷺ (على فرض أن رهط شعيب كانوا كفارا، وهو ما لم تقله الآيات) لأشار إليه القرآن.

٢- يتضح من كل قصص كبار الأنبياء الذين تحدث عنهم القرآن - نوح وإبراهيم ولوط وموسى وهود وصالح.. إلخ - أن قومهم هددوهم بالقتل أو الحرق أو الرجم، لكن الله تعالى كان يحمى أنبياءه ومن

اتبعوهم ويسلط أشد العذاب على من كانوا يهدونهم. والقرآن لا يكف عن التذكير بما حاق بهؤلاء الأقوام:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) ﴾ [ق: ٣٦]

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾ [يوسف: ١١٠]

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يونس: ١٠٣]

٣- القرآن يتحدث عن الله تعالى باعتباره الحامى الوحيد:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) ﴾ [الشعراء: ٢١٧]

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾ [الحجر: ٩٥]

﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) ﴾ [الجن: ٢٢]

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان: ٥٨]

﴿ .. وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) ﴾..... ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ (٤٤) ﴾ [الكهف: ٢٧ و ٤٤]

﴿ .. وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) ﴾ [الإسراء: ٦٥]

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر: ٥١]

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴿٣٦﴾ ﴾

[الزمر: ٣٦]

٤- القرآن يحظر صراحة على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين أن يتخذوا الذين كفروا أولياء ويذهب إلى حد تهديدهم بعقاب شديد إن هم فعلوا ذلك:

﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود: ١١٣]

٥- لو أن الرسول ﷺ لم يكن يشعر بأنه أقوى من خصومه، ولو لم يكن يعلم أن بوسعه الاستغناء عن كل حماية من جانب الكفار، لتردد فى إبلاغهم بالقرآن الذى تخاطبهم آياته بصرامة بالغة، مثل:

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

[الزخرف: ٤٠]

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٤]

٦- يجد المرء، فيما نزل من القرآن، فى الفترة المكية، آيات يأمر فيها الله سبحانه وتعالى نبيه بتحدى الكفار، وآيات يحدثهم فيها الرسول ﷺ من مركز قوة:

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

[الأعراف: ١٩٥ - ١٩٦]

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾ [يونس: ١٠٢]

٧- سبق أن لاحظت، فيما يتعلق بالحماية التى يقول النص إن حجاج المدينة الثلاثة والسبعين شملوا بها النبى ﷺ فى بيعة العقبة الثانية، أن القرآن لم يرد فيه أية إشارة لمثل هذه الحماية. وواقع الأمر أن فى القرآن، على النقيض من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [الأنفال: ٦٢]

وعبارة «هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين» فى هذه الآية عبارة فى غاية الأهمية، فإنها تذكر فى وضوح أن المؤمنين كانوا يمثلون بالنسبة لمحمد ﷺ تأييدا إلهيا كنصر الله عز وجل. لكن هؤلاء المؤمنين، من كانوا؟ حجاج العقبة الثلاثة والسبعين؟ كل مسلمى المدينة؟ إن عدم وجود دلالات أخرى يحمل على الاعتقاد بأنهم مجموع مسلمى مكة، والمدينة، وشبه الجزيرة، الذين آمنوا برسالة الإسلام سواء قبل الهجرة أو بعدها. لكن ما دمنا هنا بصدد الفترة المكية، وفى مكة على وجه الخصوص، فإن هؤلاء المؤمنين كانوا ولاشك صحابة رسول الله ﷺ فى هذه البلدة. والآية المذكورة تسوغ إذن الفكرة التى أدليْتُ بها فى تحليلى لحديث الفترة الثالثة والتى مؤداها أن مسلمى مكة، الذين كانوا أكثر عددا بكثير من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، والذين كانوا ينتمون لمعظم قبائل قريش ، كانوا يمثلون قوة كان على قريش أن تحسب حسابها فى صراعها مع محمد ﷺ . إنهم هم - لا بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - الذين حموا الرسول إلى جانب الحماية الإلهية.

٨- محمد الرسول، ﷺ ، لا يظهر أبدا فى قرآن الفترة المكية وهو

والحاصل أن أحدا من الأنبياء السابقين الذين تحدث عنهم القرآن - سواء فى ذلك نوح أو إبراهيم أو لوط أو صالح أو شعيب أو موسى أو عيسى - لم يؤذن له بالحرب ولم يكن لديه جيش. أما حالة سليمان، الذى كان جيشه يتكون من جنود الإنس والجن، فهى حالة لا يقاس عليها.

٤- النتيجة

يتضح من استعراض السور من ٧٨ إلى ٩٢ فى ترتيب بلاشير أن ما نزل من القرآن الكريم فى ثلاث السنوات الأخيرة من الفترة المدنية يشبه، بالنسبة لبعض الموضوعات، ما نزل منه فى الفترات السابقة، وأنه أتى بجديد فى بعض الموضوعات الأخرى. والقرآن يصور حالة النزاع الفكرى بين الديانة القديمة، ديانة الآباء، والإسلام: الديانة القديمة، ديانة الشرك وعبادة الأصنام، التى ليس لها كتاب ولا قانون أخلاقى، والتى تتضمن نواهى لا تخضع لأية قاعدة منطقية، وتسمح بكل الموبقات، وتعتبر أن الموت يضع حدا نهائيا للحياة على الأرض، والإسلام، دين التوحيد، الذى أساسه القرآن، وأوامره ونواهيه، الذى يقول إن الإنسان سيبعث بعد الموت وأنه سيحاسب وأنه سيعيش أبد الآبدين فى جنة الخلد أو فى جهنم، ويندرج اندراجا كاملا فى رسالات الأنبياء السابقين.

كان هذا النزاع ، خلال هذه الفترة الأخيرة، نزاعا فكريا أضاف إليه الكفار اعتراضات جديدة إلى تلك التى سبق لهم إبداؤها ضد الإسلام منذ بداية الدعوة، وإن كان التحدى الخاص بإعجاز القرآن قد جعل الكفة ترجح لصالح المسلمين.

لكن هذا النزاع لم يكن نزاعا فكريا فحسب. لقد حارب الكفار،

الذين كانوا يدركون الميزة التى حققها الإسلام ضدهم، هذا الدين بوسائل مختلفة: بخطة واسعة النطاق لتزوير القرآن، وبفرض رقابة تمنع الناس من الاستماع إليه، واستعانوا لهذا الغرض بنفر من أهل الكتاب. وبهذا فتحت جبهة جديدة فى مناهضة الإسلام. ما الذى كان يجب أن يقال لليهود وللنصارى حين يهاجمون الإسلام أو يصفون رسوله بالكذب والافتراء؟ كان هذا سؤالا كبيرا عرض لمحمد وللمسلمين. وقد أعانهم القرآن على حل هذه المشكلة فزودهم بإجابة محددة عنه.

لكن هذا لم يكن كل شىء. إن من المؤكد أن هزيمة الكفار فى مجال الفكر جعلهم يزيدون من ضراوة التدابير القمعية التى كانوا يتخذونها ضد المسلمين. وتكرار الإشارة فى القرآن إلى العقوبة التى أنزلت بفرعون وقومه، الذين استعبدوا بنى إسرائيل، وذكر مؤامرات الكفار التى بلغت حدا لا يوصف «وإنْ كان مكرُهُم لتزُول منهُ الجبالُ»، والإيصاء المستمر للرسول ﷺ وللمسلمين بالصبر، شواهد على أن تنكيل الكفار بالمسلمين أصبح لا يطاق. وهذا هو السياق الذى نزلت فيه، فى بداية الفترة المكية الرابعة، سورة يوسف، التى تحكى قصة هذا النبى الكريم.

إن يوسف عليه السلام لم يكن منْ كبار الأنبياء. ومع ذلك فإن قصته من أطول القصص التى جاءت فى القرآن. وهى كذلك القصة الوحيدة من قصص الأنبياء التى حكيت دفعة واحدة. ويمكن أن نقول كذلك إنها القصة الوحيدة من قصص الأنبياء التى لا تنتهى بطامة كبرى والتى صادف النبى فيها نجاحا. ولهذا فإنها تستحق الوقوف عندها قليلا.

لقد أوتى يوسف، شأن بعض الأنبياء الآخرين، القدرة على إتيان المعجزات: تفسير الأحلام، والإخبار عن أمور خفية، وإعادة البصر لوالده الأعمى. لكنه أوتى بالإضافة إلى ذلك ملَكة لم تكن تتوافر- فيما

يبدو- لنبى غيره هى مَلَكَةُ الإدارة. ولم يكلف الله يوسف بدعوة الناس إلى الإيمان. وقد هجر ديانة قوم لم يكونوا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب. لكنه، مثل محمد ﷺ، لم يكن محبوبا من ذويه. وكان إخوته يحسدونه لأن أباهم كان يُؤْثِره عليهم. بل إنهم فكروا، فى وقت من الأوقات، فى قتله، كما كان هناك تفكير فى قتل محمد. لكن إخوته اكتفوا، فى نهاية الأمر، بإلقائه فى بئر وفى تركه لمصيره. وأرادت رحمة الله أن ينجو يوسف من هذه التجربة دون أن يصيبه ضرر. بل لقد فتح له تدبير إخوته السيىء أبواب مستقبل زاهر.

ولابد أن هذه القصة قد أزجت للرسول ولأصحابه وللمسلمين المضطهدين فى الجزيرة العربية بالأمل فى نهاية النكبة التى كانوا يمرون بها وفى اقتراب الفرج. ربما، كما حدث ليوسف، فى بلد غير بلدهم. ولابد أن هذه القصة كانت تهز كل أوتار المشاعر لدى من كانت تُقص عليهم: هذا الأب الذى كان يحب أبناءه؛ هؤلاء الإخوة الذين تجاوز كرههم وحسدهم لأخيهم كل الحدود؛ حزن يعقوب حين أحضر له أبناؤه ثوب يوسف المضرج بالدماء وأبلغوه أن الذئب أكله؛ دهشة رجل القافلة المكلف بإحضار المياه حين اكتشف فى قاع البئر فتى هجره ذووه، ومخاوف السيارة الذين أخفوا هذا الغلام ليبيعوه. ولابد أن عرب مكة والمدينة وغيرهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر بقية هذه القصة القرآنية الجميلة التى كانت إذاعتها، على حلقات متتابعة، تشوق المستمعين على مدى أسابيع أو حتى شهور. وبعد سنوات من بداية أحداث القصة، لم يعد يوسف ذلك الطفل الذى رأى فى المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له، بل أصبح شابا وسيما بلغ من وسامته أن امرأة نبيل

من نبلاء مصر كان قد اشتراه زاودته عن نفسه، لكن يوسف لم يستمع إلى غواية الشيطان.

لقد انطوت هذه القصة على رسالة أمل وعزاء للرسول ﷺ وللمسلمين، فقد علمتهم أن الشر (الغيرة وكراهية الأقارب والبئر والسجن) قد يفضى إلى الخير. وكان يوسف، فى هذه القصة، تجسيدا حيا لكل الفضائل التى تدعو لها الأوامر والنواهى. لقد كان مؤمنا حقا، فامتنع عن ارتكاب السوء والفحشاء. ولم يكن يمارس الغش فى المعاملات: «أنّى أوفِى الكَيْل». وكان يحب والديه ويوقرهما. لكنه، على الأخص، كان محبا للعفو، فقال لاخوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين». ولأنه كان يستجمع كل هذه الفضائل وكان يتوكل على الله وكان الله يحميه، فقد جزاه الله خير جزاء: «وكذلك مكّنّا ليُوسُفَ فى الأرض يَتَبَوَّأُ منها حَيْثُ يَشاءُ».

على أن هذه القصة إذا كانت جديدة بالنسبة للعرب، لم تكن كذلك بالنسبة لليهود وللنصارى، فقد كانوا يقرأونها فى كتابهم المقدس، ولم يكن يفوتهم أن يخبروا بذلك أصحابهم المسلمين أو المشركين. ولابد أن مناقشات، ودية أو غير ودية، قد دارت فى المدينتين، وفى الصحراء، وأن أشعارا قيلت تصور حجج من كانوا يقولون إن محمدا نقل القصة من الكتاب المقدس ومن كانوا يدافعون عن أصالة الرواية القرآنية. ولابد أن المسلمين تذكروا قصة يوسف، فى وقت لاحق، حين هاجروا من مكة، وحين كان رسولهم ﷺ يدير فى المدينة شؤون الأمة الإسلامية كما كان يوسف يدير شئون مصر. ولابد أن الرسول وصحابته تذكروا يوسف أيضا فى وقت متأخر من الفترة المدنية، عند فتح مكة، بمناسبة العفو العام الذى أصدره الرسول ﷺ عن كل من سبق أن وصفوه فى

مكة بالكذب واضطهدوا أصحابه ومَنْ شنوا عليه الحرب بعد هجرته.

كانت ثلاث السنوات الأخيرة من الفترة المكية إذن سنوات حافلة بالتنزيل القرآني. والصورة التي تستخلص مما نزل فيها من القرآن هي صورة:

– بلد تزعزعت أركانه نتيجة لظهور الدين الجديد، هذا الدين الذي لم يكف، في مكة وفي كل مكان تقريبا، عن التشكيك في القيم التي كان تعتبر من المقدسات على مدى قرون (القبيلة، وعبادة الأوثان، وحقوق الأغنياء والأقوياء المطلقة)، والذي كان يريد أن يفرض قواعد للسلوك لم يعتدها الناس.

– سلطة قبلية عاجزة، على المستوى الفكري، عن دفع انتقادات القرآن اليومية، وكان السبيل الوحيد أمامها للدفاع عن نفسها في مواجهة الخطر الذي يمثله الإسلام في نظرها هو اضطهاد أتباعه.

– تفاقم الظواهر التي نتجت عن ظهور الإسلام في المجتمع العربي: قبائل تعذب أفرادها أو تنفيهم؛ أفراد يهربون من قبائلهم ويلجأون الى قبائل غيرها تعادي قبائلهم أحيانا؛ إخراج أشخاص من المسجد الحرام، مصادرة أموال الأقارب ... إلخ.

وهي صوة تختلف كلية عن تلك التي تستخلص من مختلف عناصر النص. والشواهد تدل على أن ثلاث السنوات موضع البحث لم تكن فترة توقف فيها تاريخ الإسلام والجزيرة العربية، وأن أهم أحداثها في مكة قبل الهجرة لم تكن، كما يقول النص، الساعات القليلة التي قضاها الرسول ﷺ في ثقيف ومع أربع قبائل عربية في الفترة الرابعة، ومع أهل المدينة في الفترة الخامسة. لقد كانت هذه السنوات الثلاث فترة

بلغت فيها حملات «النظام القديم» ضد الدين الجديد ذروتها.

لذلك فمن غير المستغرب ألا يجد المؤلف، الذى كان يريد أن يعرض وجهة نظره الشخصية فى التاريخ، من المصلحة أن يتحدث عن أهم ما نزل من القرآن الكريم. وقد اتبع فى ذلك بالنسبة لهاتين الفترتين المكيتين الطريقة نفسها التى اتبعها بالنسبة للفترات السابقة.

المحصلة العامة

١- «سيـرة رسول الله» لابن إسحـاق/ ابن هشام، على الرغم من عنوانهـا ومن قصد مـؤلفهـا المعلن، ليست، فى جـزئها المكى، سـيرة للرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك للأسباب الآتية:

أ) هى لم تخصـص للقرآن الكريم مكانا مـركزيا فى وصف حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وعمله. لكن أليس من الجائز أن يقال، ردا على هذه الملحوظة، أن ابن إسحاق كان يعتبر كتابه تكملة للقرآن الكريم وأن على القـارىء أن يبحـث فى القرآن عن المعلومـات الأسـاسيـة عن الرسـول عليـه الصلاة والـسلام التى لا يجـدها فى نصـه؟ كـاتب هذه السطور لا يرى ذلك: أولا لأن ابن إسحاق كان يعلم ولاشك أن محمدا والقرآن، الذى هو رسالته، لاينفصلان، ثم لأن مؤلف سيرتنا لم يحجم عن اقتـباس آيات من القرآن حـين كان يرى أنها تخـدم الآراء التى كان يدافع عنها.

ب) الرسول عليـه الصلاة والسـلام لا يظهر فى هذه السـيرة وهو يتحدث أو يدعـو الناس إلى دينه. وعلى الرغم من أنه صلوات الله عليه كان قـبل كل شىء داعـيا ونذيرا، فـإنه فى هذه السـيـرة نبى أبكم، لم تخرج من فيه سوى جمل معدودة فى النص كله.

جـ) هذه السيـرة لا تصور الرسول بأبعـاده الحقيـقية. لقـد أصبح الرسول عليه الصلاة والسلام، بفضل القرآن الكريم، أهم وأبرز شخصية فى مكة وفى بلاد العرب كلها، وكانت عظمـته تكبر وتزداد بتوالى نزول السور وباتساع دائرة تابعية. ومع ذلك فإن النص يصوره، من البداية إلى النهاية، على أنه رجل ليس ذا حيثية.

٢- هذه السيرة، فى جزئها المكى، إنما هى فى واقع الأمر، كتاب دعاية، كُتِبَ:

أ) تمجيدا لبنى هاشم، قبيلة الخليفة العباسى الحاكم وقتها.

ب) تمجيدا لأهل المدينة.

وهى فى الوقت ذاته وسيلة اتخذها المؤلف للثأر من عشيرة القائد العربى الذى أسر جده. وهى أخيرا، لاسيما فى الفترة الخامسة ، تصور العقلية العسكرية للقرن الذى كتبت خلاله.

٣- الرسول عليه الصلاة والسلام لايظهر فى هذه السيرة، المفروض أنها مخصصة له، كأهم شخصية فيها، بل هو مستخدم دائما لصالح هذا الفريق أو ذاك ولا يقوم ، كأمر واقع، إلا بدور القرين الذى تبرز به محاسن قرينه.

٤- بنو هاشم وأهل المدينة يلتقيان، فى النص، على أرض مشتركة فى أربعة ميادين هى:

أ) حماية الرسول والدعوة، التى يتولاها بنو هاشم ويعدهم أهل المدينة.

ب) المبالغة فى خفض عدد حالات اعتناق الإسلام فى مكة، والتهوين إلى أقصى حد من المحن التى تعرض لها مسلمو مكة والاضطهاد الذى حاق بهم، والتغاضى تماما عما قدموه من تأييد لرسولهم صلوات الله عليه.

جـ) إقصاء العرب غير المكيين وغير المدنيين من مجال الإسلام وإبراز محور مكة/ المدينة، مكة السوداء والمدينة المنورة، على أنهما المحور الوحيد الذى كان يدور حوله الإسلام.

د) الغض من قدر الخليفة الأول والخليفة الثانى والصمت المزدرى حيال الخليفة الثالث.

٥- كانت الدعاية العباسية تقتضى:

أ) إظهار عبدالمطلب فى النص على أنه شيخ جليل قريب الشبه بإبراهيم عليه السلام.

ب) إخفاء حقيقة أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا كفارا، وأن ردود فعلهم حيال دعوة الإسلام لم تكن تختلف عن ردود فعل غيرهم من قبائل قريش.

جـ) إظهار أبى طالب، الذى كان كافرا، بمظهر الشخصية التى تحظى فى مكة بتوقير لا يحظى به غيرها.

د- إظهار بنى هاشم فى حالة صراع مع قبائل قريش الأخرى بسبب حمايتهم لمحمد ﷺ .

٦- كانت الدعاية المدنية تقتضى:

أ) إظهار أن أهل المدينة، فى النص، استجابوا لدعوة الإسلام استجابة سريعة وساحقة.

ب) زرع أهل المدينة فى الفترة المكية لإثبات فضلهم وأولويتهم فى ظاهرتين تاريخيتين واعدتين هما:

- هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين من مكة إلى المدينة.

- انتصارات الرسول عليه الصلاة والسلام الحربية فى المدينة، والفتوح اللاحقة على وفاة الرسول واتساع رقعة الإسلام اتساعا غير عادى فى القرن الذى تلا وفاته عليه السلام.

الوسائل

كان لابد لهذه الدعـاية من مادة. وقد اتبعت فى سيـرة ابن إسحاق/ ابن هشام وسيلتـان لتوفير هذه المادة، هما: الاصطناع المقـترن بالتزوير، والتلاعب والإغفال فيما يتعلق بالقرآن.

١- الاصطناع المقترن بالتزوير:

أ) اصطناع الاجـتماعـات التى كان أهمـها: اجتـماع عبـدالمطلب بأبرهة، واجتـماعات أبى طـالب الأربعة برؤساء قـريش، واجتمـاعات الرسول عليه الصلاة والسلام الثلاثة بالأنصار فى العقبة، واجتماع إبليس برؤساء قريش بعد اكتشاف «المؤامرة» المدنية.

ب) انتحـال الشعـر: وضع قصائد فى رثاء عـبدالمطلب لتـصوير عظمته كـجد لبنى العباس؛ وضع الجانب الأكـبر، إن لم يكن كل، ما نسب من الشعر لأبى طالب، لتصوير عظمتـه ولجعله شاعر مكة الوحيد خلال الفتـرة كلها، وكذلك لاسـتخدام شعره لتـحقيق غرضـين: تأييد دعوى حماية بنى هاشم للرسول، ونقد أبى الخليفة الأموى المقبل، وآباء وأجداد وعشائـر الأشخاص الذين لم يكونوا موضع رضا العبـاسيين أو المؤلف، وأخـيرا لإضـفاء مصـداقيـة على قصـة مقـاطعة قـريش لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

جـ) اصطناع وتزوير عناصر السياق التـاريخى: الاختصار الشديد فى قوائم من دخلوا الإسلام؛ إخفاء طابع الإبعـاد فى قصة الهجرة إلى الحبـشة، التـزوير فى قصـة المقاطعة، تزويـر أسباب عظمـة أبطال بنى عبدالمطلب المسلمين الثلاثة، اصطناع بيعة الحرب .. إلخ.

د) اصطناع العجـائب: أحلام زمزم، والمياه التى انبـجست تحت أقـدام راحلة عبـدالمطلب، والاكثـار من العـجائب فى حـديث الفتـرة الخامسة.

٢- التلاعب بالقرآن والإغفال المقصود لبعض آياته:

أ) النص لم يورد، فيما اقتبـسه من القرآن، الآيات الأساسية التى تمثل جوهر الإسـلام وتعاليمـه، بل أورد آيات جانبيـة، وآيات تتعلق بما وراء الطبيعة ولا تصور الأحداث الواقعية فى مكة.

ب) النص يستخدم معظم اقتباساته الـقرآنية فى الفترة الثالثة، كما هو واضح، بغرض واحد هو اتهام أسلاف من كانوا أعداء لبني هاشم أو للمؤلف.

جـ) الاقتبـاسات القرآنية كلهـا تقريبا مصـحوبة بشروح يفتـرضها المؤلف تتـعلق بظروف نزولها، ابتـداء من أقوال هذا أو ذاك مـن رؤساء قريش.

د) لم ترد فى النص اقتباسات قرآنيـة تتعلق بأحداث محسوسة أو بتأثيـر القرآن الكريم على مـجريات الأمـور (اعتناق الإسـلام، اضطهاد المسلمين.. إلخ).

هـ) مـا نزل من القـرآن فى شـجب أحـداث وممارسـات وأقـوال ومـواقف محـددة (وأد الأطفـال، تزوير القـرآن، حظر الاسـتمـاع إلى القرآن، محرمات الجاهلية) لم يرد له ذكر فى النص.

و) تجاهل النص تمامـا قدرة القرآن على هداية أشخاص لـم يلتقوا إطلاقا بالرسـول إلى الإسلام وأخفى، بناء على ذلك، انتـشار الإسلام خارج حدود مكة، علما بأن عدد المسلمين غيـر المكيين كان أكبر بكثير من عدد مسلمى هذه البلدة.

ز) سرق النص آيات مـدنية فى عبارات مـا ادعى أنه بيعة العقـبة الأولى.

ح) تلاعب النص بالقرآن الكريم حين استخدم آيات الحرب، التى نزلت فى المدينة فى ظروف خاصـة محددة، لاصطناع ما ادعى أنه بـيعة الحرب.

ط) أغفل النص الآيات القرآنية التى تتضمن ثناء على مسلمى مكة الذين هاجروا فى سبيل الله.

ى) أغفل النص الآيات المتتابعـة التى نزلت فى الفترة المدنية والتى تحث المسلمين على الهجرة وتقيم الـدليل على أن جانبا فقط من مسلمى مكة هم الذين هاجروا إلى المدينة، كما تقيم الدليل على احتمال حدوث هجرات أخرى غير الهجرة من مكة إلى المدينة.

ك) أغفل النص الآيات التى تتحدث عن إخراج الرسول والمسلمين من المسجد الحرام وعن إخراج بعضهم من ممتلكاتهم ومساكنهم.

ملحوظات ختامية

أولا

توفى الرسول عليـه الصلاة والسلام عـام ٦٣٢ م، وتوفى ابن إسحق عام ٧٦٨م. وعلى الرغم من أوجه النقد التى أوردتها حيال هذا المؤلف، فإن من واجـبى أن أعتـرف بأنه كان من الـصعب عليه أن يكتب سـيرة للرسول أفضل من تلك التى بين أيدينا، وذلك للأسباب الآتية:

١ - لأنه كان من الصعب عليه الحصـول على المادة اللازمة، كما كان من الصعب عليه التحقق من صحـة ما توافر لديه منها. لقد كان الجزء

الأكبر من هذه المادة روايات شفهـية تلقاها من أساتذته فى المدينة، ومن المحدثين فى مصـر أو العراق، ومن أشخاص عاديين تلقـوها عن مصدر نقلها عن مصدر سابق نقلها بدوره أحـيانا عن مصدر أسبق، بعد جيلين أو ثلاثة من رجال الإسـناد، بعد أن توفى اللهُ شهـودَ العيـان للأحداث الموضوعة بزمن طويل، إما فى الحروب التى شبت بين المسلمين، أو فى الحروب الخارجية، أو لكبر السن.

وأيا كان عـدد المصادر التى استمـد المؤلف منها معلومـاته، فإن هذه الروايات الشفـهية لم تكن مـتاحة عن جـميع المسائل التى كـان عليه أن يتناولها، كما أن المؤلف لم يكن بوسعه دائما أن يتأكد من صحتها. ولم يكن لدى المؤلف وثائق ومادة مكتوبة، كمـا كان عليه أن يجوب الأقطار بحثا عن المعلومات فى فترة كان وضـع الأحاديث النبوية وانتحال الشعر واختلاق الأخبار للأغراض السياسية قد أصبحت صناعة حقيقية، وكانت الأحاديث الموضوعة والشـعر المنتحل والأخبار الكاذبة تحصى فـيها بمئات الألوف.

لقد كان علم الحديث، الذى يسمح بالتحـقق بصورة فعالة من صحة ما كان يروى عن الرسـول عليه الصلاة والسلام، وقتهـا، كما قلت فى المقدمة، لايزال فى بدايته.

أما الشـعر والمعلومـات التى لم تكن أحاديث نـبوية، فإنهـا لم تكن موضوعـا لعلم كعلم الحديث. ومن هنا كـان فى وسع كل من يشاء أن ينتحل قصائد الشعر أو مادة تاريـخية دون قيد. وكانت مهنة المؤرخ فى ذلك الوقت أصعب بكثير مما كانت فى العصور التالية أو فى البلدان التى كان بإمكان المؤرخ فيها أن يحصل على مادة مكتوبة يتوافر فيها حد أدنى من الصحة محليا بتكلفة قليلة.

٢- لأن المصدر الوحيد المكتوب الذى كان فى متناول المؤلف - أى القرآن الكريم - لم يكن وقتها هو المصحف بشكله الحالى، المتضمن بيانا بالسور المكية والسور المدنية يسمح بمعرفة ترتيب نزولها.

٣- لأن المؤلف كان هو نفسه منتميا إلى معسكر الخليفة العباسى، ولأن هذا الخليفة كَلَّفه بكتابة السيرة، ولأنه ولد ونشأ فى المدينة، ولأنه كان حفيد رجل أُسِرَ فى صباه فى العراق ثم بيع كرقيق.

ولو أن مؤلفنا قد تأثر فى سيرة الرسول التى كتبها بانتمائه إلى معسكر من كَلَّفَه بكتابتها، وبانتمائه إلى المدينة، وبحفيظته الشخصية ضد من أسر جده وضد أسرته، فإنه لم يكن أول ولا آخر كُتَّاب التراجم والمؤلفين الذين ينظرون إلى أحداث التاريخ من خلال آرائهم المسبقة.

٤- لقد كان ابن إسحاق مؤرخا عَلَّمَ نَفْسَه بِنَفْسِه. وكان يكتب فى وقت كان فن كتابة التاريخ فيه لايزال فى بداياته الأولى. ولا يسوغ للمرء أن يلومه لأنه لم يكتب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كتابة موضوعية يتحرر فيها من مشاعره الخاصة ومن مشاعر من كان يستظل بظلهم أو مشاعر مواطنيه، شأن المؤرخين المخضرمين. ومما يدعو للدهشة أنه استطاع، بلا تمرس فى كتابة التاريخ وبلا وثائق وبمجهوده الفردى، أن ينتج كتابا يعتبره البعض أهم كتاب بعد القرآن الكريم كتب باللغة العربية، ومن أهم النصوص الإسلامية.

ثانيا

الآراء التى أبديتها والنتائج التى خلصت إليها فى هذه الدراسة لا قيمة لها إلا فى حدود موضوعها لاغير، أى الجزء الذى يتناول الفترة المكية من سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام، مع استخدام ترتيب سور القرآن الكريم الذى وضعه «ريجى بلاشير» كأداة عمل.

وعملي هذا لايمس في شيء قيمة المصنفات الأخرى التي كتبت قديما وحديثا عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله. لقد عَلَّقت على وثيقة تاريخية لكنني لم أقم بعمل المؤرخ. ولو كان عليَّ أن أكتب سيرة للرسول مع الاستناد إلى جميع السير المتاحة وإلى مجموعات الأحاديث النبوية، أو لو أنني استخدمت في عملي ترتيب السور التاريخي كما يستخلص من المصحف أو، على سبيل المثال، من ترتيب ف.م. پاريخا، وهو أحدث من ترتيب بلاشير، لترددت قطعا في اتخاذ بعض المواقف وفي استخلاص بعض النتائج التي تتضمنها هذه الدراسة. لذلك فإن قيمة عملي هذا - كأي عمل من نوعه - قيمة نسبية. وغاية ما أطمح إليه هو أن أكون قد أثبت، خلافا للرأي الذي أبداه بعضهم، أن هناك ما يضاف إلى ما سبق قوله عن السيرة، وأن مجال البحث في هذا الميدان لايزال جد متسع.

ببليوغرافيا

أ ـ مرجعا البحث

١ ـ محمد بن إسحاق/ ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الأول (الجزء الأول والثانى)، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبدالحفيظ شلبى، الطبعة الثانية، القاهرة، مصطفى البابى الحلبى وشركاه، ١٩٥٥م.

2 - Régis BLACHERE, *Le Coran* (Al-Qor'an), Paris, G. P. Maisonneuve & Larose, Editeurs, 1980.

ب ـ مؤلفون

١ ـ عبد العزيز الدورى، دراسة فى سيرة النبى ومؤلفها ابن إسحاق، بغداد، ١٩٦٥.

٢ ـ على العربى، أضواء على كتب السيرة النبوية، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٩١.

3 - Roger ARNALDEZ, *Mahomet*, Editions Seghers, 1975.

4 - Régis BLACHERE, *Le Problème de Mahomet*, Paris, Presses Universitaires de France, 1952.

5 - F. BUHL, *Das Leben Muhammeds*, 1903, trad. allem., Leipzig, 1930, rééd. Heidelberg, 1955, 1961.

6 - L. CAETANI, *Annali dell'Islam* - T.I (servant d'introduction à la période antérieure à 622).

٧ ـ محمد عزة دروزة، سيرة الرسول، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، ١٩٦٥.

٨ ـ خليل عماد الدين، دراسة فى السيرة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٧٨.

9 - J. FÜCK, *Muhammad Ibn Ishâq*, Literarhistorische Untersuchungen (Frankfurt s/M., 1925).

10 - Maurice GAUDEFROY-DEMOMBYNES, *Mahomet*, Paris, Albin Michel, 1957 et 1969.

11 - J. GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien, Halle, 1888-90* (Trad. franç. sous le titre *Etudes sur la tradition islamique*, parue en 1954).

12 - H. GRIMME, *Mohammed*, Münster, 1892-5; 2 vol.

13 - A. GUILLAUME, *The Life of Muhammad (a translation of Ishâq's Sirat Rasûl Allâh)*, Oxford, Karachi, New York, Delhi, Oxford University Press, 1955.

14 - Id. *New Light on the Life of Muhammad, Manchester*, Manchester University Press, 1960.

١٥ ـ فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٠.

١٦ ـ محمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧.

17 - H. LAMMENS, *L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sîra*. Dans Journal asiatique, 10e série (1911), t. XVII, 209-250.

18 - Id. *Qoran et tradition., Comment fut composée la "vie" de Mahomet*. Dans Recherches de science réligieuse, n°1 (1910).

19 - Mahmoud MOURAD, *La critique historique occidentale et les biographies arabes du Prophète*. Dans Les Arabes et l'Occident, Genève, Labor et Fides, 1982.

20 - W. MUIR, *The life of Mahomet*, Londres, 1858-61; 4 vol.

٢١ ـ محمد مصطفى النجار، ومحمد جبر أبو سعدة، دراسة تاريخية فى السيرة النبوية، القاهرة، ١٩٧٩.

22 - DANIEL NORMAN, *Islam and the West, The Making of an Image*, Edinburgh, The University Press, 1960.

23 - R. PARET, *"Recent European Research on the Life and Work of Prophet Muhammad"* (Journal of thc Pakistan Historical Society, 6, 1958, pp. 81-96).

24 - Maxime RODINSON, *Bilan des études mohammadiennes* (Revue Historique, t. 229, fasc. 465, janvier-mars 1963, p. 169-220).

25 - Id. *Mahomet*, Paris, Edition du Seuil, 1994.

26 - A. SPRENGER, *Das Leben und die Lehre des Muhammads*, Berlin, 1861-5; 2e éd. 1869; 3 vol.

27 - W. Montgomery WATT, *Mahomet* (Traduction française), Paris, Payot, 1958, 1959.

28 - G. WEIL, *Mohammed der Prophet, sein Leben und seine Lehre*, Stuttgart, 1843.

دائرة المعارف الاسلامية

٨٤ مادة من مواد دائرة المعارف الإسلامية تتعلق بالأعلام والأمم والقبائل والمجموعات والأماكن والغزوات والأحداث والشعائر والاصنام والكتب التى ورد ذكرها فى الرسالة .

الفهـرس

الصفحة

الفصل الثالث

الفترتان الثانية والثالثة

الفرع الأول : الفترة الثانية

الفرع الثانى : الفترة الثالثة

الصفحة

الفصل الرابع

الفترتان الثانية والثالثة (تابع)

الشعر والقرآن

الفرع الأول : الشعر

الفرع الثانى : الاقتباسات القرآنية

الصفحة

الفصل الخامس

الفترتان الرابعة والخامسة

الفرع الأول : الفترة الرابعة

الفرع الثانى : الفترة الخامسة

١ـ إسلام بعض أهل المدينة

٢ ـ بيعة الحرب

٣ ـ الهجرة إلى المدينة

الصفحة

الفصل السادس

الفترتان الرابعة والخامسة (تابع)

الشعر والقرآن

١ـ الشعر

٢ ـ الاقتباسات القرآنية

٣ ـ القرآن المنزَّل

رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٧٩٤٢
977-07-0742-2

طبع بمطابع دار الهلال

هذا الكتاب

سيـرة ابن هشام (التى كتـبها ابـن إسحاق) هى المصـدر الأول لكل ما كتب عن السيرة النبوية حتى الآن.

وقد اتضح لمؤلف الدراسة الحالية- التى اعتمد فيها على القرآن وحده- أكد مـا ورد فيـها عن: قـصة أصـحاب الأخـدود - عبـدالمطلب- فـترة الاستخـفاء- حماية بـنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسول ﷺ - الـهجرة إلى الحبشة- مقاطعة قريش لبنى هاشم- بيـعة العقبة الثانية - حصار بيت الرسول ﷺ - ظروف الهـجرة إلى المدينة- لا يمثل الحقـيقة الموضوعـية وينطوى على كثير من المغالطات، كما اتضح له أن ما حفلت به سيرة ابن هشام من شعر منحول يدل دلالة قاطعة على نية مبّيتة لتزوير السيرة النبوية من طريق انتحال الشعر.

وتُظهر هذه الدراسة أيضا أن الجزء المكى من سيرة ابن هشام ليس سيرة حقـيقـية للرسول ﷺ ، وأنه يـفصل الرسول ﷺ عن القـرآن الكريم، ويسير فى اتجـاه مخالف تماما لاتجاه القرآن، وأن مـؤلف «السيرة» تأثر فى كتـابته بعدة عوامل هى: ولاؤه لـلخليفة العبـاسى الذى كلفه بكتابتـها، وانتماؤه إلى المدينة، وحفـيظته الشخصية ضـد خالد بن الوليد الذى أسر جده فـى العراق، وعـقلية عـصر الفـتوح التى كـانت تعتـ...

العسكرى هو النص الوحيد الجدير بهذا الإسم.

وقد حاول مـؤلف هذه الدراسة أن يصحح أخطاء ابن إسـ...

وأن يسد بعض الثغرات التى وردت فى حديثه عن الفترة المكية